

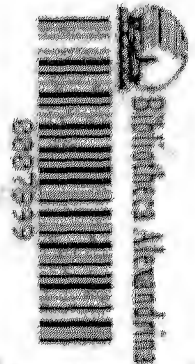
المدرسة العسكرية الإسلامية

محمد فرج



مطبعة الطبع والنشر

دار الفکر العربي



محمد فراج

عضو إتحاد الكتاب

المدرسة العسكرية الإسلامية

الطبعة الثانية

مفتحة ومزودة

مكتبة الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الكاتب الفاضل الأديب

حسين القبانى

والمثل لطفى للنساء والصبر والصلوة

على طريق الهدى والنجاة والرفق والرحمة

محمد فرج

« كلمة حق »

قلم الأستاذ الدكتور

عبد الصبور شاهين

الكتابة عن غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرورة تربوية ، إلى جانب كونها ضرورة حضارية ، ذلك أن هذه الغزوات كانت في الواقع حدث الأحداث في التاريخ الإنساني ، الذي قام على الصراع الدموي ، وأشعل الأقوياء فيه حروبهم كيما يسحقوا الضعفاء ، بلا رحمة ، وبلا قانون ، حتى كانت هذه الغزوات لتقدم دستور الصراع الإنساني في الحرب ، وفي السلام .

وحسبنا أن نعلم أن حروب الدعوة الإسلامية كانت ولا زالت السابقة الوحيدة في التاريخ الإنساني للحرب العقائدية الخيرة ، فقد كان الهدف منها نشر التوحيد ، وكانت وسيلتها إلى تحقيق الهدف مستمدة من أخلاقيات التوحيد ، لا عدوان ، ولا إفساد ، ولا استغلال ، وإلما عدالة مطلقة ، وإصلاح في الأرض ، وصيانة لحقوق المهزوم ، قبل أن تعرف الدنيا المعاهدات التي تنظم الحرب والسلام .

ولذلك كان الناس بحاجة إلى تناول هذا التاريخ العسكري للدعوة الإسلامية من زاوية غير زاوية التاريخ ، وسرد الأفاصيص ، والخلوص إلى عبرة تستدر الدموع ، أو تثير الإعجاب ، ولا شيء غير هذا .

كان الناس بحاجة إلى دراسة هذه الغزوات - التي بلغت سبعاً وعشرين ، خاض فيها النبي صلى الله عليه وسلم مع صحابته معارك الصراع مع الشرك والوثنية ، ونيفاً وأربعين سرية تجلت فيها مهارة القادة من الصحابة ، في توجيه المعارك ، وتحريك الأحداث على أرض الجزيرة العربية وما حولها - على أن تكون الدراسة تحليلية ، تكتيكية ، استراتيجية ، فقد ملّ الناس من السرد التاريخي ، وتاقت نفوسهم لمشاركة المستقبل .

ولقد عرفت السيد الصديق محمد فرج مؤرخاً ، محللاً عسكرياً ، ذا نظر ثاقب في تقدير الاحتمالات ، وتتبع الأحداث ، وتصوير الأبعاد الاستراتيجية ، لكل ما يعالج من مشكلات ، فقد نذر نفسه منذ بعيد لدراسة العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، وأفاد كثيراً من تخصصه ، كواحد من معلمي الاستراتيجية والتكتيك في السكليات العسكرية ، ولعله من أبرع من نهضوا بهذه المهمة في شرقنا العربي .

وللأسعاذ محمد فرج مجموعة من الكتب المفيدة ، أهمها في نظري كتابه عن العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، الذي أشرت إليه آنفاً ، وهو كتاب اقتضى مني جهداً ، وعكفت عليه فترة من الزمن ، أنهل من مضمونه ، وأفيد من نظراته ومعالجاته ، وأشهد أني ما ظفرت بمثله في المكتبة العربية ، التي لا تضم على أي حال إلا عدداً محدوداً من المؤلفات في هذا الفن الحديث .

ومؤلفنا يبدو في كتبه دائماً مؤمناً ، أميناً في عرض موضوعاته ،
متألقاً بصفاته الأصيلة ، فكلماته قوية لأنه مؤمن ، ومدوية لأنه محارب ،
وعميقة لأنه مجرب ، ومستوعبة لأنه طالما نظر فيها وأعاد النظر ، حتى استوت
على صورة تتميز بالنضج والإقناع والشمول .

وإنه ليهرك في كتابات الأستاذ محمد فرج براعته في سلسلة الوقائع ،
والربط بينها ، حتى لقد بدا التاريخ العسكري للدعوة فيما يشبه (البافوراما) ،
صورة كلية واعية ، واعية لكل الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ، مقرونة
دائماً بما يتصل بها من نصوص قرآنية ، تأخذ في سياقها معاني متجددة ،
وليس يجاريه في هذا المجال كاتب ممن عرفت فيه ، فهو مجال قليل كتابه
ودارسوه ، نظرا إلى حداثة الاهتمام بهذا الجانب في السيرة النبوية بخاصة ،
وفي التاريخ الإسلامي بوجه عام .

لقد طغت الأحداث المعاصرة على اهتمامات الكتاب والمؤرخين ،
فركزوا جهودهم على متابعة ما كان على عهد نابليون ، وعلى يد موننجمرى
وروميل ، ولم يلتفتوا إلى أن في أبطال الإسلام من يتفوق على هؤلاء علما
وذكاء ورصيда من الانتصارات ، من أمثال : خالد بن الوليد ، وعمر
ابن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، وأبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص ،
وغيرهم عشرات ، بل مئات من القادة ، كلهم تربوا في أكاديمية الدعوة
الإسلامية العسكرية ، التي كان قائدها ورائدها محمد صلى الله عليه وسلم ،
فنتخرجوا فيها قادة دعاة هداة

ولذلك فإننا نعرف للأستاذ محمد فرج قدره ، ونذكر أنه يخوض بحالا

عزف عنه غيره ، فشكل إضافة يقدمها هي إضافة إلى ثقافة الجيل والأجيال القادمة ، وهي إسهام في تربية شبابنا ، وإثراء خبراته بعناصر الحياة في مسيرة الإسلام الخالدة .

لست بهذه الكلمات أقدم كاتباً ، هو يقدم نفسه بنفسه ، فضلاً عن أن عمله الزكي يقدمه بصورة أبلغ وأعمق ، ولسكني أعبر عن رأي الذي طالما تمنيت أن أعلنه للقراء ، الحريصين على انتقاء الأعمال المتميزة من بين ما يطرح على الجماهير من ركام لا ثقافي ولا أدبي ، لا تربوي ولا حضاري .

وحسب الأستاذ محمد فوج من عمله أنه يضعه في مصاف الدعوة إلى الله بأسلوب جديد ، قائم على الدراسة والاستنتاج ، وما أحوجنا إلى من يتقن هذا الأسلوب في عرض تاريخ الإسلام ، ومسيرة دعوته الخالدة .

عبد الصبور شاهين

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ

عبد الرحيم فوره

اختار الله هذه الأمة لشرف الجهاد في سبيله والدعوة إليه ، وبوأها مكانة الإمامة والزعامة حيث يقول ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وحيث يقول ﴿ كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [البقرة ١٤٣] ، [آل عمران ١١٠]

فالجهاد في سبيل الله وفي سبيل إعلاء راية الدين الذي ارتضاه ، هو الوظيفة الشريفة لهذه الأمة ، وهو الذي بوأها المكانة الكريمة العظيمة التي وصلت إليها ، وذلك ما يشير إليه قول الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٧﴾ [الحج ٧٦/٧٧] .

وقد كان العرب قبل الإسلام - بحكم طبيعتهم وبيئتهم وأخلاقهم - أنسب الشعوب لشرف هذه الوظيفة والنهوض بها ، إذ كانوا يأبون الضيم ويأنفون من الذل ، ويعرفون بالكرم والنجدة والشجاعة ونقاء الفطرة ، ويرون في الموت دفاعاً عن القيم التي يؤمنون بها شرفاً لا تقاس به الحياة مع الظلم والهوان ، بل كانوا يكرهون الموت على الفراش ويرون فيه ضعة وحطة تهبط بأقدارهم إلى مستوى الدواب والأنعام ، وذلك ما يلمح في قول خالد ابن الوليد وهو يجود بأنفاسه الأخيرة « ... وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

ثم جاء الإسلام فعبأ هذه القوى وألف بينها ووجهها إلى غاية أكرم وأعظم ، إذ حُبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ثم دفع بهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ووضع نصب أعينهم هدفين لا ثالث لهما لتحقيق الغاية من الجهاد : الموت الشريف الكريم في ميدان الحرب ، أو النصر المؤزر المظفر على أعداء الله وأعداء دينه ، فإن في كليهما الخير الكثير والأجر الكبير عند الله كما يفهم من قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُتَمِّتْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٧٤] ، أما الفرار لغير حرفة حربية أو لغير الانحياز إلى فئة للتعقوى بها أو تقويتها على الثبات والصمود والنصر ، فذلك جريمة منكرة تعرض صاحبها لغضب الله وسوء المصير ، كما يفهم من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِذَا أَتَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُؤَلِّمُ
يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦/١٥﴾ [الأنفال ١٦/١٥] .

وهذا التوجيه الإسلامى يتسق مع ما طبع عليه العرب من هذه المعانى ،
فقد كانوا يرون كما قال أحدهم « المنية ولا الدنية » و « استقبال الموت خير
من استدباره » و « الطعن فى الصدور خير منه فى الأعجاز والدبور » .

ولكن العداوة بينهم كانت تجعل بأسهم بينهم ، ومن ثم كان من
أجل نعم الله عليهم أن ألف بالإسلام بين قلوبهم ، كما يفهم من قوله تعالى
﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِفِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُفْتُمْ عَلَى شِفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [آل عمران ١٠٣] .
[الفتح ٢٩] .

لهذا لم يكن عجباً أن تعالق فى ضوء الإسلام « المدرسة العسكرية
الإسلامية » ، بكل هذه الخصائص والسمات القوية التى عرضها الباحث
الفاضل الأستاذ محمد فرج فى هذا الكتاب القيم ، وأن نجد فى هذه المدرسة
كل ما يعده الناس جديداً فى الفن الحربى والدراسة العسكرية ، فقد جلى فيه
فكرة الحرب والإعداد للحرب والتنظيم لها ، وتقدير الموقف قبل الخوض
فيها ، والمشاكل التى تنجم عنها ، والمبادئ التى تقوم عليها .

لقد طاف المؤلف الفاضل بالقارىء حول الحروب والمعارك الإسلامية ،
 ليبريه العجب العجيب فيما كان يقع من مهارات وخبرات وقدرات ، وفيما
 كان يحرك الحشود من رغبة في القتال وإقبال عليه واستبسال فيه ، وفيما
 كان يتحلى به المجاهدون من الآداب الإسلامية التي رفعت أقدارهم وجعلتهم
 نماذج رفيعة ومثلا عليا ، أو كما يقول الله فيهم ﴿ كَزَزِعَ أخرج سَطَاهُ
 فَأَزَرَهُ فَأَسْتَمْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصْفِيَهُمْ السَّكْمَارَ
 وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾
 [الفتح ٢٩] .

وقد اشتمل هذا الكتاب على بحوث إسلامية تتصل بموضوعه الأصلي ،
 يجد فيها القارىء زادا من الثقافة التاريخية والعلمية ، يكشف عن سعة اطلاع
 المؤلف ، وإلمامه بموضوع بحثه ، واعتزازه بتاريخ العرب والإسلام .

وهذا مما يجعل لهذا الكتاب قيمة عظيمة في إذكاء الشعور وإنهاض
 العزائم وتعبئة القوى ، وبخاصة في هذا الظرف العصيب الذي تتأهب فيه
 الأمة العربية لإزالة آثار العدوان ، وتشعر فيه الشعوب الإسلامية بضرورة
 الكفاح والجهاد لتحرير الأرض المقدسة والمسجد الأقصى من نير الصهيونية
 وقبضة الاستعمار .

لهذا سعدت بقراءة الكتاب ، وشعرت بأنه جاء في حينه ووقته .

وأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه ، وأن يسد خطانا جميعا على
 الصراط المستقيم .

عبد الرحيم فوده

مقدمته الكتاب

[الطبعة الثانية]

سطع نور الإسلام في الجزيرة العربية ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الدين الجديد الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى ديناً خلقه ومكمله لما سبق أن نزل على موسى وعيسى وختماً لرسالاته .

وتعرضت الدعوة لمقاومة عنيفة ، وكان أمامها طريقان .. إما أن تستمر وتصد وتقاوم ليسطع نور الله ، وإما أن تقبع حيث هي وتستسلم الداعى لها للقوى المضادة وينتهى كل شىء .

واختار رسول الله طريق الله .. طريق الدعوة إلى الحق والعدل والسلام وهو طريق كان معروفاً لدى رسول الله أنه يقود إلى صدام مسلح مع قوى كثيرة تقف له بالمرصاد وتملك القدرة والإمكانات ، ولكنه عليه السلام رأى من آيات ربه أن النصر له لأنه من عند الله أصلاً ، فداوم المسيرة على الطريق الذي اختاره ، وسار معه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه إيماناً صادقاً وعقيدة راسخة وبذلاً بلا حدود وأملأ في نصر أو استشهاد .

وما كانت نذر اللقاء المسلح تلوح ، حتى أذن للمسلمين بالقتال وحمل السلاح ومواجهة القوى المضادة ، دفاعاً عن الدين وحماية للداعى له والداخلين فيه ، وحتى تصل الدعوة إلى الناس كافة ، فيخفرون - وقد تهيأت لهم حرية الاختيار - الدخول في الإسلام أو البقاء على دينهم ، وقد أقر الإسلام منذ البداية حرية العقيدة .

ومع صدور الإذن بالقتال أخذت المدرسة العسكرية الإسلامية مكانها على مسرح الأحداث ، وبدأت في إعداد العقول التي ترسم وتخطط ، والرجال الذين يحملون عبء التنفيذ ، والسلاح الذي تتم به المواجهة .

ولما كان الإسلام في بدء الطريق ، وكان الرجال الذين آمنوا به قليلين وعدتهم محدودة ، ولما كانت القوى المضادة متمكنة من نفسها قادرة بإمكانياتها - رجالاً أشداء ، وسلاحاً كثيفاً ، وماضيًا عريقاً ، وحاضراً يتسم بالسلطة والسيادة ، ومستقبلاً مرجواً فيه استمرار السلطان - فقد كان على المدرسة العسكرية الإسلامية مواجهة الموقف .

ولجأ رجال العسكرية الإسلامية إلى القرآن ، يستمدون منه أسلوب العمل في مرحلة الجهاد المقبلة ، ووجدوا في آياته الكريمة فيضاً من التوجيهات والإرشادات التي أصبحت عماداً لكل عمل عسكري .

ولأن المعارك الإسلامية قامت أساساً على تعليمات القرآن الكريم وتوجيهات السماء ، وإرشادات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد انتصر

المسلمون في كل معاركهم ، لا في داخل الجزيرة فقط ، ولسكن في كل موقع دار فيه قتال ضد القوى المضادة .

وأرست المدرسة العسكرية الإسلامية أسس الإعداد للمعركة ، وكيفية ممارستها وإدارتها ، ووجهت عنايتها الفاتحة إلى الفرد المقاتل ، لتغلب على مشكلة الكثرة العددية التي يفتقدها المسلمون وتعميز بها القوى الأخرى ، وخلقت المدرسة مقاتلين لهم كل المقومات التي تحتاجها المعركة نفسياً وبدنياً وعقائدياً ، ورسمت للمسلمين كيفية تنظيم أنفسهم للقتال ، ووضعت الخطوط العريضة التي تقوم عليها خطة القتال ، وحددت لهم المبادئ الحربية والأصول القتالية لتكون نبراساً ومنهجاً عند الاشتباك .

ولم يقف جهد المدرسة العسكرية الإسلامية عند حد الإعداد للمعركة وتنظيم خوضها وتحريك الجيوش أثناءها ، وإنما امتد دورها وجهدها إلى معالجة المشاكل التي تنجم عن الحرب ، فوضعت لها الحلول العادلة التي تنبع أساساً من عدالة الإسلام .

وفاقت المدرسة العسكرية الإسلامية المدارس العسكرية الأخرى ، لأنها كانت ذات فضل على الحرب لا ينسى ، فهذبت فكرة الحرب وارتقت بأسبابها ، وعالجت شئونها بما يعود على الإنسان والبشرية بالخير والسلام والأمان .

وإذا كان التاريخ عامة هو مدرسة للشعوب ، تتعلم منها وتأخذ عنها ونضع بها أيديها على مواطن القوة ومواضع الضعف ، وتبصر من تاريخ السابقين الدروس المستفادة ، فإن التاريخ الحربي يمثل المقام الأول بين فروع التاريخ ، (٢ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

غدراسة التاريخ الحربى ضرورة لابد منها ، ولا يجب الاهتمام فقط بنواحى الاستراتيجية والتكتيك ، بل يجب أن تمتد الدراسة لتشمل كافة العوامل السياسية والإدارية والفنية والعقائدية ، ذات التأثير المباشر فى سير الحملات ونتائج المعارك .

ولقد اهتم العالم كله بدراسة تاريخ الحرب ، وظهرت مؤلفات عديدة مستفيضة ، تقديرأ لأهمية هذه الدراسة ، إلا أنه مع الأسف الشديد فإن التاريخ الحربى الإسلامى لم ينل ما يستحقه من عناية الكتاب واهتمامات المؤرخين وحرص الدارسين . . ووجدنا بين أيدينا فيضاً غامراً من المؤلفات التى تحدثت عن الحروب فى الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً ، بينما افتقدت المكتبات أية مؤلفات تتناول المعارك والحروب الإسلامية . .

وأصبحنا نسمع ونقرأ عن شخصيات عسكرية تنتمى إلى دول العالم كله ، وعن معارك حربية تمت فى مختلف الأماكن والأزمنة ، ولم تطرق آذاننا كلمة عن قائد عسكري مسلم رغم نبوغ القيادات الإسلامية ، أو عن معركة إسلامية رغم روعة الأداء فيها ، وارتفاع مستوى الإعداد والتجهيز والتنفيذ .

إن هناك فعلاً كتباً كثيرة ومؤلفات عديدة عن الإسلام ، تباولته من كافة جوانبه العقائدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والأدبية ، وكان من الطبعى أن تتعرض هذه الكتب والمؤلفات للأحداث العسكرية الإسلامية ولكنها تعرضت لها كتاريخ وأحداث ، ولم يقنأوها كاتب من وجهة نظر

الاستراتيجية والتكتيك ، ولهذا كان تناولها للجانب العسكرى هزىلا ضعيفاً
لا يجدى ولا يفيد ...

ولم يكن من العدل أن نقرأ عن الفن العسكرى فى معارك التاريخ
الكبرى ، دون أن تتضمن هذه المعارك معارك الإسلام الخالدة ، التى كانت
أحداثاً لها صداها على العالم كله من الجانب السيامى ، ولها أيضاً بصماتها
من الجانب القتالى والفنى .

وإن المؤرخ المنصف حين يطالع تاريخ الحرب الإسلامية ، ويتف على
ماخلده الاسلام فى تاريخ الحرب من قواعد ونظريات ومبادئ ، لا يملك إلا
أن يعترف له بالفضل ، ذلك أن كل معارك التاريخ التى جاءت بعد الإسلام ،
أخذت منه وتعلمت عنه ، ولاكنها نسبت الفضل لنفسها .

وفى ضوء هذا كله ولدت فكرة إعداد هذا الكتاب ، فلما صدرت
الطبعة الأولى تلقاها القراء قبولاً حسناً ، مما يؤكد حاجتهم وتعطشهم إلى معرفة
تاريخهم العسكرى والوقوف على نواحي التفوق الفنى فيه .

ورأى الصديق الأستاذ محمد محمود الخضرى صاحب دار الفكر العربى ؛
وشيوخ الناشرين فى مصر ، أن تصدر الطبعة الثانية من الكتاب ، ووافقته على أن
تكون معدلة ومزودة ، وأعدت مراجعة الكتاب ، وأدخلت بعض التعديلات
والإضافات ، نتيجة لآراء كثيرة تلقيتها منذ صدور الطبعة الأولى من قراء
كرام فى مصر والعالم العربى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقدم عظيم شكرى وعميق تقديرى لكل

صاحب رأى أبى أن يحبسه ، وبمث به إلى فى مودة ومحبة وأخوة
إسلامية .

وتصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب ، وقد افتقدت وافتقد معى العالم
الإسلامى الأخ الصديق العالم الفاضل الشيخ عبد الرحيم فودة ، فقد انتقل إلى
رحمة الله ، بعد أن أدى بكل الصدق والاخلاص والوفاء واجبه تجاه ربه
ودينه ووطنه وإخوانه . . رحمه الله رحمة واسعة ، ورضى عنه وأرضاه ، وجعل
الجنة مثواه .

وأخيراً . .

فهاهو ذا الكتاب بين يدى القارىء .

أرجو أن يجد فيه شيئاً جديداً مفيداً ، وقد بذلت غاية جهدى ، وأدعو
الله أن يتقبل منى هذا الجهد ، وأن يعين على جهود مماثلة .

والحمد لله أولاً وآخراً

محمد رجب

مقدمة الكتاب

[الطبعة الأولى]

منذ وجد الإنسان وجدت معه الحرب .

وبتطوره وارتقائه تطورت الحرب وتبدلت في الأسلوب والوسيلة والمنهج والغاية ، فالعلاقة بين الاثنين لم تنفصل أبداً ، وإنما ازدادت إتصالاً ، لأن الإنسان وجد في الحرب وسيلة للبقاء ، عملاً بمبدأ البقاء للأقوى ... وكما ازدادت مطامع الإنسان واتسعت آماله ، ازداد ارتباطاً بالحرب ، لأنها كانت أسلوب تحقيق الأطماع وتنفيذ الآمال ، وشهد التاريخ البشرى جولات متعددة بين الناس كأفراد ، ثم بينهم كجماعات وقبائل ، وعندما قامت الدول والممالك شهد التاريخ البشرى قتالاً متصلاً بين هذه الدول والممالك .. بعضها كانت تملك وسائل القوة فسادت واتسعت ، وبعضها افتقدت هذه الوسائل أو لم تصل إلى المستوى المادى المطلوب لإحراز النصر فهزمت وانكسرت أو زالت .

وبتطور التفكير الإنسانى تطورت وسائل الحرب وأساليبها ونظمها ، واستحدثت الفكر الإنسانى وسائل جديدة وأساليب متعددة ونظماً متطورة ، ولم يقف الفكر الإنسانى فى هذا المجال عند حد معين ، وإنما استمرت الحرب وسيلة وأسلوباً ونظماً فى تطور دائم متصل ، طالما كان التفكير الإنسانى يزداد تطوراً وتقدماً وازدهاراً ، ولما أصبحت هناك الجيوش المنظمة التى تدين بالولاء لفرد هو الملك أو الإمبراطور ، أو لقطعة من الأرض هى الدولة أو

المملكة أو الإمبراطورية ، امتدت يد الإصلاح والتغيير والتطور إلى هذه الجيوش في مختلف مظاهرها وجوانبها وزواياها ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى حدوث تغيير كبير في الحرب ذاتها ... في أصولها وفنونها ووسائلها ومعداتنا وكيفية ممارستها ، وقد أدى هذا التغيير إلى ظهور عبقریات عسكرية على طول التاريخ الحربى ، سادت فترات طويلة في ميادين القتال ، وأصبح اسمها علامة من أعلام الحرب وعلامة بارزة في تاريخ المعارك .

ولكن هذا التغيير الكبير الدائم والمتصل ، وظهور العديد من العبقریات في مجالات الحرب والقتال ، لم يحقق قيام مدرسة عسكرية لها جوانبها الفنية وأصولها العلمية ، كما تحقق ذلك في تاريخنا المعاصر ، فنحن نسمع عن المدرسة العسكرية الألمانية ، والمدرسة العسكرية الفرنسية ، والمدرسة العسكرية الإنجليزية ، والمدرسة العسكرية الأمريكية ، (يطيب للبعض أن يستخدم اسم المؤسسة العسكرية بدلا من المدرسة العسكرية ولكننا نرى كما يرى غيرنا من العسكريين أن اسم المدرسة أشمل في دلالة وأعم في معناه) ، ولم يتردد على أسماعنا من قبل قيام مثل هذه المدارس ، لأن قيام مدرسة عسكرية يعنى وجود منهاج معين للحرب ، وأسلوب يتميز بحسن التخطيط والإعداد والمناورة والقيادة والتدريب ، وبممارسة فنون القتال على أسس علمية صحيحة تحقق النصر وتؤكد ، كما يعنى أيضاً خالق قيادات ناجحة تعتبر مثلاً في قياداتها للجيوش ، وتتميز بالخبرة والقدرة والكفاءة ، وصفات أخرى يأتى في المقام الأول منها الشجاعة والجرأة وحسن التصرف ، وتعتبر معاركها من المعارك المثالية فناً وقيادة وإعداداً ، فتمكف الأجيال المتعاقبة على دراستها وفهمها وإدراك نواحي النجاح والتميز فيها .

فالفراغة مثلاً كان لهم تاريخ مجيد وحضارات ما زالت حتى يومنا هذا

موضع التقدير والإعجاب ، وكانت لهم حروب كثيرة متعددة ، وظهر اسم رمسيس وتحتمس كرجلى حرب لهما مكانة معروفة وتاريخ حافل ، وكانت معاركهما من أعظم ما شهده التاريخ الحربى قدرة وفناً وقيادة ، ونحن مازلنا نذكر الانتصارات العظيمة التى كانت لهما فى محدو وقادش ، وما زلنا نذكر أيضاً أنهما وغيرهما من ملوك الفراعنة استطاعوا أن يبنوا أعداءهم وأن يقهروهم ، وأن يصونوا بلادهم من الغارات المتعددة التى تعرضت لها من جانب الطامعين فى امتلاكها والسيطرة عليها كالهكسوس مثلاً (هم المعروفون فى التاريخ باسم الملوك الرعاة ، وقد أخضعوا مصر لحكمهم واستوطنوها حتى خرجوا منها منهزمين مندحرين عام ١٦٠٠ ق . م) .. لقد حكمت مصر ست وعشرون أسرة فرعونية فى مدى ثلاثة آلاف سنة ، ووصلت مصر خلال هذا الحسك إلى أوج مجدها ، ورغم هذا التاريخ الفرعونى الحافل فإنه لم تقيم مدرسة عسكرية تحمل اسم الفراعنة ؛ لأن تاريخ معاركهم اندثر بانتهاء حكمهم وانقضاء عهدهم ، وإن كانت هناك جهود فردية بذلت لتجديد فن الفراعنة العسكرى ، فإنها لم تصل إلى حد الاعتراف بقيام مدرسة عسكرية تحمل اسمهم ، وأمل ذلك يرجع إلى أن الفراعنة كانوا يمارسون باهتمام بالغ جوانب الإصلاح الاجتماعى فى داخل بلادهم ، كالإنشاء والتعمير وإقامة السدود والقناطر والخزانات ، ويرجع أيضاً إلى أنهم لم تسكن لهم أطماع خارج حدود بلادهم ، فقد كان همهم الأكبر هو الذود عن حياض بلادهم والدفاع عنها ضد أى عدو دأبها من الخارج طمعاً فى امتلاكها واحتلالها ، ولهذا اشتهر العهد الفرعونى بإصلاحاته الداخلية ونهضاته الاجتماعية وبالرقى فى مجالات الصناعة والزراعة . التجارة ، وبالتطور الهائل فى الفن والرسم والزخرفة مما طغى على الجانب العسكرى فى هذا العهد .

ومقدونيا مثلاً كان لها شأن كبير في التاريخ الحربى لا سبيل إلى إنكاره، وخاصة في عهد الملك فيليب الذى عرف بأنه من أعظم رجال الحرب، مارسها عن قدرة وفن ونموغ، وكذلك في عهد ابنه الاسكندر، الذى قرر مجلس شيوخ روما تقديرًا لفنّه العسكرية أن يقرن اسمه بكلمة « الأكبر »، والذى بسط نفوذه وسلطانه على قارات ثلاث، وكون أعظم إمبراطورية في التاريخ خلال ثلاث عشرة سنة، والذى مضت حياته على قصرها سلسلة من الانتصارات المتتابعة، لم يهزم مرة، ولم تقف أمام قواته مدينة أو قلعة أو جيش... لقد كان الإسكندر عقلية عسكرية فذة ومحاربًا ممتازًا وقائدًا من قادة الحرب الأجداد، ومع هذا لم تظهر في التاريخ الحربى مدرسة عسكرية تحمل اسم الإسكندر أو اسم دولته.

وقرطاجنة كانت هى الأخرى ذات أجداد عسكرية، شغل النزاع بينها وبين روما فترة طويلة في التاريخ الحربى، وكان « هانيبال » نجمها العسكرى اللامع، تولى قيادة جيوشها وهوى الحادية والعشرين، وغزا أسبانيا وإيطاليا، ووصفه جاكوب آبوت بأنه « أعظم أبطال الحروب في التاريخ، إذ توغل بجيش صغير من المقدونيين في أقاليم سحيقة، وقهر جيوشًا وأنشأ مملكة لا مثيل لها »، ولا يختلف اثنان في أنه رجل حرب لا مثيل له، خاض المعارك بقوة وشجاعة وتفهم وإدراك، وكان له ما يؤكد عمق تفكيره كمحارب وخصب عقليته كمسكرى، وصدق خبرته كقائد، وردد التاريخ اسمه كواحد من ألمع قادة التاريخ الحربى، ولكن بموته انتهت حياته العسكرية على حد قوله « دنت ساعتى وقضى الأمر وخسرت كل شئ »، ولم يعد يذكره إلا بعض من العسكريين أو رجال التاريخ الذين يهوون قراءة التاريخ العسكرى أو التاريخ العام، فأصبح سيرة تقرأ، ولم تظهر في التاريخ مدرسة عسكرية تحمل

باسمه تدسج الأجيال المتعاقبة على منوالها أو تسير على دربها .

وظهرت روما أيضاً كدولة لها تاريخ عسكري طويل ، بدأ بالحروب المتصلة ضد قرطاجنة ، فلما قضت عليها بسطت نفوذها على إيطاليا ثم سردينيا . وصقلية وجزء كبير من أسبانيا وبلاد الغال ، وأصبحت لها السيادة كاملة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الذي سموه بحرننا ، وامتدت مطامعها إلى جاراتها استجابة لشهوة الفتوح ونزعات الاستعمار ، فتوسعت في حروبها ، وتوغلت جنوباً في أفريقيا ، وشرقاً في آسيا واليونان ، وغرباً في أسبانيا ، وكان الجنود يحتلون المقام الأول في الدولة ، يؤثرون الملوك ويسندون العروش ، ورغم هذه الحقبة الطويلة التي حفلت بالفتوحات وبالمعارك وبسيادة العسكريين . وسيطرتهم ، فإن تاريخ روما العسكري انتهى ، ولم يبق منه غير مظهره ، ولم تقم في التاريخ مدرسة عسكرية تحمل اسم روما أو اسم أحد قادتها .

وقبل العهد الإسلامي كانت هناك دولتا الفرس والروم ، وكانت لكل منهما صفحات في تاريخ الحروب ، ولقد اشتعلت نيران الحروب بينهما على فترات طويلة ، وتكررت المواقع وكثرت اللقاءات ، وكانت كفة النصر تميل إلى هذا الجانب تارة وإلى ذاك أخرى ، فعند قيام الدولة الساسانية في عهد أردشير الأول كانت فتوحات الروم قد تجاوزت نهر الفرات ، واقطعت أرض الجزيرة ، واتصلت الحرب بينها وبين دولة الروم ، وفي عام ٥٦٠ م هزم الروم ، ووقع امبراطورهم فاليريان أسيراً في أيدي الفوس ، وظل أسيراً إلى أن مات ، وكانت الحرب سجلاً بين الدولتين .

وزحف هرقل بعدها بجيش رومى إلى فارس واكتسحها ودمرها ، وسبى نساء كسرى ، إلا أن الأخير عاد فاكسح بلاد الروم ، وما بين عامى ٦١١م و٦١٧م كان قد وضع يده على الرها ، وحلب ، وأرمينيا ، وآسيا الصغرى ، وأنطاكية وقيصرية ، ودمشق ، وأورشليم ، وانتزع الصليب الأعظم وبعث به إلى المدائن وغزا مصر واستولى على الإسكندرية ، ونزل قول الله تعالى فى هذه الغلبة الفارسية ﴿الْمَغْلِيَتِ الرُّومُ . مِنْ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَيْضِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم ١ - ٤]

وعاد هرقل فقاد جيوش الروم ودخل أرض فارس ، وقتل رجالها ، واحتل المدائن ، واستعاد آسيا الصغرى وأرمينيا وأذربيجان فى عام ٦٢٣ ، ٦٢٤ م ، ثم استولى على القوقاز ووادى دجلة ، ورغم أن الحرب دارت رحاها بين الدولتين فترة طويلة ، فإن تاريخ الدولتين الحربى انتهى بانتهائهما وافقضى بافقضائهما .

وفى خلال فترة الصدام المسلح بين الدولتين كانت القبائل العربية تنتشر فى أنحاء الجزيرة العربية تسمى وراء الرعى والكلاً ، وتعتمد على الانتقال من مكان لا تتوافر فيه سبل الحياة إلى مكان تسهل فيه الحياة ، وأدى هذا الانتقال إلى الصدام المسلح بين القبائل ، وقامت بينها الحروب الكثيرة المتعددة ، ولم تسكن هذه الحروب تعتمد على الفن العسكرى قدر اعتمادها على الكثرة العددية ، ولهذا دونت سير هذه الحروب على أساس أنها كانت مظهرراً للقوة والشجاعة والجرأة ، ولم تدون على أنها مرجع عسكرى يمكن الرجوع إليه للاستفادة منه ، وذلك رغم اتفاق الكافة على أن الحياة فى الجزيرة كانت تحقق فوقها بنود الحرب ، وحسبنا أن نعرف أن روايات التاريخ الجاهلى

تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عاما لا تحمد جذوتها ، وأن حرباً بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام .

وعندما سطع نور الإسلام في الجزيرة العربية ، وبدأت الدعوة إليه من مكة على لسان رسول الله وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، بدأت القبائل العربية تقاوم الدين الجديد وتقف في وجهه ، وكثر المعارضون واشتدوا في معارضتهم ، وتجمعت جيبتهم وألقت بثقلها في المعركة ، تبغى أن يسود دين الآباء والأجداد ، وأن يبقى لهم السلطان والثروة والقوة ، وأن يقبر الدين الجديد فلا تقوم له قائمة ولا يؤمن به أحد .

ورغم تمسك الرسول بالدعوة السامية للدين الجديد ، إلا أنه كان لابد للقوتين من أن تتلاقى وجهاً لوجه ، وأن يقع الصدام المسلح بينهما ، وأذن المسلمين بحمل السلاح ومقاومة العدوان والدفاع عن الدين وحماية الدعوة ، وقامت المعارك المعروفة في التاريخ ، وانتصر المسلمون على أعدائهم في داخل الجزيرة وفي خارجها ، وساد الإسلام ، وقامت دولته تنشر العدل والحق والإخاء والمساواة ، ومجاءى الحياة الكريمة الشريفة الطاهرة ، وامتدت حدودها فشملت بلاد الشام وفارس وما وراء النهرين شرقاً ، وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس غرباً .

وخاض المسلمون معارك كثيرة ، وقابلوا أعداء كثيرين ، وانتصروا في غالبية المعارك ، وهزموا في القليل جداً منها ، ولكنهم أخذوا من الهزيمة دروساً استفادوا منها في استكمال عوامل النصر وطرح أسباب الهزيمة (كما حدث في أحد ، وفي موقعة الجسر بفارس) .

وظلت تفاصيل معارك الإسلام نبراسا للقادة وهدى للعسكريين ، ومثالا يقتدى في مختلف العصور والأزمنة ، وأصبحت للإسلام مدرسة عسكرية تتميز بالأسس السليمة والدعائم الصحيحة ، وبالفكر العسكري المتطور ، وأخذت عنها الأجيال العسكرية المتعاقبة فنون الحرب ، والخطوط العريضة للإعداد والتجهيز لها ، ومنهاج قيادة الجيوش وإدارة المعركة ، ومعالجة مشاكلها ، فلما قامت المدارس العسكرية الحديثة ، أصبح من حق المدرسة العسكرية الإسلامية أن تكون في مقدمتها ، ولها مكان الصدارة ، لأنها كانت المعلم الأول في هذا المجال .

وإن المؤرخ العسكري المنصف حين يطالع تاريخ الحروب الإسلامية ويقف على ماخلده الإسلام في تاريخ الحرب من دروس وقواعد وأسس ونظريات ومبادئ ، لا يملك إلا أن يعترف بالمدرسة العسكرية الإسلامية كأول مدرسة في التاريخ العسكري ، في ضوء آثارها العظيمة وبصماتها ومبادئها في المجال العسكري ، حتى أصبحت منارة تهتدى بها الأجيال العسكرية التي جاءت بعد العصر الإسلامي .

- ولعل من أعظم وأجل بصمات الإسلام في مجال الحرب أنه :
- • طور نظرية الحرب وعدّها بما يناسب طبيعة القتال .
- • هدّب فكرة الحرب وسما بأسبابها ودوافعها وأغراضها .
- • وضع أسس الإعداد للمعركة بأسلوب ومنهاج يضمن النصر .
- • أرسى القواعد والأصول والمبادئ التي تحقق كسب المعركة .
- • أخرج أحيالا من العسكريين كانت لهم صفحات مشرقات في التاريخ الحربي .

- • عالج المشا كل التي تنجم عن الحرب بما يتفق مع إنسانية الإنسان .
حفاظاً على حياته وأمنه وكرامته وبشريته .

والملاحظ أن المبادئ التي حققتها الحروب الإسلامية في مختلف مراحل القتال ، لم تنفث بانتهاك هذه الحروب ، ولم تندثر بقدوم عهدها ، وإنما بقيت مناراً للعسكريين الذين جاءوا بعدها ومارسوا الحرب في تاريخ لاحق ، وأصبحت الأسس التي وضعها الإسلام للمعركة صورة حية جديرة بالدراسة والتطبيق في عهود ما بعد الإسلام ، وإلى يومنا هذا ، وستظل كذلك في المستقبل .

إذن فجميع مقومات المدرسة العسكرية قد توافرت بجلاء ووضوح وفاعلية في المدرسة العسكرية الإسلامية ، ومن هنا فلا بد من الاعتراف بقيام هذه المدرسة ، ونحن لانتقي القول تحملاً للإسلام أو انطلاقاً من إيماننا به ، ولكننا الحقيقة الماثلة في وجدان التاريخ الحربي ، قيادة المدرسة العسكرية الإسلامية كانت لديهم القدرة على رسم الخطط ، بحيث لو طبقت هذه الخطط في حروب اليوم لحقت المعجزات ، وبحيث لو بذل النقاد العسكريون جهدهم وتفكيرهم لنقدها أو لإظهار مواطن ضعف فيها ما استطاعوا . . هذا فوق أن المدرسة العسكرية الإسلامية ابتكرت وسائل للحرب وأساليب لم يقنعه إلى فاعليتها وآثارها أحد إلا بعد مرور فترة طويلة ... ومن هذه الوسائل والأساليب :

- اتخاذ الحرب الاقتصادية وسيلة تقضم ظهر العدو وتمهد طريق النصر .
- عدم القتال في جهتين مختلفتين ضد عدوين في وقت واحد .
- الاهتمام البالغ بالجبهة الداخلية لتكون سنداً للجيش المقاتل .

● عقد المحادثات والمعاهدات بقصد تحييد بعض القوى وقت وقوع الصدام مع العدو .

● استخدام الحرب الباردة كوسيلة لإضعاف قوى العدو ومعنوياته .

ولا يفوتنا أن نبرز حقيقة هامة ، وهى أن رجال العسكرية الإسلامية كانوا يحاربون أعداء فاقت إمكانياتهم المادية إمكانيات المسلمين ، سواء كان هؤلاء الأعداء فى داخل الجزيرة أو خارجها ، وأنهم تمكنوا بقدرات مادية ضئيلة وإمكانيات محدودة من التغلب على أعدائهم ، وأسسوا دولة عربية إسلامية قوية فى داخل الجزيرة ، استطاعت أن تدحر قوى إمبراطوريتى الفرس والروم ، وهما تملكان العدد والعدة والإمكانيات والقدرات ، وكانت لهما فى التاريخ الحروب جولات وصولات ، ولم يكن للمسلمين وقتها شئ من هذا كله .

لقد نجحت المدرسة العسكرية فى خلق دولة قوية راسخة ، تمتد فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ومازالت هذه الدولة قائمة حتى يومنا هذا ، وإن كانت قد امتدت إليها يد التغيير ، فأصبحت تحت ظروف معينة مجموعة من الدول التى تشمل حيزاً كبيراً فى أفريقيا وآسيا . . . وجود هذه الدول يؤكد صدق قيام هذه المدرسة وصلابتها وأصلاتها ، ولا عجب فالمدرسة العسكرية الفرنسية التى قامت على أكتاف نابليون قد نجحت فى تكوين إمبراطورية فرنسية ، ولكنها تلاشت وانكسرت ، وعادت فرنسا إلى حدودها الطبيعية قبل عهد نابليون ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمدرسة العسكرية الإنجليزية التى اتسعت حدود إمبراطوريتها فشملت غالبية أراضى آسيا وأفريقيا ومناطق متعددة فى

العالم ، ثم عادت هذه الحدود وانكشفت ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمدرسة العسكرية الألمانية التي امتد سلطانها إلى مناطق كثيرة من أوروبا واتسعت رقعتها ، ثم عادت وانكشفت .

ورغم اعترافنا واعتراف العسكريين في العالم كله بقيمة ومنزلة ومكانة هذه المدارس العسكرية المختلفة ، فإن المدرسة العسكرية الإسلامية قد فاقت كافة هذه المدارس وبزتها ، لأن الدولة التي أقامت هذه المدرسة مازالت في ذات النطاق الذي كانت عليه ، تحدها ذات الحدود ، لم يحدث فيها انكماش أو تغيير ، رغم أن بعض دويلات أوروبية استقلت تحت ظروف قاهرة ، ورغم هذه الحدود المصطنعة التي وضعها الاستعمار وفرضها ، وهذه الخلافات الوهمية التي أثارها بين العرب لتبقى المنطقة العربية الإسلامية تحت سيطرته وطوع سلطانه .

وعلى كثرة ماقرأنا وسمعنا عن هذه المدارس العسكرية الحديثة ، وعن تقادتها ومعاركها وأساليبها في تطور فن المعركة والقتال ، فإننا لم نقرأ أو نسمع بقدر متوازن عن المدرسة العسكرية الإسلامية وفنها العسكري وشخصياتها وأساليبها ، وهذه حقيقة مؤلمة مع الأسف الشديد والعميق ، ولكن هذا لا يعني أبداً إنكار وجود هذه المدرسة أصلاً ، أو تجاهل بصماتها ، فإن وراء هذه الحقيقة أسباباً ودوافع .

فالإسلام خلق قوياً وعاش قوياً ، له أسلوب وأصول ، وقواعد ومنهج ، وخط واضح وسبيل قويم ، إلا أنه تعرض — شأنه شأن أية دعوة تسعى إلى الإصلاح وتحرير الإنسان وخير البشرية وسلام العالم — إلى معارضات قوية وتيارات عاتية وقوى مضادة ، وقفت كلها في طريقه ، تصده عن سبيله ، وتمنع

تقدمه وتطفىء نوره ... ووقف الإسلام أمام هذه القوى شامخاً صليبا صامداً ،
 وواجهها المسلمون بكل الإيمان والثابرة ، وخاض الإسلام برجاله جولات
 متعددة على طول التاريخ منذ بدء الدعوة ، وما زال العداء قائماً والمواجهة
 مستمرة حتى يومنا هذا ، وستظل كذلك في المستقبل حتى يقضى الله أمراً
 كان مفعولاً .

واجه الإسلام — أول ما واجه — مقاومة قریش والقبائل المنتشرة
 في الجزيرة العربية واليهود المقيمين بها ، ثم واجه دولتي الفرس والروم ، ثم
 واجه أعداءه في شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، ثم في بلاد الشرق ، واستطاع
 بمبادئه وبصلابة رجاله أن يحول خصومه من أعداء ألداء إلى أتباع مخلصين ،
 وأن يوطد أسساً صالحة لبقاء أعظم دولة في التاريخ ، تؤمن بالله الواحد القهار
 رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن كتاباً .

ولم تقف المواجهة عند هذا الحد بل ظلت القوى المضادة للإسلام بالمرصاد
 ولا يمكن أن ننسى ما تعرض له الإسلام من محنة حين هاجم المغول أرض
 الإسلام ، وعاثوا فيها فساداً ، فهدموا المدن وأسرفوا في قتل النساء والرجال
 وسرقوا ونهبوا ، وأحرقوا وأشعلوا النيران في المساجد ودور العبادة ، كما
 حدث في بغداد وحلب ودمشق ، ولكن المسلمين استطاعوا بفضل إيمانهم
 وتضامنهم وصمودهم لإيقاف هذا التيار المعادي بانتصارهم العظيم في عين
 جالوت .

وتعرض العالم الإسلامي إلى الحملات الصليبية ، التي جاءت من أوروبا
 لتحتل بلاد المشرق العربي ، وتسمى إلى القضاء على الإسلام والمسلمين ،

وذكر المؤرخون فيما ذكر عن هذه الحملات « إن الله بعث بطرس الناسك فحرك بقوة ربه أوروبا لتعقد قبر المسيح والبلاد المقدسة من أيدي المسلمين العابثين فيها ، فملكوا البلاد وضربوا في الأرض ، وطفوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ما احمرت الأرض منه خجلا ... جاءت هذه الحملات إلى العالم الإسلامي بهدف أوضحه ستيفن سن في كتابه « الصليبيون في الشرق » إذ قال « لم تكن الحروب الصليبية سوى حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية في سوريا وفلسطين » .. وعبر عنه البابا أوربانوس الثاني فقال « إنها ليست لاكتساب مدينة بل لإحتلال أقاليم آسيا بجمعتها » .. إذن كان الهدف هو القضاء على الإسلام في مناطقه ، ولكن المسلمين استطاعوا بفضل إتحادهم وشجاعتهم وقوة إيمانهم أن يوقعوا الهزيمة بالصليبيين ، تارة على يد صلاح الدين في حطين ، وتارة على يد الملك الصالح أيوب في المنصورة .

ولم يكن انتصار الصليبيين نهاية لجهادهم ضد أعدائهم ، بل كان حافزا للأعداء ، فجمعوا صفوفهم ووحدوا غاياتهم وواصلوا عداوتهم ... واتحدت قوى الصهيونية العالمية مع قوى الاستعمار الغربي ، واتخذوا معا خطة موحدة لهدم الإسلام والقضاء على المسلمين ، وبدأت المعارك بين الطرفين منذ عهد بعيد ، وما زالت المعارك مستمرة ، وستظل إلى أن يحق الله الحق ويدحض الباطل ويتم نوره ولو كره الكافرون .

وسعت القوى المضادة بكل سلطانها وجبروتها إلى إيجاد الفرقة بين المسلمين في كافة البقاع ، وإلى إضعاف روح المقاومة عندهم ، وألقوا بتقاعهم في المعركة ، وبدأ مفكروهم وكتابهم ومؤرحوهم وكافة أجهزتهم الدعائية (٣ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

والإعلامية في حملة مكثفة لإضعاف ثقة المسلمين في أنفسهم وفي دينهم وفي
عقائدهم ، وأعماهم التعصب الديني فشوّوا الحقائق ، وصوّروا الحق بصورة
الباطل ، وحوّلو النور بدعاياتهم الكاذبة وأهوائهم الطائفية إلى ظلام حالكة
حرّكهم تعصب جاهل وعقل ضيق وميول شريرة ونزعات خبيثة وبُعد عن
الإنصاف والنزاهة وميل مع الهوى وتجنّب على العلم والعقل والتاريخ والأمانة
العلمية والواقع .

وكان لابد من إغفال كل ما يثير القوة في نفوس المسلمين ، وما يعيد إلى
أذهانهم بطولات الإسلام ومواقف رجاله الميامين ، حتى تهن عواطفهم ،
وتتلهب مشاعرهم ، فيفقدون حماسهم ، ويضلّون عن عقيدتهم الراسخة في القلوب
المؤمننة والعقول المنفتحة ، فيرون أنفسهم قوماً ضعافاً ، وينسون تاريخهم
المشرق وماضيهم العريق ، وانتصارات أجدادهم على طول التاريخ .

واتجه الكتاب والمؤلفون والمؤرخون إلى إخفاء جميع معالم القوة ومظاهر
العزة عند المسلمين ، وسلطوا الأضواء على البطولات الحديثة ، بهدف ضياع
أو نسيان الأجداد الإسلامية ، وأسدلوا عمداً الستار على التاريخ العسكري
الإسلامي ، حتى لا تبدو صفحاته المشرقة في أعين الناس ، فيعرفون ماضيهم ،
ويدركون أجدادهم ، ويستمدون من تاريخهم العون والقوة ، ويأخذون من
أسباب الانتصار في الماضي أسباباً للانتصار في الحاضر .

وتنبهت بعض العقول الواعية والضمائر الحية إلى ما يدور في الخفاء ضد
الإسلام ، وضد تاريخه الحربي بصفة خاصة ، فأخذت على عاتقها مهمة
إبراز هذا التاريخ وتوضيح زواياه المختلفة للناس ، ونشر صفحاته

المجيدة ، وإعادة كتابته في ضوء العلم الحديث حتى يبدو للعالم نوراً ،
ومجداً وعلماً .

وبدأ الكثيرون يحملون أعلامهم ليعيدوا من جديد كتابة وتاريخ
الأحداث العسكرية الإسلامية ، وكنت واحداً من هؤلاء على كثرتهم ، لي
شرف المشاركة في هذا العمل العظيم ، فقد أحسست بمسؤوليتي كمسلم تجاه
ديني ، وأدركت العبء الكبير الملقى على عاتقي ، وبالواجب الضخم الذي يفرضه
على الإسلام الذي عليه ولدت وعليه أموت وعليه أبعث .

وقدمت المكتبة العربية وإلى المسلمين والناطقين بالضاد مجموعة من
المؤلفات ، تحمل إليهم صوراً مجيدة للإسلام ، وتقدم صفحات مشرقة من
تاريخ المسلمين ، وقد أحسست بسعادة غامرة حين وجدت إقبالا بلا حدود
على هذه المؤلفات ، وأدركت أن مهمتي ومهمة زملائي قد بدأت تؤتي ثمارها
وتصل إلى هدفها وتحقق آمالها .

وحينما قررت — كما قرر زملائي — أن أحمل راية الدفاع عن تاريخ
الإسلام العسكري ، واجهني تساؤل له قيمته وله أيضاً أهميته تساؤل
الكثيرون كيف لنا أن نقارن بين حروب المسلمين وحروب العصر الحديث
وكيف ندعى أن معارك الإسلام تقف على قدم المساواة مع حروب اليوم ؟ ،
وكان منطق المتسائلين أن حروب اليوم تعتمد أساساً على الأعداد الضخمة
التي لم يكن في قدرة المدرسة العسكرية الإسلامية تجهيزها . . . وعلى السلاح
الحديث الذي شمله التطور نوعاً وكماً وفاعلية كالذبابات والطائرات والقنابل
وغيرها مما يعتبر دون شك أمضى في المعركة من السيف والرمح والسهم التي

تمثل أسلحة المسامين الرئيسية ... وعلى وسائل الاتصال والنقل الحديثة فإن حرباً تستخدم فيها الطائرات وناقلات الجنود والمظلات واللاسلكي أفضل وأقدر دون ريب من حرب تدار بالقم والإشارة والنداء ، ولا يستخدم فيها غير الخيل والإبل كوسيلة نقل للمحاربين .

ومنطق المتسائلين غير سليم ، لأنه منطق الذين لا يعرفون عن الحرب أكثر من مظهرها وصورتها العامة ، بينما غابت عنهم حقيقة الحرب وفلسفتها والعبرة من سير أحداثها وتطور ظروفها ، ولهذا فإن الرد على المتسائلين سهل يسير .

فالعبرة في الحرب ليست بأشكال المعركة أو بأحجامها أو بطواهرها ، وإنما العبرة بأسسها ونظمها وأفكار قادتها ، والمعركة لاتقاس بحجمها وبعدد المقاتلين وكمية السلاح ونوعيته ، ولكن تقاس بكيفية الإعداد لها والتجهيز لخوضها ، وبالفن المستخدم في إدارتها ، وبأسلوب تحريك القوات ومواجهة الأعداء ، وبمدى تحقيق الهدف .

فما لاشك فيه أن الاختلاف كان واضحاً بين تكوين الجيش الإسلامي ، وتكوين جيشي الفرس والروم ، فالكثافة العددية ، والكثرة في السلاح ، والخبرة في ممارسة الحرب ، كانت في جانب الفرس والروم ، ومع هذا انتصر المسلمون ، لأنهم حاربوا اعتماداً على الإعداد الفني ، والتخطيط السليم ، والدراسة الواعية لظروف المعركة .

والتاريخ الحربى المعاصر يؤكد صدق ماذهب إليه ، فروميل مثلاً كان يحارب القوات البريطانية في الصحراء الغربية في عام ١٩٤٢ بقوة قُدرت

بفريقيين مدرعتين ، لاتصل في حجمها وأعدادها وتسليحها إلى مستوى القوة البريطانية ، ومع ذلك استطاع خلال عامين أن يوقع بها خسائر فادحة عند كل لقاء ...

وأمرىكا وهى إحدى أعظم قوتين فى العالم ، دفعت إلى فيتنام بأعداد ضخمة من الجنود ، كان عددها يرتفع بصورة غير عادية ، وبكميات مكثفة من السلاح مختلفة أنواعها برأ وبحراً وجوا ، وكان التفوق العددي فى الرجال والسلاح فى جانبها ، ومع هذا كله فإنها لم تستطع أن تحقق نصراً ، بل لم تستطع أن تخفف من حدة المقاومة هناك .

إذن فالعبرة ليست بأحجام المعركة وأشكالها ، وإنما بمدى الأسس التى تقوم عليها ، والنظم التى تستخدم ، والقواعد التى تتبع ، والأفكار التى تطبق ، والخططة التى تتحرك بها القوات ، وفوق ذلك كله نوعية الرجال وكفاءتهم القتالية ، ومدى إيمانهم بالهدف الذى يقاتلون من أجله .

أما بعد

فقد عشت مع المدرسة العسكرية الإسلامية فترة طويلة من حياتى ، طالعت خلالها تاريخها وأحداثها ، وقارنتها بالمدارس العسكرية الأخرى ، ووقفت على حملات الهجوم ضدها ، وبحثت أوجه الرد ، ورأيت أن أدفع بهذه الدراسة إلى المكتبة العربية ، ليطالع الناس تاريخ هذه المدرسة التى تعتبر علامة مميزة فى تاريخ الحرب والإنسان والبشرية ، فقتضح أمامهم رؤية الطريق المنير الذى سار عليه رسول الله والذين آمنوا ، ويبين لهم المنهج النبوى التويم ليكون هذا كآلة هداية إلى عمل جاد ، يصلح به أمرهم ، ويستقيم به حالهم ، ويعتوى به إيمانهم ، ويثبت به يقينهم .

ولقد استجاب الله تبارك وتعالى لرغبتى فى أن يكون لى لقاء متجدد مع شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، فانهيت فى رمضان من عام ١٣٨٨ هـ من إعداد الكتاب .

وتفضل فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة بمراجعة الكتاب وتقديمه وفضيلته عالم ومعلم ، يدير عن كفاءة وقدرة مجلة الأزهر التى تحمل رسالة الإسلام وتنشر مبادئه ، وتتطلع إليها الأجيال المتتابة فيزيد إيمانها ويقوى يقينها .

والكتاب أخيراً فى يد القارئ العربى ، فإن وجده محققاً للغاية ، فالحمد لله أن هدانا إلى ذلك ، وإن وجد فيه بحثاً لم يستكمل فإن الكمال لله وحده . والله تبارك وتعالى هو الموفق إلى ما فيه خير البلاد وخير العباد .

محمد درج

المبحث الأول

نظريات الحرب بين التطوير والتحديث

- (١) الكم والكيف
- (٢) تهذيب فكرة الحرب
- (٣) المستشرقون والحرب
- (٤) أطراف النزاع
- (٥) الإسلام والسلام
- (٦) الشهادة

ما نقاتلُ الناسَ بَعْدَ وِلا قةٍ ولا كَثرةِ
ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا
الله به ، فانطلقوا فإنما هي
إحدى الحسنيين .. إما ظهور وإما شهادة

عبد الله بن رواحة

إن المتعمق في دراسة تاريخ الحروب والمتتبع لظروفها وتطورها يدرك أن هناك نظريتين سادت ميدان الحرب منذ عرف الإنسان الحرب وإلى يومنا هذا

- النظرية الأولى هي السكم .. أى العدد .. ويقصد به عدد المقاتلين الذين يشتركون في القتال وبواجهون العدو ، وكمية السلاح التي يستخدمونها .
- النظرية الثانية هي السكيف ... أى المقدرة الفردية ، وإمكانية المقاتل وقدراته ، ومدى إحساسه بالمسؤولية القتالية وهو يخوض المعركة ويقا تل عدوه .

والنظريتان مختلفتان ، فالأولى تعتمد على السكم ، بينما الأخرى تعتمد على السكيف إلى حد كبير وتهمل السكم إلى حد ما ، أى أنها تضع في المقام الأول من عنايتها المقاتلين من حيث هم أفراد ، لهم إمكانيات القتال وقدرات المواجهة ، ومن حيث هم مقاتلون على درجة من الكفاءة تعينهم وتؤهلهم لمزاولة مهنة الحرب .

سادت نظرية السكم ميادين القتال خلال القرون الطويلة التي سبقت الإسلام ، وقبل ظهور المدرسة العسكرية الإسلامية ، فلما أذن للمسلمين بالقتال

وحملوا سلاحهم وسيوفهم ، وخاضوا غمار المعارك وواجهوا أعداءهم ، تبدد هذه النظرية بنظرية أخرى جديدة قضت على سابقتها وقامت على أنقاضها ، وهى نظرية السكيف التى ظلت مهيمنة على تفكير كافة القيادات ، إلا أن نظرية السك كانت تبدو على السطح على فترات ، ولكن لاتبث أن تختفى لتعود نظرية السكيف إلى مكانتها فى عقول القادة ووجدانهم .

فأما قامت المدرسة العسكرية الفرنسية على يد نابليون بونابرت آثرت الأخذ بنظرية السكيف نبت الفكر العسكرى الإسلامى ، واقتنع نابليون بأهميتها وضرورتها ، وجعلها أساس تخطيطه العسكرى فى كافة معاركه التى خاضها طوال حياته العسكرية ، وحقق بها انتصاراته العظيمة التى حفل بها تاريخ العالم العسكرى .

وسيطرت نظرية السكيف على أفكار القيادات فى المدارس العسكرية التى ظهرت بعد نابليون ، إذ رأت فيها المنهاج السليم والطريق السوى الذى يقود إلى النصر .

وإن المتتبع للحروب الكثيرة التى قامت قبل الإسلام ، يلمس أن النصر فى هذه الحروب كان دائماً فى الجانب الأكبر عدداً والأوفر سلاحاً ، ولهذا كان القادة يسمعون دائماً إلى أن يتوافرت تحت لوأهم العدد السكبير من المقاتلين والكميات الهائلة من السلاح ، وكان مجرد اجتماع هذا العدد يُدخل الطمأنينة إلى قلب القائد الذى يضمن إلى حد كبير النصر فى لقاءه المنتظر مع عدوه .

ويحضرنى فى مجال الحديث عن الكثرة العددية ، وصف جاء على لسان أحد رجالات الحرب فى معرض حديث له عن نظرية السك ، فقد شبه الجيش

ذى يتميز بالكثرة العددية فى المقاتلين والسلاح ، بمخاط كبير مرتفع يتكون من عدد كبير من الطوب وكميات هائلة من المؤن والحجارة ، وقال إن هدم هذا المخاط يحتاج إلى وقت طويل مقسع وجهـد عظيم مقصـل ، أما الجيش لتقليل العدد ، فقد شـبـه بمخاط صغير يتكون من عدد قليل من الطوب وكمية بسيطة من المؤن والحجارة ، فهو لا يحتاج مع قلة تكويته إلا إلى جهد بسيط حتى يسقط ويهدم .

وسعيًا وراء العدد الكبير وُجدت فئة الجنود المرتزقة ، وعُرف هؤلاء الجنـد فى التاريخ ، وجاء ذكرهم فى مواقع كثيرة ، واتخذ هؤلاء الحرب مهنة للكسب والرزق ، فكانوا يسعون إلى الانخراط فى الجيوش المقاتلة التى كانت قياماتها ترحب بهم وتدفع لهم ، لأنهم كانوا يشكلون عاملاً هاماً فى زيادة عدد المقاتلين ، وبذلك تزيد الفرصة فى كسب المعركة ، وتقرب الآمال من النصر .

ولقد اختلفت هذه الفئة حين برزت إلى الوجود العسكرية نظرية الكيف لأن هذه الفئة لا تتفاعل أبداً مع مقومات هذه النظرية ، فإن الحرب تقوم لأسباب تتصل بالإنسان المقاتل ، فهو يحارب دفاعاً عن نفسه وأرضه وعرضه ومبادئه وقومه وأهله وحريته ، ومن هنا تتوافر بين جوانحه وفى وجدانه دوافع وأسباب تؤهله لأن يحمل السلاح عن إيمان ويخوض المعركة فى ثقة ، ويسمى بقوة وعزم إلى النصر أو الاستشهاد .

أما فئة المرتزقة فإنها تتخذ الحرب وسيلة للكسب والرزق ، وهى من خلال هذا المبدأ والهدف تـحـرص على الحياة وتمسك بها ، ولهذا فإنها

تكون حريصة وقت القتال على ألا تصاب أو تُقتل ، بل تحرص على أن تبقى سليمة حيّة ، وهى بذلك تفقد مقومات المقاتل الذى يخوض المعركة من أجل هدف معين يؤمن به ولا يبخل فى سبيل تحقيقه بالمهجة أو الروح .

إن الحروب الكثيرة قبل الإسلام تؤكد بصورة قاطعة اعتماد القيادات فى معاركها على الكثافة فى الجند والعتاد . . فالإسكندر المقدونى خرج من بلاده فى أول غزوة له وتحت قيادته أربعون ألفا من المقاتلين يشكلون الكتائب المتراسة المسماة « فلانكس » ، وكانوا مسلحين يلبسون الدروع على أذرعهم ، ويحملون رماحا طول الواحدة ستة عشر قدما ، وفى رءوسها حراب من حديد . . . يبدو إذن الحرص على حشد أكبر عدد من المقاتلين وأكبر كمية من السلاح فى تشكيل هذا الجيش .

وحين قرر هانيبال الزحف إلى روما ، حرص على أن يكون الجيش كثيف العدد كثير العدد ، فجمع خمسين ألفا من الرجال ، وأربعين فيلا ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتجمع فيها بصعيد واحد هذه الجموع ، حتى أن خصومه اعترفوا بضخامة جيوشه قائلين « لقد ظل ستة عشر عاما محتفظا بقواته فلم يسرحها أو يبعدها عن الوغى ، وبالرغم من تجميعه لهذه القوات فقد وفق فى أن يسيطر على هذا الجيش اللجب العرمرم ، مع أنه لم يكن مكونا من شعب واحد أو جنس واحد » .

إذن فجيش هانيبال كان خليطا من شعوب متعددة وأجناس مختلفة سعيًا وراء الحشد الضخم ، وذكر المؤرخون أنه كان يسعى إلى ضم كافة العشائر والعبيد إلى جيشه حتى يكثر العدد وتزيد الكثافة .

وذكر هارولد لامب أن ضباط هانيبال كانوا يطوفون البلاد برسالة منه يقرأونها على الناس ، يقول فيها « ستحصل كافة العشائر التي تشترك في هذا الجيش على الميزات نفسها التي ينعم بها القرطاجيون ، وسيسترد العبيد الذين يصحبون ساداتهم حريتهم ، وسيدفع هانيبال ثمن هذه الحرية لساداتهم... »

وذكر أيضاً أن هانيبال كان يقول لرجاله « إني أرحب بالراغبين منكم في اصطحابي ، الذين سأقتسم معهم العطايا وخير الجزاء » .

ولقد ذكر ول ديورانت مؤلف كتاب « الحضارة الرومانية » أن جيوش روما لم تكن جيوشاً رومانية خالصة ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات ، وأكثرهم من البرابرة ، ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم وهباتهم ومغانمهم .

وعلى هذا الدرب سار القادة في جميع الأزمنة ، فكان همهم الأول ، بل الأكبر هو حشد أكبر عدد من المقاتلين ، يخوضون بهم غمار المعارك ، ويواجهون بهم أعداءهم ، وسيطرت فكرة الكثرة العددية على رؤوس القادة وتفكيرهم ، وبالتالي على ميادين المعارك ومسارح الحرب .

وظل الأمر على هذا الحال حتى قامت المدرسة العسكرية الإسلامية ، فنظرت إلى الحرب نظرة جديدة ، وعمقت نظرتها إلى الجندى المقاتل ، فاهتمت به كفرد محارب ، وأولت مقوماته بالغ اهتماماتها ، ومن هنا ولدت النظرية الجديدة ، وأصبحت الحرب الإسلامية تعتمد على الرجال ، لا على عددهم وكثرتهم ، وإنما على قدراتهم وإمكانياتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم ، وأصبح

الاهتمام موجهاً بالدرجة الأولى إلى المقاتل بشخصه وذاته . . أى إلى يده .
 القوة التي تحمل السلاح ، وقلبه المؤمن الذي يخفق من خلف السلاح ، وعقله
 المفكر الذى يدبر وسائل استخدام السلاح ، ولعل الاهتمام بالفرد المقاتل
 الشجاع الجسور هو الذى حداً بكثير من القيادات الإسلامية إلى رد عدد من
 المقاتلين ، ومنهم من الخروج والإسهام فى القتال ، لنقص فى قدراتهم أو لعمى
 فى إمكانياتهم أو لافتقارهم إلى الدافع والإحساس والمسئولية .

والسؤال هو ... كيف ظهرت هذه النظرية إلى الوجود ؟

عندما نزل الأمر الإلهى بالقتال ، لم يكن لدى رسول الله القوة التي
 يستطيع بها صد أعدائه والدفاع عن نفسه ودعوته ، ولم يكن من المستطاع
 والدعوة فى مهدها توفير عدد من المقاتلين وتجهيز كمية من السلاح تتناسبان
 مع قوى العدو ، وتقدران على مواجهته ، ورأى الرسول بفكره الراجح
 الواعى أن الكثرة العددية ليست هى العامل الأساسى فى كسب المعركة ، وإنما
 الرجل المقاتل هو وحده هذا العامل ، واعتبره رسول الله أداة الحرب الرئيسية
 وعنصر النصر الحقيقى ، على أن يتم إعداده وتجهيزه معنويًا ونفسيًا ، وعلى أن تنمو
 لديه كافة إمكانياته ومشاعره وعواطفه وإمكانياته ، ليخوض معركة الحياة بقلب
 ثابت وساعد قوى وفكر مقيظ ، لا يهاب الموت ولا يخاف العدو ، وكانت
 المعنويات العالية وكفاءة القدرة القتالية هى التي رجحت كفة المسلمين فى كافة
 المواقع ، رغم قلة العدد والعدة ، وكانت هى دائماً عنصر النصر وأساسه ،
 والدعامة الرئيسية الأولى فى كل المعارك منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كانت بدر معركة الإسلام الأولى ، خاضها المسلمون وهم قلة لا يتجاوز عددهم خمسة وثلاثمائة رجل ، ولم يكن معهم من وسائل الركوب سوى سبعين بعيرا يتعقبون عليها ، وكانت تنقصهم معدات القتال كالدروع ، كما كانت قوة الفرسان معدومة ، إذ لم يكن لهم سوى فرسين .. هذا بينما كان عدوهم يفوقهم عدداً وعدة ، فقد بلغ زهاء ألف مقاتل ، معهم مائة فرس وسبعائة بعير ، وكانوا جميعاً مسلحين بالدروع والسيوف والنبال ، ورغم قلة المسلمين وندرتهم ، وقلة سلاحهم وندرته ، كان النصر إلى جانبهم ، واهزمت قريش مع كثرتها ، وسر النصر والهزيمة هو اهتمام المسلمين بالسكيف ، بينما اهتم العدو بالسكم ، فانشغلوا وفي مقدمتهم أبو جهل بجمع المقاتلين وحشد الرجال .

وفي أحد أخذت قريش تعد العدة وتجمع قواتها وترصد رجالها وتعبيء القوى وتعد الرجال وتجهز السلاح ، وتسعى إلى القبائل تستنفرهم وترغبهم في قتال محمد ، وتجمع لديها ثلاثة آلاف ، وانضم إليها أبو عامر ابن صيفي بن مالك الذي كان يلقب بالراهب والذي سماه رسول الله - لمغالانته في عداوته - بالفاسق ، وكان معه رهط من الأوس .

وخرجت مع قريش نساء كثيرات تقودهن هند بنت عتبة ، التي أثار خروج المرأة قائلة « نعم نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد » ، وكان قد اجتمع من المسلمين سبعائة رجل ، عقد لهم رسول الله ثلاث ألوية ، وكانت معهم مائة دارع وفرسان ، ويتلاحظ أن رسول الله رد كثيراً من الخارجين معه في أحد لصغر سنهم ، رغم أنهم خرجوا يدفعهم إيمانهم وإحساسهم بمسئوليتهم كمسلمين إلى المشاركة في رد العدوان .

كما يتلاحظ أن رسول الله رفض أن ينضم إلى الجيش خلفاؤه من يهود ،
 « قد سأله أحد أنصاره » ألا نستعين بخلفائنا من يهود ؟ فأجابه « لا حاجة
 لنا فيهم » ، كما يتلاحظ أيضا أنه عليه السلام لم يحفل بانسحاب عبد الله ابن
 أبي بن سلول وجماعته وعودته بهم إلى المدينة وعدم مشاركتهم في القتال ..
 ورغم الاختلاف الكبير في قوة الجيشين فقد انتصر المسلمون في المراحل
 الأولى من المعركة ، ولولا أن فريقا منهم خالف أوامر رسول الله طمعا في
 الغنائم ، لكان النصر النهائي في المعركة للمسلمين مع قلة عددهم وندرة سلاحهم .

واعتمادا على نظرية السكيف - نبت الفكر العسكري السليم - خرج
 أتباع محمد من الجزيرة ، وخاضوا غمار معارك تاريخية هامة ضد الفرس وضد
 الروم ، وانتصروا عليهم ، وأزالوا ملكهم ، ووُجد كسرى الفرس مقتولا
 في طاحونة مهجورة ، وفرّ إمبراطور الروم وهو يودع بلاد الشام قائلا
 « عليك السلام سلاما لا اجتماع بعده » ، وكان انتصار المسلمين تأكيداً
 للنظرية الجديدة التي جاءت بها المدرسة العسكرية الإسلامية ، إذ اتفقت
 جميع المصادر والمراجع والروايات على التفوق الهائل الذي كان عليه الروم
 والفرس عددا وعدة ، ومن أسطع الأدلة وأقطعها ما حدث في اليرموك إذ
 اجتمعت للروم أربعة جيوش ، كان الأول تسعين ألفا يقوده تيودريك ،
 والثاني ستين ألفا يقوده الفيقار بن نسطوس ، والثالث أربعين ألفا يقوده
 الدراقصي ، والرابع خمسين ألفا يقوده جرجه ، أي أن مجموع الجيش الحشد
 في مواجهة المسلمين مائتان وأربعون ألفا ، بينما كان الجيش الإسلامي أقل
 من ذلك بكثير ، إذ قدر بأربعين ألفا فقط ، وأثار هذا الفارق الكبير رجلا
 من المسلمين ، فجاء إلى خالد وقال له « يا خالد ، ما أكثر الروم

وأقل المسلمين !! » ، فغضب خالد وأجابه « بل قل ، ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تسكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالهزيمة والخذلان ، لا بعدد الرجال » ، وكان النصر في اليرموك في جانب المسلمين مصداقا لقول خالد الذى آمن بأن كثرة الرجال لا تحقق النصر ، واسكن الرجل نفسه هو الذى يملك أن يحققه .

ومثل آخر من تاريخنا الإسلامى .. فهما هو ذاعمر بن العاص يقود أربعة آلاف مسلم ، ويحتار بهم طريقا طوله سبعين ميلا خلال الصحراء ، بداية بالعريش متجها إلى داخل مصر ، وفى بلبس التقي بجيش الروم بلغ عدده اثني عشر ألفا كامل العدة ، وانتصر عمرو ، وقتل من الروم ألفا وأمر منهم ثلاثة آلاف ، ومزق جيش عدوه ، وتم له بعد ذلك فتح مصر ، ثم برقة ، وطرابلس وبلاد النوبة ، وفى كل هذه الفتوحات كانت قوة جيشه أقل بكثير من قوة عدوه .

وما حدث فى وادى بكة فى أرض الأندلس يؤكد صدق نظرية السكيف ، فهناك التقى جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد بجيش ردرىق قائد الأسبان ، لم يكن هناك تكافؤ فى القوى على حد قول لين بول « إن جيش ردرىق كان ستة أضعاف جيش المسلمين » ، واستمرت المعركة ثمانية أيام ، وانتصر المسلمون وقضوا على الأسبان ، ولعل من أبرز مظاهر الاهتمام بإثارة معنويات المقاتلين والارتفاع بمستوى السكفاءة القتالية ، إقدام طارق على حرق أسطوله ، حتى لا يفكر جندى من رجاله فى الانسحاب ، وحتى لا يتعلق واحد منهم بأمل العودة إلى بلاده ، وحتى يضع السكيف كافة الطاقات والإمكانات فى المعركة من أجل تحقيق النصر .

ونود أن نقف وقفة قصيرة .

فكنا قد أشرنا إلى أن نظرية السكم كانت تطفو على السطح لفترات ، وقد حدث هذا فعلا إذ اهتمت بعض القيادات بالسكم مرة أخرى ، واعتمدت على ضخامة الحشد في معاركها ، ولكن كان ذلك في فترات محدودة ، ولم تستطع نظرية السكم أن تستقر في أذهان القادة ، ذلك أن العودة إليها كانت ردة في التفكير الحربى السليم . . .

فالمفول والتتار اعتمدوا في غاراتهم المعروفة التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في همجية وقسوة ووحشية ، على القوة العددية دون الدراية الفردية ، فجنسكيز خان قضى عمره في تجميع القبائل من حوله ، حتى إذا ما بلغ سن الخمسين ، كانت جميع القبائل القاطنة في مناطق آسيا الوسطى قد أسلمته قيادها ، فاستغلها - اعتمادا على الكثرة العددية في المقاتلين الذين أمدته بهم هذه القبائل - في توسيع ملكه .

ولقد كان اهتمامه بإعداد السلاح وتوفيره يحتل المقام الأول في تفكيره فقد كان يسعى بكل جهده من أجل توفير أنواع متعددة من السهام التي تختلف بين الطول والقصر وبالأقواس التي تقذف بها هذه السهام ، وكان يجمع الجياد لأنها سلاحه الراكب الخفيف الحركة .

وبذات التفكير والأسلوب حارب تيمورلنك ، فقد كان توفير الرجال وإعداد السيوف والأقواس والرماح والدروع والخوذ ، هو شغل الشاغل قبل كل معركة ، ولقد شهد المشرق العربى موجات من الحشد

الكثيف لقوات تيمورلنك ، وهى تحتاج بلاد العراق والشام فتدخل المدن وتحرقها وتقتل الرجال وتبيدهم .

ولكن لابد أن نذكر أنه حين وُوجهت هذه القوى المكثفة بالكفاءة القتالية وبالمنعويات العالية فى عين جالوت انهارت ولحقت بها الهزيمة ، ولم تستطع أن تصمد أمام قوات أقل منها عدداً ، ولكن تفوقها فى المنعويات وفى طبيعة الرجال . . . قدرة وإمكانات وحسن بلاء .

واعتمدت الدولة العثمانية أيضاً على السك فى حروبها ، نفاض السلطان سليم الممارك ضد الدولة الصفوية فى العراق ، والدولة المملوكية فى الشام ومصر وكان يهتم بالحشد فجمع تحت قيادته جموعاً غفيرة وأسلحة وفيرة ، ونجح فى أن يوسع رقعة دولته على حساب البلاد العربية كلها فى أفريقيا وآسيا ، وأصبحت ضمن إمبراطوريته الكبيرة .

قلنا إن عودة نظرية السك إلى عقول وأنصار العسكريين كانت ردة ، انتهت بقيام الثورة الفرنسية ، وتآلق نابليون كقائد عسكري وكصاحب مدرسة عسكرية لها تعاليمها وقواعدها ونظمها وآراؤها فى الإستراتيجية والتكتيك ، وخاض نابليون معاركه إرتسكازاً على نظرية السكيف ، فلم يكن يهتم بالكثرة العددية قدر اهتمامه الكبير بالفرد المقاتل .

ولهذا كان نابليون أكثر اتصالاً بضباطه وجنوده ، يقضى معهم وقته ، وبثير حماسهم ويقوى عزمهم ويحدد نشاطهم ويضاعف روحهم المعنوية وأثر عنه أنه كان يردد على مسامع جنده قوله « لا ريب فى أننى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال » ، وكان يوثق الصلة بينه وبين قادته ، وبينه

وبين جنده ، وبتأكيد هذه الصلة كانت ترتفع معنويات جنده ، وتزداد حماسهم ، ويعمق إيمانهم ببلدهم ومستقبلهم حدث في أثناء معركة « واجرام » أن وجه نابليون نقداً إلى أحد قادته وهو القائد « مارمون » ، وكان النقد قاسياً عنيفاً مما أخرج القائد ، فغادر الرئاسة كسير القلب متألماً ، وما أن وصل بيته حتى جاءه رسول من قبل نابليون يحمل إليه بشرى ترقية إلى رتبة مارشال .

واقترنت كافة القيادات - بداية بنابليون وحتى عصرنا الحديث - بنظرية الكيف ، فجعلتها أساساً للنظام العسكرى ونقطة البداية في الإعداد العسكرى ، وانحط العريض في سياسة الحرب ، ومما يؤكد ذلك أن معارك الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ، أثبتت أن انتصار الجيش الثامن بقيادة مونتجمرى لم يتحقق أساساً لكثرة في الرجال أو وفرة في السلاح ، وإنما اعتماداً على قدرات المحاربين ومعنوياتهم ، فقد كان كل جندي يؤمن بضرورة النصر ، لأن النصر يعنى شرف الإمبراطورية التى ينتمى إليها ، ولأن النصر هو حماية لتاريخ أمتهم وصون لكرامتهم ودفاع عن وجودها . وتأکید لکيانها وحياتها .

ومن عجب أن المؤرخين نسبوا نظرية الكيف إلى مدرسة نابليون ، وتناسوا أنها تقرر أساساً في العهد الإسلامى مع ظهور المدرسة العسكرية الإسلامية .

ومن عجب أيضاً أن هذه النظرية أصبحت موضع الدراسة في السكليات والأكاديميات العسكرية ، وأصبحت موضوعاً تناوله المؤلفون والكتاب

في مؤلفاتهم بالدراسة والبحث والتحليل ، ومع هذا فإن كافة الأجهزة سواء أجهزة الدراسة أو أجهزة التأليف لم تشر إلى أن هذه النظرية من نبت الفكر العسكري الإسلامى ، وأنها ثمرة من ثمار المدرسة العسكرية الإسلامية .

إن الإسلام دون ريب هو صاحب الفضل الأول في تطوير نظرية الحرب ، ولقد التقطت منه المدارس العسكرية الأخرى التي جاءت من بعده الخيط ، وآمنت بنظريته وآرائه في تكوين الجيوش ، وفي ضرورة توجيه الاهتمام الكبير والعناية المطلقة إلى معنويات الجنود وقدراتهم ، وأصبحت توليها غاية عنايتها ، وجعلتها أساساً للنظام العسكري ، وبداية لتشكيل الجيوش وتحريكها وساد الرأي العسكري الحكيم الذي ينادى « الرجل أولاً ثم السلاح » .

نابليون وهو رأس المدرسة العسكرية الفرنسية وضع قاعدة عسكرية هامة « إن نسبة القوى المادية إلى القوى المعنوية في المعركة كنسبة ٣ : ١ » ، وهو يعنى بذلك أن جندياً واحداً يتمتع بمعنويات عالية وروح قتالية على كفاءة وقدرة تؤهله لتحمل ويلات الحرب ، يعدل ثلاثة جنود يعتمدون على كثرتهم وسلاحهم فقط .

ويؤكد هذا المعنى فيلسوف الحرب الألماني كلاوزفيتز فيقول « إن القوى المعنوية هي التي تحدد نتيجة المعركة » وهذا يعنى أن المقام الأول في المعركة للقوى المعنوية وليس للقوى المادية .

ويصدق على ذلك مونتيجمورى في مذكواته عن حرب الصحراء ، فيقول « كان قادة الجيش الثامن يعرفون الكثير عن القتال ولكنهم لم يكونوا يفهمون معنى الحرب ، فالمفروض في الجنرالات أن يكسبوا المعارك ، أما مادتهم الخام

فهى الرجال ، فالمعارك تكسب أولا وبصفة رئيسية فى قلوب الرجال .. وعندما يخرج الأمر من أيدينا يتحول نهائيا إلى الجنود ، فإن النصر يعتمد على تدريبهم وعلى شجاعتهم وعلى رفضهم تقبل الهزيمة ، وعلى ثباتهم وصلابة كفاحهم ، وعلى تصميمهم على النصر أو الموت .

وجاء هذا المعنى على لسان « جيفارا » فى مذكراته حيث يقول « يجب عدم التهور من شأن الجندى الأمريكى لقدراته التكتيكية التى تجعل منه عدوا رهيبا ... إن الذى ينقصه هو افتقاره إلى أرضية أيديولوجية فى ممارسة القتال ، ولذلك يتوقف انتصارنا على تحطيم معنوياته وذلك بإنزال الهزيمة تلو الهزيمة بقواته فى مختلف أرجاء الأرض » .

وبمراجعة هذه الأقوال على الأحداث العسكرية الإسلامية نجدها متفقة ومتطابقة .. وبمراجعة النسبة بين قوى المساهين وأعدائهم نجدها فى بدر ١ : ٣ وفى أحد ١ : ٣ ، وفى الخندق ١ : ٣ (كان عدد المساهين ٣٠٠٠ ، وعدد المشركين ١١٠٠٠) ، ويتلاحظ أن النسبة لم تتغير فى هذه الغزوات ، وأن هذه النسب هى التى قررها نابليون وأصر عليها لكسب المعركة ، ونحن لانستبعد أن يسكون نابليون قد استلهم هذه النسبة من دراسته للعسكرية الإسلامية ، فقد عرف عنه أنه كان يواظب على قراءة تاريخ الحرب ، وكان ينصح رجاله دائماً « عليكم بقراءة تاريخ الحروب » .

وثمة شىء آخر هام فإن المخطط العسكرى الصينى « سن تزو » قال « إن أعظم درجات المهارة هى تحطيم مقاومة العدو دون قتال » .

وأوضح لينين إستراتيجية الحرب فى رأيه فقال « إن أصح إستراتيجية

للحرب هي أن تؤجل العمليات الحربية حتى يهيئ تحلل القوى المعنوية للعدو إلى الضربة القاضية بسهولة ويسر .

وفي ذات المعنى قال روشننج « إن استراتيجيةنا هي أن ندفع العدو إلى تحطيم نفسه أو نهزمه عن طريق نفسه » .

وبمراجعة أحداث غزوة الفتح نجد أنها تتفق مع هذه الأقوال الثلاثة للقادة المختلفين الذين يمثلون ثلاثة مدارس عسكرية مختلفة .

• فالرسول سعى إلى تحطيم مقاومة قريش دون قتال .

• والرسول أجل بدء العمليات الحربية حتى ضمن تحلل قوى قريش المعنوية .

• والرسول جعل قريش تنهزم وحدها أو هزمها عليه الصلاة والسلام عن طريق نفسها .

وها هي ذى التفاصيل .. .

فقد أمر رسول الله عمه العباس بن عبد المطلب أن يصحب أبا سفيان ابن حرب ليرى بعينيه قوة المسلمين ، فناداه العباس وقال له « ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة » ، فسأله أبو سفيان « وما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ » ، وصحبه العباس إلى خطم الجبل — وهو مكان يبرز منه الجبل ويضيق الطريق — حيث تمر الألوية الإسلامية المتحركة إلى مكة ، وسأل أبو سفيان « سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ » ، فأجابه « هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار » ، فتولته الدهشة وسيطر عليه

الخوف ، ووجد نفسه يحدث نفسه « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة » ، ثم أسرع إلى قومه يقول لهم معبراً عن مشاعره وإحساساته « يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبيل لكم به ، فمن دخل داري فهو آمن » .

فلما فارت زوجته عليه صاح قائلاً « ويلكم لاتغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبيل لكم به ، فمن دخل داري فهو آمن » .

وهزتهم كلماته ، وأحسوا بصدق ما يقول ، وأدركوا الخطر المقبل فسألوه « وما تغنى عنا دارك ؟ » ، فأجاب « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبي ربيعة فهو آمن » ، فأمرعوا جميعاً ... البعض يغلق بابه ، والبعض يحتمي بالمسجد ، وتحطمت أعصابهم ، ووهنت روحهم ، وافقدوا الرغبة في المواجهة ، ولم تعد لدى أحدهم نية قتال ، ودخل الجيش الإسلامي مكة منتصراً دون قتال يذكر إلا في قطاع خالد .

وهكذا حطم رسول الله مقاومة قريش دون قتال كما قال سن تزو ، وهدم معنوياتهم على حد قول لينين ، وجعل قريشا تهزم نفسها كما جاء على لسان روضننج ، ولهم هنا أن هذه المدارس الثلاثة جاءت بعد الإسلام بزمان طويل مما يؤكد أن مبادئها العسكرية تمتد جذورها إلى العهد الإسلامي وتستمد وجودها من معارك الإسلام وغزواته .

وتاريخ الحروب الإسلامية يحمل بين سطوره صوراً متعددة وأمثلة مختلفة تبرز التفوق المعنوي عند المسلمين ، وتبين أهمية هذا التفوق عند اللقاء مع العدو ، فالقيادات الإسلامية منذ أن وجدت بذلت قصارى جهدها لتزكية

معنويات الجنود ولإثارة قدراتهم ولإبراز أهمية الدور الكبير الملقى على عاتقهم تجاه الإسلام .

ولعل إيمان المسلمين الأوائل وإصرارهم على نصرته الدين الجديد ، هو الذى جعلهم يصمدون أمام تعذيب قريش ، وقد بلغ حدّ القسوة والوحشية ، ولولا هذا الإيمان لعادوا جميعاً أدراجهم إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل خطوات جهاده أسوة حسنة لهم ، فعندما أشرف أبوطالب — وموقفه معروف من قريش ومن ابن أخيه — على الموت فرحت قريش وطمعت فى أن يغيروا من قلبه على ابن أخيه وهو يحتضر ، لعلهم يظفرون منه فى ساعة الموت بما لم يظفروا به فى فسحة الأجل ، فيقف الرجل إلى جوارهم ضد ابن أخيه ، أو يأخذون عليه موقفاً وهو فى ساعاته الأخيرة بأن يحمل ابن أخيه على العدول عن سب آلهم وتسفيه أحلامهم ، فشى إليه أشرفهم وعلى رأسهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأمّية بن خلف وأبو سفيان بن حرب ، وقالوا له « يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، نخذله منا ، ونخذلنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وفدعه ودينه » .

فأرسل أبوطالب فى طلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له « يا ابن أخى ، هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فإذا ترى ؟ » .

وأدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وعنه على فراش الموت ما وراء فقده من أهوال وما ينتظره من أحداث جسام ، وأدرك أيضاً ما يعالج فى صدور

الحاضرين من خواطر وما تضطرم به صدورهم من أحاسيس ، ولم يشغله هذا كله عن أن يقول كلمة الحق بصوت قاطع وبلهجة تنم عن الإيمان العميق الوثيق « ياعم ، أنا لا أريد إلا كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم » ، وقاطعه أبو جهل في لهفة وقال « نعم وأبيك وعشر كلمات » ، فقال الرسول « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » ، وتعجب الناس وقالوا « إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وأمضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه » .

إذن فهؤلاء سادة قريش يحيطون بمريض محتضر ، ويحاولون أن يستغلوا لحظة ضعف لتسكون قوة لهم وتأييدا لمطالبهم ، ولكن الإيمان الذي يفيض به قلب رسول الله ، أنطقه كلمة الحق في أخرج الساعات ، لأنه قلب يزخر بحب الله ويؤمن بنصره ويفيض بالحق والإيمان ، وهذا الإيمان الذي فاض به قلب رسول الله فاضت به قلوب المسلمين جميعا .

وكان هذا الإيمان غذاءً روحيًا رفع معنوياتهم وحسبهم ، فكانوا في تسابق إلى الخروج كلما دعاهم إليه رسول الله ، كانوا يتسابقون ، كل يود أن يسبق الآخر ، وأن يكون في المقدمة ، وأن يكون له قصب السبق في مجال القتال والكفاح . كان كل مسلم يدرك بعمق أنه أحد جند الله ، وأنه يقاتل جند الشيطان ، ويحارب من أجل خيره وخير العالم وصلاحه ، لا من أجل سلطة أو جاه أو ثروة أو شهرة ، وكان يعي تماما أن جهاده في سبيل الله واجب ، وأن قتاله لأعداء الله أمانة ، وأن الموت في سبيل الله شرف ، وأن الحياة الآخرة خير وأبقى .

ولهذا كان الجندى المسلم يخرج إلى القتال بقلب ثابت لا يهتز ولا يرتجف ،
يهجم في قوة وعنفة وصلابة ، مستهدفاً إحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد ..
ولم يتردد كبير السن أو صغيره ، صحيح البنية أو المريض ، السليم المعافى أو
صاحب العلة ، كانوا جميعاً يسمعون إلى الخروج رغبة في المشاركة وأملًا في
النصر أو الشهادة . .

ها هو ذا خيشمة بن سعد يتوجه إلى رسول الله قبل الخروج إلى أحد
ويقول له « يا رسول الله ، لقد أخطأتني واقعة بدر ، وكنت حريصاً عليها ،
حتى بلغ من حرصي أن ساهمت إبنى في الخروج فخرج سهمه ، ورزق الشهادة ،
وقد رأيت إبنى البارحة في النوم . يقول : الحق بنا تراقبنا في الجنة ، فقد
وجدت ما وعدني ربى حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى
مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سنى وورقت عظمى وأحببت لقاء ربى » .

وعند الخروج في بدر أعاد رسول الله عدداً من الخارجين ، ومنعهم
لصغر سنهم ، فإنهم لم يبلغوا السن الذي يسمح لهم بالقتال ، ومن هؤلاء
أسامة بن زيد ، وعمير بن أبي وقاص ، وحارثة بن سراقة ، وزيد بن ثابت ،
وآخرون ، ولعل ردّ هؤلاء ومنعهم من الاشتراك في القتال يرجع إلى أن
كفائتهم القتالية لم تصل بعد إلى مستوى المعركة ، ولن تتحمل أعصابهم
أحداثها ووقائعها ، ويصبحون مشكلة تواجه المقاتلين ، فتشغلهم عن أمور
المعركة وتحول أنظارهم عن أعدائهم إليهم .

وأصرّ عمرو بن الجوح - وكان يشكو عرجاً شديداً - على الخروج ،
فمنعه أبناؤه الذين خرجوا جميعاً للقتال ، فتوجه إلى رسول الله يشكو إليه

أولاده قائلا « إن بنى هؤلاء ينعونى أن أخرج معك ، فوالله لاني لأرجو أن أسقشده » ، فقال له الرسول « إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد » .

وعن عبادة بن الصامت « ما منا رجل إلّا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ... إن نعيم الدنيا ليس بديم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

ودعا عبد الله بن جحش ربه قائلا « اللهم لقني من المشركين رجلا عظيما كفره شديدا حرده ، فأقاتله فيقتلني فيك ، ويسلبني ثم يجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك فقلت : يا عبد الله بن جحش فيم جدعت ، قلت : فيك يارب » .

وكتب خالد بن الوليد إلى أهل فارس خطابا جاء فيه « الحمد لله الذي قضى عليكم ، وفرّق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزمكم ، فإذا أناكم كتابي فأسلموا تسلموا ، واعتقدوا منا الذمة ، وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذي لا إله إلا هو ، لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحببون الحياة ، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » .

والتقى عمرو بن العاص بقرّة بن هُبيرة الذي قال « إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة (بقصد الزكاة ومنعها بعد وفاة الرسول) ، فإن أعفيتموها من الزكاة فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » ، واستنكر

منه عمرو هذا القول بشدة وقال له « إني أراك على شفير جهنم ، تحاول أن
تتردى فيها مع من تردى ، أتخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليهم
وعليك الخيل ، ولأصلن إلى عنقك ، ولو أخفيتيه في يد الجن »^(١) .

ووصف تيودمير قائد الأسبان جيوش المسلمين فقال « لقد نزل بأرضنا
قوم لا ندرى أهبطوا من السماء أم نبعوا من الأرض » ، ووصفت عيون
ردريك (جماعات الاستكشاف) العرب فقال « شهدنا معسكر المسلمين ،
لقد جاء منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك » .

وأمر طارق بن زياد بحرق أسطول المسلمين « لقد حرقوا مراكبهم
إيأسا لأنفسهم من التعلق بها وصُفُّوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات
إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب » ، وخاطب طارق جنده فقال « لقد
استقبلكم عدوكم بجيش كبير ، وأسلحته وقواته موفورة ، وأنتم لا ملجأ
لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي
عدوكم » .

ووصف المقوقس المسلمين بقوله « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم
من الحياة » ، وقال قبطى آخر « ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، إنهم أتوا إلى
مصر في قلة من الناس ، يريدون لقاء الروم في كتائبهم العظيمة !! » ،
فأجابه الآخر « إن هؤلاء قوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى
يقتلوا عن آخرهم » .

(١) جاء في بعض الروايات « . . . فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفس أمك » أى في
بيت أمك .

وفي القادسية انطلق الشعراء وأولو الرأي، يذكرون الناس بتاريخهم ويحرضونهم على القتال، وخاطب الهذيل الأسدي قومه المشتركين في القتال ضد الفرس « اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليها كأسود الأجسم، وتربدوا لهم تربد النور، وادرعوا المعجاج، وثقوا بالله » .

وخاطب عاصم بن عمرو المقاتلين فقال « إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم لأعيان المعجم، وإنما تخاطرون بالجنة، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، ولا تحدثوا اليوم أمرا تسكونون به شيئا على العوب غدا » .

وبعث الخليفة عمر إلى سعد بن أبي وقاص رسالة جاء فيها « لا يهولئك كثرة عددهم وعددهم، فإنهم قوم خدعة مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع شملهم أبدا » .

وفي إيمان المسلم وقوته هاجم المغيرة بن شعبه يزدجرد وهو في قصره وبين حرسه، تحيط به مظاهر الملك والقوة والسلطان، لم يخف ولم يرتعد، ولم ترهبه هذه المظاهر « إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم... اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسل فتنبجى نفسك... يدخل من قُتل منا الجنة ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم » .

وترك حنظلة بن أبي عامر عروسه جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ليلة العرس حين نادى المنادى للحرب، وتقلد سيفه ودرعه، وخرج إلى القتال

وهو جنب لم يغتسل ، وقاتل قتال الأبطال ، وبحث وسط المعركة عن أبي
سفيان فلما وجده هجم عليه فوقع ، وأراد حنظلة ذبحه بالسيف ، فاستنجد
أبو سفيان بقريش ، وسمعه رجال منها ، فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة
قاتلة من وراء ظهره ، فاستدار إليهم فتناولوه بالرماح فمات ، وطلع رسول الله
بقول لأصحابه « إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء
والأرض بماء المزن في صحاف الفضة » .

والتقى سيف الدولة على رأس خمسمائة من رجاله بقائد الروم برزاس
فوكاس الذى كان يقود جيشاً بلغ عدده خمسين ألفاً ، وقتل سيف الدولة
بقوته القليلة ثلاثة آلاف ، وأسر كثيرين ، وفرّ الباقي ، ووصف المتنبي
المعركة في قوله :

سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهى
وفي قوله أيضاً في قصيدة أخرى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وصاح وفعرك باسم

وبلغ صلاح الدين الأيوبي أن الإفرنج يستعدون لغزو المناطق المحيطة
بدمشق ، فقال لجنده « دعوهم يعملون ما يشاءون ، فإنهم إنما يقولون على
قرى وكفور ، فى حين أننا نأخذ مدنا وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم جئنا لهم
بجنود لا يقبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملسكوا أذلة وهم صاغرون » ، وفاجأ
جزء من جيش الصليبيين بعض المواقع بالهجوم ، وكان للمفاجأة أثرها
فى نفسية المقاتلين وأدرك صلاح الدين ذلك فأمرع بجواده يهاجم الصليبيين
وهو يصيح فيهم « قفوا مكانكم ، هنا قلب أسد أقوى من قلب أسدكم » .

(• - المدرسة العسكرية الإسلامية)

بعد هذه الأمثلة المتعددة من تاريخ الإسلام الحربى ، وبعد هذه الصور التى توضح التكوين النفسى للجيش الإسلامى فى مختلف عصوره ، وبعد هذه الدلائل على الحشد المعنوى للقوى الإسلامية ، يتضح لنا أساليب الإسلام فى مواجهة الأعداء ، فلم يكن هم القيادات حشد القوى وتجهيز الجيوش وتجهيز السلاح ، وإنما كان همها الأكبر هو توفر الروح المعنوية والمقدرة الفردية وإمكانية المقاتل واستعداده الكامل لمواجهة عدوه ، سعيًا وراء نهر يسود به الإسلام أو استشهاده يفتح أمامهم أبواب الجنة ، وثابت أن المسلمين كانوا بهذا الأسلوب يحرضون على الموت أشد من حرصهم على الحياة ، وكانوا يقدمون أنفسهم قربانًا ، لى تنقصر المبادئ الإنسانية العالمية التى جاء بها الإسلام وتسود ، ويسعد بها الناس فى جميع أنحاء الأرض ، وعلى جميع الأزمان .

وفى هذا المعنى يقول مالك بن سنان « نحن والله بين إحدى الحسينين : إما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى أن يرزقنا الشهادة ، والله ما نبالى أيها كان ، إن كلا لفيه الخير » .

بهذا الأسلوب كان المسلم يدخل المعركة ساعياً إلى عدوه باحثاً عنه لا يهرب ولا يفر مهما بلغ عدد عدوه ، ومهما كانت شراسة أسلحته ، ومهما اشتد وطيس الحرب وحيت حدة النزاع ، ومن وراء هذا المسعى كان يأتى النصر .

بهذا الأسلوب تطورت فكرة الحرب ، وسادت نظرية الكيف ، وأصبح لها المكان الأول بل مكان الصدارة فى كل عمل عسكري ، ولقد آمنت بهذا التطور المدارس العسكرية الأخرى ، وما زالت هذه المدارس حتى يومنا هذا تسلك مسلك المدرسة الإسلامية ، وتتبع أسلوبها ، وتنسج على منوالها .

(٢)

خلق الله الناس أحراراً يعمرون الأرض ، ويسعون فيها بالخير ، ويتعاونون على التقوى والصلاح والهداية .

وكان أول خلقه تبارك وتعالى آدم وحواء ، اللذين استمعا إلى صوت الشيطان ، واستجابا لدعوته ، وتناسيا تعاليم الله خالقهما ، وهبطا إلى الأرض بعد أن تاب الله عليهما ، ثم كان منهما على الأرض قابيل وهابيل ذرية يرجى منها تعمير الأرض وقيام الحياة ، إلا أن حياتهما اتسمت بأخطر ما تعرضت له الحياة ، فقد وقع بينهما أول صدام راح أحدهما ضحيته .

وجاء الناس بعد قابيل وهابيل ، فكان صدامهما متمثلا أمام أنظار الجميع ، ولهذا تعدد بينهم الصدام ، واستمر حتى يومنا هذا ، بل وسيستمر طالما كانت هناك حياة .

والذى نريد أن نوضحه هو لماذا قام العراك بين الأخوين ؟ ولماذا وقع الصدام الذى أدى بحياة أحدهما ؟

وقع بينهما ما وقع لأن الطمع فى امتلاك ما للغير سيطر على مشاعر أحدهما .

ومنذ ذلك التاريخ والطمع يدفع بالناس إلى المخاطرة بحياتهم ...

ثم أصبح الطمع وحب السيطرة والامتلاك وفرض الإرادة وإذلال الغير واستغلال الناس والموارد لمصلحة فئة تملك القوة، هى العوامل الرئيسية فى وقوع الصدام بين الناس . . . وتحت تأثير هذه العوامل قامت الحروب وانتشرت، وعرفها الناس، وذاقوا أهوالها، واكتتوا بنارها، وعاشوا حياتهم فى خوف من لحظة اشتعالها، وأصبحت الحروب مهلك البشرية .

قبل الإسلام ساد القوى الذى يملك القوة، وذُل الضعيف الذى لاحول له ولا قوة، أذل الإنسان القوى الإنسان الضعيف، وسيطرت الأمم القوية على الأمم الضعيفة، وضاعت الحريات، وهانت القيم الإنسانية، وعاش الإنسان حياته فى خوف، وققد طمأنينته، ونزلت به الكوارث، لا لشيء إلا لأنه ورث السيطرة وحب التملك وفرض الإرادة، وآمن بمبدأ البقاء للأقوى، منذ الصراع بين قابيل وهابيل .

لم يقع صدام مسلح فى عهود ما قبل الإسلام إلا تحت تأثير عامل من العوامل السابقة، وإن من يتأمل التاريخ البشرى منذ الأزمان السحيقة، يلحظ أن الحرب ثارت دائماً بين الأفراد والجماعات والعشائر والقبائل، حتى عندما تطور الإنسان فى درجات الارتقاء الفكرى والاقتصادى والاجتماعى استمرت الحروب لا تنطفئ لها جذوة ولا يخمدها وار .

واشتعلت نيران الحروب بين ممالك وإمبراطوريات العالم القديم، كقدماء المصريين والمكسوس والحيثيين والأشوريين وأهل بابل وفينيقيا والفرس والإغريق، ولم تنقطع المنازعات والحروب بين مدن الإغريق القديمة والمدن المجاورة لها، ولم تنته الاصطدامات المتعددة بين أثينا واسبرطة

وسائر جاراتها ، ولقد شهد العالم الحروب الكثيرة التي بيعت فيها الأرواح رخيصة على مذبح الأهواء والمطامع والمصالح الشخصية ، وهذا ما يضاف عليها صفة البربرية والوحشية .

وهكذا عاشت البشرية تحت وطأة تهديد القوى ... فأية فائدة جنتها البشرية من العدوان على الغير وانتصار فريق وفناء فريق ؟ ؟

لقد قاسى العالم الأمرين من الحروب التي أثارها الاضطهادات الدينية في القرون الوسطى ، وقت أن طاردت الوثنية الديانة المسيحية في عهدها الأول في ظل الإمبراطورية الرومانية ، ثم ما كان من انتشار المسيحية بعد ذلك في أنحاء الإمبراطورية ومطاردتها للوثنية .

هذه الحروب التي امتلأت بها صفحات التاريخ البشرى تتفق كلها في الأسباب التي أدت إليها وفي الدوافع التي قامت من أجلها ، وهى أسباب ودوافع لا ترقى مع الأسف الشديد إلى المستوى اللائق بالإنسان العاقل الخير المخلص المؤمن الذى استخلفه الله تعالى ليعمر فى الأرض وينتفع بالحياة فيها ، ولقد كانت هذه الأسباب والدوافع ضد حياة الإنسان وارتقاءه ... كانت نقمة عليه تؤذيه فى معاشه وأمنه وراحته ، وتضر برزقه وأرضه وشرفه ، وتسمى إلى وجوده وكيانه وإنسانيته ، وتحجر على أفكاره ورغباته وحرياته .

لقد كانت هذه الأسباب والدوافع تسيطر على الإنسان وتصرفاته ، وتشعل الحروب وتسبب الخراب والدمار ، وتوقف الإنسانية عن تقدمها وتطورها فى الأزمنة الطويلة التى سبقت الإسلام

لقد اكتوى الإنسان بنيران الحروب ، ولم يحن من ورائها إلا الدمار

والخراب ، لم يشأ أن يعيش مع أخيه الإنسان بالحب والسلام ، وإنما كانت طبيعته هي حب الصراع والتحطيم ، وكانت غريزته خاضعة للجاذبية الضعف والقوة ، وكانت الرغبة في القتال تكمن في نفسيته وطبيعته ، ومن ثم يصدق عليه ما قاله فيلسوف يوناني عندما وصفه بأنه ذئب ، همه الانقضاض على أخيه الإنسان .

ولا يمكن أبداً أن نتجاهل صرخات الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا ينادون دائماً بالسلام ، ويدعون إلى التمسك به ، ويطالبون بإبعاد شبح الحرب ، إلا أن صرخاتهم ومساعدتهم ذهبت كلها أدراج الرياح ، إذ رجحت كفة الداعين إلى القوة ، فاندفع الإنسان في أتون حروب مهلكة .

وظلت الحرب تسيطر على عقليات القادة وتشد انتباههم ، حتى أصبحت هي المحرك الأول لعواطفهم ومشاعرهم ، والمسيطر الأعظم على تصرفاتهم وأعمالهم .

وجاء الإسلام والعالم على هذه الصورة .

وبدأت الدعوة إليه ، وفكرة القوة مازالت مهيمنة على عقول الناس وأذهانهم ، وبالتالي على تصرفاتهم وسلوكهم .

وكان منهج الدعوة إلى الدين الجديد يقوم على أساس أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، وعلى أساس الاقتناع حتى يدخل الإيمان إلى قلوب الناس وعقولهم وأذهانهم ، ليكون إيماناً صادقاً لا إكراه فيه ، ولا عجب في ذلك فرسالة الإسلام هي نشر السلام والمحبة والرحمة والإخاء ، والإسلام وهو خاتم الأديان جاء ليجمع من العالم أسرة واحدة تعيش في إطار واحد ، لا يفرق بين أهله طمع أو مصلحة خاصة ، وإنما تجمعهم أخوة وتعاون وتضامن ، لا فرق

بين واحد وآخر ، لأن الجميع لآدم وآدم من تراب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

جاء الإسلام وهدفه الأول إصلاح المجتمع والقضاء على الشرور ، وفي مقدمتها الحرب ، ولهذا حرم الظلم وأمر بالعدل حتى مع من تبغضه أشد التبغض ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ... أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨) .

كان هذا هو منهج الإسلام .

ولكن ماذا كان منهج القرشيين وهم أول من عارض الدين الجديد ، ووقف في وجه الدعوة ، وحاول بكل السبل والوسائل أن يوقف تيارها ويمنعوا انتشارها ، أملا في الإبقاء على دين الآباء والأجداد ، الذي كان يتفق مع ميولهم إلى السلطة والسيطرة ، ويتفق مع مجتمعاتهم الذي تقوم فيه طبقة للأسياد وأخرى للعبيد ؟

من الحقائق الثابتة التي لها سند من التاريخ والواقع ، أن الحرب فُرضت في الإسلام والمسلمون - وفي مقدمتهم الرسول الكريم - نافرون منها ، ولكن قريشاً كانت في معارضتها الدائمة للدين الجديد تدفع بالموقف إلى حد الصراع والمواجهة واستخدام القوة .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن الرسول الكريم بذل من جانبه محاولات لصد إيذاء قريش سامياً ، دون أن يبدي هو أو أحد من أتباعه مقاومة تذكر ،

ولجأ المسلمون جميعاً في ظل توجيهات الرسول الكريم إلى الصبر الجميل على الإيذاء والتعذيب .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن الرسول الكريم رغبة منه في المحافظة على السلام ، وفي معالجة أمور الدعوة باللين وبالمجادلة بالتي هي أحسن ، أمر رجاله - وقد رأى ما نزل بهم من الأذى والتعذيب والتمثيل - أن يتركوا أرضهم وديارهم ، وأن يتفرقوا في الأرض ، وطلب منهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية « فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لَكُمْ فرجاً مما أنتم فيه » .

وكانت قريش بمحاولاتها المتعددة لوقف الدعوة وهدمها من أساسها تدفع - كما قلت - بالموقف إلى نقطة الخطر ، وأعنى بها نقطة الصدام المسلح .
ولكن ما هذه المحاولات ؟

إن محاولات قريش تنقسم إلى نوعين :

١ - محاولات ضد الرسول بوصفه الداعي للدين الجديد وحامل لواء الدعوة .

٣ - محاولات ضد المسلمين الأوائل الذين اجتمعوا حول الرسول وآمنوا برسالته .

واتخذت محاولاتهم ضد الرسول صوراً متعددة ...

• لجأت قريش إلى أبي طالب عم الرسول - وقد كان الرسول يعيش في كنفه - وطلبت منه أن يصد ابن أخيه عن دعوته ، وأن يمنعه من الاستمرار

فيها ، « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا . وضللَّ آبائنا ، فإما أن تسكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، وإنا لك على مثل ما نحن عليه من خلافه فذكفك » .

ومرة أخرى قالوا له « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تسكفه عنا أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » .

• أوفدت قريش إلى أبي طالب وفدًا ومعه عمارة بن الوليد ، وقال له الوفد « يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أهد فتى في قريش وأجمله ، نخذه فلك عقله ونصره ، واتخذ ولدًا ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك وسفَّه أحلامهم ، فننقله ، فإنما هو رجل برجل » ، وكان عرضاً غريباً يرفضه بطبيعة الحال رجل عاقل يحب ابن أخيه حباً ملك عليه مشاعره ووجدانه ، فقال لهم « والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً » .

• ثم اتفقوا - وقد رأوا الوفود ترد إلى مكة وتسمع عن محمد وعن الدين الجديد - على الإدعاء بأن محمداً ساحر ، جاء بقول هو السحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، وكان هدفهم أن يقتنع الوافدون برأيهم فلا يؤمنون بالإسلام .

• وسار عتبة بن ربيعة يعرض على الرسول المال والجاه والسلطة ليترك دعوته « يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت في العشيرة والمكان في

النسب ، وإليك قد أنيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعةهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ... إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تسكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وجاءه رد رسول الله مقلماً حتى أن الرجل رجع إلى قومه فقال « إنما سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالكهانة » .. ، وكان رد رسول الله بعض آيات من سورة « فصلت » ﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي أَذَانِنَا وَقُرْآنِهِمْ بَيْنَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّنَا غَامِلُونَ ﴾ (٥/١) .

• ثم دبر رجال قريش لقاءات مع الرسول ، وطلبوا منه أن يسأل ربه بعض أمور يطلبونها ...

* « سل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليست عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليسكن فيمن يبعث قصى ابن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق » .

** « سل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك به عما نراك تبغى » .

*** « فأسقط علينا من السماء كسفاً ، كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل » .

وكان رد رسول الله في كل مرة هو :

* « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئت من الله بما بعثنى به » .

*** « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا » .

*** « ذلك إلى الله ، إن شاء يفعله بكم فعل ، أتطلبون منه المعجزات ؟ أليست المعجزات فيما خلق ولكنكم لا تفهمون ؟ »

• وبعثت قريش بالأسود بن المطاب والوليد بن المغيرة يطلبان من رسول الله أن يعبد ما تعبد قريش ، وأن تعبد قريش ما يعبد هو ، فأبى عليهم ذلك ، مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَتَّبِعُ مَا يُبَدِّلُونَ مَا أَعْبُدُ » (الكافرون ٢/٣) .

• وبعد أن باءت المحاولات السابقة بالفشل ، اتخذت قريش خطوة أكثر إيجابية ، فقررت مقاطعة بنى هاشم وبنى المطاب ، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب حتى يسلموا إليهم محمداً ، وكتبوا بذلك عهداً في صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، وخرجت عشيرة رسول الله من مكة ، وتركوا ديارهم ، وذاقوا أشد أنواع الحرمان طيلة عامين ، نفذ فيها زادهم ، ولم يجدوا سبيلاً إلى استعاضته لأن الأسواق أغلقت في وجوههم حتى اضطروا إلى أن يتغذوا من ورق الشجر . . .

وأخيراً علت إرادة الله على إرادة قريش ، فاجتمع خمسة من رجالها

هم هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وقرروا نقض الصحيفة ، ونجح تدبيرهم ، وعاد محمد وأصحابه إلى مكة بعد أن كانت الأرضة قد أكلت الصحيفة إلا فاتحتها « باسمك اللهم » .

● وأخيراً ائتمروا به ليتخلصوا منه ، وعرض الأسود بن ربيعة عليهم « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين يذهب » ، ولم يجد هذا العرض قبولا ، خوفاً من أن يقبلة الناس فيسير بهم إلى مكة ويأخذه أمرها من أيدي القرشيين ...

ثم جاءهم الحل الذي قبله الجميع على الفور على لسان أبي جهل « أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جليداً حسيباً في قومه نسيباً ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه ، فنستريح منه ، فإذا تم ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعاً ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضوا عنا بالدية » ...

وصدر الأمر الإلهي لرسول الله « لا تبث هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبث عليه » . . ، وكان هذا الأمر إذناً للرسول بالهجرة إلى المدينة ، فخرج إليها ، وتبعه المؤمنون الأولون الذين تحملوا العذاب بروح الصبر والسماح على حد قول المؤرخ وليم موير « آثروا نهذ الوطن وراءهم ظهرياً فراراً من أن يُفتنوا عن دينهم العزيز عليهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً » .

أما محاولات قريش ضد المسلمين الأوائل فكانت صورة قاسية للتعذيب الوحشي الذي يخرج عن حدود الإنسانية والإحساس البشري ، فما هو ذا

مثلاً أمية بن خلف وقد علم بإسلام عبده بلال ، يصب عليه جام غضبه ، ويذيقه العذاب ألواناً ... أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الخشن ، وأسلمه إلى أيدي الصبية الصغار ، يعبتون بحره وجذبه كحيوان ، والحبل يحز في عنقه ، وهو صابر ، ثم منع عنه الطعام والشراب ، وكان إذا حميت الظهيرة يخرج به ويطره على ظهره في بطحاء مكة ، ويأمر بالصغر فيوضع على صدره ، ويقول له « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » ، وكان رد بلال دائماً وباستمرار « أحد ... أحد » ، فيزيد أمية في تعذيبه .

وبنو مخزوم أخذوا عمار بن ياسر وأباه وأمه سمية إلى الرمضاء ، حيث تفننوا في تعذيبهم بكل ما توحى به غلظتهم الجاحدة ، فألبسوا عماراً درعاً من حديد في يوم صائف ، وطحروه أرضاً وتركوه معرضاً لأشعة الشمس الملهبة ، وضاق أبو جهل بصبرهم فطعن سمية بحربة فماتت ، وكانت أول شهيدة في الإسلام .

وصبَّ السادة جام غيظهم على كل من دخل في الإسلام ، فاتخذوا التعذيب وسيلة لإعادتهم سيرتهم الأولى ، ولكن الإسلام كان قد تمكن من قلوبهم ، فصبروا على التعذيب ، حتى جاء أمر الرسول بالهجرة .

لم يعد أمام قريش بعد كل هذه المحاولات - وقد رأت الدعوة تنتشر وتسير في طريقها والداخلين في الإسلام يتزايدون عدداً وإيماناً ، والإسلام يقوى ويشتد - لم يعد أمام قريش سوى حمل السيف وحشد القوى ومواجهة المسلمين وجهاً لوجه في معركة حاسمة يقضون فيها على محمد وأتباعه .

ومن خلال هذا التفكير بدأ الاستعداد لجولة جديدة ، تستخدم فيها

بالقوة كوسيلة أخيرة في محاولات قبر الدعوة والقضاء عليها .

ومن خلال هذا التفكير كان الصدام المسلح ... وكانت الحرب .
وكان لابد للإسلام من أن يقر الحرب ، بعد أن وصل الأمر بين قريش
والمسلمين إلى حد محاولة فتنهم وردمهم عن دينهم بالقوة ، وإلى حد الرغبة
في المواجهة المسلحة .

ورأى الرسول أنه لابد من أن يلجأ المسلمون إلى السيف ، يستخدمونه
في مواجهة عدوهم حتى ينتصر الحق .

وصدر الأمر الإلهي باستعمال السيف وبقبول الحرب ﴿ وَقَاتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ (البقرة
١٩٠/١٩١) .

وقبول الإسلام للحرب التي فرضتها عليه قريش ، يستند إلى المبدأ الذي
يقول إن أقوى الفرائز الإنسانية هي حماية النفس والدفاع عنها ، وتبعاً لهذه
الفريزة أصبح للإنسان المسلم حق طبيعي غير متنازع فيه لحماية نفسه ، لا من
الوجهة المعنوية فقط ، بل ومن الوجهة المادية أيضاً ، وهذه الفريزة هي دون
شك حجر الزاوية في الجهاد للحياة ، بل هي دون ريب من أسباب التقدم
والارتقاء .

ونخرج من هذا بحقيقتين هامتين ...

الحقيقة الأولى هي أن الإسلام أجاز الحرب في حالتين إثنين فقط
هما صد العدوان ودفعه ، ثم حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة .

(١) حالة الدفاع عن النفس والدين أى رد العدوان وصد الاعتداء ،

ومقاومة البغى قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ فَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ (الحج : ٣٩) .

ويتلاحظ أن هذه الآية تقرر أن المسامحين في موقف المظلوم المبدوء بالقتال

والعدوان ، وهى إذن برد الظلم ودفع العدوان ، وبشرى من الله بنصرهم ، وتنويه بما يكون لهذا النصر من نتائج عظيمة من تمكين لهم فى الأرض ، ليسلكوا فيها مسلك الصلاح والإصلاح ، وليقيموا فيها روح الحق والعدل ، فيأمنون بالمعروف ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

ويتلاحظ أيضاً أن الآية جعلت الدفاع عن النفس من غرائز الإنسان ،

ومن ضروريات بقائه وحفظ حقوقه وصيانة وجوده ، حتى لا يقوى الشر ويسعى شرى الفساد والظلم ، ويستبد القوى بالضعيف ، ويُمال بين الناس وبين حرياتهم ، وتعطل شعائر الدين التى يجب أن تتوفر لها الحرية ، وتهدم أما كن العبادة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥١) ... و ... ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج : ٤٠) .

ويتلاحظ أيضاً أن الآية تستهدف دفع يد البغى والعدوان ، ومن هنا

يكون القتال مشروعاً وواجباً ، لأنه تقليم لأظافر الطغيان وكسر لشوكة الطغاة ، ويكون الاستسلام للبغى والسكوت على الظلم تمكيناً للشر

وتأكيده ، وتدعيماً لاستمراره ، وإطلاقاً ليداه ، ولهذا وجبت مواجهته ،
والتزام كل مسلم مؤمن بالله بأن يدفع هذا العدوان ويتصدى له بكل
ما ملكته يداه ووسعه جهده .

وبتلاحظ أيضاً أن الآية قد أوضحت أن المسلمين لم يسعوا إلى قتال أو

مواجهة مجرد القتال أو المواجهة ، وأنهم لم يرتكبوا خطأ أو إثماً بقولهم
ربما الله ، ولم يعتقدوا على أحد بعبادتهم الله ، ولم يقع منهم ضرر يعود على
أحد وهم يدخلون في الإسلام ، وإن إيمانهم بالله لا يكون مبرراً للعدوان
عليهم ، وظلمهم من أهل الكفر والضلال ، الذين أدانوا إيمانهم بعقول
فاسدة لا تميز الطيب من الخبيث ، ولا تعرف الخير من الشر ، ولا تعي الهدى
من الضلالة ، ولا تفرق بين الحلال والحرام .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ
حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾
(البقرة : ١٩٠ / ١٩١) .

وفي هذه الآيات يلزم الله المسلمين بالقتال طالما وقع عليهم عدوان من

أعدائهم ، رغبة في صدهم عن الإسلام وعن الدعوة إليه .

ولقد أوضحت الآيات ما كان من إخراج المسلمين من ديارهم ،

وإجبارهم بالضغط والقسر والقوة على ترك بلدهم ، التي ارتبطوا بها مولداً
ونشأة وحياة ، ومحاولة فتنتهم بعضهم لبعض عن دينهم ، وهي فتنة وصفتها

الآيات بأنها أشد من القتل ، لأن الفتنة قتل للمسلمين ، ولأن المفتن في دينه يحسر الدنيا ويحسر أيضاً الآخرة .

وتوضح الآيات أن الكفار هم البادئون بالقتال ، فإن اعتدوا وجب على المعتدى عليهم رد العدوان وصدده ، ومواجهة المعتدين بكل القوة والعنف ، حتى يرجعوا إلى رشدهم ، ويتلاحظ أن الله تبارك وتعالى أمر في هذه الآيات المسلمين ألا يكونوا معتدين ، لأنه تعالى لا يحب المعتدين ، وهذا يعني أن المسلمين كانوا يسلكون طريق السلام ، دون أن يفسكروا في البدء بالعدوان ، لأنهم إذا بدءوا بالعدوان خرجوا عن تعاليم الله ، وهدوا بذلك ركنًا هامًا من أركان إسلامهم ، لأن من أسس الإسلام الصحيح إطاعة الله وإطاعة رسوله .

٣ - كان رسول الله مكلفاً بأن يبلغ رسالته إلى الناس كافة وليس إلى أهل مكة فقط ، فقد قال تبارك وتعالى في سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٦٧) ، وقد حددت الآية مناط رسالة الرسول وفحوى الحكمة من رسالته ، فهو عليه السلام الصلة بين الله والناس ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (المدثر : ١) ، و... ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر : ٩٤) ، وعليه إذن أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس جميعاً ، وأن يحيطهم بكل أهدافها ومبادئها وحدودها وتعاليمها وأبعادها ، ثم يرون بعد ذلك رأيهم في حرية كاملة ، دون ضغط أو إرهاب أو خوف من بطش ، فمن شاء منهم آمن ، ومن شاء منهم بقي على دينه... المهم أن تصلهم الرسالة ، وأن يعرفوا أمورها ، وأن يناقشوها في حرية كاملة. وقال رسول الله في هذا المعنى « بعثت إلى الأحمر والأسود » ، وقال (٦ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

« أرسلت إلى الناس كافة ، وبى ختم النبىون » ، وقال أيضاً « أنا رسول من أدركت حياً ، ومن يولد بعدى » ، وهذه الأقوال كلها تؤكد أن رسول الله أدرك أن مهمته هى إبلاغ رسالة ربه إلى كل الناس ، وأن يبذل فى ذلك قصارى جهده ، لأن ذلك هو صلب رسالته .

انطلاقاً من تسكليف الله تبارك وتعالى ، واقتناع الرسول عليه الصلاة والسلام ، شرع رسول الله فى أعقاب صلح الحديبية يكاتب الملوك والأمراء من حوله ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويعرض عليهم رسالته ، وكانت الدول البارزة ذات الشأن وقتها هى الفرس ، والروم ، والحبشة ، وكانت الأولى دولة مجوسية تدين بعبادة النار ، أما الروم والحبشة فكانتا تدينان بالنصرانية ، وكانت هناك دول وإمارات أخرى صغيرة بعضها خاضع للفرس ، وبعضها خاضع للروم ، وبعضها مستقل كاليمامة وعمان والبحرين ...

وكتب رسول الله إلى ملوك وأمراء هذه الدول يدعوهم إلى الإسلام ، ويكلفهم بأن يبلغوا هذه الدعوة إلى أممهم وشعوبهم ، فبعث دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك فارس ، وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وحاطب بن أبي بلتعجة إلى المقوقس عظيم القبط ، وشجاع بن وهب إلى الحارث الغساني أمير الفساسنة ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى بالبحرين ، وسليط بن عمرو العامري إلى ملكي اليمامة ، وعمر بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندي ملكي عمان من بلاد اليمن .

وتلقى هؤلاء جميعاً رسائل رسول الله ...

بعضهم ردّ رداً كريماً ... كنجاشي الحبشة ، فقد قبل كتاب رسول الله

« ووضعه على رأسه وعينه ، وأسلم ، وشهد شهادة الحق ، وكتب إلى رسول الله قائلًا « ... فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقًا ومصدقًا ، وقد بايعتك ، وأسلمت لله رب العالمين » ... وكالمقوقس^(١) فقد أحسن استقبال مبعوث رسول الله ، وأكرمه ، وبعث إلى رسول الله بجاريتين هما مارية وسيرين ، وثياب ، وأهداه بغلة هي الدليل .

وبعضهم كان موقفه يتأرجح بين القبول والرفض ... كملك الروم الذي
ناقش أبو سفيان - وكان موجودًا بالشام في تجارة - في أسر رسول الله ودعوته وصفاته ، وكان عالمًا أوتي علم النجوم ، فتقبل كتاب رسول الله تقبلًا حسنًا ، وقبل الإسلام دينًا ، وأذن لدعوة الحق ، إلا أن قومه عارضوه وخيروه بين الإسلام والإذعان وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وقيل إنه دعا كبير الأساقفة وسأله كتاب الرسول ، وطلب رأيه ، فأجابه بأنه مصدق به ، فقال قيصر « إنه كذلك ، ولكني لا أستطيع ، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم » .

وبعضهم أساء التصرف ، وكان موقفهم من الرسالة موقفًا غير كريم ...
ككسرى فارس الذي مزق رسالة رسول الله^(٢) ، وكتب إلى باذان^(٣) أميره على اليمن « إنه بلغني أن رجلا من قریش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فمر إليه ، فاستقبله ، فإن تاب ، وإلا فابعث إلى برأسه » ، وفي رواية أخرى « إن تكفيني رجلا خرج بأرضك يدعوني إلى دينه ، فابعث إليه برجلين جليدين يأتيا نبي به » ... وكذلك كان موقف الحارث بن أبي شمر الفسائي ،

(١) المقوقس لقب واسمه جريج بن مينا .

(٢) لما علم رسول الله بذلك قال « مزق الله ملكه » .

(٣) أرسل باذان رجلين إلى رسول الله لتنفيذ الأمر كسرى فأبلغاه أن رسول الله قال لهما إن كسرى قد قتل ، فلما تأكد من هذا القول صدق وآمن وأسلم ومن معه .

فقد رمى بكتاب رسول الله بعد أن قرأه ، وعزم أن يسير إليه بجيش ليقاّله ، وكتب يستأذن قيصر الروم الذي منعه وكتب إليه ألا يفعل .

لقد أسفرت كتب رسول الله عن موقفين :

الأول ... إسلام بعض الملوك والأمراء كنجاشي الحبشة ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، ومالك بن عمّان جيفر وعبد ابنى الجلمدى ، وملك صنعاء الحارث الحميري ، وأهل اليمن ، وملك غسان جبلة ابن الأيهم^(١) .

الثانى ... رفض الباقين للدعوة وحجبها عن شعوبهم .

ولاشك في أن منع إبلاغ الرسالة إلى بعض الشعوب يجعلهم جاهلين بأمرها ، وهذا يتعارض تماماً مع ما كُلف به الرسول من ضرورة إبلاغهم بها ليروا فيها رأيهم .

والوقوف في وجه وصول الدعوة إلى مختلف الشعوب ، أمر يتعارض مع إرادة السماء ، ومن هنا أصبح من الواجب اتخاذ كافة إجراءات الإبلاغ ، ولو أدى الأمر إلى المواجهة المسلحة ، فهذا عبء ألقته السماء على عاتق رسول الله ، وكان عليه - عليه السلام - أن ينفذ إرادة السماء وأن يحقق أمرها .

* * *

ونحن إذا تابعنا آيات القرآن الكريم في الجهاد والقتال - والقرآن هو دستور الإسلام - وإذا رجعنا إلى ظروف التنزيل ، وتتبّعنا الحوادث في

(١) ارتد عن الإسلام في عهد عمر .

حياة الرسول الكريم وحروبه ، لا يخالجنا أدنى شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام ، هي حرب دفاعية يجب على المسلمين كافة المشاركة فيها ، طالما أنهم قادرون على القتال ، ومن هنا أصبحت فريضة الجهاد واجبة على كل مسلم ومسلمة .

ورغم أن الإسلام أباح القتال وأذن به ، إلا أنه قيد رد الاعتداء بالقدر اللازم دون مجاوزة أو تفكيك « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (البقرة : ١٩٤) .

وكذلك حرّم الإسلام العدوان بغير حق ، واعتبره عدواناً غير مشروع كما دعا إلى مسالمة المسلم وإيقاف القتال إذا دعوا إلى ذلك ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ « البقرة : ١٩٠ » .. و .. ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الأنفال : ٦١) ﴿ فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَاحِزُواهُمْ وَلَا تَمْلَأْ أَعْيُنُكُمْ آلِ الْيَمِينِ ﴾ (النساء : ٩٠) ومعنى هذا أن الإسلام لا يبيح حرب الإعتداء ، وإنما يبيح الحرب الدفاعية لرد الإعتداء ، الذي بدأه العدو أو للدفاع عن حق ثابت ، أو لتأمين الدعوة ، أو لنصرة المظلوم ، وهي في كافة هذه الحالات تتصف بأنها حرب دفاعية .

نخلص من ذلك إلى أن أسباب الحرب في الإسلام تختلف اختلافاً جوهرياً عن أسباب ودوافع الحروب الأخرى التي قامت في عهود ما قبل الإسلام ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإسلام ارتقى بفكرة الحرب وسما بأسبابها وهذّب دوافعها ، ذلك أن الحرب التي أباحها الشريعة الإسلامية لم تكن حرب عدوان ، ولم تقم رغبة في سيطرة ، ولم تسع إلى فرض نفوذ أو امتداد

حدود ، ولم تسكن تبغى مجداً أو عزاً أو سلطاناً أو ملكاً ، وإنما كانت حرباً دفاعية دفاعاً عن الدين والنفس والعقيدة .

والحرب التي أباحها الشريعة الإسلامية تقع استثناء للقاعدة العامة ، وهي السلم الدائم بين البشر والتعايش الأخوى من أجل حياة فاضلة ، والتعاون الصادق على البر والتقوى ، بما يعود على الإنسان بالخير والصلاح والاستقرار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة : ٢٠٨) .

والحقيقة الثانية : هي أن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهو أيضاً دين الحق والحرية والعدل والنظام ، وما دامت الحرب في فطرة الناس ، فتهديب فكرتها وأسبابها ودوافعها وحصرها في أضيق الحدود التي تتفق وإنسانية الإنسان هو غاية ما تحتمل فطرة البشر ، وخير الوسائل لتحقيق ذلك هو ألا تكون الحرب إلا للدفاع عن النفس والعقيدة وعن حرية الرأي والدعوة إليه ، وأن تُرعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية ، وهذا هو ما قرره الإسلام ، وما نزلت به آيات القرآن الكريم .

ولسكن ...

كيف حقق الإسلام ذلك ؟

وكيف هدب فكرة الحرب ؟

وضع الإسلام أسباباً محددة تقوم من أجلها الحرب ... منها دفع الظلم والبغى والاضطهاد ورد العدوان والدفاع عن النفس والمال والأهل والوطن

والدين ، واشترط الإسلام في هذا الدفع أن يكون على قدر الاعتداء ، فلا يصح أن يجاوز حده ... ومنها حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة ويتحدد موقفهم منها ، إذ يجب - والإسلام رسالة إجتماعية إصلاحية شاملة ، تنطوي على أفضل مبادئ الحق والخير والعدل - أن توجه الدعوة إليه إلى الناس كافة ، وخاصة أنها جاءت وقد بلغت الإنسانية رشدًا ، وأراد لها الله أن تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذي يملئها عليها تفكيرها ، وأن تستهدف بما أودع الله تعالى فيها من عقل وفكر ، وبما حملت إليها السماء من وصايا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا : ٢٨) ، إذن ، فعلى الناس وقد عرضت عليهم أن يحددوا موقفهم منها ، فهي رسالة عقلانية تخاطب العقل والمنطق والفكر السليم الصحيح والحواس المعينة الواعية دون ضغط أو إرهاب ، فإذا وقف تفكير فئة عند حذميين ، ولم تقبل عقلا ومنطقا الدعوة ، فهي لها حرية مطلقة في ذلك ، ولكن إذا حاولت أن تقف في طريق الدعوة ، اعتبر هذا التصرف إعتداءً يجب صدّه ومقاومته ... ومنها تأمين حرية الدين والعقيدة للمؤمنين الذين يحاول الكفار فتنهم عن دينهم ... ومنها تأديب ناكثي العهد من المعاهدين الذين لم يستقيموا على الوفاء بالعهد ونكثوه ، وأطلقوا ألسنتهم ضد الإسلام والمسلمين بالسوء والكذب ، وآذوا المؤمنين ، وعندئذ يحل المساهون أنفسهم من العقد أو العهد ، ويقاثلونهم بكل العنف والشدة ، حتى يلزمهم عهدهم ، فلا نكث ولا تطاول ولا إعتداء ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ يُذْهَبُونَ ﴾ (التوبة : ١٢) .. ومنها إغاثة المظلومين المؤمنين والانتصار لهم من

ظالمهم ، ففي ذلك انتصار للإسلام ، وفيه أيضاً تأكيد للأخوة الإسلامية التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، والتي وردت حديثاً عن رسول الله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، والمقصود بالإغاثة هو الانتصار والتعاطف وتلاحم المشاعر في ظل أخوة إسلامية صادقة أمينة ، امثالاً لقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ الْفَضْرُ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

وبجانب هذه الأسباب المحددة التي وضعها الإسلام وأباح من أجلها خوض غمار المعركة ، وضع أيضاً قواعد محددة واضحة يلزم المسلمون باتباعها ...

منها قتال الذين يقاتلون المسلمين فقط ، والاستمرار في قتالهم إلى أن ينتهوا من موقفهم ، وتتوفر للمسلمين حرية الدين والدعوة إليه ، ولا تبق فرصة لفتنتهم عن دينهم أولصدهم عن الإسلام ، أو صد المسلمين عن الدعوة إليه ، وقد حرص الإسلام على أن تكون المواجهة ضد المقاتلين وحدهم ، ولا تمتد آثارها إلى غيرهم ... ومنها الاستجابة إلى السلم إن لاحت بارقة أمل فيه ، والسكف عن القتال إذا كف عنه الأعداء ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ كَهَا ﴾ (الأنفال : ٦١) و ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٣) ... ومنها قصر الحرب على الجيش المقاتل ، فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ،

«ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا» (أخرجه مسلم) ،
وسئل رسول الله «أى الأعمال أفضل ؟» فأجاب «إيمان لا شك فيه وجهاد
لا غُلُول منه» ، وأوصى أبو بكر أسامة فقال «لا تخونوا ، ولا تغدروا ،
ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً
ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً
إلا للأن كل ... ومنها تحريم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار ، لأن النار
على حد قول رسول الله «لا يعذب بها إلا الله» ، وهذه صورة للرحمة الإسلامية
ومدى تعاملها الإنساني ، مع الإنسان الذى أكرمه الله تبارك وتعالى ، وجعله
فى مكان الصدارة من خلقه ، ولقد كان رسول الله بجانب أنه نبي للمحنة نبي
المرحلة أيضاً . . . ومنها إتلاف الأموال ، والتخريب فى بلاد العدو ، وتجويع
العدو ، والدعوة الصادقة الأمانة إلى الإحسان إلى الأسير ومعاملته بأدب
ورقة وتعاطف ومنع إيذائه أو حرمانه من الطعام ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى
حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان : ٧) ، فإتلاف الأموال ضرر ،
والتخريب شر ، وحاشا لله أن يكون الإسلام وهو خاتم رسالات السماء سبباً
من أسباب الضرر ، أو أسلوباً من أساليب الشر ، وكيف يكون كذلك
وهو رسالة الخير والصلاح ، وحرمان الأسير من التعاطف والتعامل الحسن
أمر لا يقره الإسلام ولا يقبله ، كما أن حرمانه من الطعام يتعارض مع
إنسانية الإنسان التى كرمها الإسلام كل تكريم ، هذا فوق أن الأسير وهو
سجين فى أسرهِ يصبح لا حول له ولا قوة ، فإن كان غنياً فلا سبيل له إلى
ما يملك ، وإن كان قوياً فقد فى أسرهِ كل مقومات قوته ، فإذا ما انقطعت
الصلة بينه وبين مصادر رزقه أو عمله ، وجب على أسرهِ أن يكرمه ، ويحسن

إليه ولا يؤذيه بكلمة أو بحرمانه من طعام أو شراب ... ومنها مراعاة الجانب
 الإنساني وتأكيده الرحمة في الحرب والوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة
 ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْتَضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ
 جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا
 بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ...﴾ (النحل : ٩١ / ٩٢) ...
 ومنها عدم التفاخر بالنصر أو التظاهر بالقوة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا
 مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيَاءَ النَّاسِ﴾ (الأنفال : ٤٧) ، فهؤلاء الذين خرجوا
 لم يخرجوا دفاعاً عن حق ، أو انتصاراً لمبدأ ، أو تحقيقاً لفكر محدد ، وإنما
 خرجوا كفرةً بنعمة الله ، وتعالى على الناس ، وقد ظنوا في أنفسهم قوة
 لا تغلب وسيقاً لا يكسر ، لقد خرجوا بهذه الصورة فتحطمت قوتهم
 وهُزموا ، ولهذا فإن الله يضرب المؤمنين بهم المثل حتى لا يكونوا مثلهم ...
 ومنها التمسك بكل أسباب العدالة بعد الانتصار ، فليست الحرب في الإسلام
 لإجبار الناس على أمر يكرهونه ، أو إلزامهم بما لا يريدون ، فالدعوة إلى الإسلام
 قامت على الحكمة والموعظة الحسنة ، والقرآن قرر صراحة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي
 الدِّينِ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ
 وَقُلْ لِلَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران : ٢٠)
 و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

ولقد قرر الإسلام ضمن ما قرره من قواعد أن الحرب جهاد ، وأن الغنائم ليست هدفاً من أهداف الحرب ، فقد جاء رجل إلى رسول الله وقال « يا رسول الله يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا » فأجابه الرسول « لا أجر له » ، ولقد حلا للبعض أن يدعى أن الغنائم كانت دافعاً أساسياً وحافزاً قوياً للجهاد ، وأن رسول الله كان يُفري المسلمين ويعدّم الخيرات لحملهم على الإسهام في القتال ، ولكن الحقيقة والتاريخ والواقع تؤكد كلها أن القتال في الإسلام لم يستهدف الغنائم ، وأن هذا الادعاء باطل ، فالمسلمون كانوا يرجون مجيئهم وخروجهم رحمة الله ، والتقرب إليه ، مضحين بكل ما يملكون مالا أو حياة أو أسرة ، لم توقعهم أسباب الحياة عن حمل السلاح ومواجهة العدوان ، ومناشدة الله أن يكونوا من الشهداء الأبرار ، ولقد أوضحت ذلك الآيات الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَذَكَّرُوا أَوْ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَفَا اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ (النساء : ٩٤) ... و... ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٨) ... و... ﴿ لَسَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُْ الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أعدَّ الله لهمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٨٨/٨٩) .. و... ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ ... ﴾ (التوبة : ١١١) .. و... ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ (النساء : ٧٤) وهذه الآيات كلها وغيرها كثير تلقى الضوء على حقيقة مشاعر المسلمين ، وتجلي مافي داخل نفوسهم وهم يخرجون للقتال ، وواضح أنهم لم يخرجوا ابتغاء مكسب عاجل أو غنيمة دنيوية ، فإنهم من خلال إيمانهم بهذه الآيات والتوجيهات الربانية والمحمدية، يعرفون أن ثمن خروجهم أكبر من أى مكسب محلى مادي دنيوى ، وأى مكسب هذا الذى يرقى أو يقساوى مع ما وعدهم به ربهم من جنات وخيرات ﴿ أولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وانطلاقاً من أن قتال الأعداء ليس بقصد الإبادة ، وإنما بقصد حقن شوكة العدو وكسر مقاومته فقد وضع الإسلام أسلوباً مذهباً لمعاملة الأسرى ، فاق به من سبقه من الحاربين ، وبزاً به من لحق به منهم ، وكان فى منهجه رحيماً بهم وبإنسانيتهم ، وسوف نعرض لذلك فى جزء قادم من هذا الكتاب .

وقرر الإسلام نظام الجزية على غير المسلمين فى البلاد التى يفتحها المسلمون ،

نظير قيام الجند المسلمين بحمايتهم وحراسة بلادهم وثغورهم والدفاع عنها ، وكان الإسلام سمحاً فى أمر الجزية ، فقرر أن تسقط إذا وافق أهل البلاد من غير المسلمين على المشاركة فى القتال ، على أن يتكفلوا بالدفاع عن أنفسهم وأرضهم ، ولا يفوتنا أن نوضح بل تؤكد أن الجزية فى الإسلام لم تكن ضريبة كتلك التى يفرضها الفاتحون ويقررونها ويلزمون بها أعداءهم ، وإنما كانت فى مقابل ما تلزمه الحكومة الإسلامية من دفاع عن أهل الامة ، وإعانة للجند الذين يقومون على حمايتهم ، واشترط الإسلام فيها أن تكون صادرة عن

يد ، أى عن قدرة ، فلا يُظلمون ولا يُرهقون ، كتب خالد بن الوليد لنسطونا حين دخل الفرات « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنما عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلكم الذمة والمنعة ، وما منعناكم فعليكم الجزية ، وإلا فلا » ، ومعنى هذا أن الجزية على المنعة والحماية تدوم بدوامها وتمتنع بزوالها ، وبؤيد ذلك ما ذكره البلاذرى فى « فتوح البلدان » والأزدى فى « فتوح الشام » من رد الصحابة لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية ، حين اضطروا إلى تركهم لخوض موقعة اليرموك بأمر من أبى عبيدة ، وعجب أهل حمص كلهم نصرهم ويهودهم من رد المسلمين أموالهم إليهم ، وأدركوا أن الجزية أخذت أساساً جزاء منعهم فوجب ردها عند العجز عن المنع .

من ذلك نرى أن الإسلام قد هذب فكرة الحرب ، وارتقى بأسبابها ، ولو كانت الأمم التى جاءت من بعده نهجت نهجه وسلكت سبيله لعاش العالم كله فى أمن ورخاء وطمأنينة ، ولاتجهت مساعى الناس وجهودهم إلى رفاهية البشر وسعادة الإنسان ، إلا أن الحقيقة المرة التى تصدم الإنسان هى أن الأمم التى جاءت فى عهود ما بعد الإسلام ، تناست ما وضعه من أسس وقواعد وما شرعه من مبادئ وأصول ، وأعادت الأمم إلى شيرة الأمم التى سبقت ظهور الإسلام ، وأصبحت الحرب وسيلتها إلى السيطرة والامتلاك ، وآمن الناس بأن الحرب مظهر من مظاهر سيادة الدولة ، وأنها لذلك عمل مشروع تلجأ إليه الدولة متى شاءت ، ونتيجة لذلك تعددت الحرب سعيّاً وراء المصالح واقتهاز الفرص ، وتعلات كل دولة بسيادتها الوطنية ، وأصبح

الاحتكام إلى السلاح هو أساس العلاقات الدولية ، كما أصبحت الحرب ضرورة عملية ووسيلة مشروعة ، وفي ظل هذه المعاني قامت الحروب الاستعمارية ، وانتشر الظلم والفساد في أنحاء العالم ، وأصبحت القوة هي السلطة العليا تحكم وتسود ، وعاش العالم في اضطرابات نفسية ومجازر بشرية وأحداث دامية .

وكان السبق الكبير في مضمار التسليح من أخطر الخطوات التي خطتها الدول ، وأصبحت أسلحة القتال مهلكة لكافة الأطراف ، وسيفنى الغالب والمغلوب ، وفي ذلك كتب برتراند رسل « لم يحدث أن كانت القنابل وسيلة لحماية الشعوب ، ولكنها كانت دائماً وسيلة لهلاكها . . . مجرمون أولئك الذين يواصلون التجارب العملية والعلمية لضمان استخدام الذرة للقتل بدل أن يستخدمونها للحياة » .

حقيقة مروعة يعيش فيها العالم ، وقد أعمته النزعة إلى السيطرة والامتلاك ، وليت القائمين على أمره يذكرون أن حمامة السلام مازالت تبحث عن موضع تستريح فيه وتطمئن إليه .

إن المدارس العسكرية التي جاءت بعد الإسلام اتخذت الحرب وسيلة للحياة والبقاء ، فأشاعت في العالم الظلم والخوف ، فليت المسؤولين عن هذه المدارس يراجعون تاريخنا الإسلامي الحنيف ، ويطلعوا على صفحاته ويقفون على ما قرره بالنسبة للحرب . . . وليت المسؤولين الآن عن سياسة العالم يطلعوا على تاريخ الإسلام ، ويدرسون خطوته العريضة ، ليعرفوا

كيف ارتقى بالحرب ، وكيف هذب أسبابها ، ووضع لها الضوابط ،
وجعلها وسيلة لخير الإنسان لا لضرره ، وكيف حصر أضرارها
في أضيق الحدود . . . ليتهم يفعلون ذلك فيسلكون مسلك الإسلام
وينهجون نهجه ، فيكون في ذلك رخاء البشرية وسعادتها وأمنها .
ليتهم يفعلون . . .

كان من الطبيعي أن يواجه المسلمون أعداءهم الذين يعتقدون عليهم ، وأن يحموا في وجههم السلاح ، وأن يخوضوا ضدهم المعارك حفاظاً على دينهم وعقيدتهم ووجودهم ، ولقد كان من فضل الإسلام على البشرية والإنسانية أن وضع للحرب أصولاً ومبادئ ، وحدد لها الأسباب والمبررات ، وجعل لها دستوراً يتفق مع إنسانية الإنسان ، يتضمن منهاجاً وأسلوباً يحصر ضررها في أضيق الحدود ويمنع شرها من أن يتفاقم .

ولما كانت الحرب الإسلامية قد شغلت فترة هامة من التاريخ ، وكانت لها آثارها السياسية والاجتماعية في مختلف البقاع والأقطار والأنحاء ، وامتدت هذه الآثار في التاريخ حتى شغلت العالم كله مفكره وعسكريه ، أصبحت الحرب الإسلامية موضوعاً له أهميته وحيويته ، تناوله الباحثون والمؤرخون بالدراسة والبحث والمقارنة ، واتفق كثيرون منهم مع ما جاء به الإسلام من نظم وما أحدثه من تطور وما وضعه من حدود وأساسيات ، واقتنعوا بكل ما أدخله الإسلام على الحرب وأساليبها ، إلا أن البعض من هؤلاء كان له موقف مخالف تماماً فأعلنوا آراءهم في مؤلفات صدرت لهم بلغات مختلفة ، والشئ المؤسف حقاً أن هؤلاء في كل ما كتبوا كانوا يستهدفون متعمدين تشويه الاطار الجليل الذي أحاط به الإسلام شئون الحرب ، وتلطيخه كذباً أو جهلاً ، ليكون قذى في عيون المتطلعين إليه .

ولما كنّا نعرض فى هذا الكتاب لجهود الإسلام فى تنظيم الحرب والارتقاء بأسبابها وتعديل نظمها ، ونسعى إلى وضع الحقائق من التاريخ والواقع أمام الناس ، فمن حقّ بحثنا علينا وحتى يكون شاملاً لسكافة وجهات النظر ، ومن حقّ القارىء أيضاً لتسكون الصورة أمام ناظره متكاملة للموضوع ، رأينا أن نعرض للآراء التى هاجمت نظرية وأسلوب الحرب فى الإسلام ، ومع احترامنا السكامل لحربة الرأى ، فإننا نحس بأن هذه الآراء كانت وليدة عوامل أخرجت البحث العلمى عن طبيعته ، وابتعدت به عن أصوله ، فاتخذ أصحابها موقفاً متصلياً متمنعاً ، بدت فيه كراهيتهم للإسلام أصلاً ورفضهم له أساساً ، فهاجموا بعنف فى كل ما قدموه للمكتبات ، وهم بذلك أبعّدوا أنفسهم عن دائرة البحث العلمى السليم المفيد إلى دائرة العداء المستحكم والخصومة التى لا تحدها حدود .

ونحن إبراء للذمة وأداء للأمانة نتناول آراء هؤلاء ومزاعمهم فنعرضها ونشرحها ونعقب بالرد عليها ، ولسكننا أولاً وقبل أن نعرض الآراء نعرض لهؤلاء الذين رفعوا راية الهجوم على الإسلام ، وهم على وجه التحديد بعض من كتاب الغرب الذين أطلق عليهم اسم المستشرقين^(١) ، وهؤلاء ينقسمون إلى طوائف ثلاث ...

• طائفة متمصبة لعقيدتها ، حجبها التعصب الأعمى فأعماها عن الحق . . كتابها فى كل ما كتبوا لم يخرجوا عما يمليه عليهم تعصبهم الذى

(١) المستشرقون جمع مستشرق والفعل استشرق ، والألف والسين والتاء فى أى فعل تدل على الطلب واستشرق أى أخذ فى دراسة كل ما يتعلق بالشرق من علم ودين ولغة .

يدورون في سجنه لا يستطيعون منه انطلاقاً ، فعنه يعبرون عن أفسكارهم وبه يشنون حملاتهم ، ولا يتقيدون بأصول البحث العلمى وقواعده ، همهم الأكبر الإساءة إلى الإسلام وتغطية ما شرّعه الله وإخفاؤه ، خوفاً من أن يكون ظهوره على وجهه الحقيقى هدماً لعقائدهم وسحقاً لمحاولاتهم .

• طائفة لا تهتم بالحقائق بمقدار اهتمامها بمخططات استعمارية ،

فهم قد شرعوا أقلامهم لخدمة الاستعمار الذى يقف من ورأئهم يدفعهم ويدفع لهم ، فالمنتسبون إلى هذه الطائفة هم أصلاً رواد الاستعمار ومؤيدوه ، يمهّدون أمامه الطريق ، ويهيئون له السبيل ، همهم الأكبر وواجبهم المكلفون به هو إضعاف الإيمان بالإسلام وزعزعة الثقة به وإثارة الشكوك من حوله ، فتضعف بالتالى المقاومة عند المؤمنين ، ويوطد الاستعمار بذلك أقدامه فى أراضي المساميين التى تمثل منذ زمن بعيد أمله وغايته .

• طائفة تمثل الإباحية ، وهذه لا تعتنق ديناً ولا تتقيد بعرف ولا

ترتبط بقانون ، غايتها الكبرى أن تخضع المجتمعات البشرية لشهواتها وملذاتها وأغراضها .

هذه الطوائف الثلاث اجتمعت على مهاجمة الإسلام والنيل منه ، ومن عجب أنها فى حى التعصب نسيت البديهيات وحكمت الهوى ، وبعدت عن أصول البحث العلمى ، فزورت العلم والتاريخ والواقع ، وأقامت أسانيداً وادعاءاتها على أساس من التفكير القاصر غير السليم ، وهى بذلك تكون قد خالفت أصول التربية التى نادى بها رجال التربية فى العصر الحديث ،

والتي تدعو إلى غرس مادة التفكير السليم الصحيح وتثبيت جذورها .

يرى الفيلسوف هربرت سبنسر أن الجهل والتأثر بالعاطفة هما مصدر كل نقص يسود الأبحاث الاجتماعية ، وأن التأثر بالعقيدة الدينية يحول بين المرء وبين تفهم أية مشكلة مهما كانت واضحة ويسيرة .

ويرى لوك أن الباحث يخطئ إذا وضع تفكيره تحت أفكار الآخرين وخضع لها ، وإذا جعل عاطفته تسيطر على تفكيره فلا يقبل رأيا لا يتفق ومزاجه ، وإذا جعل تفكيره محددًا لقلة الاطلاع ، وإذا كان الباحث نفسه ضعيف التفكير لا يصلح أساسًا لأن يقوم بمهمته .

ويقول الدكتور مظهر سعيد في كتاب « علم النفس النظري والتعليمي »
« إن التميز الأعلى من عوامل فساد التفكير » .

هذه الآراء الثلاثة تلقى ضوءاً على نوع البحوث التي قامت بها الطوائف، الثلاث التي أشرنا إليها ، وتجعلنا نلمس منذ الوهلة الأولى مدى التحامل والتزوير وتعمية الحقائق ، وهذا يؤكد لنا في صراحة ووضوح ، أن بحوثهم ودراساتهم قامت على أساس غير علمي وعلى تفكير سقيم وعلى جهل تام بحقائق الإسلام ، كما سيوضح ذلك في مناقشاتنا لآرائهم التي نقصرها على فقط ثلاث كانت محور دراساتهم وبحوثهم .

الأولى ...

أن الإسلام قام بالسيف والتهديد والعنف ، وأنه لولا القوة .
ما وجد الإسلام من يؤمن به ويدخل فيه ، ومن القائلين بذلك الأب

« لا مانس » ، وهو راهب يسوعى لبنانى نشر كتاباً بالفرنسية اسمه « مهد الإسلام » ، عرض فيه وجهة نظره ، وقال إن الدعوة قامت على السيف وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت في رقاب الناس لما بلغ الإسلام هذا المدى الذى بلغته دعوته ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة شرقاً وغرباً .

الثانية ...

إن الغزوات والحروب التى قام بها المسلمون لم تخرج عن كونها عمليات سلب ونهب ، ومن القائلين بذلك « مارجوليوث الإنجليزى » فى كتابه « محمد ، وشروق الإسلام » وقال فيه إن غزوات المسلمين هى امتداد طبيعى للغارات التى كانت تقوم بها العصابات فى الجزيرة ضد القبائل التجارية فى العهد الجاهلى .

الثالثة ...

إن الرسول عقب ما أصاب المسلمين فى أحد ، وبعد أن رأى كثرة القتلى منهم فى هذه المعركة ، أراد أن يطيب قلوب أصحابه ، فأصدر ما سماه « ايرفنج » فى كتابه « حياة محمد » قانون الجبر .
هذه هى ادعاءات المهاجمين من زاوية الحرب فقط ، وهناك ادعاءات أخرى تتصل بزوايا الإسلام الأخرى ، حمل لواءها مستشرقون كثيرون منهم كازانوفا الفرنسى ، وكايتانى الإيطالى ، وجبيردى نوجان ، وليس هنا مجال بحثها والرد عليها .

النقطة الأولى

أثارها القس لامانس ، وهى تخالف واقع التاريخ الإسلامى ، فثبت أن النبي عاش فى مكة ثلاث عشرة سنة ، دعا فيها إلى الدين الجديد سرّاً ثم جهرّاً ، وكان خلال هذه السنوات مضطهداً هو ومن آمن به ، وصبر الجميع وتحملوا الاضطهاد دون أن يقاوموا الاضطهاد أو يردوا العدوان .. وهاجر رسول الله إلى المدينة رغبة فى أن تبتعد فترة الصدام ، وفى أن يعطى الفرصة لقريش لتراجع موقفها من الدعوة ، وعاش المسلمون فى المدينة يشهدون تجمع قريش واستعداداتها ومحاولاتها اجتذاب اليهود والقبائل العربية الأخرى لتكوين جبهة متحدة ، تتضامن للقضاء عليهم ، فلما بلغ الأمر منتهاه ، أصبح على المسلمين واجب الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم ، وصدر الأمر الإلهى بأذن لهم بالقتال ويدعوهم إلى الجهاد وإلى الإقدام فى الحرب والثبات فى وجه الأعداء وتجدد الاستشهاد فى ميدان القتال وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصديقين ، وهنا تبرز سمة من سمات الحرب فى الإسلام - وإن كان قد سبق لنا الإشارة إليها إلا أننا نعيد هذه الإشارة ليبقى البحث متصلاً - فالحرب الإسلامية لم تكن حرباً هجومية أو حرب اعتداء ، وإنما كانت حرب دفاع ووقاية وصد لدفع الأذى وتأمين الدعوة وحماية الداخلين فى الإسلام ، وكان الجهاد بالسيف فى سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً من نكّل عنه أو تخاذل فى ميدانه فقد اقترف إثمًا واستوجب غضب الله ، ويؤيد هذا الاتجاه السكاتب العملاق عباس المقاد فى كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» فيقول «إن الإسلام قد استخدم السيف فى أشد الأوقات حاجة إليه حين

كان السيف مرادفًا لحق الحياة ، وكل ما أوجبه الإسلام فإنما لأنه مضطر إليه .
أو مضطر للتخلي عن حقه في الحياة وحقه في حرية الدعوة وحرية الاعتقاد
والعلاقة بين الناس في دستور الإسلام علاقة سلم ، حتى يضطروا إلى الحرب
دفاعاً على أنفسهم أو اتقاء لهجوم مبيت تكون المبادرة فيه ضرباً من الدفاع ،
وإلا لما حاربوا الفرس والروم في الوقت الذي سألوا فيه الحبشة رغم عدم
دخولها في الإسلام .

فالمسلمون إذن خاضوا غمار الحرب اضطراراً وليس اختياراً ، وكان
شعارهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (البقرة ١٩٠).
والقرآن الكريم وهو دستور الإسلام أمر المسلمين بأن يترفقوا
بالمشركون ، وأن تكون الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ،
وجدل الناس بالتي هي أحسن ، ولقد نزلت آيات كثيرة تأمر الرسول
بأن يعلن على الناس أنه إنما جاء بالحق من الله ، فمن اهتدى فلنفسه
ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ، وأنه ليس جباراً على الدين ولا وكيلاً عن الناس
ولا مسيطراً عليهم ، وإنما هو منذر ومبشر ، وقد سلك رجاله مسلكه هذا
في رفق ولين ، دون تعنت أو إرهاب ، وتؤكد هذا السلوك الآيات التي
وردت في القرآن الكريم ونعرض منها ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٥٦) ...
﴿... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾
(آل عمران ٢٠) ... ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا

بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ (آل عمران ٦٤) ... ﴿... أَفَأَنْتَ تُكْرِهُمُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾
 (يونس ٩٩) ... ﴿... قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَمَّا عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس ١٠٨) ... ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل ١٢٥) ..
 ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾
 (الكهف ٢٩) ... ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق ٤٥) ... ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مَذَكَّرٌ. كُنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية ٢١/٢٢) .

وتاريخ الإسلام يؤكد أن المسلمين التزموا بحدود القرآن ، فكانوا قبل كل حروبهم يعرضون الإسلام أو الجزية ، فإذا رُفض عرضهم حملوا سلاحهم وخاضوا المعارك ، وبذلك كانت القوة هي السهم الأخير الذي استخدمه المسلمون ، هذا هو ما التزم به قادة المسلمين على طول تاريخهم ..
 خالد بن الوليد في بلاد الفرس ، ثم من بعده سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن العاص في مصر ، وأبو عبيدة في بلاد الشام ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وغيرهم من القادة الذين قادوا الجيوش وحملوا دعوة الإسلام إلى مختلف البلدان .

وحق اليهود على عهد رسول الله ، فما أن وصل عليه السلام إلى المدينة واستقر مقامه بها ، حتى عرض عليهم معاهدة حسن جوار ، وعاشوا مع

المسلمين في المدينة لهم كل حقوقهم ، إلا أنهم نقضوا العهد - وسيرد ذلك فيما بعد - وحالفوا أعداء الإسلام ، وتصدوا للمسلمين ، فكان لابد من مواجهتهم ووقوع الصدام المسلح معهم .

وثمة أمر هام تناساه أو نسيه الأب لأمانس ومن جرى في فكره ، وهو أن أساس الإيمان بالإسلام هو العقل والاطمئنان القلبى والحرية ، هذا الأساس لا يمكن أبداً أن يتفق مع الإكراه أو الخوف أو التهديد ، فالإسلام كان يخاطب العقل والفكر ، فإذا استجاب العقل واقتنع الفكر ، دخل الإسلام إلى القلب يملؤه نوراً ، فلا يجد صاحبه سبيلاً غير سبيل الإسلام .

ثم إن الله تبارك وتعالى وقد رضى الإسلام ديناً خلقه وختماً للأديان كلها ، أبى أن يدخله خائف أو جبان ، ولم يرض له أن يصل إلى مستوى أن يكون من رجاله من يخالف عقيدته أو قلبه أو روحه ، ويؤمن به تحت التهديد والوعيد ، ويستجيب لدعوة يفرضها السيف .

في هذا الصدد ، قال الكاتب الصحفى الأستاذ محمود فهمى عبد اللطيف في تعليق له على كتاب « عبقرية محمد » للكاتب العملاق مؤلف العبقريات الأستاذ عباس محمود العقاد « أى إرهاب هناك وأى سيف ، وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحداً لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنقاً ولا يصيبون أحداً بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم ليأذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ولا يُخرجون أحداً من داره ، ثم هم لم يسلموا على حد السيف خوفاً من النبي الأعزل المفرد بين قومه الفاضلين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين ، ولما

تسكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليمدوا أحداً بعدوان أو يستطيخوا بالسلطان ، فلم تسكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تسكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع ، وهكذا أمرهم محمد بأمر الله .

فالإسلام ليس دين حرب وقتال ، وما كان رسول الله رسول حرب وقتال ، يطلب الحرب للحرب ، أو يطلبها وله مندوحة عنها ، وما احتسب إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها ، والإسلام عقيدة ونظام ، وشأنه شأن كل عقيدة ونظام في أخذ الناس بالطاعة ، ومنعهم من أن يخرجوا عليه .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب « . . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلاً في أنها لا تعمد بشيء حسناً كان أو سيئاً ، إذا جاء عن طريق الإكراه فمن آمن مكرهاً فلا إيمان له . . . الدين إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان في ماله أو دمه أو عرضه .. الدين إيمان ، والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به فكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد ، إن النفس لا تفضح على مثل هذا الدين إلا السكره وللمت والازدراء ، وإنها ستلفظه كما تلفظ المعدة الطعام الفاسد ، وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا إكراه في الدين حتى تنفتح له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب يخاطبها مخاطبة الروح للجسد » (١) .

ونحن نضع أمام القراء بعض الأمثلة التي تمثل رداً مقنعاً على دعوى القسيس ، ودليلاً ساطعاً على أن الإسلام لم ينقشر بالسيف ، وأن الداخلين فيه دخلوا عن إيمان وعقيدة واقتناع .

ونحن نسوق هنا قصة إسلام عمر بن الخطاب فهي دليل ليس في حاجة

إلى برهان ...

خرج عمر من بيته يوماً وقد اقتنع بأن في القضاء على محمد لإنقاذ لدينه ودين آبائه وأجداده ، فتقلد سيفه ، واتجه باحثاً عن محمد والشرر يقطاير من عينيه ، وبينما هو في الطريق نحو العصفاء حيث كان الرسول ، لقيه نعيم ابن عبد الله فسأله « أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ » ، فقال « أريد هذا الصابى الذى فرق أمقرش وسفّه أحلامها وسب آلهتها وحقر آلهتنا ، سوف لا أهدأ حتى أقتله » ، فقال له « لقد غرّتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً . . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم . . خعتك (زوج أختك) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك قد أساما ، فعليك »^(١) .

وهكذا تدخلت الأقدار لتحول كره عمر للإسلام إلى حب وإيمان ، ولتجمل من عمر عدو الإسلام سنداً له وقوة .

(١) جاء في بعض الروايات أن الذى لقيه هو سعد بن أبى وقاص فسأله « أين تريد يا عمر » فقال « أريد أن أقتل محمداً » ، فقال له « أنت أصغر وأصغر من ذلك ، تريد أن تقتل محمداً وتلدعك بنو عبد مناف تمشى على الأرض » ، وعرف أن سعداً قد أسلم فسل سيفه ، وهاجمه فقال له سعد وقد رفع سيفه في وجهه « مالك يا عمر لا تصنع ذلك بجنتك وأختك » فسأله « صبيثا » ، فقال له « نعم » .

دخل عمر بيت أخته ، فوجدها وزوجها يقرآن القرآن ، ومعهما خباب .
ابن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة « طه » ، فقال « لقد أخبرت أنكما بايعتما
محمدًا على دينه » ، ثم بطش بسعيد ، ثم ضرب أخته فشجها ، فقالت له « ياعدو
الله ، أتضربني على أن أوحى الله تعالى ؟ ، لقد أسأمت على رغم أنفك ، فاصنع
ما أنت صانع » ، فطلب من أخته الصحيفة ليطلع ما بها « اعطني هذه الصحيفة
أنظر ما هذا الذي جاء به محمد » ، فقالت أخته « يا أخى أنت نجس ولا يمس
إلا الظاهر » ، فقام في وداعة واغتسل ، ثم مسك بالصحيفة وقرأ ﴿ طه ﴾ .
ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ ، حتى وصل إلى
قوله تعالى ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾
ولان قلبه ، واطمأنت نفسه ، وأخذته سمو الدعوة وإعجاز الآيات وجلالها ،
فقال لأخته « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » .

وعرف عمر من خباب بن الأرت أن الرسول خصه بدعوة « اللهم أيد
الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » « نخرج من عند فاطمة
قاصداً رسول الله ، لاليقتله ، ولكن ليعلم إسلامه » « دلى يا خباب على محمد حتى
آتيه فأسلم » ، وأصبح عمر قوة تحمى الإسلام وتذود عنه ، عن ابن عباس
رضى الله عنه « لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه ، نزل جبريل عليه السلام
على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » ،
وأفزع إسلامه القرشيين حين أعلنه عليهم جميل بن معمر الجحفي « يا معشر
قريش أتيتكم بنياً مريع ، إن ابن الخطاب قد صبأ » وكان تعليقهم « لقد
انتصف القوم منا » .

ونضع بين يدي القارىء قصة إسلام عمير بن وهب، فهى الأخرى دليل

يهدم دعوى الأب لامانس...

وعمر كان من شياطين قريش ممن يؤذون رسول الله وأصحابه بمكة ، وكان ابنه وهب أسيراً لدى الرسول بعد بدر ، أسره رفاعه بن رافع ، وأسلم بعد ذلك .

التقى عمير بصفوان بن أمية عند الكعبة بعد بدر ، فتذاكرا القليب يوم مصابهم ، فقال صفوان « مافى العيش والله خير بعدهم » ، ثم أغرى عمير بقتل الرسول أخذاً بثأر قتلى بدر ، فقال له عمير « لولا دين علىّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، كنت آتى محمداً حتى أقتله » ، فقال صفوان « علىّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا » ، ودفع إليه بسيف شجذه ثم سقاه سماً ، وأمره أن يذهب إلى المدينة كأنه يطالب بابنه أسير المسلمين ، ثم يقتل رسول الله ، فوافق عمير بشرط أن يظل الأمر سرّاً بينهما ، فلا يعرف به أحد غيرهما « فأكتم عنى شأنى وشأنك » ، وغادر عمير مكة ، واتجه صفوان إلى قومه يقول لهم « أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر » ، وكأنه قد وثق أن تدبيره سينجح ولم يخطر بباله أن أمراً سيحدث ..

قدم عمير المدينة ودخل على رسول الله فى المسجد وكان معه عمر ابن الخطاب ونفر من المسلمين يذكرون يوم بدر ، فلما رآه عمر قال « هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا بشر » ، وطلب رسول الله من عمر أن يتأخر ، ثم واجه عميرا وسأله عما أقدمه ، فقال « قدمت لهذا الأسير الذى فى

أيديكم (يقصد ابنه وهب) ؟ » ، فأعاد الرسول سؤاله « أصدقني ما أقدمك ؟ » ،
فأعاد عمير إجابته الأولى ، فقال له الرسول « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية
في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، فإذا شرطت لصفوان في الحجر » ،
ففرغ عمير ، وقال « ماذا شرطت له !! » فأجابه الرسول « تحملت له بقتلى على
أن يعول بنيك ويقضى دينك ، والله حائل بينك وبين ذلك » فذهل عمير ،
وقال « أشهد إنك رسول الله ، وقد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأنى
به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا
أنا وصفوان ، فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذي هداني
للإسلام وساقني هذا المساق » ، فأمر رسول الله أصحابه « فقهوا أخاكم في
دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره » .

وبينا صفوان ينتظر البشرى ويرتقب الخبر الذي سيهز الدنيا بأمرها ،
جاءه من المدينة من يحمل إليه نبأ إسلام عمير ، الذي لم يلبث أن عاد إلى مكة
محمدياً مؤمناً قوياً جليلاً داعية للإيمان بالله ورسوله ، فأسلم على يديه كثيرون ،
وقد روى أنه نادى صفوان عند عودته « أنت سيد من سادتنا رأيت الذي
كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له ، أهذا دين ؟ أشهد أن لا إله إلا الله
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . فلم يجبه صفوان وقال لقومه « قد عرفت
حيث لم يبدأ بي قبل منزله أنه قد نكس وصبأ ولا أكله أبداً ، ولا أنفعه
ولا عياله بنافعة » .

وقصة إسلام لبديد بن ربيعة دليل آخر ...

ولبديد شاعر مشهور ، كانت له مكانة مرموقة ، وكان يتمتع بتقدير
وإعجاب العرب جميعاً ، حتى أنه علق مرةً إحدى قصائده على باب الكعبة

فحالت شهرته وقدرانه الشعريه دون أن ينبرى له المنافسون ، وذات يوم علقت سورة من القرآن بجانب قصيدة له (ذكرت بعض المراجع أنها سورة البقرة ، وبعض المراجع أنها سورة الرحمن) ، فأعجب بها أيما إعجاب ، رغم أنه كان على دينه ، واعترف بأن الآيات القرآنية تفوق معنى وبلاغة وأصالة شعره ، ثم أسلم ، فلما عرض عليه المعجبون بشعره أن يجمعوه في ديوان أجابهم « لم أعسد أذكّر شيئاً من شعري ، إذ أن روعة الآيات المنزلّة لم تترك لغيرها مكاناً في ذاكرتي » ، وبإسلام لبيد فقدت قريش واحداً من فحول شعرائها الذين أطلقتهم ليهاجوا الإسلام ويخطوا من قدره ... خسرت برغبته هو بعد اقتناعه دون تدخل أو تهديد .

وما حدث مع لبيد حدث مرّة أخرى مع الطفيل بن عمرو الدوسي ..

والطفيل كان شريفاً في قومه ، قدم مكة فشى إليه رجال من قريش وقالوا له « أبا الفضل ، هذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل أمره بنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين المرء وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ، فلا تكلمه ولا تسمع منه » ، ووجد الطفيل رسول الله يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن ، فقال له « سمعت كلاماً حسناً وأنا ما يخفى عليّ الحسن من القبيح » ، ثم توجه إلى بيته عليه السلام ، فتلا عليه الرسول القرآن ، وعرض عليه الإسلام ، فأجاب ، وعاد إلى المدينة ، وعرض الإسلام على قومه فاستجابوا له ، وأسلموا .

أسلم لبيد والطفيل بعد أن استمع كل منهما إلى آيات من القرآن ، وأحس بصدق كلماته ، وأدرك بوعيه وفكره وعقله أن مصدرها فوق

مستوى البشر ، لعجز البشر على أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٢٣) .

ولقد شاركتها التأثير بآيات القرآن كثير من المستشرقين منهم « السكونت هنرى دى كاسترى » فقد قال فى كتاب « الإسلام تأثيرات ومباحث » « ... لقد شعرت بأن قلبى ينكسر بين أضلعي ، وارتعشت منى العظام ، وصرت كالنشوان ، وذلك لما غمرنى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » ، ومنهم « كلود فارير » عضو مجمع الخالدين قال « إن آيات القرآن جميلة ، وتحسن تلاوتها ، فيها نفمة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد ... » ، ووصف « بارتلى شتيلر » القرآن فقال « إن القرآن قد بقى أجمل مثال للغة التى أنزل بها ، ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الإنسانى ، وهذا الأمر يفسر لنا التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا أن محمداً فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لابد من أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل من عند الله » ، وقال « جيمس متسشر » « من مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيماناً وسحراً ... هذا هو القرآن الكريم معجزة نبي الإسلام » ، وقال « جوستاف لوبون » « حسب هذا الكتاب جلالة ومجداً ، أن الأربعة عشر قرناً التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف من أسلوبه الذى لا يزال غصا كأن عهده بالوجود أمس » .

المهم هو أن لبيد والطفيل وغيرها دخلوا الإسلام بتأثير القرآن وإيس تحت تهديد بالسيف أو يغيره .

ونواصل سرد بعض من الأدلة والبراهين التي تؤكد كذب ما ادعاه الأب لامانس ، فهناك قصص أخرى كثيرة لا تنتهى ولا حصر لها نشير إلى بعضها بإيجاز شديد .

قصة إسلام سعد بن أبي وقاص الذى هددته أمه « لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي » ، فقال لها « والله لو كان لك ألف نفس ، خرجت نفسك نفسك ، ما تركت هذا الشيء (يقصد الاسلام) » .

وقصة إسلام زيد بن حارثة الذى رفض أن يعود مع أبيه وعمه وفضل أن يبقى بجانب رسول الله ، قالاً للرسول « جئناك فى ولدنا عندك ، فأمننا علينا ، وأحسن فى فدائه فإننا سندفع لك » ، فقال لها « أدعوه نغيروه » ، فقال زيد « ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى مكان الأب والعم » .

وقصة إسلام خالد بن سعيد بن العاص الذى سمع أبوه يقول وقد مرض « إن رضى الله من مرضى هذا لا يعبد إله ابن أبى كبشة بمكة أبداً (يقصد رسول الله) » ، فقال خالد مخاطباً ربه « اللهم لا ترفعه » .

وقصة إسلام حمزة بن عبد المطلب الذى سمع أن أبا الحكم بن هشام (أبا جهل) آذى رسول الله وسبّه وبلغ منه ما يكره ، فاتجه إلى حيث وجدته بين قومه ، ورفع القوس وضربه فشجّه شجرة منكراً ، وقال « أشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول » .

وأخيراً نعرض قصة من خارج الجزيرة ... فعندما حاصر المسلمون الهرمزان قائد الفرس فى قلعة تستر ، قال لهم « إن فى جمعيتى مائة نشابة ، والله

ما تصلون إلى مادام معى نشابة ، وما يخيب لى سهم ، فما خير إسرائى إذا أصبت
منكم مائة بين قتيل وجريح ، إني أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع
بى ماشاء .

وأجابه القوم ، فرمى بالقوس وسلم نفسه ، فساروا به إلى أبى موسى
الأشعرى قائدهم ، فبعث به بصحبة أنس بن مالك والأحنف بن قيس إلى
الخليفة عمر ، فلما وصلابه وجدا الخليفة نائماً بالمسجد ، فسأل الهرمزان « أين
حرسه وحجابه ؟ » فأجيب « ليس له حرس ولا حاجب ولا كاتب ولا إيوان »
فمجب وقال « ينبغى أن يكون هذا الرجل نبياً ، فلا يكن ، فإنه يعمل عمل
الأنبياء » وأعلن إسلامه وعاش بالمدينة .

وسر الإصرار على ذكر هذه القصة أن بطلها رجل حرب من غير العرب
واجه المسلمين فى معارك كثيرة ، وكانت القوة هى سبيله فى الحياة ، فلما وقعت
عيناه على صورة حية من صور الإسلام الخالدة ، وأحس بالفارق الكبير بين
الضلال الذى كان يعيشه وبين الحق والنور والهداية التى يعيش فيها المسلمون ،
ترك دين قومه واعتنق الإسلام ، لا بالسيف ولا بالتهديد ، ولكن بالافتناع
العقلى والقلبى ثم بالإيمان .

والسؤال الآن بعد هذا العرض

هل أحس الأب لامانس بحلاوة القرآن كما أحس به زملاء له ، وأدرك
أثره فى نفسية قارئه أو سامعه ؟

هل وقف الأب لامانس على ما تعرض له المسلمون الأوائل من تعذيب

وتنكيل وإرهاب دون أن يملكوا ما يصدون به هذا العدوان ؟ .

هل طالع تاريخ الإسلام وعرف كيف دخل فيه وآمن به هؤلاء الذين ياعوا الأهل والولد والمال ، واشتروا ديناً حقيقاً رأوا فيه الصلاح والهداية والأمان ؟

هل وقف على أسباب هجرات المسلمين المتعددة المتتالية إلى الحبشة وإلى المدينة ؟

إن دعواه بأن الإسلام انتشر بالسيف والتهديد لإدعاء لا يقوم على أساس علمي أو واقعي أو تاريخي ، فالسيف لم يكن أمراً مقصوداً لذاته وإنما كان شيئاً عارضاً ليس من مقومات الدعوة ولا يحسب عليها ، وإنما كان الحارس الذي يحمي الدعوة ويدفع عنها حين لم يُجد النصيح ولم تُغن الجينات .

وهذا يعرض سؤال نفسه ؟

ما رأى الأب لمانس وقد أغمد سيف الإسلام منذ أكثر من ألف عام . وما زال الإسلام يعمر القلوب في ملايين من البشر ، ولا يزال الناس يدخلون في الإسلام أفراداً وجماعات وليس للإسلام سيف ، بل إن الأمور تسير في صورة عكسية ، فالسيوف اليوم تُشهر ضد الإسلام في بقاع مختلفة وما زال المسلمون على دينهم وإيمانهم .

النقطة الثانية

حمل لواءها « مارجوليوث » ، فقال إن الغزوات كانت عمليات سلب ونهب ، وإنها كانت امتداداً للإغارات التي كانت تقوم بها العصابات ضد قوافل التجارة .

ذكر مارجوليوث في كتابه « محمد وشروق الإسلام » ، « قد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على السلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومستطراًسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة ، فقد كان هناك على أى حال سبب ماحقيق كان أو مصطنع يدعو إلى الانتقام منهم ، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها في حقه ولا في أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً ، لأن قتل أحدهم رسولاً لمحمد لا يصح أن يكون سبباً يقتدرع به الانتقام منهم » ، ورغم الأعذار التي أبدأها بشأن أهل مكة واليهود ، فإن الثابت أن الغزوات كانت دفاعاً عن الإسلام وصدا للعدوان ودفعاً للايذاء وتمكيناً للدعوة من أن تصل إلى الناس . . . وكأنه وغيره وقد وصل بهم التفكير إلى هذا الحد من الهراء المفضوح ، كانوا يريدون من المسلمين أن يمدوا أعناقهم أمام قريش وأمام أعدائهم ليقطعوها ، أو أن يعودوا أدرأجهم مستسلمين للقوة ويتركوا دينهم ويلفظوا حياتهم التي فرضتها عليهم الأقدار ، حتى لا يقال عنهم حين يدافعون عن أنفسهم أنهم حملوا سيوفهم وخاضوا المعارك رغبة في النهب والسلب .

أسلوب رخيص يستهدف تشويه الصورة الجميلة للكرامة الإنسانية التي تتعرض للامتهان فتثور دفاعاً عن نفسها .

وإننا لنفسأل أى سلب وأى نهب هذا الذى تحدث عنه مارجوليوث وغيره .

لقد حارب المسلمون فى بدر بعد أن أفلتت تجارة قريش واستطاعت أن تبعد عن طريق المسلمين ، بعد أن غير أبو سفيان طريقها واتخذ الساحل طريقاً آخر باعد بينه وبين المسلمين ونجا بقافلته ، فقد صمت قريش على اللقاء والمواجهة رغم الأصوات التى ارتفعت تدعو إلى العودة إلى مكة بعد أن أفلتت القافلة « إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا » ، وغضب أبو جهل وعارض الدعوة إلى العودة ، وصاح فى القوم « والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم عليها ثلاثاً ، فنحرق الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجهنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » ، وكان الصدام فى بدر .

وواضح أن خروج المسلمين لاعتراض القافلة والاستيلاء عليها لم يكن بقصد النهب أو السلب ، وإنما كان استرداداً لحقوق لهم سلبت فى مكة ، حيث تركوا بيوتهم وأموالهم وأموالهم ، وهاجروا إلى المدينة استجابة لدعوة الرسول وهربا من إيذاء قريش وجمعاً لكلمة المسلمين وتوحيداً لجهتهم ، وكان من حقهم استرداد أموالهم ، فإذا رفضت قريش فلا مانع من وضع اليد على أية قافلة لهم ، وواحدة بواحدة .

ولعله لم يغيب عن فكر مارجوليوث أن اعتراض المسلمين لقوافل قريش كان هدفاً عسكرياً استراتيجياً ، يستهدف تعطيل تجارتهم وتهديمهم فى مواصلاتهم ، بما نسميه فى عصرنا الحديث « بالحرب الاقتصادية » ، فإن ارتباك إقتصاديات قريش تؤثر دون شك على استعداداتها العسكرية المستمرة لمواجهة المسلمين ومحاربتهم ، فوق أنه يؤثر تأثيراً مباشراً على

معنوياتها ، بالإضافة إلى أن اعتراض القوافل دليل على أن المسلمين في المدينة قد أصبحت لهم قوة تستطيع أن تثير المشاكل أمام قريش وتهدد مصالحها ، ولعل ظهور مثل هذه القوة على فترات زمنية يلزم قريشاً بأن تعيد التفكير من جديد في علاقاتها مع الدعوة الجديدة والداخلين فيها ، سواء الذين يعيشون في مكة تحت الضغط والإرهاب ، أو الذين يعيشون في المدينة .

لقد نسي مارجوليوث ومن رأى رأيه ونطق بمنطقة أن رسول الله ترك ملوك العرب وأمرأها على إماراتهم وممالكهم ، وأنه عامل أعداءه وقت انتصاره معاملة طيبة نابعة من الخلق الإسلامي الكريم ، فيهود خيبر حين عرضوا أن يبقوا على أرضهم التي آلت للمسلمين بعد الفتح أبقاهم الرسول ، وكذلك فعل مع يهود وادي القرى ، فقد ترك الأرض والخييل والبساتين في أيدي أهلها وعاملهم على نحو ما عامل به يهود خيبر .

أرسل رسول الله عمرو بن العاص إلى مملكة عمان ومعه كتاب إلى جيفر وعباد ابن الجلندي ملكا عمان جاء فيه « إن أدعوكا بدعاية الإسلام ، أسامنا تسامنا ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما » .

وما هو تعليق مارجوليوث على قرار العفو الشامل عن أهل مكة ، الذي صدر في وقت كان الرسول في قمة انتصاره ، وكانت قريش أمامه ذليلة منكسرة ، تفرق عنها أعوانها ، ولم تكن تملك ما تدافع به عن نفسها ؟ كانت لاتعرف ما هو موقف المنتصر الذي قاسى منها في الماضي الكثير ، وماذا سيفعله بها وقد ملك زمام الموقف وأصبح سيده ، فلما فوجئت بالقرار الإنساني الحكيم لم تلبث أن قالت « أخ كريم وابن أخ كريم » .

لم يثبت في تاريخ الإسلام في الشام والعراق ومصر ، أن وضع المسلمون أيديهم على ممتلكات الناس في هذه المناطق ، بل بقيت الأرض في أيدي أصحابها يزرعونها ، وعارض عمر بن الخطاب بشدة فكرة توزيع أرض العراق على الجند ، وأصرّ على أن تبقى في أيدي مزارعيها .

وخالد بن الوليد خاطب أهل الحيرة فقال لهم « إن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا » ، وصالح بن نسطونا وقومه « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا (من نواحى الكوفة) وباروسما (من سواد بغداد) على عشرة آلاف دينار . . . القوى على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله » ، وكتب إلى مرازمة فارس « اساموا تساموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدّوا الجزية » .

وعمر بن العاص تحدث إلى الأساقفة الذين بعث بهم المقوقس ليفاوضوه قبل موقعة بلبيس « نحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجيبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » ، ويقول لرسل المقوقس قبل موقعة بابلينون « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإما أبيتتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم » .

وفي بلاد الشام طلب الأسقف صفورنيوس أن يسلم بيت المقدس للخليفة دون غيره ، وجاء عمر بنفسه وهو خليفة المسلمين ، وصالحهم ، وكان في

لإستطاعته أن يأمر قواته الإسلامية بدخول المدينة ، وكانت لديها إمكانيات التنفيذ ، وجاء في كتاب الصلح « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وستقيمهما وبريئها وسائر ملتها ... إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبيهم ، ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » ، وبذلك يكون عمر قد منح الأمن بالنسبة للنفس والعقيدة والرزق والمال .

ولقد نسى مار جوليوت ومن نطق بمنطقه أن الإسلام حل عن الشعوب التي اندمجت في دولته عبء الضرائب الباهظة الذي أثقل كاهلها يوم كانت تخضع لحكم الفرس وحكم الروم ، ورفع عنها الظلم الإجتماعى والنظام الطبقي ، ونشر في أرجائها العدالة بأعق وأوسع معانيها ، وهذب عواطف البشر ، وجعل الناس سواسية أحراراً في عباداتهم ، إخواناً متساوين في الحقوق متعادلين في الواجبات .

ولعل خير ما نسوقه إلى مار جوليوت نظام الضرائب الذي أقره الإسلام في مصر ، فقد كان هدف عمرو بن العاص نشر الرخاء فيها ومراعاة صالح الأهالى ، وإصلاح كافة النواحي الاجتماعية ، فوضع نظاماً طمأن القبط ، فأمنوا الحكم الجديد وسعدوا به ، واستعان عمرو بزعماء البلاد ، وكان يستشيرهم في كل أمر ، وذكر ابن الحكم « إن زعماء الناس في القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا في حالة الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك » ، وكان إذا اجتمع شيء من المال فوق ما فُرض على قرية أو مدينة ، يُنفق هذا المال الزائد في إصلاح أحوالها ، كما جعل في كل بلد قطعة من الأرض

يخصص ريعها لإصلاح الأبنية والسكنائس والحمامات والطرق ، وخفض عمرو وطأة الضرائب ، وقيل إنه جبي اثني عشر ألف دينار ، وقال المؤرخون إن هذا المبلغ كان أقل بكثير مما كان يجبيه المقوقس ومقداره عشرون ألف دينار ، وكان الروم يجبون من مصر ضرائب كثيرة متنوعة غير عادلة وفوق الطاقة ، وسكن عمرو بن العاص وحد الضرائب ونظمها ، وجعلها في ضوء قدرة دافعها ، وأعفى منها الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، والشيخ الغاني ، والنساء والرقيق والمساكين ، ونحن نضع أمام القراء وأمام مارجوليوث هذين القولين أحدهما للبطريق بنيامين الذي كان قد فرّ إلى الصحراء فبعث إليه عمرو وقد أحس بتعلق القبط به « ليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها ، لا ينالهم أذى ولا تخفّر لهم دمة » ، وعاد بنيامين إلى الإسكندرية وقال لأتباعه « عدت إلى بلدي الإسكندرية فوجدت بها آمنا بعد خوف وإطمئنانا بعد البلاء » ، وثاني القولين لحنا النقيوسي وكان مشهوراً بكرمه للعرب وبفضه للمسلمين « لم يضع عمرو يده على شيء من ملك السكناثس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب ، بل إنه حفظ السكناثس وحماها إلى آخر مدة حياته » .

أما بالنسبة لما أثاره مارجوليوث عن أهل خيبر ، ففيه مجافاة لروح الصدق ، ولما ينبغى أن يتصف به العالم من أمانة والباحث من دقة ، وحقيقة الموقف بين المسلمين ويهود خيبر كان يجب أن تكون تحت أنظار مارجوليوث وهو يدافع عنهم .. إن الواضح تاريخياً أن كبيرهم أسير بن رزام كان دائم الاتصال بقبائل اليهود في الشمال والتي تسكن تيماء وفدك وأم القرى ، ليتعاونوا جميعاً للزحف على المدينة بعد أن فشل مسعاهم لدى غطفان

وكان يثير القبائل ضد المسلمين ويسعى لتأليب القوى ضدهم ، ودعا إلى تجميع قوى اليهود وتأليف جبهة منهم .

وأصبحت علاقة اليهود بالمسلمين تقوم على الضغائن والأحقاد التي لا تهدأ ولا تنتهي ، ولم يشأ رسول الله أن يسايرهم في خصومتهم ، بل رأى أن يمد يده إليهم ، وأن يعطيهم فرصة مراجعة موقفهم ، وبعث وفداً عليه عبد الله بن رواحة ، ليقاوض زعيمهم أسير بن رزام ، وعرض عليه نبذ الحرب والعقارب بين الطرفين ، واستجاب أسير أول الأمر ، ثم خرج مع المسلمين في ثلاثين من اليهود قاصداً رسول الله ، وفي الطريق غلبت طبيعة الغدر عندهم ، فهاجوا المسلمين ، ودار قتال قتل فيه أسير وأصحابه إلا واحداً استطاع الهرب .

وتولى زعامة اليهود من بعده سلام بن مشكم ، فكان من رأيه ضرورة محاربة المسلمين ، وعلم رسول الله بما يدور في خلدهم ، فاهو الدور المطلوب - من وجهة نظر مارجوليوث - من رسول الله ؟ ، إن الأمر يتطلب إعداداً وتحركاً لمواجهة عدوان يُعد عليه .. إذن خير هي التي دفعت بالموقف إلى نقطة الصدام وكان لابد للمسلمين من أن يتجهزوا ويستعدوا ويخرجوا ، فإذا خرجوا للدفاع ولصد عدوان يدبر ضدهم أتهموا بالخروج للسلب والنهب .. ثم أين مظاهر السلب والنهب بعد هزيمة يهود خيبر ، لقد تم الصلح على أساس أن يخرجوا منها ، ويخلصوا بين رسول الله وبين كل ما كان لهم من أرض ومال وخيل وسلاح ، ولكنهم رغبوا عن الخروج ، فسألو رسول الله أن يقيمهم ليعملوا في الأرض ، وأن يكون لهم نصف الثمار ولرسول النصف ، قالوا « نحن أعلم بها منكم وأمر لها » ، فأبقاهم الرسول

في الأرض ، يعملون بها ، وصالحهم على النصف ، وبدأت الشروط صالح رسول الله يهود فذك ووادى القرى وتيماء .

وكان المسلمون قد وضعوا أيديهم على صحائف من التوراة ، فطلبها اليهود من رسول الله ، فأمر بتسليمها لهم ، وعلق على ذلك الدكتور إسرائيل ولفنسن « ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية ، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان ، ويحفظون له هذه اليد ، حيث لم يتعرض بسوء لصفحهم المقدسة ، لم يفعل رسول الله ما فعله الرومان حين فتحو أورشليم سنة ٧٠ قبل الميلاد ، إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولم يفعل أيضاً ما فعله النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة » .

لقد ذهبت المكابرة بهذا المستشرق إلى درجة أنه تجاهل كل ما كان للمسلمين من آثار إجتماعية وإقتصادية في المناطق التي أصبحت جزءاً من دولتهم ، وتناسى كافة الحريات التي منحها المسلمون سواء في العقيدة أو التجارة أو التنقل أو الرزق ، والمسلم به منطقاً وعقلاً أنه لا إستقرار لأى إنسان في أى زمان أو مكان وهو لا يجد الأمن ولا يحس الحرية ويخشى على الرزق .

لقد سقنا في مجال الرد على إدعائه بعضاً من الأمثلة ، وهى قطرة من محيط ، لو أنه طالعها ووقف على تفاصيلها ودقائقها ، ولم يكن سطحياً في دراسته ، لسكنى نفسه شر ارتكاب هذا الجرم في حق الإسلام وحق المسلمين .

النقطة الثالثة

رأى قاله الكاتب الأمريكى إيرفنج .

قال إن رسول الله أصدر ما أسماه بقانون الجبرية ، بعد هزيمة المسلمين فى أحد ، وكثرة القتلى فى صفوفهم . . وهذا رأى ضعيف يبدو فيه التعصب الأعمى الذى حجب عنه الحقيقة فسكأما حجب عنه النور والضياء .

قال إن الرسول اعتمد اعتماداً كبيراً على الجبرية ضماناً لنجاح شئونه الحربية ، وبرر مذهبه هذا بأن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله تقديره ، وكُتب فى لوح الخلد ، قبل أن يبرأ الله العالم ، وأن مصير الإنسان وساعة أجله قد حُددت ، ولا يمكن أن تتقدم أو تتأخر ، وقال إن المسلمين كانوا مؤمنين بهذا ، وإنهم خاضوا المعارك فى ظل هذه التعاليم ، دون أن ينال منهم خوف ، فما دام الموت فى المعارك هو عدل الاستشهاد ، فإن الثقة بالفوز فى حالتى الانتصار أو الاستشهاد هى التى كانت تدفع بهم إلى المعارك دون تردد ، وأوضح إيرفنج أن الرسول أوحى إليه بهذا المذهب فى الوقت المناسب بعد غزوة أحد التى قتل فيها عدد غير قليل من المسلمين ومن بينهم حمزة ، والتى أدت هزيمتهم فيها إلى تحطيم معنوياتهم .

وإدعى أن الرسول أنبأ قومه بأفة لا مفر من أن يموت الإنسان فى

(١) هو من مستشرقى القرن التاسع عشر وضع كتاباً عن سيرة الرسول ، وكان منصفاً فى كثير من أجزائه ، ولكنه كان متجاهلاً فى بعض أجزائه ، وتحدث عن قواعد الإسلام كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأثار حديث الجبرية على أنها قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية .

ساعة أجله المحددة سواء في ميدان القتال أو في فراشه ، ومن خلال هذا المعنى ذهب إيرفنج إلى أن الرسول دفع بفتة من قومه جهلاء إلى الحرب تبغى الفىء إذا انتصرت والجنة إذا ماتت .

ولاشك في أن إيرفنج قد أخطأ في تفسيره ، ولم يعتمد على أبسط وسائل البحث العلمى ، فهو يعتبر الاستشهاد في سبيل الحق هو الجبرية بعينها ، وهذا خلط وتشويه للحقيقة ، يؤكد أنه لم يتعمق في دراسة روح الإسلام ، ولم يقف على أسس حضارته ، ونسى أن القرآن جعل من إرادة الإنسان وعمله مصدر مثوبته وعقابه ، وأن الناس مجزيون بعملهم وبالفية التى تصدر عنها هذه الأعمال ، فإن الله تبارك وتعالى دفع الناس ليسعوا في الأرض وأمرهم بالجهاد في سبيله .

وحاول إيرفنج أن يؤكد بهذا الرأى أن الإسلام دين تواكل وقعود ، لأنه لا فائدة من السعى طالما أن السعى معلق بإرادة الله ومشيئته ، وأن الإسلام يحب الزهد والخمول والقناعة والتواكل ، وينهى على الدنيا ومتاعها ، ويُعيب السعى فيها إدعاء بأن الله قد كفل الرزق ، وأيد وجهة نظره ببعض آيات من القرآن منها « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ، و « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، و « ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ، وإن الآيات التى استشهد بها إيرفنج آيات صحيحة فعلا ، وتدل حقاً على أن الرزق قد ضمنه الله ، ولكن هل فهم إيرفنج من تفسيره لهذه الآيات بأن الرزق يأتى المسلم وهو جالس دون عمل أو جهد أو بذل .. إن هذه الآيات لم تمنع المسلم من العمل الجاد المثمر سعيًا وراء رزقه الذى يختلط بالعرق والجهد ، مثلاً مثل آيات أخرى تقول « وَقُلْ اْعْمَلُوا قَسْرَى اللَّهِ

عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ » [التوبة ١٠٥] ، و « فَإِذَا قُضِيَتْ
الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » [الجمعة ١٩] ، و « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »
[المالك ١٥] ، و « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ » [الشرح ٧] ، و « يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » [الانشقاق ٦] ،
و « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ » [يونس ٤١] ،
و « أَأَنْتَى لَا أَصْبِحُ عَامِلٌ مِمَّنْكُمْ » [آل عمران ١٩٥] ، و « إِلَيْهِ
يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » [فاطر ١٠] ، و « فَغَنِمْنَا
أَجْرَ الْعَامِلِينَ » [غافر ٧٤] .

ولابد من التنبيه على الفرق بين التوكل والتواكل ...

فالمراد بالتوكل على الله أن يقوض المسلم الأمر إلى الله بعد أن يأخذ
بالأسباب ويؤدي ما كلف بأدائه فعليه أن يطيع الله عز وجل في كل ما يأمره
به وكل ما ينهاه عنه ، فعلا في الأوامر وتركاً في النواهي ، دون مبالاة بالعواقب
وسيتولى الله عز وجل تسديده وحفظه ما دام قد قوض أمره إليه وأدى
ما فُرض عليه لأنه وكيله ، وحسبه وكالة الله عنه .

والتوكل بهذا المعنى يستلزم العمل وبذل الجهد بالأسباب ، أما التواكل
فهو ينافي العمل وبذل الجهد ويقوم على انتظار النتائج دون الأخذ بالأسباب
فالذي - والكلام هنا للكاتبة العالم الأستاذ الدكتور مصطفى زيد^(١) -

(١) كتاب سورة الأحزاب ط ١ (١٩٦٩) .

يزرع ويتعهد زرعه بالرئى والعناية ، ويسهر على مراقبته حتى ينضج فيؤتى ثماره ، متوكل على الله مفوض إليه النتائج ، والذي يلقى البذر فى الأرض ثم يدعه فلا يرويه ولا ينظفه ولا يرعاه من النباتات الطفيلية التى تعوق نموه ولا يسهر على مراقبته وحراسته ثم ينتظر أن يؤتى أطيب الثمار متواكل مقصر فيما يجب أدائه .

إذن فالتواكل مهى عنه محذور على المؤمن ، لأن الإسلام دين حياة وعمل ، فلا نتيجة بلا أسباب ولا ثمار دون غرس وجهد وعرق .

ولا يختلف اثنان فى أن الإنسان لا يُخلّى من مسئولياته إزاء الحياة والعسكاليف المنوطة به فيها ، فهو إذن مطالب بأن يجهد جهده ويبلى بلاءه ، وأن يقدر ويفكر ويدبر ، ويعمل بالقدر الذى يسعفه به تفكيره ويحتمله جهده ، وفى الحديث الشريف كما رواه مسلم « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل » .

عاش رسول الله وهو القدوة والمثل طول عمره عاملاً محمداً صادقاً أميناً ، عمل بالتجارة ، وسافر خارج مكة ، ومشى فى الأسواق ، وكان يدعو رجاله إلى العمل بمختلف أنواعه زراعة أو تجارة ، ورؤى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فإنا كل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » ، و « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » ، و « باكروا الغد فى طلب الرزق فإن الغدو بركة ونجاح »

وكذلك كان الصحابة الأولون يسمعون في طلب الرزق ، فكان أبو بكر يعمل في تجارة الأقمشة ، وخرج بعد توليه الخلافة إلى السوق فمنعه عمر والصحابة فسألهم « ومم أنفق على أهلى ؟ إني إن أضعتهم فأنا للمسلمين أضيع » ففرضوا له من بيت المال ما يغنيه عن التجارة ويكفى أهله حتى يفرغ لمسئوليته .

وكان عمر يعمل ويقول « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق » ، ويقول « اللهم ارزقنى ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

وكان عثمان تاجراً جمع من تجارته مالا كثيراً كان ينفقه على المسلمين ، فجهّز جيش العسرة ، واشترى بئر رومة من يهودى ووهبها للمسلمين .

وكذلك كان على ، وكان المسلمون جميعاً ، لم يرضوا لأنفسهم الكسل والمخول والعجز والتخاذل .

وإذا كان هذا هو منهج المسلمين في حياتهم الخاصة ، فما لاشك فيه أنهم في حياتهم العامة التى تفصل بالإسلام ، كانوا أكثر إقبالا وتحمساً وجراً ، فإن الجهاد فى سبيل الله تجارة ربها كبير ومكسبها وفير ، ولهذا كانوا يقسابقون إلى الخروج حتى المرضى والنساء ومن لم يبلغ الحلم ، كانوا جميعاً يحسون بواجبهم حيال دينهم ورسالة ربهم ، كانوا يسعون إلى الجهاد أملاً فى نصر يعز به الإسلام أو شهادة ينالون بها الجنة ، كانوا يرجون التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله ، لم يرهبوا الموت ، ولم يبتخلوا بمال فى تعزيز الحق ، وتشبيد المجد ، وإقامة البنيان الإسلامى شامخاً عزيزاً كريماً .

كانوا إذا دُعوا للخروج خرجوا مسرعين فرحين مؤمنين كل الإيمان
 بقول الحق تبارك وتعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ
 تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ
 ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً
 فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [الصف ١١-١٢] و « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ *
 وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ
 هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [التوبة: ١١١] .

إذن أمام هذه المكاسب العظيمة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، لم يكن
 المسلمون في حاجة أبداً إلى الجبرية ، لأنهم دخلوا الإسلام عن إيمان واقتناع
 وبعد دراسة وتفكير ، ولأنهم مطالبون بالعمل الجاد المثمر ، ومكلفون بالجهد
 الشريف من أجل نشر تعاليم الإسلام والدفاع عنها حتى تبلغ الناس كافة ،
 ومن أجل المحافظة على وجودهم وكيانهم .

قال أنس بن النضر « يارسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت فيه
 المشركين ، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع » .

وقال النعمان بن مالك « يارسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي
 بيده لأدخلنها » .

وقال عبادة بن الصامت « إني ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبنا وهمتنا الجهاد في الله وفي اتباع رسوله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعه وشمة يلتحفها لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

والأقوال كثيرة .

ولكن في قول هؤلاء رد كاف على إدعاء إيرفنج .

* * *

وقبل أن ننهي ردنا على هؤلاء المستشرقين لابد لنا من أن نشير إلى أن بعضاً منهم قد أطلق اسم آية السيف على قول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة (٣٦) « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » ، وقالوا إن هذه الآية أوجبت القتال لإطلاقاً ، وأنها نسخت كل الآيات التي منعت العدوان من جانب المسلمين ودعت للقتال حين تقوم دواعيه ، وقالوا فيما قالوه إن هذه الآية جعلت المشركين جميعاً جبهة واحدة معادية وجب قتالها والتصدي لها بصفة دائمة ومستمرة ، وتغافل هؤلاء عن حقيقة واضحة وهي أن المشركين كما جاء في الآية السكرية كانوا يقاتلون المسلمين بكافة قواهم ، ويهذلون كل جهد ممكن ومسطاع من أجل تكتيل القوات المعادية لتكون الضربة قاصمة قاضية ، ومن هنا أصبح من حق المسلمين أن يجمعوا شملهم ، ويوحّدوا قواهم ، ويقابلوهم كافة ، ويقاتلوهم بكل ماملكت أيديهم وماتوافرت لديهم من قوى

وعزائم ، على أن يلتزموا في قتالهم بكل ما جاء من توجيهات في آيات القرآن ، لأن هذه التوجيهات ليست من وضع بشر ، واسكنها صادرة من الله تبارك وتعالى ، لحكمة أرادها سبحانه ، ولهذا وجب على كل مسلم الالتزام بها ، والعمل في حدودها وعدم الخروج عليها .

* * *

و خيراً...

إذا كنا قد عرضنا الآراء المناهضة للإسلام التي فادى بها عدد من المستشرقين الذين جعلوا أقلامهم أداة لهدم الإسلام كما صور لهم تفكيرهم القاصر وتعصبهم الأعمى ، فإننا لا ننكر أبداً - كما سبق القول - جهوداً أخرى قام بها عدد من المستشرقين وقفوا إلى جانب الإسلام ، ودافعوا عنه ، وردوا على مزاعم الآخرين ، واعترفوا في مؤلفاتهم العديدة بقيمة وعظمة وروعة ما دعا إليه ديناً ومنهجاً وحياة ..

وعلى رأس هؤلاء توماس كارليل ، ووليم موير ، وجوستاف لوبون ، وإميل درمنجم ، وليون روش ، وريشارد وود ، وتوماس أرنولد ، وجيمس هتشنر ، وبارتلي شتيلر ، وكلودفاريير ، والكونت هنري دي كاستري ، وجان جاك روسو ، وآخرون .

كانوا هؤلاء صادقين مع أنفسهم ومع بحوثهم ، فكتبوا بصدق ما يؤكده إخلاصهم للبحث العلمي وكتابة التاريخ .

ونحن نكتفي بسرد بعض من أقوال هؤلاء ، مركزين على ما أثاره

الأب لامايس ، من أن الإسلام انتشر بالسيف ، لأننا نرى في هذا الادعاء
ركيزة لهجوم الرئيسى على فكرة الحرب في القرآن

قال جوستاف لوبون

« وسيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم أن
القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين
أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام من النصرى الإسلام
واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا
مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها
من قبل ، والتاريخ أثبت أن الأديان لا تُفرض بالقوة ، فعندما قهر النصرى
عرب الأندلس فضل هؤلاء الطرد والقتل عن آخرهم على ترك الإسلام ...
إن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها » .

وقال ويفالنج لنجرميش

« إن القرآن صريح في تأييده لحربة العقيدة ، والدليل قوى على أن
الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ، مادام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون
الجزية ، ولا شك في أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصرى
واليهود ، وفي بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا
على القتال ، وفي القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم في هذه الحروب ،
ولسكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة وكانوا
أحراراً في عباداتهم » .

وقال السير ريتشارد وود

« إن من أكبر بواث سوء التفاهم بين أوروبا والإسلام ، هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة والسيف ، ولكن هذا الظن مخالف في الواقع لما جاء في القرآن « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » [البقرة : ١٩٠] .

وقال ريفونويت

« إنه من الحماقة أن نظن أن الإسلام قام بمجد السيف وحده ، لأن هذا الدين الذي يهدى للتي هي أقوم ، يحرم سفك الدماء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » .

وقال جان جاك روسو

« من الناس الأوروبيين من لو سمع محمداً عليه (يقصد القرآن) على الناس بتلك اللغة الفصحى - لغة القرآن - وبصوته المشع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان وما أوتي من بلاغة للسان ، نحرّ ساجداً على الأرض ، وناداه قائلاً : أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى موقف الشرف والفخر ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار »

وقال غاندى

« قد غدوت مقتنعا كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذي جعل للإسلام مكانة في معترك الحياة ، بل إن بساطة النبي التامة ، وإنكاره الكلى لذاته ،

واحترامه الدقيق لعموده ، وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه ، وشجاعته وبساطته وثقته الكاملة بالله ورسالته ، هذه هي التي جرفت كل شيء أمام المسلمين لا السيف .

وقال برنارد شو

« إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وبدأت تمسح دينه ، كما أنها ستبريء العقيدة الإسلامية مما اتهمتها بها من أراجيف أوروبا في العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد هو النظام الذي تؤسس عليه دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته في حل المضلات وفك المشكلات وحل العقد ، إنني أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم ، لثم له النجاح في حكمه ، ولقاد العالم إلى الخير ، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة . »

صدق هؤلاء

وكذب الآخرون .

(٤)

من هم الأعداء الذين واجهوا المسلمين ؟

ولماذا واجهوهم ؟ وكيف ؟

وما هو أسلوب المسلمين في هذه المواجهة ؟

كان أول هؤلاء الأعداء

قريش

ثم . . القبائل العربية في الحجاز ونجد

ثم . . اليهود

ثم . . الأعداء خارج الجزيرة

ثم . . المرتدون

أولا قريش

بدأت الدعوة الإسلامية في مكة .

بدأها الرسول سرّاً ، وكانت السيدة خديجة أول من أسلم ، ثم عليّ ،
ثم زيد بن حارثة ، وأبو بكر ، ثم خمسة عشر رجلاً من أشرف قريش ، منهم
عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير
ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد بن الحارث ، وجعفر بن عبد المطلب .

ثم جاء الأمر الإلهي « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ » و « أَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » [الشعراء ٢١٤ / ٢١٦]

وبدأ الرسول يدعو جهراً « ما أعلم إنساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟ »

وثارت قريش .. وقاد ثورتها عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي « أبو لهب » وهو رجل من سراة قريش ، كثير المال مسموع الكلمة شديد التعصب لدين قريش ولتقاليدها ، حريص على أن يظل هذا الدين مرعى الجانب موفور الكرامة .

ثار أبو لهب وصاح في قومه - وكان رسول الله قد دعاهم ليعرض عليهم دعوته - قائلاً « هذه والله السوأة (العار) ، خذوا على يديه (أى امنعوه مما يريد) قبل أن يأخذ على يده غيركم ، فإن اسلمتموه حينئذ ذلتم وإن منعتموه قُتِلتم » .

وحاولت أخته صفية - إحدى عمات النبي - أن تهدى من ثورته فسألته « أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ ألا يسرك أن يخرج من ضئضى (أصل) عبد المطلب نبي ؟ » فثار عليها وقال « هذا والله الباطل والخيال ، كلام النساء فى الحجال (فى مراجع أخرى وكلام ربات الحجال) » .

ثارت إذن قريش ، وقريش حين ثور يكون لذلك الأثر الكبير لا فى محيط قريش وحدها ، ولسكن فى محيط العرب جميعاً ، ذلك أن قريش هى القبيلة القوية صاحبة القوة والسلطان فى مكة ، وهى كما استقر فى أذهان العرب جميعاً أهل الحرم ، وللحرم مكانة فى نفوس العرب جميعاً ، ولهذا كان العرب

يعظمون قريشا ويعترفون لها بالسيادة ، ومن ثم أصبحت لها سيادة مطلقة ومكانة مرموقة وحياة آمنة مطمئنة .

وفي ظل هذا الوضع الاجتماعى اشتغل أهلها بالتجارة ، وإشتهروا بأنهم تجار العرب ، وعن طريق التجارة أثرت بيوت كثيرة ، وأكسبتهم التجارة علما بالأحوال السياسية والاجتماعية للأمم المجاورة ، كما أكسبتهم خبرة وجراءة ودراية بالطرق والمسالك .

ونظرا لمساكنتها بين القبائل فقد تقاسمت البطون الكبرى منها المناصب فى مكة ، فاختص بنو هاشم بالسقاية ، وبنو سهم بجباية الأموال ، وبنو عدى بالسفارة ، وبنو مخزوم بالقبة يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش وكانت لهم أيضا الأعنة أى قيادة الفرسان ، وبنو أمية بالعقاب ، وبنو تميم بالديات والمغارم ، وبنو نوفل بالرفادة (أى إعانه الحاج بالمال) ، وبنو عجد الدار بالسدانة والحجابه والندوة واللواء ، وبنو أسد بالمشورة ، وبنو جهم بالأزلام والأيسار .

وكانت لقريش قوة لا يستهان بها ، وكان فى استطاعتها أن تعج خمسة آلاف مقاتل كاملى الاستعداد بالسلاح مزودين بقوة كافية من الفرسان فضلا عن وفرة المؤن ووسائل الإنتقال ، ومعاهدات الصداقة التى كانت بينها وبين القبائل العربية التى عهد إليها تأمين طرق التجارة فلا تتعرض قوافلها للسلاب أو للنهب .

وكانت لقريش قوة أخرى تمثلها طبقة العبيد ، وهؤلاء يعملون فى خدمة ساداتهم دون مقابل ، ليس لهم حق فى أية حرية شخصية ، لأنهم ملك خالص

للسادة ، يعيشون في ظلمهم ويقبعونهم دون رأى ، ويطيعونهم فى كل أمر ..
وهؤلاء العبيد كانوا رجال حرب ، فهم إذن قوة مقاتلة لها شأنها ومحسب
حسابها ، ومنهم أبو رافع ، وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة ،
وصؤاب الذى حمل لواء قريش يوم أحد .

وكانت هناك قوة أخرى متحالفة مع قريش ولها وزنها القتالى هى قوة
الأحابيش ، وكانت قريش تستخدم هذه القوة للدفاع عن نفسها وقوافلها ،
وذكر ابن إسحاق أن الأحابيش هم حلف قوامه أحياء من عرب كنانة
والهون بن خزيمه ، وأنهم ينزلون فى تهامة غرب الحجاز ناحية البحر ...
وكانت قريش تحترم الأحابيش لحاجتها إلى قوتهم ، وكانت تعاملهم
معاملة الخليف .

قلنا إن قريشاً ثارت حين علمت بأمر الدعوة الجديدة .. ثارت وغضبت ،
وقررت أن تقاومها وتناهضها ، وأن تعمل على تقويضها وتدميرها ، وأن تثير
أمامها الصعوبات ، وأن تعامل المؤمنين بها بقسوة وعنف ، واتخذت فى سبيل
ذلك وسائل كثيرة وأساليب متعددة ، فلهجات إلى الإيذاء والتعذيب
والتنكيل ومصادرة أموال المهاجرين منهم ، هذا فوق أنها أثارت القبائل
ضدهم ، واستأجرت الشعراء لمهاجمة المسلمين وتجريح الإسلام ، وإثارة الناس
ضد الرسول وصحبه ... وبلغ عداؤ قريش حد التفكير فى قتل رسول الله
والتخلص منه .

ويقفز إلى الأذهان سؤال ...

لماذا وقفت قريش هذا الموقف من الإسلام ؟

ونحاول أن نستخلص الإجابة من واقع التاريخ ...

١ — عاشت قريش فترة طويلة من حياتها غارقة في الشرك تعبد الأصنام والأوثان ، عاكفة على شرب الخمر ولعب الميسر ، وقد وصف موزورث سميت حياتها فقال « كان القرشيون ماديين على مبدأ كل واشرب ، لم يكن لديهم إيمان أو شعور بالمسئولية ، نفشى الجهل بينهم حتى إن أعرق الناس شرفاً كان يعد الجهل مفخرة ، وكانت الرذيلة متفشية والروابط الجنسية منحلّة ، وما كان الزانى يلقي عقاباً ، ولم يكن للمعنويات عندهم معيار ، ولم يكن البغاء بالأسر الذى يخدش الشرف ، إلى حد أن رجالاً من الأعلام الهارزين لم يجدوا غضاضة في إدارة المواخير ، وكانت النساء في الدرك الأسفل من الحطة ، فلم يقدّر لهن وزن إلا من فاحية أنهن متاع » .

إن موزورث يرسم صورة حقيقية للحياة التى كانت تعيشها قريش قبل الدعوة ، فلما جاء الإسلام هادياً ومبشراً ومصلحاً يقودهم إلى حياة جديدة نظيفة مشرقة ، لا فسق فيها ولا فجور ولا إثم ولا عدوان ، يأخذ بأيديهم إلى طريق قويم فيه تقوى وهدى وصلاح ، ويحفظ لهم كرامتهم وكيانهم ووجودهم ، ويظهر حياتهم من العادات الذميمة ، ويرتقى بهم إلى مستوى الحب والأخوة والسلام ، لم يكن من السهل أن يجد لديهم قبولا ، لأن الجديد سيطغى على القديم ، فتتغير حياتهم التى يعيشونها وتتجدد ، بينما هم قد تعودوا على المجتمع الفاسد المنحل الذى لا ضابط فيه ولا رابط ، ولا مكان فيه للضمير ، ولا وجود فيه للقيم .

وكان لابد أن يقع الصدام بين عاداتهم وتقاليدهم ، وبين المبادئ الجديدة
التي حملها إليهم الإسلام ودعاهم إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — وقرش كانت تعيش في مجتمع يقوم أساساً على فئتين سادة وعبيد ،
وانتشر الرق والعبودية في هذا المجتمع بصورة تبعد عن الإنسانية وتتعارض
مع طبيعة البشر ، فالعبيد يعيشون في ظل سادتهم لا إرادة لهم ولا رأى
ولا كيان ولا وجود ولا شيء على الإطلاق ، السيد هو كل شيء وعبيده
لا شيء ، ليس عليه سوى الطاعة العمياء لمن يملك حياته ويصرف فيها حسب
إرادته دون رقيب أو حساب .

وجاءت دعوة الإسلام لتصحيح هذا الوضع الخاطئ في المجتمع العربي ،
فنادت بالمساواة المطلقة بين الناس ، وبإلغاء الطبقية وتحقيق العدالة ، فلا وجود
لسيد أو عبد ، والكل سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين هذا وذاك
إلا بالقوى والعمل الصالح ، لكل حقه وعليه واجبه ، يأخذ حقه ويقوم
بواجبه ، يتميز الواحد بمدى إيمانه وصدق خضوعه لله ، لا بمال أو جاه أو
سلطان .. أراد الإسلام أن يشعر الناس بأن الإخاء الصادق هو الذي يجمعهم
ويؤلف بينهم ، إخاء يقوم على تقدير سليم ونظر حر وتدر يفرضه القرآن .

وأذهلت هذه الدعوة إلى المساواة قرشا ، وها لهم أن يسمعوا « إن
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ » (الحجرات : ١٣) ، ورنث في آذانهم كنغمة
نشار .. ولم ترق الصورة الجديدة لتشكيل المجتمع إلى مستوى القبول ، فكيف
يتصور قرشي أن يعيش مع الآخرين أخوة متساوين في صعيد واحد ، لا فرق بين
سيد وعبد ؟ وكيف يقتنع بأن يعيش السادة مع عبيدهم دون سلطان أو أوامر

أو فارق؟ وكيف يرضى أن يكون للعبد ما لسيده من حرية ورأى وحياة وعقيدة وحقوق، يقول نعم إذا أراد، ويقول لا إذا أراد، دون خوف من عذاب أو تنكيل؟

وكان لابد من أن يقع الصدام بين مجتمع الطبقة ومجتمع المساواة

٣ — وكانت قريش ومعهما العرب جميعاً ينتظرون نبياً جديداً، وكانوا يعلمون أن اسمه هو محمد.. وكانت غاية آمال سادة قريش أن يكون النبي المنتظر منهم، وأن تكون النبوة فيهم، وتمنى كل واحد منهم أن يكون النبي القادم من نسله وذريته، ولهذا كان كل واحد منهم، يطلق اسم محمد على من يرزق به من أبناء على حد قول صاحب الروض الآنف.. «لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذلك محمد صلى الله عليه وسلم وبقرّب زمانه وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولداً لهم وهم محمد بن محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن الجلاح ابن الحريش، ومحمد بن ربيعة... كان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده من علم الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف إمراًته حاملاً، ففذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً، وفعلوا ذلك».

فلما نزل الوحي على رسول الله محمد بن عبد الله وهو يتيم الأب والأم، فقير في المال لا حول له ولا قوة، ثارت قريش وهاج ساداتها... أمية بن الصلت كان يطمع في النبوة وجين لم ينزل عليه الوحي أكلت الغيرة قلبه فعارض الدعوة... الوليد بن المغيرة أفصح عن حقه الدفين بقوله «أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود بن عمرو الثقفي سيد

ثقيف ونحن عظميا القريرين» ... وأبو جهل غضب حين سمع برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقال « والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه » .

ووقفت قريش ضد الرسول لأنه خرج من فرع فقير وهم أغنياء

٤ — وكانت قريش تستمع إلى ما جاء به الرسول وتناقشه فيما بينها . . . وكان من الأمور الجوهرية التي ناقشتها موضوع الحساب والعقاب ، فقد فزع القرشيون من فكرة البعث وعذاب جهنم يوم الحساب ، وأدركوا أنهم مطالبون بتحريم كل شيء في حياتهم .. الربا .. السلب .. النهب .. الفحشاء .. الموبقات .. الخمر .. الميسر .. كل الرذائل التي كانوا يزعمون أن أصنامهم حين يقربون إليها تكفر لهم عنها .

وكانت فكرة البعث ثم الحساب والعقاب جديدة على تفكيرهم ، ففزعت قلوبهم ، وارتعدت فرائصهم ، وهالهم ذكر النار التي أعدت للكافرين ، وأغضبهم أن علمهم في الحياة محسوب عليهم .

هذه المبادئ الجديدة التي أعلنها الرسول في يقين حازم كانت تبعث في قلوبهم القلق والاضطراب ، ولكنهم رغم هذا أخذوا إلى ما كانوا فيه من ضلال ، وظل الرسول يدعو بدعوته وينذر القوم ويلقي في مسامعهم آيات القرآن وتوجيهات الله تبارك وتعالى ، ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (القارعة ١/٤) . . . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج : ١) . . . ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ

الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِيهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ
 مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ
 مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ
 هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿ (عبس ٣٣ / ٤٢) ... و ﴿ وَيَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ
 لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ
 أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
 رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا
 بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ
 يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيهِ * يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ
 مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ
 صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ
 لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ
 الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿
 (الحاقة ١٨ / ٣٦) ... و ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ .
 لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
 حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
 عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
 فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ
 فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ .

مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ
 امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ « (ق ٢١ / ٣٠) و « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهَا جُلُودًا غَيْرَهَا
 لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلُوهُمْ ظِلًّا ظِلِيلًا » (النساء ٥٦ / ٥٧)

كانت الحياة عند القرشيين غاية ليس وراءها غاية ، فكأنوا يستمتعون بها
 قدر ما يستطيعون ، وكان المستقبل غيباً محجوباً عنهم ، ولهذا كانوا ينحرون
 للأوثان ويتقربون إليها أملاً في العفو والسماح ونسيان المعصيات التي
 يرتكبونها والتكفير عنها ، ولهذا كانت الآيات وكانت فكرة الحساب
 كالسياط تهوى على أجسادهم تفزعهم وتروعهم ، ولهذا عارضوا الدعوة
 حتى لا تظل قلوبهم فزعة من هول ما يسمعون .

ومن هنا كان لابد من أن يقع الصدام بين الحفاظ على حياة يعيشونها

وبين الخوف من حساب يخشونه

٥ — وكانت قريش تعبد الأصنام وتعظمها ، ولم يكتف القرشيون
 بالأصنام التي امتلأت بها جوانب السكبية ، بل كان الواحد منهم يحفظ
 في بيته بصنم ، وكانت لهم في عبادة الأصنام أفانين شتى .. كان لكل قبيلة
 صنم تدين له بالعبادة ، وكانت هذه الأصنام تختلف ما بين الصنم والوثن
 والنصب ، وكان هبل هو كبير آلهة العرب ، وكان مقره في السكبية ، وكان

الناس يحجون إليه . . وكانت هذه الأصنام هي الوسيط بينهم وبين الإله الأكبر ، وكانوا مع هذا يعتبرون عبادتها زلفى يقتربون بها إلى الله ، ولأن كانوا في غمرة عبادة الأصنام نسوا الله ونسوا عبادته . . . دخل أبو لهب على أبي أحيحة عندما مرض مرضه الأخير فوجده يبكى فسأله « ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه » ، فأجابه « لا ، ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى » ، فقال له أبو لهب « والله لا تُترك عبادتها لموتك » .

وجاء الإسلام ليهدم هذه العبادة ويقضى عليها ، ويزيل الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق لارتزق ، ودعا إلى عبادة الله الواحد القهار وترك عبادة الأصنام التي استوردها عمرو بن لحي الخزاعي من مدينة البلقاء بالشام . فكانت الدعوة الجديدة تقوم على أنقاض الديانة السائدة التي آمنت بها قريش ، وآمن بها من قبل آبائهم وأجدادهم . . . ووقف القرشيون يدافعون عن دين الآباء والأجداد ويدودون عن أصنامهم ويعارضون الدين الجديد الذي عاب آلهتهم .

وكان لابد من أن يقع الصدام بين دين يتمسك بالأصنام ودين يدعو إلى

عبادة الله الواحد القهار

ووقع الصدام فعلا بين قريش والمسلمين منذ اللحظة الأولى للدعوة . بدأ بالمهجوم على الإسلام وتسفيه ما جاء به ، بالتعذيب والعدوان على المسلمين ، ثم بالتعرض للرسول وإيذائه ، بالمقاطعة ، ثم بالإففاق على قتله ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة لم يعد هناك مناص من الصدام المسلح الذي بدأ في بدر . . . وابتهى بدخول المسلمين مكة .

وكانت مراحل الدعوة تقوم على ثلاثة أحوال بدأت بالسلبية المطلقة المتمثلة في تحمل التعذيب والصبر على الإيذاء ، وتطورت إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة بحثاً عن الجو الملائم ، و انتهت بالافتناع بضرورة الدفاع عن النفس والعقيدة ... فكان الإذن بحمل السلاح والمواجهة ، وكان الصدام المسلح .

ثانياً ... القبائل العربية الأخرى

كانت هناك قبائل عربية أخرى تنقشر في أرجاء الجزيرة العربية .

وكانت هذه القبائل تخشى قوة قريش وتضعها في الحسبان .

وكانت هي الأخرى تعبد الأوثان ، وبلغ مسامعها نداء الدعوة الجديدة التي قامت في مكة ، وبلغ مسامعها أيضاً الصراع العنيف بين الدعوة الجديدة وبين قريش ، وكانت تتابع الأنباء في حذر ، وترقب الأحداث في حيطة ، فإن ما يصل إلى أسماعهم من تعاليم الدين الجديد ومبادئه لم يكن واضحاً إلى الحد الذي يجعلهم يؤمنون به ويدخلون فيه ، هذا فوق أنهم كانوا يحرصون على أن تبقى علاقاتهم مع قريش طيبة .

وكان العرب من هذه القبائل يترددون على مكة في مناسبات مختلفة ،

وفي مواسم متعددة ، وكان يتم فيها لقاءهم مع رسول الله ، فيعرض عليهم الدين الجديد ويدعوهم إليه ويسألهم أن يؤمنوا به وأن يصدقوه ، إلا أن رجالات قريش كانوا لهم بالمرصاد ، خشية أن تؤدي اتصالاته بهم إلى استجابة تزيده قوة وتضعف مركزهم ، وكان أبو لهب أكثر قريش نشاطا ، يحرض الناس حتى لا يستمعوا إليه ، ويدعوهم أن يسدوا آذانهم لما يقوله محمد وأصحابه ، وأن يغلقوا قلوبهم لما يدعو إليه .

ولقد أشرنا من قبل إلى قصة حضور الطفيل وتحذير قريش له وتشويهها لدعوته وإساءتها إلى دينه .

روى ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدؤلي أنه قال « إني لغلام شاب مع أبي بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به ، قال : وخلفه رجل وضىء له غديرتان عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلمخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيس إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه ، قال : فقلت لأبي : يا أبت من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب » .

وروى البيهقي عن رجل من كنانة قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوق ذى الحجاز وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب ، فإذا هو أبو جهل وهو يقول : يا أيها الناس لا يغفرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى » .

وقال موسى بن عقبة عن الزهري « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ، وبكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي ، وحتى يقضى الله لي ولبن صحبتي بما شاء » .

ولم ينتظر رسول الله أن تأتي القبائل إلى مكة ، فكان يخرج إليها في مواقعها ، يعرض عليهم دعوته ، ويدعوهم إلى نصرته ... قصد كندة ، وكلبا ، وبنى حنيقة ، وبنى عامر بن صعصعة ، وتأثرت كافة القبائل بسعي قريش ، فكل قبيلة عرض عليها الرسول دعوته رفضتها ، اللهم إلا بني عامر بن صعصعة . فقد أرادت أن تقبل الدعوة بشرط رفضه رسول الله ، قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري أنه قال : أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بَيْحَرَة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له : رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر

من بعدك ؟ ، قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، قال فقال له : أفنهدف
نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا
بأمرك ، فأبوا عليه .

وكانت ثقيف أشد القبائل عبقاً مع رسول الله ، فقد لجأ إليهم يلتمس
عندهم النصرة والمنعة ، ويرجو إسلامهم ، وكانت الطائف - مقرهم ومنزلهم -
مركزاً لعبادة الآلات ، وكان يحج إليها ، فلو أنها تابعت الرسول فقدت الآلات
مكاتبها ، وقامت بين ثقيف وقريش عداوة يكون لها أثر يضر باقتصاديات
الطائف ، لأنها مصيف أهل مكة ، لهذا أبت ثقيف أن تسمع منه ، فقد عمد
رسول الله إلى عبد باليل بن عمرو وأخيه مسعود بن عمرو وأخيه الثاني
حبيب بن عمرو ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جُحج ، وجلس إليهم
وتحدث معهم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرته على الإسلام والقيام معه على
من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم « هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله
أرسلك » ، وقال الثاني « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! » ، وقال الثالث
« والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً
من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن
أكلمك » . وتركهم رسول الله وهو يائس منهم « إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا
عنى » ولسكنهم لم يفعلوا بل أغروا سفهاءهم وعبيدهم فسبوه وصاحوا به وآذوه ،
فاتجه وهو فى هذا الموقف المصيب إلى ربه نغاطبه قائلاً « اللهم إليك أشكو
ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب
المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكافى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو

ملسكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع
لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا
والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى
ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وإذا كانت ثقيف قد أساءت إلى رسول الله ، فإن وفداً من الخزرج
لقى عليه السلام ، وكان الله أراد أن يعوضه خيراً من ثقيف ، عرض الرسول
على الوفد الإسلام ودعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض
« يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود^(١) ولا يسبقنكم إليه » ،
فأجابوه وصدّقوه وقبلوا دعوته ، وقالوا له « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم
بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنسندم عليهم
فنقدعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن
يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

وكان هذا القبول بداية لحياة أرحب وأعظم للدعوة وللداعى وللمسلمين
جميعاً ، إذ أنهم يعودتهم إلى المدينة ذكروا لقومهم لقاءهم لرسول الله ، ودعوته
لهم إلى الإسلام فلم تبق دار من دور الأنصار فى المدينة إلا وفيها ذكر رسول
الله ، ثم كانت بيعة العقبة الأولى ، وسفارة مصعب بن عمير ، وإسلام أسيد
ابن حضير ، وسعد بن معاذ وهما يومئذ سيدا قومهما .

(١) كان يهود المدينة إذا وقع خلاف بينهم وبين الأنصار يقولون لهم « إن نبيا مبعوثا
الآن ، قد أطل زمانه نبعه فقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

ثم كانت البيعة الثانية بالعقبة التي حضرها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، وبايعوا فيها على حرب الأحمر والأسود ، وجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوفاء بذلك الجنة ، ثم كانت الهجرة ، ثم تتابعت بعد ذلك الأحداث ، حتى عم الإسلام الجزيرة كلها . . .

وهناك سؤال يطرح نفسه

لماذا كان هذا الموقف من القبائل العربية الرافضة ؟

وماذا استفادت الدعوة من عروض الرسول المستمرة ؟

الحقيقة إن أكثر القبائل كانت تميل إلى موادة قريش وبجاملتها ، وخشيت إن هي قبلت الدعوة أن تثور العداوة بينها وبين قريش ، وخاصة أن جهود قريش كانت مكثفة ومركزة وعنيفة ، حتى أن أكثر القبائل كانت تنظر إلى رسول الله كعدو لها .

ولكن لكل عملة وجهين ، فإذا كان تأثير قريش على القبائل أدى إلى رفضها دعوة الرسول ، فهذا وجه ، أما الوجه الآخر ، فإن جهود قريش رغم أنها كانت ذات آثار واقعية ، إلا أنها لم تستطع أن تحول بين الدعوة وبين الظهور ، فإن المناقشات التي دارت خلال اللقاءات لم تنع به انتهاء هذه اللقاءات ، بل استمرت واستكملت حين انفردت القبائل بنفسها ، فكانت تناقش الدعوة والداعي ، لم يكن إذن كيد قريش ومسعاهم شراً بل كان شراً

يحمل خيراً . . قلنا إن بنى عامر بن صعصعة أبوا ما عرضه عليهم الرسول ، وقد حدث أن رجعوا إلى شيخ لهم كبير السن ، فقالوا له كما جاء في رواية ابن إسحاق « جاءنا فتى من قريش يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلافٍ ؟ هل لذُنابها من مطلب ؟ ، والذي نفسى بيده ما تقوّلها إسماعيل قط ، ولما لحق ، فأى رأيكم كان لكم » .

حقيقة أخرى تضع إجابة على السؤال ، فإن موقف القبائل يشبه إلى حد كبير موقف قريش . . . فهذه القبائل الضاربة في أنحاء الصحراء تعيش حياتها كما تعيشها قريش ، تعبد الأصنام وترتكب المعاصى وتعيش في فساد إجتماعى ، ومن هنا أصبحت هذه القبائل - حتى تبقى حياتها على ما هى عليه - ملزمة برفض الدعوة ، وبذلك أصبحت طرفاً في الصراع ، وكانت قريش تشجعها وتدفعها إلى ذلك دفعاً ، وتفرض رأيها فرضاً ، وتهدها بقطع علاقاتها ...

وظلت هذه القبائل حبيسة هذه الظروف .. ولكن إلى حين .. فعندما استقر الأمر للمسلمين في المدينة ، وبدأ الصراع مع قريش ، اتخذت هذه القبائل موقف الحياد الكامل ، إلا أن بعض هذه القبائل كان يمارس من وقت لآخر عادة الجاهلية في شن الإغارات على المسلمين في المدينة ، وكانت هذه الإغارات تسبب خسائر للمسلمين ، فوق أنها تعطل استعداداتهم للملاقاة قريش ، ولهذا رأى رسول الله أن يتخذ موقفاً حاسماً ، وأن يحدد موقف هذه القبائل منه حتى يضع حداً لهذه الإغارات ، واتخذ الرسول في سبيل ذلك خطوتين هامتين ...

الأولى ... بالنسبة لعرب الحجاز

فقد دعاهم الرسول إلى المسالمة والمخالفة ، وعقد معهم حلفين دفاعيين في السنة الثانية للهجرة أثناء غزوتي الأبواء والعشيرة ، ففي الأولى حالف الرسول بنى ضمرة ، وفي الثانية حالف بنى مدلج .

وكانت هذه المخالفات ذات أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين ، لأنهم ضمنوا بقاء هذه القبائل على الحياد ، وبالتالي ضمنوا استقرار الأمر لهم في المدينة ، فأصبحوا قادرين على مواجهة شئونهم وقدير وسائلهم في مقاومة العدوان القرشي دون تدخل من جانب آخر ، ودون أن يشغلوا أنفسهم في مواجهة اثنين أو ضد عدوين في وقت واحد ، هذا فوق أنه قد أصبحت لهم السيطرة الكاملة على الطرق التجارية التي تتجه إلى الشمال والتي كانت تستخدمها قوافل قريش في رحلاتها كل عام ، وبذلك يكون هذا التحالف قد أعطى المسلمين قوة تهدد قوافل قريش وتسد عليها المنافذ وتتحكم في حصارها الاقتصادي .

الثانية ... بالنسبة لعرب نجد

وهؤلاء كانوا يتميزون بالخشونة والجرأة ، وكانوا يشنون الغارات على المدينة ، ورأى رسول الله أن تهاجم هذه القبائل ، ولكن عندما تكون في وضع الاستعداد للغارة انطلاقا من المبدأ العسكري المعروف « إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع » ، فكان الرسول إذا بلغه تجمع ما في أي مكان يجمع سراياه ويهاجم هذا التجمع ويفرقه ...

مثلاً تجمع رجال بنى سليم بقصد مهاجمة المدينة ، وعرف الرسول بنيتهم
فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه فهربوا ...

وخرج جمع من غطفان وعلى رأسهم أشجع رجالهم دعنور بن الحارث
للإغارة على المدينة ، فخرج إليهم الرسول في أربعائة وخمسين رجلاً
فهربوا ...

وخرج جمع من ثعلبة ومحارب بقصد إصابة أطراف المدينة فخرج إليهم
الرسول ولكنهم هربوا ، ولما سأل عنهم قيل له « لأنهم سمعوا بمسيرك
فهربوا في رؤوس الجبال » .

هذا الأسلوب الذى اتبعه الرسول الكريم يقوم على ركيزتين هما مهاجمة
القوة الضاربة وقت تجمعها ، وقبل إتمام استعداداتها ، ثم مفاجأة هذه القوة
والقضاء عليها .

وهكذا يكون الرسول الكريم قد أمن القبائل العربية في الشمال وفي
الشرق ، وذلك باتباع سياستين كان لهما أكبر الأثر في تدعيم مركز المسلمين
في المدينة وهما :

- سياسة سلمية تقوم على التعاقد والتحاليف وهى تؤدى إلى توحيد
بعض القوى في أى صراع ، وهذا مكسب للمسلمين دون ريب .
- • سياسة دفاعية وقائية تقوم على الهجوم المفاجئ وشل قوى
العدو قبل أن يجمع قوائمه ويستعد للمواجهة والقتال .

ثالثاً . . . اليهود

بعد أن احتل الفرس بابل عاد أربعمون ألف يهودى إلى فلسطين ، وتحت حكم الفرس ثم الرومان انتهى الوجود اليهودى فى فلسطين ، ونفذت اليهودية إلى الجزيرة العربية بهجرة عدد منهم إليها طلباً للحياة المأدبة وبمخاطبة القوات^(١) ، واستقرت هذه الهجرة فى شمال يثرب ، ثم فى جنوبها ، فهم إذن أجنب دخلاء ، لم تكن لهم حاجة بالدعوة إلى دينهم ، وكانوا يتظاهرون فقط بالافتاء إلى الدين الموسوى ذريعة استغلال ، وكان فيهم "أحبار شغلوا" عن الدين بالدنيا وعن كسب القلوب بكسب الجيوب ، ونجحوا فى جمع أموال وفيرة اكتسبوها من الزراعة والتجارة ، فزادتهم هذه الأموال عزلة عن العرب ، فبنوا القصور والحصون فى قمم الجبال واعتصموا بها ، وكوّنوا لأنفسهم مجتمعاً منفصلاً لا يرى فى بقية الناس إلا أداة لكسب المال عن طريق الربا والخداع فى المتاجرة والزراعة .

وكان أكثر العرب الذين يسكنون يثرب ينتمون إلى قبيلتي الأوس

(١) جاء فى كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى (الطبعة الثانية ، ص ٨٥) « وفد اليهود على يثرب من قديم ، يروى أبو الفرج أن سيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث جيشاً من بنى إسرائيل إلى العماليق - سكان يثرب - فانتصر عليهم وأفناهم ، ثم أقام بنو إسرائيل بيثرب بعد وفاة موسى واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ، ثم لما ظهر الروم على بنى إسرائيل فى الشام ، فوطئوهم ، وقتلوهم ، واعتدوا على نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربيين منهم إلى اخوانهم بالحجاز ، وكان ذلك بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها ، فتوافدوا على يثرب عشائر وأفراداً ، وتكاثروا بها . وجاء فيه أيضاً « ويرى ياقوت أن سكان يثرب الأولين من اليهود عرب تهودوا »

و الخرز ، وهؤلاء كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة حسد لأنهم يجدون في أنفسهم قترا ، وفي اليهود غنى ، يصنعون السيوف والدروع ويكنزون الذهب والفضة ، وكانوا إذا دبّ الخلاف بين اليهود وأهل يثرب ، يقول اليهود « إن نبيا مبعوثا الآن قد أظلم زمانه نفعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

وكان اليهود يسمون إلى الإيقاع ما بين الأوس والخزرج ، فتقتل القميلتان ، ويسقط القتلى وتصابان في رجاها ، فيزيدان ضعفاً ووهناً ، بينما تبقى لليهود قوتهم وسيطرتهم وسيادتهم .

وكان اليهود يعيشون فيما بين المدينة وتيما ، وكانت لهم قوة تقارب قوة قريش ، ولكنهم كانوا يفوقونها غنى وثروة وسلاحاً ، وكانت بلادهم محصنة قوية .

وكانوا يمثلون في المدينة كثرة عديدة ، يقيم بها بنو قينقاع (١٤٠٠) ، وفي جنوبها الشرق يقيم بنو قريظة (١٥٠٠) ، وفي غربها يقيم بنو النضير (١٥٠٠) ، وفي منطقة خيبر شمال المدينة كان يعيش يهود بنو خيبر (٣٠٠٠) ، وهم أشد اليهود وأوسعهم ثراء ، وكان يسكن وادى القرى (٥٠٠) ، وفدك (٥٠٠) . وكان لهم في هذه المناطق الزعامة الاقتصادية والسياسية .

وكان اليهود يمثلون عدواً خطيراً للإسلام ، حتى إن الراهب بحيرى حين عرف أن محمد بن عبد الله هو النبي والرسول الذى بشرت به الكتب المقدسة ، نصح عمه أبو طالب ، وكان قد صحبه معه إلى تجارة بالشام « ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه

ما عرفت ، ليبغونه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » (كان عند بحيرى علم من الكتاب ، وكان يقرأ فى التوراة والإنجيل أن نبياً سيبعث فى بلاد العرب ، وأنه قد آن أوانه ، وكان مكتوباً عندهم صفة هذا النبى وعلاماته ، فلما رأى الراهب الدلائل والشارات أيقن أنه النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام) .

وبلغت أنباء دعوة الرسول أهل يثرب عرباً ويهوداً ، وتلقى اليهود النبأ بقلق ، وحسبوا لهذا الدين ألف حساب ...

فلما توالى الأحداث وتمت هجرة الرسول إلى المدينة ، دخل الأوس والخزرج فى الإسلام ، ووحد الرسول جبهة المسلمين بالمدينة فأصبحوا قوة لا يستهان بها ، وظل اليهود يرقبون الأحداث مشفقين ، ورأوا أنهم أمام حدث جديد يوشك أن يبدل معالم الحياة ، وبدأ زعمائهم يفكرون فى كيفية مواجهة الموقف ، وتؤكد الروايات المختلفة أنهم بادروا بادىء الأمر إلى حسن استقبال الرسول أملاً فى استمالته ، إدخاله فى حلقهم ، والاستعانة به لمواجهة النصرانية التى أجلتهم من فلسطين .

ولإزاء طيب استقبالهم بادلهم الرسول صلى الله عليه وسلم شعوراً طيباً ، وسمى إلى توثيق صلته بهم ، على أساس أنهم أهل كتاب موحدون ، فحدث إلى رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة ، فكان عليه السلام يصوم يوم عاشوراء وهو من أيام اليهود ، واتجه فى صلته إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً ، وأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود كما أحل لهم الزواج من بناتهم ، طبقاً لما جاء فى قول الحق تبارك تعالى

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَنَمَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُخْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُخْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة : ٥] .

وعقد رسول الله معهم معاهدة صداقة وتحالف ، فأقرهم على دينهم وأموالهم ، واتفق معهم على حرية العقيدة والرأى ، وحرمة المدينة والمال ، وتحريم الجريمة ، ووقع اليهود خارج المدينة معاهدات مثلها مع الرسول .

وعاش المسلمون في المدينة مع اليهود في ضوء ما قرره المعاهدات المبرمة بين الطرفين ، أما اليهود فقد عاشوا في ظل هذه الاتفاقيات يرقبون الغد في حذر وحيلة .

وبدأ النفوذ الإسلامى ينتشر ويقوى ويشتد ، وكان ذلك على حساب النفوذ الذى كان لليهود من قبل ، وأخذ المسلمون يسيطرون على إقتصاديات المدينة بعد أن كانت الزعامة الاقتصادية لليهود ، وازدادت قوة المسلمين حتى أصبحوا أكثر قوة منهم .

وقربت نقطة الخطر ...

فقد تأثر بعض اليهود بما فى الإسلام من روعة وبما فيه من حجة ، ودخل الإسلام إلى قلوبهم واقتنعوا به عقلا وحسا ووجدانا ، فأمنوا به ، وكان أول المؤمنين منهم عبد الله بن سلام ، وكان إسمه أصلا الحصين بن سلام ، فلما أسلم تسمى عبد الله ، وأسلمت معه أسرته ، وعبد الله هو حبر من أحبارهم ،

وعالم من علمائهم ، جاء إلى الرسول وطلب منه قبل أن يعلن إسلامه أن يسأل اليهود رأيهم فيه ، قال « يا رسول الله ، إن يهود قوم بهت ، (أى يكذبون بالباطل) ، وإننى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى » ، وأخفاء رسول الله ، ثم سأل بعض اليهود « أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ » ، فقالوا « سيدنا ، وابن سيدنا ، وجدنا ، وعالمنا » ، فأعلن عبد الله إسلامه ، ودعاهم إلى الإسلام « يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به » ، فقالوا له « كذبت » ، ثم عابوه وسبوه .

ثم جاء إسلام نخيرىق نخيمياً لآمال اليهود ، فهو من أغنيائهم وكبار أعيانهم ، وعلماء من أعلامهم ، وكان يعرف رسول الله بصفته من التوراة ، فأشعل إسلامه الثورة المسكبوتة ، وأثار حقدهم وغضبهم ، فبدؤوا يتحركون على الطريق إلى الصدام المسلح ، ويهمننا هنا أن نذكر أن نخيرىق خرج للقتال فى أحد مع المسلمين ، وأوصى بأن تكون أمواله لرسول الله إذا قُتل ، وقد ورث الرسول أمواله ونخله ورصدها لصدقات أهل المدينة ، وكان يدعو اليهود إلى الدخول فى الإسلام « يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نهر محمد علىكم حق » .

وهكذا نسفت المعاهدات والتحالفات . . وأصبح الطرفان فى وضع الاستعداد ، وبدأ اليهود الحملة ضد الإسلام والمسلمين واتخذوا فى ذلك وسائل شتى . .

• بدءوا أولا بحرب الجدل . .

واستخدموا فيها كل مالدتهم من العلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين لمحاربة الإسلام ، والتشكيك في أصوله وأساسه ومبادئه ، وطعنوا في رسالته ، وهاجموا المسلمين مهاجرين وأنصاراً ، واشتدوا في هذه الحرب حتى قيل إنها كانت أخطر وأشد من حرب الجدل التي شنها القرشيون ضد الإسلام والمسلمين .

وكان من أهم ما أثير أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً ، ورد القرآن على ذلك رداً قوياً جازماً إذ قال الحق تبارك وتعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٦٥/٧١] .

وفي هذه الآيات ينكر الله سبحانه وتعالى على أهل الكتاب يهوداً ونصارى دعواهم في إبراهيم عليه السلام ، إذ تدعى اليهود أنه على دين اليهودية ، وأن اليهود على دينه ، كما يدعى النصارى أنه كان على النصرانية ، وأنهم على دينه ، وأنكر الله ذلك تأسيساً على أن التوراة جاءت بعد إبراهيم عليه السلام بزمان طويل ، وأن الله يعلم علماً مطلقاً وهم لا يعلمون شيئاً ، ووصفته بأنه كان حنيفاً مسلماً ، والحنيف هو المتعبد لله الراكع الساجد لعزته وجلاله ، والمسلم هو من أسلم وجهه لله دون أن يلتفت إلى سواه ، وأوضحت أن أولى الناس به هو النبي صلى الله عليه وسلم . والذين آمنوا ، ذلك أن دين محمد هو الإسلام لله والإقرار بوحدانيته ، وكذلك إيمان المؤمنين بمحمد فكل من كان على إيمان بالله كهذا الإيمان فهو أحق الناس بإبراهيم ، وأقربهم نسباً له وأكثرهم صلة به ، وأبانت أن جهد اليهود كان منصرفاً إلى التشكيك في رسالة الرسول وفي الكتاب الذي أنزل عليه ، ولو أنهم نجحوا في ذلك لكان ذلك نصراً لهم ولا حاجة لهم بعد ذلك بأي تدبير آخر ضد الإسلام ، حيث لا يكون هناك إسلام ولا مسلمون متى قام الدليل على بطلان دعوة محمد ، وبطلان ما نزل عليه من عند الله ، وعائبتهم لأنهم يكتمون الحق الذي يعرفونه من أمر محمد والقرآن لا عن جهل منهم يعرفونه ويعلمونه ، ولكنهم يسعون إلى إضلال من استقام أمرهم ، وهم في الحقيقة إنما يضلون أنفسهم .

وكثر جدل اليهود للنبي وللمسلمين ، واشتد عنادهم حتى ضاقت الصدور بما يدعون كذباً ، وبدأت آيات القرآن تنزل تباعاً ترد عليهم وتزجرهم زجراً شديداً لعلمهم ينتهبون ، ولكن هيهات .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُفِزَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ

الصَّاعِقَةُ يُظْلِمُهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا [النساء ١٥٣] ، والآية تعرض لطلب اليهود أن ينزل النبي كقائماً من السماء يرونه رأى العين ، كما رأوا المائدة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام بناء على طلبهم ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، ولم يصدقوا رسالته ، وقد أوضحت الآية أنهم لا يسألون ليعلموا فتتضح أمامهم الرؤية فيؤمنوا ، ولكنهم يسألون للتطاول والعناد ، فقد سألوا موسى سؤالاً أكبر ، وطلبوا أن يروا الله جهرة ، فعاقبهم الله على تطاولهم وتجلى لهم فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، فلم يرجعوا عن غيهم وضلالهم ، ولكنهم ظلوا على ما هم فيه من غي وعناد ، واتخذوا العجل إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

عن ابن عباس قال « حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمن إلا نبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا ما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه ، لأننا حدثناكم شيئاً فعرفتموه لتقاربني على الإسلام ، قالوا : لك ذلك ، أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا أي الطعام حرم لإسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ ، وأخبرنا كيف ماء الرجل وماء المرأة ؟ ، وكيف يكون الذكر منه والأُنثى ؟ ، وأخبرنا بهذا النبي الأُمِّي في النوم ووليه من الملائكة ؟ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن لإسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه (١١ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

فمنذر الله فذرا لئن عافاه الله من سقمه ليجر من أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها ، فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أشهد عليهم وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ، قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم أشهد ، وقال : وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبی الأُمی تنام عيناه ولا ينام قلبه ، قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم أشهد قالوا : فخذننا عن وليك من الملائكة فعندها نجتمعك أو نفارقك ، قال : فإن ولي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك إنه عدونا ... وأنزل الله تبارك وتعالى قوله فى ذلك : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة ٩٧/٩٨] .

ونكتفى بهذا المثل .

وكان الجدل يصل إلى حد التماسك والإعتداء ، فمثلا التقى أبو بكر بـ رجل يهودى يدعى فنحاص ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال الرجل « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه أغنياء ، وما هو عفا بغنى ، ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم

صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً ما أعطانا » ،
 وكان يعنى بقوله هذا قول الحق تبارك وتعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي
 يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ، [البقرة : ٢٤٥]
 وغضب أبوبكر مما سمع ، فضربه في وجهه ، وقال « والذي نفسى بيده
 لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله » ، ونزل قول الله
 تعالى ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ
 سَنَكْتُبُ مَقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ
 الْحَرِيقِ ﴾ ، [آل عمران : ١٨١] .

وكانوا يترددون على مجالس المسلمين ويوجهون إليهم أسئلة كانوا
 يتوقعون ألا يجدها المسلمون وفي مقدمتهم رسول الله إجابة لها ، فيثير ذلك القلق
 والشك ، ويتزعزع إيمانهم ، وكانوا يأملون أن يعجز رسول الله عن الإجابة
 فيتخذون ذلك ذريعة للتشكيك في قلوب المؤمنين .. سألو الرسول عن الروح
 والساعة وعن ذى القرنين وعن القرآن « أحق يا محمد ، هذا الذى جئت به
 الحق من عند الله ، فإننا لانراه منسقا كما تنسق العجوراة » ، وسألوه عن الله
 « يا محمد ، إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ » .

وتمادوا في سؤالهم فقالوا « صف يا محمد كيف خلقه » ، وتلا عليهم رسول الله
 الإجابة وهى قول الله تبارك وتعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ .
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص] .

ولما فشلت حرب الجدل ولم تؤت ثمارها المرجوة ، لم يستسلموا لليأس
 والفتنوط ، وإنما بدءوا جولة ثانية بمنهج جديد وأسلوب حديث .

• أعلنوا حرب الديسة والنفاق

فدفعوا ببعض من رجالهم من بينهم بعض أجهارهم إلى صفوف المسلمين .
يظهرون إسلامهم وإيمانهم بالدين الجديد ، على أن يكون ذلك ستاراً لعمل
مضاد للإسلام والمسلمين ، فكانوا يحضرون إلى مسجد الرسول ويسمعون
إلى أحاديث المسلمين ويسخرون منها ويستهزئون بها ويثبون الشك في
قلوب المؤمنين .

رآهم رسول الله مرة في المسجد يتحدثون فيما بينهم ، خافضى صوتهم
وقد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد خروجاً عنيفاً ،
والمسلمون يصيحون فيهم « أف لك منافقاً خبيثاً » و « أدراجك يامنافق من
مسجد رسول الله » و « لاتقربنَّ مسجد رسول الله فإنك نجس » .

وسمى اليهود إلى الدس بين الأوس والخزرج ، أرادوا بذلك إثارة
المنازعات القديمة ، فتثور النفوس وتطل الفتنة ، ويعود القوم إلى العراك ،
فتضعف بذلك وحدة المسلمين ويشهد بأس اليهود ويقوى .

مرّ يهودى يدعى شاس بن قيس وهو من شيوخ اليهود بقوم من
الخزرج يحالسون قوماً من الأوس ، وقد صفت قلوبهم وصلح ذات بينهم ،
فضاق صدره بما رأى « قد اجتمع ملائ بنى قيلة بهذه البلاد ، ومالنا معهم إذا
اجتمع ملأهم من قرار » ، ودفع بمن ذكر يوم بُعث^(١) الذى انتصر فيه

(١) وقعت وقعة بعث بين الأوس والخزرج وانتصر الخزرج وفر الأوس إلى نجد فغضب
زعيمهم وطعن نفسه في فخذه وقال « واعقراه !! والله لا أرى حتى أقتل » ، فإن
شئتم يامعشر الأوس أن تسلونى فافعلوا » ، فعادت الأوس إلى القتال ، وانتصرت ،
وهدمت منازل الخزرج حتى أجارها سعد بن معاذ .

الأوس على الخزرج ، وثارت النفوس ، وقال بعضهم لبعض « إن شئتم عدنا إلى مثلها » ، وعلم رسول الله فأسرع إليهم ، واستطاع بحكمته البالغة في الوقت المناسب أن يمنع الصدام الذي كان وقوعه ضرراً بالغاً بالمسلمين ، خاطبهم رسول الله وقد أدرك أنها فتنة يهودية فقال « يا معشر المسلمين الله ! الله ! أبعدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم به أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ... » . وأدرك الناس خطأهم ، وعرفوا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً ، وانصرفوا مع رسول الله وقد استغفروا ربهم ، وأنزل الله تعالى فيهم قوله الحق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ ، [آل عمران : ١٠٣ ، ١٠٤] .

وحاول اليهود أن يفتنوا رسول الله ، فذهب وفد منهم إليه عليه السلام وقالوا « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنما إن تبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنجتكم إليك فتقضى لنا فتبتك ونؤمن بك » ، وجاء الوحي الإلهي يحذر رسول الله ويحميه ويوجهه أن يحكم بينهم بالعدل ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، [المائدة : ٤٩] .

وجاءه عليه السلام قوم منهم حاولوا إقناعه بترك المدينة والإتجاه إلى بيت المقدس ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّينَا قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، [البقرة : ١٤٤] ، وصرف الناس قبايلهم نحو الكعبة ، فبلة إبراهيم بدلا من أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ويستدبروا الكعبة ، وأغضب هذا التحول جمهور المدينة فأنكروه ، وعرضوا على الرسول أن يعود فينتجه إلى بيت المقدس فيتبعوه ، وكان من الطبيعي أن يرفض رسول الله هذا العرض .

وصرح القرآن بأن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين وسأواهم بالمشركين ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وأمر رسول الله أصحابه ألا يرتدوا مثل لباس اليهود ، وألا يصفقوا مثلهم شعورهم ، وأن يحذروهم في السلام عليهم والرد على سلامهم ، وعدل عليه السلام من استخدام الهوق كوسيلة لدعوة المسلمين إلى أداء الصلاة ، وذلك لأن اليهود كانوا يستخدمونه .

ولما ضاقت بهم السبل وتعثرت خطواتهم ، قرروا أن يتخلصوا من الرسول عليه السلام ، وفكروا في قتله ، قال ابن إسحق « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بنى عامر للجوار الذي كان رسول الله عقد لها ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، فلما أتاها

رسول الله يستعينهم في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد) ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال : أنا لذلك .. فصعد البيت ليلقى عليه صخرة كما قال ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، وبعد أن سلم رسول الله بعث إليهم محمد بن سلمة ومعه رسالة فيها : اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى ، لقد أجليكم عشراً فمن رنى بعد ذلك ضربت عنقه .

وكانت هذه الحادثة خطوة عاجلة سريعة إلى نهاية الطريق حيث الصدام .

وتعرض الرسول لمحاولة أخرى فقد أسند يهود خيبر إلى امرأة منهم مهمة قتل رسول الله ، فقدمت زينب ابنة الحارث امرأة سلام من مشكم إلى رسول الله شاة مشوية ، وسألت « أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ » ، فقيل لها « الذراع » ، فأكثر فيها من السم ، ثم ستمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فتناول رسول الله الذراع ولاك منها مضغة فلم يسفها ولفظها وقال « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » .

وكما فشلت محاولة يهودية ازداد خوفهم من المستقبل .

وكانت حوادث الاعتداء على المسلمين من جباب اليهود ، كاعتداء

بنى قينقاع على سبدة عربية جلست إلى صائغ منهم فتعرضت لأشنع المجون ،
إذ عمد يهودى إلى ذيل ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما نهضت واقفة انكشفت
سواها أمام يهود الحانوت فأضحكهم المنظر ، وغضب إعرابى لكرامة أخته
العربية ، فضرب اليهودى بعصاة غليظة ضربة ألقت به صريعاً ، فثار حمية أهل
اليهودى وانتفضوا على العربى فقتلوه ، وهرع العرب إلى المكان يطلبون ثأر
أخيهم ، وبعث الرسول إلى اليهود محذراً ومتوعداً « يامعشر يهود ، احذروا
من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة » .

وهكذا كانت لحظة الصدام بين المسلمين واليهود تقترب ، وكان لابد
من أن يقع الصدام ، وأن تشهد الجزيرة العربية قتالاً عنيفاً بين الطرفين .

وقد كان .

وانتخبت الحرب بين الطرفين صورتين :

• الأولى . . . المحالفة

فقد تحالف اليهود مع قريش ضد الرسول فى غزوة الأحزاب . . قال حى
ابن أخطب لقريش « تركتهم (يقصد أهله) بين خيبر والمدينة يترددون حتى
تأتوهم ففسير معكم إلى محمد وأصحابه » ، وقال « أقاموا (يقصد بنى قريظة)
بالمدينة مكرراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » ، وخرج حى بن أخطب
وسلام ابن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس وطافوا بكل
من له عند المسلمين ثأر ، يحرضونهم ويعدونهم النصر ، وخاطب حى كعب
بن أسد فى شأن نقض عهده مع المسلمين ، ومازال به يشير يهوديته حتى

قبل ، وخرج عن عهده ، وكون ثلاث كتائب انضمت إلى القوات المتحالفة ضد المسلمين .

• الثانية ... المواجهة

لم يعد هناك مفر بعد أن ساءت العلاقات بين المسلمين واليهود من أن تقوم الحرب وأن تتم المواجهة .

فبعد بدر كان اللقاء مع بنى قينقاع ، وكان هؤلاء قد نشطوا في حرب الدعاية وإذاعة الأكاذيب ، كما آووا بينهم المتأمرين ، وتعاهدوا على العمل مع كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان هؤلاء قد أعماهم الغرور فبعثوا إلى الرسول « لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب (يقصدون قريشا) . فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . . . » ، وحاصروهم رسول الله خمسة عشر يوماً ، ثم صادر أسلحتهم وأموالهم وأمرهم بالخروج فخرجوا إلى بلدة أذرعاء .

وبعد أحد كان اللقاء مع بنى النضير ، وهؤلاء كانت لهم في ظاهر المدينة حصون منيعة ، وكان كبيرهم كعب بن الأشرف من أكثر الناس كيداً للإسلام (استدرجه بعض المسلمين وقتلوه) .. بعث إليهم رسول الله يطلب جلاءهم وأموالهم عشرة أيام ، فقال لهم عبد الله بن أبي « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم » ، وقال كبيرهم حيي بن أخطب « أنا مرسل إلى محمد إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع ما بدا له » ، وحاصروهم رسول الله ، ثم تبين قوة حصونهم

فهددهم بحرق زراعاتهم ، وأمر بإشغال النيران في النخيل الذي يحيط بالحصون ، فلما رأوا النيران دب الرعب في قلوبهم وآثروا الفجأة ، وبعثوا بالأمان حتى يغادروا حصونهم ، وغادروها فعلا تاركين سلاحهم ، ونزل فيهم قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ الْقَارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . [الحشر ٢/٤]

وبعد الخندق كان اللقاء مع بنى قريظة ، وهؤلاء كانوا في حلف مع المسلمين ، ثم نقضوا اتفاقهم في أحلك ساعات الشدة ، ولولا يقظة الرسول لانهار الدفاع عن المدينة يوم الأحزاب ، وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت إنه « لما رجع الرسول يوم الخندق دق الباب ، فارتاع الرسول وخرج فخرجت في أثره ، فوجدته يحادث رجلا على دابة ، فلما رجع سألته عن الرجل ، قال : إنه جبريل أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة » ... وأمر الرسول مؤذنا فأذن في الناس « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة » ، وتجمع المسلمون ثم دنا الرسول ورجاله من حصونهم وصاح فيهم « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته » ، ثم أمر بحصارهم واستسلموا بعد خمسة وعشرين يوما على أن ينزلوا على حكم رجل

اختاروه حكماً هو سعد بن معاذ الذى حكم بقتلهم ما عدا النساء والأطفال والشيوخ وبأن تسلّم ديارهم للمهاجرين فقط دون الأنصار ، فقتلهم رسول الله .

ثم كان اللقاء مع يهود بنى خيبر ، وكان أشد اللقاءات ، فهم أصحاب حصون قوية منيعة ، وكانوا أكثر اليهود عدداً وأعزهم نفراً وأوفرهم مالا وأشدّهم جلدًا على القتال . . . قال لهم سلام بن مشكم « ادخلوا أموالكم وعبائكم حصنى الوطيم والسلام ، وادخلوا ذخائركم حصن ناعم ، وليدخل المقاتلون حصن نطاة » ، وقال رسول الله لقومه « خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ، وشهد هذا اللقاء بطولة على ابن أبى طالب الذى نازل مرحب اليهودى الذى كان يطلب الثأر لقتل أخيه الحارث (قتله على) ، وكان مرحب جدّ مهيب بقامته الهائلة ودرعه المزدوج وسيفه ورمحه ذى الأسنة الثلاث وعمامة السميكة وخوذته التى يعلوها حجر كريم فى حجم البيضة ، وكان الغرور يملأ صدره فوقف يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب
شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب
إذا الليوث أقبلت تحزب

ودعا الرسول على بن أبى طالب وقال له « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ، والذى نفسى بيده إن معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعتها » ، وواجه على مرحباً وهو يرتجز :

أنا الذى سمنى أمى حميدره
كلث غابات كرىه المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره

وبعد مقتل مرحب خرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام ، وشنّ
المسلمون الهجوم العام ، فسقطت الحصون الواحد تلو الآخر ، وصالحهم رسول
الله على البقاء لخدمة الأرض وزراعتها ، وعلى هذا أيضاً صالح الرسول يهود
فدك ووادى القرى .

نخلص من هذا كله إلى أن الرسول أبدى روح السلام لليهود منذ قدم
المدينة ، وأراد أن يعيش معهم فى أمان ، وعقد معهم اتفاقية لم يلبثوا أن
نقضوها وخالفوا نصوصها ، وأثاروا المقاعب فى طويق العلاقات بين الطرفين
حتى وصلوا بها إلى طريق مسدود ، ولقد ظل رسول الله على منهجه ، فكان
بعد كل إثارة من جانبهم يبعث إليهم ناصحاً ، فلا يقبلون نصحه ، وغلب الضرور
على تفكيرهم ، وظنوا أنهم قادرون على مواجهة المسلمين وهزيمتهم ، واتجهوا
إلى التحالف مع القبائل الأخرى وإثارتها وتشجيعها على محاربة الرسول ،
وعقدوا اتفاقيات سرية تضر بالمسلمين . . . كل هذا كان يدفع الطرفين
دفعاً إلى وقوع الصدام المسلح .

وكان لابد من القتال والمواجهة .

ولم يكن الإسلام فى كافة اللقاءات هو البادى .

ولمّا واجه اليهود دفاعاً عن نفسه ووجوده .

ولهذا كانت حروب المسلمين ضد اليهود حرباً دفاعية وقائية .

رابعاً . . . الفرس والروم

لم تكن مهمة الرسول قاصرة على الدعوة إلى الإسلام في الجزيرة العربية وحدها ، وإنما كان عليه السلام مكلفاً بأن تبلغ الدعوة إلى الناس كافة ، امتثالاً لما جاء به الوحي على لسان جبريل « يا محمد ، إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك منه السلام ، ويقول لك أنت رسول الله إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله »

كانت هناك دولتان كبيرتان تحيطان بجزيرة العرب تدين الأولى وهي فارس بالجنوسية ، وتدين الأخرى وهي الروم بالنصرانية ، وكان المشركون يميلون إلى الفرس لأنهم أصحاب أوثان ، بينما المسلمون يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب .

وكانت هناك إمارتان عربيتان تمثلان خط الدفاع الأول عن الدولتين .. إمارة الحيرة التي قامت على حدود فارس ، وإمارة الغساسنة على حدود الشام التي كانت تحت حكم الروم .

جمع رسول الله أصحابه وقال لهم « أيها الناس ، إن الله بعثني رحمة للناس كافة ، فأدوا عني يرحمكم الله ، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم » ، فسأله أصحابه « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » ، فأجاب « دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه ، فأما من بعثه قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه بعيداً فسكره وجهه وثناقل » ، وأخبرهم

أنه عليه السلام اعتزم توجيه رسله برسالات منه إلى هرقل وكسرى والحارث الحميري ونجاشي الحبشة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، فواقه أصحابه ، وشرع رسول الله يكاتب الملوك والأمراء من حوله بعد صلح الحديبية .

وحين عزم رسول الله على ذلك الأمر ، اتخذ لنفسه خاتماً من فضة نقشه « محمد رسول الله » ، وكتب لكل ملك كتاباً يعرض عليه الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ويكلفه أن يبلغ هذه الدعوة إلى أمته كلها .

● ● حمل دحية بن خليفة الكلبي رسالة النبي إلى هرقل في وقت انتصاره على الفرس واستعادته الصليب الأعظم الذي كان قد أخذ من بيت المقدس، وكان يستعد أيضاً للحج إلى بيت المقدس ماشياً ليرد الصليب إلى مكانه ، وتسلم الرسالة وهو في حمص وقراها « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فاسلم تسلم . يؤتلك الله أجرك مرتين . فإن أبيت فإن إثم الأكاريين (الفلاحين) عليك » ، وأراد هرقل أن يستوثق من أمر هذا الرسول ويعرف حقيقته ، فبعث إلى جماعة من تجار العرب كانوا بالشام وقتها ، وكان معهم أبوسفريان ابن حرب فجعل يسأله عن رسول الله :

— هل كان من آبائه ملك ؟

— هل كنتم تنتمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

— هل قال أحد منكم هذا القول ؟ ... — هل يغدر ؟

وكانت إجابات أبي سفيان تحمل لفظاً واحداً هو : لا ، فعاد وسأله

سؤالين هامين :

— أأشرف الناس اتبعوه أم ضعفائهم؟

— بـ. بأمركم؟

وأجاب أبو سفيان أن ضعفاءهم اتبعوه ، وأنه يأمر أن يعبدوا الله ولا يشركوا به ، وينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف .

ووضحت الرؤية أمام هرقل ومثلت الحقيقة الخالدة أمام عينيه ، فقال « إذا كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدحى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه » .

وجمع هرقل عظماء الروم وقال لهم « يامعشر الروم ، إنه قد جاءنى كتاب أحمد وإنه والله الذى كننا ننتظر ، ومجمل ذكره فى كتابنا نعرفه بعلاماته وزمانه » ، ثم أمر بأن يرد على الرسالة رداً حسناً .

● ● وفى ذات الوقت كانت رسالة مماثلة قد سلمت إلى الخارث الغسانى^(١) ،

حملها إليه شجاع بن وهب ، فبعث يستأذن هرقل فى أن يقوم على رأس جيش لمعاوية مدعى النبوة فى المدينة ، واسكن هرقل رفض طلبه ، وأمره ألا يفعل ، فرمى الخارث برسالة الرسول ، وأمر بشجاع فقتل ...

وكان هذا التصرف من جانب الخارث تصرف شائن لا يتفق مع دعوة السلام التى حملها إليه وكان سلوكه معها ، لأنه اعتدى على الرسل وهؤلاء

(١) الفساسنة قوم من العرب هاجروا إلى الشمال وانتهوا إلى ماء غسان ففسبوا إليه وأقاموا دولة فى حماية الروم .

لا يُعتدى عليهم ، وكان عمله هذا عدوانياً يتطلب رده ، ولهذا أعد الرسول في السنة الثامنة للهجرة جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيد بن حارثة ورتب عليه السلام قيادة الجيش فقال « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » ، وودع الناس الجيش توديعاً حاراً ، فقد كان في طريقه إلى مواجهة جديدة وخطيرة ، إذ تعاون هرقل والغساسنة وأعدوا جيشاً ضخماً كثيفاً ، قيل في بعض المصادر إنه فاق في عدده المائتي ألف (مائة ألف من الروم ومائة ألف من القبائل العربية) .

وكانت مؤتة أول لقاء مسلح للمسلمين مع أعدائهم خارج الجزيرة ، وكانوا في هذا اللقاء يمارسون حقاً مشروعاً ، ولهذا كانت الحرب التي وقعت دفاعية وقائية ، فهم يدافعون عن دين دعوا إليه في لين ، فقتل حامل الدعوة ، وتطلب الأمر الأخذ بالنار والدفاع عن الدعوة حتى تصل إلى الناس ، ورغم الهزيمة التي لحقت بالمسلمين ، ورغم استشهاد القادة الثلاثة ، فإن هذه الغزوة كانت علامة بارزة في تاريخ الحرب الإسلامية ، تؤكد ما تميز به المقاتل المسلم من إيمان وجسارة وشجاعة وبطولة وفداء .

وعلم رسول الله أن هرقل يمد جيشاً يغزو به حدود العرب الشمالية ، بعد أن ضايقه الانسحاب الرائع في مؤتة دون أن تقع بهم خسارة ، هذا الانسحاب الرائع الذي تولاها سيف الله خالد بن الوليد فأكد عبقريته العسكرية وقدراته الفنية في مجالات الحرب والقتال ، ودعا رسول الله للتهيؤ ، وطلب من أترياء المسلمين المشاركة في تجهيز الجيش بما أتاها الله من فضله ، وتجمع لديه عليه السلام ثلاثون ألفاً وعشرة آلاف فرس ، فخرج بهم إلى تبوك ،

فلم يجد للروم أثراً ، وقيل إنهم انسحبوا إلى داخل حدودهم ليحتموا في حصونهم ، وليقاتلوا فوق أرضهم ، ورجع الجيش الإسلامي دون قتال ، ولسكن بعد أن عقد صلحاً مع ملك دومة أكيدر بن عبد الملك ، ومع صاحب أيلة يوحنا بن روبة ، ومع أهل الجرباء وأذرح وها قريبان بالبلقاء من أرض الشام .

وكان الرسول يحسب للروم حساباً ، ويرى ضرورة توطيد سلطة المسلمين على حدود الشام ، ولهذا دعا بعد حجة الوداع إلى تجهيز جيش تولى قيادته أسامة بن زيد ، وكان حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من عمره ، ولكن الرسول أراد أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في مؤتة ، إلا أن الجيش لم يخرج ، فقد اشتد المرض بالرسول ، روى عن أسامة « لما نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فأعرف أنه يدعولي » .

هذا الإعداد والتحول الذي تم قبله إلى تبوك ، يعنى أن رسول الله أراد أن يحمى المسلمين من اعتداءات الروم ، وفي ضوء هذا المعنى يكون التحرك لمواجهة الروم عملاً دفاعياً شرعياً ، يهدف إلى حماية الدعوة والناس ، وليس عملاً هجومياً يهدف إلى عدوان .

وبعد أن تمت بيعة أبي بكر قرر أن يوفد جيش أسامة « والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لانفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيره لأنفذته » ، وخرج

الخليفة بنفسه يودع الجيش وخطب في رجاله خطاباً حوى أعظم مآثرته
المدرسة العسكرية الإسلامية من مبادئ إنسانية تهيمن على ميدان القتال حيث
الطعن والقتل والتدمير... « قفوا أوصمكم بعشر فاحفظوها عنى :

- لا تخونوا
- ولا تغلوا
- ولا تغدروا
- ولا تمثلوا
- ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة
- ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه
- ولا تقطعوا شجرة مثمرة
- ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كحل
- وسوف ترمون بأقوام قد فرغوا لأنفسهم فى
العوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له
- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بأية فيها ألوان
الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا
اسم الله عليه .

وكانت لهذه الحملة آثار بعيدة المدى فقد ...

- * * أمن المسلمون حدود بلاد الشام فى شمال شبه الجزيرة .
- * * عرف أعداء الإسلام الذين كانوا يخفون مقتهم وغضبهم وعداءهم
أن المسلمين أصبحت لهم قوة لا يستهان بها وأنهم يستطيعون تجهيز الجيش

المكثفة ، « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية » .

* * * تعود الجيوش الإسلامية عبور الصحراء من المدينة إلى حدود الشام فأصبحت هذه المسافة سهلة مجربة لا يخشى فيها طول الطريق أو قلة الماء أو ندرة الطعام ، وعرف المسلمون فوق ذلك معالم الطريق مما كان عوناً لهم وللجيوش التي تحركت في عهدي أبي بكر وعمر إلى بلاد الشام .

* * * حسب العرب والروم حساب المسلمين بعد هذه الغزوة ، فغرب الشمال تعمدوا عدم التحرش بالمسلمين ، وهرقل انزعج حين بلغته أنباء هذه الغزوة وتغيرت نظرتة إلى المسلمين فوضعهم في مصاف الأعداء الأقوياء .

* * * كانت هذه الغزوة بداية للتحرك الإسلامي الكبير في عهد أبي بكر ثم في عهد عمر ، حيث واجه المسلمون جيوش هرقل في داخل حدوده وفوق أرضه ، وحيث تم أعظم انتصار في تاريخ العهد الإسلامي في اليرموك ثم في غيرها من المعارك في دمشق وغل وحص وقنسرين ، واضطر هرقل إلى الفرار من البلاد دون رجعة ، وأصبحت الشام جزءاً من أمة الإسلام .

|| * * | حل عبد الله بن حذافة السهمي رسالة رسول الله إلى كسرى فارس يقول له فيها « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم القرس . . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وأدعوك بدعاية الله عز وجل . فإن رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان حياً . ويحق القول على الكافرين . أسلم . تسلم . فإن توليت فإن إنهم المجوس عليك » .

و غضب كسرى فكيف يدعو فرد إلى دين جديد وهو الذى ورث الحق .
 المقدس عن أجداده من آل ساسان ، وكيف يقبل أن يخضع لسلطة دينية في
 يد غريبة ، هذا فوق أنه خشى على عرشه وسلطانه ونفوذه من الدين الجديد .
 مرّق كسرى الكتاب وكتب إلى بازان حاكم اليمين من قبله « ابعث
 إلى هذا الرجل (يقصد رسول الله) الذى بالحجاز رجلين من عندك جليدين
 فليأتياي به » .

علم رسول الله ما فعله كسرى فقال « مرّق الله ملكه » .

ثم إن بازان بعث برجلين إلى الرسول تنفيذاً لأوامر كسرى ، فقالا
 للرسول « إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا » ، فأمرهما إلى
 الغد ، وفي الغد دعاهما وسألهما « من أمركما بهذا ؟ » ، أجابا « ربنا (يقصدان
 كسرى) » ، فقال لهما الرسول « أبلغا صاحبهما أن ربي قتل ربه كسرى في
 هذه الليلة » ، وأوضح لهما الرسول ما تعنيه كلماته ، فإن شيرويه ابن كسرى
 ثار على أبيه وقتله ، وتولى الملك من بعده ، ثم حملهما الرسول رسالة إلى
 بازان « قولاه إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وقولاه إنك
 إن أسأمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء » .

رجع الرجلان إلى بازان ، وأخبراه بما قاله الرسول ، وما هو إلا أن أتاه
 الخبر بقتل كسرى على يد ابنه شيرويه ، ووصلته رسالة من شيرويه يقول فيها
 « إني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحل من قتل أشرفهم
 فإذا جاءك كتابي هذا فخذنى بالطاعة من قبلك ، وانظر الرجل (يقصد
 الرسول) الذى كان كسرى كتب فيه إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى .

فيه » ، (كان كسرى قد اشتد عليه المرض فانتقل مع زوجته شيرين وولديه منها مردانشاه وشهريار إلى المدائن ليرتب ورائة العرش ، وكان في نيته تثبيت مردانشاه ، فعلم بذلك ابنه قباذ المعروف باسم شيرويه ، فهاجم قصر أبيه وقبض عليه وسجنه ثم قتله ، وأمر بقطع أيدي إخوته السبعة عشر وأرجلهم حتى يفقدوا صلاحيتهم للملك ، ثم قتلهم بعد ذلك) .

عندما بلغت هذه الأنباء بازان قال « إن هذا الرجل لرسول » وأعلن إسلامه ومعه قومه ، وكان إسلامه نقطة ارتكاز قوية للإسلام في شبه الجزيرة فقد آمن القوم من سكان المنطقة كلها .

ولم ينس المسلمون الرد القبيح والتصرف المعيب الشائن الذي كان من كسرى فارس ، فلما تولى أبو بكر الخلافة بدأ يفكر في أمر فارس ، وبلغه أن العرب هناك يتاخون الفرس ويتعرضون للإيذاء والظلم ، وبدت له فارس كعدو للإسلام يهدد أمن الجزيرة ، ورأى أن الموقف يتطلب مواجهة صريحة معهم وجاءه المثني بن حارثة يدعو إلى تدخل الحكومة الإسلامية في القتال الدائر فوق أرض فارس بين العرب والمسلمين بقيادته وبين الفرس ، وعرض أبو بكر الأمر على أصحابه واستقر الرأي على أن يقول خالد بن الوليد قيادة الجيش العربي ، وأصدر إليه تعليمات كانت في جوهرها تهديدا لأسلوب القتال الذي حرص عليه الإسلام ، أمره بعدم التعرض لمن يزرع الأرض لا يقتل منهم أحدا ولا يأخذ منهم أسرى ولا يسيء إليهم في أمر ، وأن يزيل الظلم الذي يتعرضون له من جانب الفرس ، وأن يعمم العدل الذي دعا إليه الإسلام ، وكانت الأوامر صريحة في أن يسلك مسلك الرسول الكريم ، فيعرض قبل القتال رسالة الإسلام ويدعو إليه ، فإذا أجيب كفت يده عن القتال وجنح إلى السلم .

ونفذ خالد هذه التعليمات التي تعد منهاجاً عظيماً ، وضمت أصوله وقواعده وأسس المدرسة العسكرية الإسلامية في ضوء تعاليم القرآن ، فبعث رسالة إلى هرمز قال فيها « اسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، أو أقر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك » .

وفي الحيرة دعا خالد زعماءها إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنابذة ، فاختاروا الأخيرة ، ولما اشتد القتال ورأوا أن المقاومة لا تجدى نادوا « يا معشر العرب ، قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً » ، وعقد خالد معهم صلحاً وكتب بينه وبين الزعماء عدى بن عدى وعمرو بن عدى ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أطل كتاباً عاهدتهم فيه على الجزية على أن يمنهم ، فإن لم يمنهم فلا جزية عليهم ، فإذا غدروا بقول أو فعل برأت ذمته .

وبعث خالد إلى حكام فارس « أدخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم » ، وكتب إلى مرزبتها « اسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية » .

وعندما تولى سعد بن أبى وقاص « الأسد في براعمه » قيادة الجيش الإسلامي طلب منه الخليفة عمر أن يعرض على يزدجرد الإسلام أو الجزية أو المناجزة ، فبعث وفداً فيه النعمان بن مقرن وفرات بن حيان والأشعث بن قيس وعمرو بن معديكرب والغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة ، وتولى النعمان مخاطبة يزدجرد (استقر له الملك بعد صراعات دامية داخل البلاط الفارسي ، تولى خلالها الملك عدد كبير ، ولم يستمر أحد في الملك فترة طويلة ، حتى أن شهر براز بقي ملكاً لمدة أربعين يوماً فقط) .

قال النعمان « إن أجبتكم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم ، وإن أتيتكم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » ، وأساء يزدجرد معاملتهم ، وأمر بأن يحمل أشرفهم وقرأ من تراب ، فحمله عاصم بن عمرو ، فلما رآه سعد قال « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » ، بينما بعث رستم رجل في أمرهم « أدرك التراب فردّه ، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أمرنا » ، لأن النجوم كانت قد دلته على أن الذين يخرجون من المدائن بترابها إنما يخرجون بأرض فارس معهم .

والتقى زهرة بن الحوية برستم وتحدث معه ؛ فدعاه إلى الاسلام ، فسأله رستم « رأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم عليه ومعى قومي كيف يكون أمركم » ؛ فأجابه « والله لا تقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة » .

لقد خضع الصدام بين العرب المسلمين والفرس لعوامل عدة وهامة :

* * تأمين شبه الجزيرة من مؤامرات الفرس وتهديداتهم .

* * إبلاغ الدعوة إلى أهل فارس وعرض الدين الجديد عليهم .

* * رفع الظلم الذى يتعرض له العرب من جانب الفرس .

وعندما وقع الصدام كان أسلوب المسلمين خاضعاً لتعاليم القرآن فلاعدوان ولاقتل ولا تخريب ؛ ولكن دعوة سلمية رفضها الفرس غوراً وكبرياء ، حتى تم الفتح وارتفعت راية الإسلام فوق أرض فارس وأصبح الدين هو الاسلام .

﴿ • • ﴾ قال حاطب بن أبي بلتعة مبعوث رسول الله إلى المقوقس
 «بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، فخبثته
 بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلني في منزله وأقامت عنده » ،
 وكان رد المقوقس على الرسول ردا جميلا ، فقد بعث يقول إنه يعتقد أن نبيا
 سيظهر ، ويسكن في الشام وليس في الجزيرة العربية ، وأنه أحسن استقبال
 رسوله بما يجب له من إكرام ، وأرسل معه هدية وحرسا بحرسه إلى مأمنه ،
 وكانت الهدية جاريتين هما مارية التي تزوجها الرسول وكان له منها ابنه
 إبراهيم ، وسيرين التي وهبها الرسول لحسان بن ثابت الأنصاري ، وبغلة
 أسماها النبي دلدل ، وحمرا سمي عفير أو يعفور .

وهنا يفرض سؤال نفسه .

إذا كان المقوقس قد أحسن استقبال المبعوث وأكرمه ، واحتفظ
 برسالة الرسول — كما جاء من بعض الروايات — داخل وعاء من عاج
 وختم عليه ، وأرسل إلى الرسول بهدية تقبلها عليه السلام ، فلماذا كان الغزو
 الإسلامي لبلاد مصر .

لقد كان المسلمون جميعا يدركون منذ عهد الرسول أن مصر ستكون
 جزءا من الأمة الإسلامية . فقد قال الرسول « ستفتحون مصر ، فاستوصوا
 بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » .

وبعد أن صالح عمرو بن الخطاب أهل بيت المقدس في السنة السادسة عشر
 من الهجرة ، أخبره عمرو بن العاص أن أرطابون الروم قد انسحب بقواته
 من فلسطين إلى مصر ، وأن وجهة النظر العسكرية تحتم مطاردته للقضاء عليه

حتى لا يستفحل أمره ويكون شوكة في جنب الدولة الإسلامية في فلسطين والشام ، وخاصة أنه تقوافر له في مصر وسائل الإعداد والمجهيز والقوة التي يرتسكن عليها .

وعاد عمرو مرة أخرى يعرض الأمر على عمر ، وكانت وجهة نظره أن المسلمين إذا قنعوا بالاستقرار في البلاد التي أخضعوها ، صُور ذلك من جانب أعدائهم بالضعف ، وأغراهم على مهاجمتهم ، هذا فوق أن أرطبون ، يجد في جمع الجوع ليسير بها إلى فلسطين ، وأكد للخليفة أن المجهوم على مصر في ضوء هذا المعنى يكون دفاعياً وقائياً .

وجمع عمر أولى الراى في المدينة ، وعرض عليهم الأمر ، ثم بعث إلى عمرو « اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر » .

إن وجهة نظر عمرو سليمة من وجهة نظر القائد الحارب المحنك الذي يقدر الموقف العسكري تقديرأ سليماً صحيحاً ، ولعل في الأسباب التي ذكرها للخليفة الرد الوافي على السؤال الذي فرض نفسه .

والذي نريد أن نركز عليه هنا هو أن المسلمين في مسيرتهم إلى مصر نهجوا النهج الإسلامي الذي أقرته المدرسة العسكرية الإسلامية ، فكان عمرو يعرض على الناس الإسلام أو الجزية أو القتال ، فبعث مثلاً بعبادة بن الصامت إلى المقوقس يقول له « انظر الذي تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها ، إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتهما شئت ، بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا » .

وعندما تم الصلح بين المقوقس وعمرو تقرر أن يُقرض ديناران على كل نفس إلا الشينخ والصغير والنساء .

وفي صلح عمرو والمقوقس اتفق على خروج الروم من مصر نهائياً وأن تُترك الكنائس للمسيحيين ، وألا يتدخلوا في شئونهم ، وأن يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية .

وهكذا كان دخول المسلمين مصر دخولا مشروعا لا يحمل معنى الاعتداء أو العدوان ، ولا ينشد رقعة أرض أو فرض سلطان ؛ وإنما كان لتأمين حدود الدولة ، ولتسكير شوكة الروم في مصر ، ولرفع الظلم عن المصريين الذين تربطهم بالمسلمين مصاهرة كريمة ، ولإباحة الحريات الدينية ، ولنشر العدل والمساواة .

خامساً ... المرتدون

ما أن حمل النعاعة نبأ وفاة الرسول حتى تعرضت الجزيرة العربية لهزة خطيرة ، فقد رأى كثيرون الفرصة سانحة للعودة إلى القديم أو للتخلص على الأقل من سلطان المدينة التي كانت لها مقاليد العرب وكانت ترسم فيها السياسة العامة في عهد رسول الله .

انقسم المسلمون بعد وفاة الرسول إلى مؤمن موقن ومؤمن مفزع وكافر عنيد وموافق مفضوح النفاق ومتعاطف تتطارحه الأهواء .. وخلال هذا الجو القاتم الذى خيم على الجزيرة ، رفع النفاق رأسه وأعلن كثيرون تمردهم وعصيانهم ؛ ووصف الطبرى الأمر فقال « نجم النفاق وشرأبت اليهود

والنصارى والمسلمون كالغنم في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ؛ وقتلهم وكثرة عدوهم .

وتردبت على السنة الكثيرين أقوال كانت شعاراً لهم ومبرراً لمواقفهم مثل قولهم « لو كان نبياً ما مات » ؛ وقولهم « انقضت النبوة فلا نطيع أحداً بعده » . وقولهم « نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلى ، ولكن لانعطيتهم أموالنا » ، ولم يحفل هؤلاء بقول أبي بكر الصديق يوم مات رسول الله « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ؛ وتجاهل هؤلاء لفرض في أنفسهم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ تَبَارَكُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، [آل عمران ١٤٤] ، ولعل بعضهم قد نسى قول رسول الله « إن عبداً من عباد الله خير له بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عند الله » .

ظهرت في الجزيرة عقب وفاة رسول الله تيارات ثلاث

• الردة عن الإسلام

• • الامتناع عن دفع الزكاة

• • • إدعاء النبوة

وكان لابد للسلطة في المدينة أن تواجه هذه التيارات الثلاث التي أصبحت تمثل أحد أطراف القوى المضادة للإسلام .

وكان المجتمعون في سقيفة بني ساعدة قد بايعوا أبا بكر - الذي يعدل
بإيمانه إيمان أمة - خليفة لرسول الله ، قال عبد الله بن مسعود « لقد قمنا بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله منّ علينا
بأبي بكر »

وأصبح أبو بكر مسئولاً عن معالجة الموقف المتدهور الذي نشأ داخل
المجتمع الإسلامي حفاظاً على الإسلام ومتابعة لمسيرته وصوناً لوجوده واستكمالاً
لرسالته . ولقد أحس بمسئوليته أمام الله والتاريخ والناس فقور أن يتصرف
بحكم مسئوليته هذه بعقل المؤمن وقلب المسلم ، ورأى أن يكون منهاج
الدعوة الإسلامية هو منهاجه في معالجة هذا الموقف ، فأصدر كتاباً
عاماً يدعو فيه الناس إلى الرؤية السليمة للأمور والعودة إلى صحيح
الإسلام ، ونهذ الأفكار التي سيطرت على بعض العقول ، والتمسك بالإسلام
دينياً ، وبعد هذه الدعوة السليمة لإنقاذ الموقف ، أبان أن من استجاب
فقد أحسن ، أما من بقي على موقفه وأصر على انحرافه ورددته ، فليس له إلا
القتل ؛ وأعدّ ألية لمواجهة العاصفة ، ونوّل الحديث عنها قليلاً لئلا
كيف دبر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة ، وكيف استطاع أن يتغلب عليها
وأن يجمع كلمة العرب .

ماذا فعل أبو بكر مع

١ - المرتدين

كان تيار الردّة قوياً عمّ الجزيرة كلها في كافة أنحائها ، حتى أهل مكة
أنفسهم هموا بالردّة ، وخافهم عتّاب بن أسيد عامل رسول الله على مكة

فتواری عنهم ، إلا أن سهيل بن عمرو خطب فيهم وقال بعد أن ذكر وفاة الرسول « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فتهيّبوا الموقف ورجعوا عن ردّتهم وبقوا على إسلامهم .

وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد ، فخاطبهم عثمان بن العاص عامل النبي عليهم « يا أبناء ثقيف ؛ كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد » ، فاستمسكت بإسلامها

أما القبائل القائمة بين مكة والمدينة والطائف مثل مُزينة وغفار وجُهمنة وبللى وأشجع وأسلم وخزاعة ، فقد ظلت على إسلامها

أما سائر العرب فقد كان عهدهم بالإسلام قريباً ، ولم يسكن الإسلام قد تمكن من قلوبهم وعقولهم ونفوسهم ، فارتدوا وانتفضوا على الدين وأهله ، ورغبوا في أن يعودوا إلى استقلالهم السياسى والدينى ، أما القليل منهم الذين رأوا أن يبقوا على إسلامهم فقد انضموا إلى مانعى الزكاة .

ونصحهم أبو بكر فلما لم يقبلوا نصحه حاربهم .

٣ - مانعى الزكاة

قبائل أخرى بقيت على إسلامها ، واسكنها أبت إبقاء الزكاة ، وهى القبائل القريبة من المدينة مثل عبس وذبيان ؛ وانضم إليها بنو كنانة وغطفان وفزارة وهؤلاء كانوا أسرع تحرّكاً من أبى بكر ، فجمعوا جموعهم ودفعوا بها

إلى أمشارف المدينة ، ثم قسموا قوتهم قسمين . أقام الأول بالأبرق من الرّبة .
وتمحرك الآخر إلى ذى القصة وهو أقرب موقع إلى المدينة على طريق نجد .

جمع أبو بكر كبار الصحابة وعرض عليهم الموقف وانتهى إلى ضرورة
قتال مانعى الزكاة ، فرفض عمر واعتضت طائفة من المسلمين وكانوا يمثلون
أغلبية الأصوات ، وكانت وجهة نظرهم أنهم مسلمون حتى مع امتناعهم عن
أداء الزكاة ، وقال عمر « كيف نقاتل الفاس وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
فمن قالمها عصم منى ماله ودمه إلا بحقتها ، وحسابهم على الله » .

وكان أبو بكر ومعه آخرون يرون ضرورة قتالهم ، وقال فى ذلك « والله
لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم
على منعه » ، ثم حسم الموقف قائلاً « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة
والزكاة ، فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقتها » .

ورغم اعتراض عمر فإنه عاد وأيد أبا بكر وقال « فوالله ما هو إلا أن
رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

بعث قيادة جموع مانعى الزكاة نفراً منهم إلى المدينة يستطاعون الأمر
ويحاولون فى ذات الوقت إثارة الناس على أبى بكر ، فلما لم يجدوا فرصة لذلك عادوا
أدراجهم وهم يرددون قول أبى بكر « والله لو منعونى عقلاً لجاهدتهم عليه » .

وجمع أبو بكر الناس وقال لهم مشيراً إلى هذا النفر الذى دخل المدينة

« إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدكم منكم قلة ، وإنكم لاتدرون أليلا تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن تقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبيتنا عليهم ونهذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا »

لماذن فأبوبكر توقع أن تتعرض المدينة لهجوم مفاجئ يقوم به المعتنقون عن دفع الزكاة بقصد إرغام السلطة في المدينة وإجبارها بالقوة على الرضوخ لطالبهم ، واتخذ على الفور قراراتين هامتين لمواجهة أى هجوم مفاجئ على المدينة :

• أمر بحراسة مداخل المدينة وكلف بها علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود -

• أمر بأن يجتمع سائر الناس في المسجد في عدة القتال .

وكان توقعه سليماً ، فقد هاجم القوم المدينة ، وخرج أبوبكر ومعه الناس لمواجهةهم ، ففروا ولسكن كميناً لهم في موقع ذى حُسا باغت المسلمين ، وكان هذا السكين قد جاء بأوعية من جلود يسمونها أنحاء (جمع نحى) ونفخوها وربطوها بالحبال وضربوها في أوجه الإبل التي امتطأها رجال أبي بكر فنفرت براكيبيها في اتجاه المدينة حتى دخلتها .

وسعد القوم بهذا النصر المفاجئ فاجتمعوا وقرروا إعادة مهاجمة المدينة ودعوا قواتهم في ذى القعدة فانضمت إليهم ، ولم يدروا ماذا يجتبه لهم الليل وماذا يحمل إليهم ، ذلك أن أبابكر بات يتهيباً ويعبى القوى ، وفي الثالث الأخير من الليل خرج إليهم وعلى ميمنته النعمان بن مقرن ، وعلى ميسرته

عبد الله بن مقرن ، وعلى الساقة (المؤخرة) سويد بن مقرن ، وفاجأ القوم في الفجر وهم مطمئنون ، ووضع السيف فيهم ، فأخذتهم المفاجأة وأسقط من أيديهم ، فارتدوا إلى ذى القصة ثم عاودوا انسحابهم وانضم الهاربون منهم إلى قوات طليحة في بزاحة ، وعادت القبائل تدفع الزكاة .

٣ — الذين ادّعوا النبوة .

كان أولهم طليحة الأسدي من بنى أسد وقد تنبأ في العهد الأخير من حياة رسول الله وتبعه بعض العرب واليهود ؛ فاتخذ سميراً من بلاد بنى أسد مقراً لحركته ومركزاً لدعوته وهو لم يدع العرب إلى العودة لعبادة الأصنام وإنما ادعى أنه يُوحى إليه كما يُوحى إلى رسول الله ، وأن الملك يأتيه كما يأتي محمداً من السماء ، وحاول محاكاة القرآن موها الناس بأنه يوحى إليه به مثل قوله « والحمام واليام . والصرد الصوام . قد مضمن قبلكم بأعوام . ليبلغن ملكنا العراق والشام » ، وأنكر الركوع والسجود في الصلاة وقال في ذلك « إن الله لم يأمر بأن تقوس الظهور في الصلاة » و « إن الله ما يصنع بتعفر وجوهكم وتقبيح أديباركم شيئاً واذكروا الله واعبدوه قياماً »

وانضمت إليه فلول قبيلتي عبس وذبيان بعد هزيمتهم في ذى القصة ؛ وكذلك بنو أسد وغطفان ؛ وظل طليحة على ادعائه حتى مات رسول الله فاجتمع بقومه في بزاحة وأعلن خروجه على سلطان المدينة وعدم اعترافه بها .

ثم كان مالك بن نويرة وهو سيد من سادات تميم وكان رئيس قومه بنى يربوع وفارسهم وشاعرهم ، وقيل إنه كان تياهاً مغروراً حلوا الحديث حسن المحاضرة ، وكان أحد ستة رجال أقامهم رسول الله على بنى تميم ، فلم

مات رسول الله جمع القوم زكاتهم ليرسلوها إلى أبي بكر ، إلا أنه رفض وأعاد المال إلى أصحابه .

وكان ثالثهم مسييلة الحنفي من بني حنيفة باليمامة ، واسمه هارون ابن حبيب ويكنى أبو ثمامة ، ولقبه مسييلة ، ادعى النبوة في عهد رسول الله وبعث إليه عليه السلام يقول إن جبريل نزل عليه وأخبره بأن الله قد قاسمه النبوة معه وشاطره الملك والسيادة في جزيرة العرب « من مسييلة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإنني قد اشتركت في الأمر معك ، وإننا نصف الأرض ولقرش نصفها ، ولكن قرشا قوم يعتقدون » ، وأراد رسول الله له الهداية فبعث بأحد وجوه بني حنيفة من المسلمين وهو نهار الرجال (ذكر في بعض المراجع نهار الرجال) أليفه أهل اليمامة في الدين ويقروهم القرآن ، إلا أن مسييلة استطاع أن يؤثر في نهار الرجال ، فانسأخ عن دين محمد ، وأنكر نبوته ، وانضم إلى مسييلة ، فكان أشد فتنة على الإسلام من مسييلة ذاته ، وعظم أمر مسييلة بعد وفاة الرسول ، وتبعه قوم كثير ون قيل ما بين أربعين ألفا وستين ألفا .

وكانت سجاح بنت الحارث من بني يربوع الأثني الوحيدة التي ادعت النبوة ، وكانت امرأة ذكية تدعى السكھانة ، وتعرف كيف تقود الرجال ، فتبعها قوم كثير ون من قبائل تغلب وربيعة والنمر وإياد . . . كانت تنقم من رسول الله ، فلما سمعت بوفاته ارتدت وتنصرت ، وقادت قومها في حملة ضارية تريد أن تغزو المدينة وتقاتل أبا بكر ، والتقت بمالك بن نويرة وتحالفت معه ، ثم التقت بمسييلة لخالفته وتزوجته ، ثم تركته إلى

(١٣ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

قومها ، وعادت إلى العراق ، حيث يعيش أخوالها فبقيت بها حتى
ماتت .

نعود إلى موقف أبي بكر الذي اتسم بمبدأين أساسيين من مبادئ

الإسلام في الحرب

أولها . . مجادلة هؤلاء وهؤلاء بالتى هى أحسن وتقديم النصيح لهم .

ثانيهما . . القتال حتى العودة إلى صحيح الدين أو القتل .

جهز أبو بكر أحد عشر لواء وولّى كل لواء قائداً من رجالات الإسلام
المعروفين بعمق الإيمان وصدق العزيمة والشجاعة ، وحدد لكل واجبه
ومهمته القتالية ، وأمر أن يُحظر بعد كل عملية وأن يضعه كل قائد في الصورة
كأنه معه في قطاع عملياته ، ولا عجب في هذا فهو يمثل القيادة العامة ،
ولا بد من أن تصدر الأوامر منه ، وأن تعرض المشكلات والنتائج عليه ،
وأن يبلغ بسير العمليات حتى يمكنه تدارك المواقف وتعديل الخطط وتدير
الأمر وإصدار الأوامر السامية التى تخدم الخطة العامة .

أعد أبو بكر منشوراً سلمياً نشره على كافة القبائل ، يعرض عليهم
الموقف ، ويدعو المرتدين على مختلف اتجاهاتهم إلى العودة إلى الإسلام ،
وتوحيد جبهة المسلمين بدلا من الفرقة والانقسام ، وجاء في هذا
المنشور :

« إن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ،
وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ، ويحق القول على

الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرها ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأُمته وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى السكتاب الذى أنزله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر ٣٠) و ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٤) و ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَعْزِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٤) ، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حيي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منقهم من عدوه يجزيه .

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبيكم من الله وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه مخذول ، فمن هدام الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (الكهف ١٧) ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقربه ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالةً بأمره وإجابةً للشيطان ، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ
عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ (الكهف ٥٠) وقال ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ
لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ﴾ (فاطر ٦) .

ولم يبعث إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين .
ياحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله ، حتى يدعوه إلى داعية الله ،
فمن استجاب له وأقر وكفّ وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبي .
أموت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ؛ وأن يحرقهم
بالتار ؛ ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد
إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية
الآذان .»

ومراجعة كتاب أو منشور أبي بكر نجد أنه

• استعرض الموقف العام منذ بدء رسالة الرسول حتى وفاته عليه السلام
وأوضح أن وفاة الرسول لا تعني نهاية الرسالة ، لأنها رسالة الله
والله حي لا يموت .

• دعاهم إلى تقوى الله والتمسك بما جاءهم من عند الله ، ففي ذلك الهداية
والخير والصلاح ، أما الخروج عن طاعته ومخالفة أوامره فهو الضلال
كل الضلال .

• عرض لمواقفهم بعد وفاة رسول الله ، وأرجع ذلك إلى أنهم تركوا أنفسهم للشيطان بوجههم ويسيطر على تفكيرهم وهو عدو لهم ، وفي ذلك ضرر ومشقة .

• أعلنهم أن جيوشه ليست موجهة أصلاً لقتالهم ، ولكن لدعوتهم إلى الله ، فإن استجابوا حقنوا دماءهم ، وإن أبوا ورفضوا دعوة السلم فلا بد للقوات المسلحة أن تؤدي واجبها في حماية الدين والدولة بقتالهم وليكن القتال وقتها بعنف وشراسة تصل إلى حد الحرق بالنار .

تمددت اللوائ والاهداف والقيادات على الوجه التالي :

• اللواء الأول : يقوده خالد بن الوليد

يقاتل طلحة فإذا فرغ منه يقاتل مالك بن نويرة .

• اللواء الثاني : يقوده عكرمة بن أبي جهل

ويقاتل مسيلمة الكذاب .

• اللواء الثالث : يقوده شرحبيل بن حسنة

لواء مساعد لعكرمة فإذا فرغ من عملياته لحق بلواء عمرو في قضاة معاوية .

• اللواء الرابع : يقوده المهاجر بن أمية

يقاتل قوات العباسي في اليمن وحضرموت .

• اللواء الخامس : يقوده سويد بن مقرن

ويقاتل أهل نهامة باليمن

• اللواء السادس : يقوده العلاء بن الحضرمي

ويقاتل الحطام بن ضبيعة في البحرين .

• اللواء السابع : يقوده حذيفة بن محصن

ويقاتل ذى التاج لقيط بن مالك .

• اللواء الثامن : يقوده عرجة بن هرثمة

ويقاتل أهل مهرة .

وهذه الألوية الثمانية تعمل كلها في قطاع جنوب الجزيرة لبأس أهلها وإلحاقهم في الردة ، أما القطاع الشمالى فقد توجهت إليه ثلاث لواءات هي :

• اللواء التاسع : يقوده عمرو بن العاص

ويحارب قضاة ووديعه والحارث

• اللواء العاشر : يقوده خالد بن سعيد

وتكون وجهته مشارف الشام

• اللواء الحادى عشر : يقوده معن بن حجاز

ويحارب بنى سليم

وبقى أبوبكر بالمدينة ، واستبقى معه عليا وطلحة والزبير وعمرأ ، ايكونوا مجلس شورا في مركز القيادة العامة يضعون معه الخطط ويدبرون معه الأمور .

وأبقى أبو بكر الأنصار في المدينة ، فلم يول أحداً منهم قيادة ، بل جعل الأولوية كلها للمهاجرين ، وكانت له في ذلك وجهة نظر هي أن يبقى أهل المدينة وهم أعلم بأمرها كقوات دفاع عنها تدود عن حياضها .

وخرجت الأولوية كل إلى قطاعه ينفذ هدفه الاستراتيجي .

وكان القتال في كافة القطاعات دفاعاً عن الإسلام وحماية للمسلمين .

ولقد انتهى القتال بانتصار المسلمين وعودة القبائل إلى الإسلام ، وقد أخلص العائدون القائمون وحسن إسلامهم ، نفعاً عنهم أبو بكر ولكن منعهم من الخروج في أية عمليات عسكرية ، وظل هذا المنع سائداً طوال عهده ، وفي عهد عمر أذن لهم فحسن جهادهم وأسهموا في باقي الفتوحات التي شملت الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا .

كلمة أخيرة

الثابت من هذا العرض أن الحرب الإسلامية ضد المرتدين ومائعي الزكاة ومدعي النبوة كانت حرباً دفاعية وليست هجومية عدوانية ، فالردة والامتناع عن دفع الزكاة وادعاء النبوة وإعداد الجيوش ووضع الخطط للهجوم على المدينة مرّة بمعرفة مائعي الزكاة ومرّة بمعرفة سجاج تهديد واضح وصريح للحكومة المركزية في المدينة واعتراض على سلطتها وخروج على مقتضيات الصالح العام ، كما أنه تهديد واضح وصريح للدين الإسلامي ومصالح المسلمين والمجتمع الإسلامي وخروج على تعليمات الله تبارك وتعالى وانحراف بالخط النبوي ، لهذا فإن الموقف - وقد فشلت كافة وسائل معالجة الأمر بالسلم والتفاهم - يلزم القيادة العامة والسلطة العليا باتخاذ كافة إجراءات الحماية والأمن وتوفير مناخ الحرية والعدل والسلام

قامت الحرب في الإسلام ... هذه حقيقة

فالمسلمون حملوا سلاحهم وخاضوا غمار معارك كثيرة امتلأت بها صفحات تاريخهم منذ بدر ، حاربوا قريشاً ، ثم القبائل المتفرقة في أنحاء الجزيرة ، ثم اليهود الذين عاشوا في يثرب وخولها ، ثم الروم في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم الفرس في أرض العراق ، وحاربوا أيضاً المرتدين الذين تركوا الإسلام وعادوا سيرتهم الأولى .

فهل معنى هذا أن الإسلام دين حرب أم أنه دين سلام ؟

إن الحكم المنصف البعيد عن التعصب والذي يزن الأمور بميزان الصدق والعدل والقهم يستطيع مطمئناً أن يصدر قراراً صحيحاً يؤكد به أن الإسلام دين سلام وليس دين حرب ، وأن المسلمين خاضوا غمار المعارك وهم كارهون .

ففي الوقت الذي تعددت فيه الطوائف والأديان في الجزيرة العربية ؛ وزادت فيه المنازعات بين القبائل العربية ، وتحسست العصبية في أمور المجتمع ، جاء الإسلام ليعلن الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى التضامن والمحبة ، ويبطل كل عصبية ، ويسلك بالعرب طريق الخير والعزة ، ويقرب بين النفوس المتنازعة والقلوب المتطاحنة والمشاعر المختلفة المتضاربة ، ويجمع الناس جميعاً

في وحدة لا تفرق ، وفي حقوق وواجبات متساوية ، ويقول الله تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران ١٠٣) .

ولقد قام منهج الإسلام في دعوته على الحكمة والموعظة والكلمة الطيبة والإيضاح الجليل ، وهذه كلها وسائل تخاطب العقل والفكر في هدوء بعيداً عن التعصب أو التهديد .

ثم إن كلمة الاسلام مشتقة من السلام ، فهو إذن يدعو إليه ويستمد وجوده منه ويرى في استقراره استقراراً له ، ومن هنا كانت رسالة الإسلام تقوم أولاً على تحقيق السلام وتأكيد وإرسائه ، فالإسلام مرتبط بالسلام متصل به .

والمؤمنون الذين دخلوا في الإسلام عن عقيدة وثقة وافتناع لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من المسلمين ، فهو لمسم يعبر عن مشاعرهم وأمانهم ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (الحج ٧٨) ، ولقد اختار سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل لفظ المسلمين بالذات ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (البقرة ١٢٨) . والداعيان هما أبو الأنبياء وابنه ، ودعوتهما أن يكونا مسلمين لله ، وأن تكون من ذريتهما أمة مسلمة ، وأبناء إبراهيم من ذرية إسماعيل هم الأمة المسامة ، وهم الدعوة المستجابة لإبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ) (البقرة ١٢٩) ، والنبي محمد بن عبد الله الذي حمل رسالة الإسلام هو دعوة إبراهيم كما قال عليه السلام « أنا دعوة إبراهيم » ، وهذا النبي الذي دعا إبراهيم ربه ليبعثه رسولا جاء يقلو على الناس آيات الله ويعلمهم الحسكة ، ولم يأت ليحمل الناس بالتهديد على الإيمان برسالة ، ولم يأت بالسيف يقطع به الرقاب ، ولكنه جاء بكتاب من عند الله أحكت آياته لا ريب فيه هدى للناس ، وكلف برسالة هي رسالة خير ورحمة ، فلا يكون فيها للناس جميعاً إلا الخير والرحمة ، حتى لأولئك المشركين الذين تصدوا للرسالة وأعتنوا صاحبها ، حيث لم يأخذهم الله بما أخذ به الأمم السابقة ، الذين تحدوا رسل الله وكفروا بهم وبما يدعونهم إليه ، وهي رسالة ترسم للناس الحدود وتأخذهم على طريق الهداية والرشد ، وتوضح لهم المعالم بين الخير والشر والحق والباطل ، وهي رسالة إنسانية تحترم الوجود الإنساني وتلتقي بالناس وتعاطف معهم وتسمى إلى تحقيق السعادة والأمن والسلام لهم ، والمسلمون هم حلة هذه الرسالة ، يؤمنون بالسلام ، ويسعون من أجل أن ينتشر في العالم ، فيظل بمظلته الخلق جميعاً في كافة البقاع وفي كل الأزمنة .

وتحمة الإنسان المسلم لأخيه المسلم عند كل لقاء أو فراق هي « السلام عليكم » وهي دعوة صادقة مخلصه تلتقي في كل مناسبة ، وتصدر عن قلب مؤمن يعرف أبعادها ، وعقل متفتح يدرك حدودها ، ووجدان حي يفهم معناها .

وختم صلاة المسلمين سلام على اليمين وسلام على الشمال ، والسلام هنا أمنية كريمة يتمناها كل مصلٍ لأخيه الذي يشاركه الصلاة .

والقرآن نزل في ليلة كلها سلام ، تحف به ملائكة السلام ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا كَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر ١ / ٢) ، فهذه الليلة السكرية ولد فيها الأمن والسلام من بدئها إلى ختامها ، وهي ليلة القرآن ، والقرآن من مبدئه إلى ختامه سلام وأمن كله ، ورسالة القرآن هي الإسلام الذي هو السلام .

والسلام خير تحية يلقي الله بها عباده ﴿ تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَمْطَرُهُمْ سَلَامٌ ﴾ (الأحزاب ٤٤) ، وهذا القول بيان لرحمة الله بالمؤمنين وإحسانه إليهم ، فهم حين يلقون الله يوم القيامة تلقاهم الملائكة لقاء كريماً بهذه التحية التي تسعدهم « سلام عليكم » ، وتذهب عنهم الوحشة ويزيلهم الخوف في موطنهم الجديد بعد مفارقتهم الحياة الدنيا ، وهذا ما يشير إليه قول الحق تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (النحل ٣٢) ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ (الرعد ٢٤) .

وسميت الجنة التي وعد الله بها المققين دار السلام ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ مِنْهُ رَبُّهُمْ ﴾ (الأنعام ١٢٧) ، و ﴿ وَاللَّهُ يَدْخُلُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ (يونس ٢٥) ، فهو لاء الذين دعوا إلى الإيمان فأجابوا ورأوا الهدى فاهتدوا لهم عند ربهم دار الأمان ، والعافية من كل سوء ، والنجاة من كل شر ، والفوز بنعيم الجنات ورضوان الله .

والسلام اسم من أسماء الله ﷻ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ
الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (الحشر : ٢٣) ، فالله هو السلام ، هو من سلمت ذاته
وصفاته وأفعاله ، والله مسمى بكل حسن يليق به ، لأن حسن الإسم من حسن
المسمى ، حيث يسمى الشيء عادة بالاسم الذي يدل على أوضح صفة فيه ،
وإذا تعامل الإنسان مع ربه بأسماء يدعوها ، وجب أن تكون هذه
الأسماء دالة على ما لله سبحانه من كمال وعظمة وجلال وسلطان قائم على
الوجود ﷻ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﷻ (الأعراف ١٨٠) .

والإسلام جاء مؤكداً لمعانى السلام ، وعمل على استقراره ، وأرسى قواعده ،
ودعا الناس إلى العمل بها ... قرر مثلاً مبدأ الإخاء بين الناس ، ودعا إلى القضاء
على روح التعصب ، وأشار بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح الكريم ،
وأمر بالوفاء ، وحرّم القدر ، وطالب باحترام العهود والمواثيق ، وحصر
فكرة الحرب في أضيق حدودها ، وحرّم العدوان ، وأشاع العدل والرحمة
والاحترام الحقوق .. لقد سعد رسول الله ﷺ بحلف الفضول لأنه كان يحمل معنى
السلام « لقد شهدت في بيت عبد الله بن جدهان حلفاً ما أحب أن لي به حمر
النعم ، ولو سئلت به في الإسلام لأجبت » ، وهذا الحلف تداعت إليه قبائل
من قريش ، وشهد به بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة ابن
كلاب وتيم بن مرة ، فتعاقدوا وتماهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوماً من
أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من
ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته .

وأمر القرآن بالتدخل لفض أى نزاع مسلح أملا فى إقرار السلام .
﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾
(الحجرات ٩) ، وهذه الآية تضع أساسا للتعامل الأخلاقى فيما بين المسلمين ،
فالقرآن يسلم بإمكانية وقوع صدام بين المؤمنين ، ولكنه يدعو إلى فضه
بسرعة ، ويطلب من المسلمين أن يسهموا فى ذلك قبل أن يقسم ويستغلظ ،
والقتال بين المؤمنين لا يعنى أنهم خرجوا عن حدود الإيمان ، فهم مؤمنون
مقبولون على عمل مكروه أساسا فى الإسلام ، إذن فالإسلام يكره أن يقوم
قتال بين رجاله وقومه ، ويدعو فى حالة قيامه باقى المسلمين للعمل فورا ودون
انتظار إلى إصلاح ذات البين ، وأن يلزموا المتقاتلين بما يقضى به كتاب الله
وسنة رسوله ، فإذا بغت طائفة ورفضت أن تقبل النزول على حكم الله ورسوله
وجب على المؤمنين مناصرة الطائفة الأخرى المعتدى عليها ، حتى يعود
المعتدى تحت الضغط إلى حكم الله .

وأوصى الإسلام الناس بالحق والصبر والرحمة والنضام والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران
١٠٤) ، وبهذه الدعوة الإلهية يصبح المسلمون رعاة الدولة الإسلامية أمة
تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتحارب الموبقات
والمعاصد ، وتصلح المومج والمنحرف ، وتأخذ بيد الجميع إلى مستوى اجتماعى
وفكرى أعلى وأكبر ، وأعظم وأجل .

ورأى الإسلام أن الحد من البغى والقضاء على الظلم ومحاربة الفساد هو

أحد خطوط الإصلاح الإجتماعى الذى يحرص عليه ويخطط له ، كما رأى أن الدعوة إلى مكارم الأخلاق دعوة تخلق جواً من السلام يعيش فيه الناس آمنين مطمئنين وقوله تعالى ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (لقمان ١٧) ، دعوة كريمة فى معناها وهدفها وفتيجتها .

لقد كانت غاية الإسلام إذن أن ترقى النفوس ، وأن تمتلئ القلوب بالآيمان ، وأن تعمر بالاخلاص والمحبة ، وهذا النوع من السلوك يقضى على نزعات الشر عند الإنسان ، وبالتالى تحدد من الرغبة فى الحرب والميل إليها ، فيعم السلام ، ويعيش الناس فى أمان ووثام ومحبة وسلام .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الإسلام هذب صورة الحرب ورسم لها حدودها حتى لا تتعارض مع إنسانية الإنسان ، ولا بد الآن من الإشارة إلى حقيقة هامة ، وهى أن الإسلام من أجل تحقيق السلام دعا إلى الاستجابة الفورية لأية دعوة إلى السلام ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال ٦٢) ، فالحق تبارك وتعالى يشير على النبي الكريم أن يميل إلى المهادنة والسلام ، إن مال إليهما الأعداء ، وأن يرغب فيهما إذا رغبوا ، ذلك أن الدعوة إلى السلام هى دعوة إلى خير وأمن وعافية ، ولا ينبغى حقاً وعدلاً ومصلحة رفضها والتأبى عليها .

ولقد استجاب رسول الله لتعليمات الله فى شأن الاستجابة إلى دعوة السلام ، وكذلك المسلمون من بعده ، والأمثلة كثيرة لاسيلى إلى حصرها ، ونحن نقدم مثلاً واحداً حياً يؤكد صدق ما نذهب إليه ، ونعنى به صلح

الحديبية الذى تم فى عهد رسول الله .

فقد كان من الطبيعى أن تصد قريش الرسول وأصحابه - منذ هجرتهم - عن المسجد الحرام ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يزداد حنينهم وشوقهم إلى أداء واجب الزيارة ، وكان هذا حرمان غير مشروع أو مقبول فقريش لا تملك البيت ، وهى بالتالى لا تملك سلطة الحرمان .

وعاش المسلمون فى المدينة ست سنوات يتجرقون شرقاً إلى الزيارة وأداء فريضة الحج ، وأحس الرسول برغبتهم وشوقهم وبصبرهم على الحرمان ، فدعا إلى التحرك إلى مكة حجاجاً لا غازين ، وتأكيذا لهذا المعنى دعا بعض القبائل الأخرى لتسير معه ، لتسكون شاهداً على تحركه السلمى ، الذى لا يتسم أبداً بسمة الحرب .

وخرج الجمع يتقدمه الرسول ، وساق أمامه سبعين بدفة .

وعلمت قريش بأمر التحرك ، فجمعت جيشاً يقوده خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل تصد به القادمين ، وقال رجل من بنى كعب الرسول « قد سمعت (يقصد قريشاً) بمسيرك ، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ، ونزلوا بذى طوى ، يماهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم وقد قدموها إلى كراع الغميم » ، فقال رسول الله « يا ويح قريش ، لقد أهلكتكم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب » .

هذا موقف يتحكم فيه اتجاهان - أحدهما سلمى وآخر يبنى العدوان .

ويرى رسول الله فرسان قريش أمامه على مرمى البصر ، فيسأل الناس .
« من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ » ، وفي هذا التساؤل معنى
الإصرار على السلام .

وتتحرك جموع المسلمين حتى منطقة الحديبية ، وهناك بركت القصواء ،
وقال الرسول لأصحابه « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني
قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتها إياها » .

وبعث قريش الخليس سيد الأحابيش ليقف على نوايا المسلمين ،
وتبينت له حقيقة مسيرتهم ، وأطلق الرسول أمامه الهدى ، فاقتنع
وصدق .

وبعث قريش عروة بن مسعود ، فالتقى بالرسول وتحدث إليه ،
ثم عاد إليهم قائلا « إنما جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه
والنجاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد
في أصحابه » .

ورغبة في إظهار نية السلام بعث رسول الله مبعوثا إليهم ، فقهر
القرشيون جملة ، وأرادوا قتله لولا أن منعهم الأحابيش .

وخرج نفر من سفهاء قريش ليلا إلى معسكر المسلمين وقذفوه بالحجارة
فأصابوا بعض أصحاب الرسول ، ووقع بعضهم في يد المسلمين ، إلا أن
الرسول عفا عنهم وأخلى سبيلهم كدليل واضح على الرغبة في السلام .

وبعث الرسول سعد بن أبي وقاص إلى قريش يقول لهم « إنما جئناكم

لنزور البيت العتيق ، ولنعظم حرمة ، ولنؤدى فرض العبادة عنده ، وجئنا بالهدى معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام » .

ورفضت قريش أن يدخل المسلمون مكة عامهم هذا .

وخشيت قريش نقيجة تشددوا فبعثت بسهيل بن عمرو « إئت محمداً مصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا » .

واستجاب الرسول ، وقرر أن يعود إلى المدينة ، على أن يأتى وأصحابه فى العام الثانى ، وتم الاتفاق بين الطرفين ، وعقد بينهما عهد أو صلح الحديبية وجاء فيه :

- قيام هدنة بين المسلمين وقريش مدتها عشر سنوات .
- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم .
- من جاء قريشاً من رجال محمد لا يردوه عليه .
- من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه .
- أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة على أن يعودوا فى العام الذى يلى هذا العام ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم السيوف فقط فى قربها على أن تترك قريش مكة خلال هذه المدة .

ولقد ثار بعض المسلمين وأرادوها حرباً ضد قريش ، وكان فى مقدمتهم عمر بن الخطاب الذى سأل أبا بكر « علام نعطى الدنيا فى ديننا » ، ثم اتجه إلى رسول الله وهو مغيب محقق ، وأراد أن يثير الأمر معه عليه السلام فقال له (١٤ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

الرسول « أنا عبد الله ورسوله ، إن أخالف أمره وإن بضيعني » وأنهى قول الرسول الموقف ، وأزاح غضب عمر والثائرين معه .

وكان واضحاً أن الرسول لا يبغي صداماً مع قريش التي اختارت « سهيلاً » للصياغة العقد ، فكان يصر على فرض رأيه والرسول يستجيب والصحابه والمسلمون في ضيق وكدر ، فقد طلب سهيل ألا يكتب « باسمك اللهم » ، و « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » بل طلب أن يكتب اسم الرسول واسم أبيه فقط .

ووضع رسول الله بنود العهد موضع التنفيذ الدقيق حرصاً منه على استمرار السلام وإظهاراً لنيات المسلمين ، وقد حدث أثناء كتابة العقد أن أسلم أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش في المفاوضة ، وأراد أبوه أن يصحبه معه ويرده إلى قريش ، فاستغاث بالمسلمين ورسول الله ، فأبى رسول الله إغائته تنفيذاً لما اتفق عليه في العقد المبرم بينهما ، وقال له الرسول « يا أبا جندل ، اصبر واحسب ، فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين مخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نفدر بهم » .

وحدث الأمر ذاته مع أبي بصير عبيد الله بن أسيد حين فر مهاجراً من عذاب قريش يريد اللحاق بالمسلمين في المدينة ، وأرسلت قريش في طلبه ، فقال له الرسول « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين مخرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » ، وحزن أبو بصير حزناً شديداً ،

والتمس من الرسول البقاء حتى لا يفتن في دينه ، فما زاد الرسول على تكرار قوله وأمره بالصبر .

وعاد المسلمون إلى المدينة دون أن تتحقق رغبتهم ، وبينما هم في طريقهم نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَفْقَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُعْظِمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح ١/٢) .

* * *

وهنا يبرز سؤال هام :

قلنا إن المسلمين خاضوا غمار المعارك مدفوعين إليها مرغمين عليها نافرين منها .

وقلنا أيضاً إنهم أمروا بأن يستجيبوا الآية دعوة إلى السلام ، وإنهم كانوا يستجيبون فعلاً ، ويلتزمون بما تعاهدوا عليه حرصاً منهم على السلام ورضاء به .

ولكن هل كان المسلمون يقبلون السلام ويرضون به تحت أية ظروف ؟

إن تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية يؤكد أن المسلمين كانوا يرفضون السلام في حالات ثلاث ، وكانوا في كافة هذه الحالات يحملون السيوف ويخوضون المعارك مكرهين مجبرين ، دفاعاً عن أنفسهم والدعوة والداعي .

• الحالة الأولى ...

عقد ثبوت النية في مقاتلتهم والإعتداء عليهم

فقد أثار نجاح الدعوة الإسلامية في المدينة واستقرار أمرها واتساع رقعتها ، فقد بعض القبائل العربية التي تقطن مناطق مختلفة في الجزيرة فأخذت تعد العدة لمهاجمة المدينة الوادعة المسالمة ، وكان الإعداد يتم في سرية تامة أملاً في وقوع المفاجأة فلا يستعد المسلمون ولا تكون أمامهم فرصة التأهب للمقاومة والردع ، وكانت أخيار هذه التجمعات رغم سريتها تصل إلى رسول الله ، فكان عليه السلام يقوم بإعداد قواته ويخرج بها لضرب هذه التجمعات في مواقعها وحقق رسول الله بهذا الإجراء هدفين :

• مفاجأة هذه التجمعات قبل إتمام استعداداتها .

• وقوع الاشتباك خارج نطاق المدينة وحدودها .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن جمعاً من بني سليم وغطفان بقرقرة السكدر يريدون الإغارة على المدينة فصار إليهم في مائتين من أصحابه ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن دشور بن الحارث جمع جمعاً من ثعلبة ومحارب بذي أمر ، يريد أن يصيب بهم أطراف المدينة فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن جمعاً من بني سليم قد استعد في بجران لمهاجمة المدينة فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن غطفان قد تجمعوا بذات الرقاع ، يريدون إصا بة المدينة ، فخرج إليهم في أربعمائة من أصحابه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوات دومة الجندل ، وبنى المصطلق ، وبنى الحيان ، وذى قرد .

ولما سمعت هوازن نبأ فتح رسول الله مكة ، جمع مالك بن عوف بالجيوش والقبائل للسير إلى المدينة ، لمواجهة رسول الله والمسلمين ، فلما بلغ النبأ رسول الله ، جمع قومه ، وقرر أن يتحرك إلى هوازن ليلقاهم ، وكانت غزوة حنين .

وكان تجمع الروم في شمال الجزيرة الدافع الأكبر لخروج جيش زيد ابن حارثة لمقابلتهم في مؤتة ، حيث دارت أولى المعارك ضد الروم والتي استشهد فيها الأبطال الثلاثة زيد وجعفر وعهد الله بن رواحة ، ولقد أدت هزيمة المسلمين إلى إعداد جيش أسامة بن زيد على عهد رسول الله ، إلا أنه لم يخرج إلا في بداية عهد أبي بكر ، ثم كانت المسيرة الإسلامية الكبرى بالجيوش الأربعة التي بعث بها أبو بكر إلى بلاد الشام ، حيث بدأ عهد من القتال العنيف بين المسلمين والروم ، بداية بموقعة اليرموك ، ونهاية بخضوع الشام كلها للإسلام .

• الحالة الثانية ...

عند وقوع الغدر والتعرض للخيانة

فبعد أن استقر الأمر للرسول بالمدينة ، عقد معاهدة مع يهودها ، وكان عليه السلام يترضا هم ويتودد إليهم ، فهم أهل كتاب وكانوا أولى الناس بأن

يؤمنوا به ، وأن يصدقوا بما جاء به إلا أنهم كانوا يترقبون فرصة إصاـبة المسلمين والقضاء عليهم ، فقد كانت نار الحسد تغلي في صدورهم ، وكانت عداوتهم كامنة في قلوبهم ، فلما تمكن سلطان الرسول في المدينة ، وازداد الإسلام قوة ومنعة ، جاهدوا بالكفر والعداوة ، ولجأوا إلى المكر والسكيد ، وضربوا بما بينهم وبين رسول الله من عهود ومواثيق عرض الحائط .

وكان يهود بنى قينقاع أول من خان العهد ، حين اعتدوا على امرأة مسلمة ذهبت إلى سوقهم ، ثم قتلوا مسلماً أراد الدفاع عنها ، فأرسل إليهم رسول الله « يا معشر يهود .. احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة » ، وكان ذلك بعد هزيمة قريش في بدر ، فقالوا « يا محمد أرأيت أننا قومك ؟ ، لا يفر منك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبحت منهم فرصة ، إنا والله لننحاربناك لتعلمن أننا نحن الناس » ، وكان لابد من أن يتصدى لهم رسول الله ويواجههم .

وبعد أحد ، فرح اليهود لما أصاب المسلمين ، وأكثروا القول في رسول الله ، وحدث أن خرج رسول الله إلى يهود بنى النضير يستعينهم في دية رجلين من بنى عامر قتلها عمرو بن أمية الضمري ، وكان بين بنى عامر وبنى النضير عقد وحلف ، ثم تأمر اليهود على قتل رسول الله ، فقد قالوا له « نعم يا أبا القاسم ، حتى تطعم وترجع بجاجتك » ، وجلس رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم فقالوا « إنكم إن تجددوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فنرجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ » ، وتطوع لهذا العمل عمرو بن جحاش ، وتدخلت البجاء ، وحفظت رسول الله الذي بعث إليهم محمد بن مسلمة قائلاً « اخرجوا من بلدي ، فلا تسكنوني بها وقد هممت بما هممت به من الفدر » ،

وأمرهم عشرة أيام ، فمن وجد منهم بعدها ضربت عنقه ، فرفضوا الخروج
 « إنا لانخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك » ، وكان لابد من قتالهم .

• الحالة الثالثة

نقض العهد والمواثيق والتحالف ضد المسلمين

كان ليهود بنى قريظة دور خطير خلال غزوة الخندق ، ففي الوقت الذى
 آمن رسول الله جانبهم ، بمقتضى ما بينه وبينهم من عهد وميثاق ، كانوا
 يدبرون أمراً ضده عليه السلام ، وتحالفوا مع الأحزاب ليكفونوا عليه
 وقت القتال فيطعنوه من الداخل وقت انشغاله بمواجهة قريش ومن معها
 من الأحلاف . . كان المسلمون مقيمين على الوفاء والصدق في عهدهم
 لبنى قريظة ، بينما كان هؤلاء يستجيبون لدعوة حبي بن أخطب وهو يدعوهم
 إلى نقض العهد مع الرسول ، ولولا أن السماء تدخلت في غزوة الأحزاب ،
 وأنقذت المسلمين من الجوع الفميرة المتحالفة التى أحاطت بالمدينة لكان فناء
 المسلمين أمراً واقعاً ، بسبب انضمام بنى قريظة - وهم يسكنون المدينة - إلى
 الأحلاف ، لأن نقضهم للعهد كان الثغرة التى تنفذ منها هزيمة المسلمين . .
 ومن أجل هذا رأى رسول الله أن يصفى حسابهم معهم ، كما قال أميل درمنغم
 « الحق إنه كان من الصعب ألا يصفى المسلمون حسابهم مع يهود بنى قريظة
 الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب » ، وكان ما كان من أمرهم
 فقد احتكوا إلى سعد بن معاذ فأمر بقتل الرجال وسبى النساء وأن تكون
 ديارهم للمهاجرين وحدهم .

وقريش كان لها موقف مماثل . . فقد دخلت خزاعة في عهد رسول الله

ودخلت بكر في عهد قريش ، تنفيذاً لبنود صلح الحديبية . . . ووقع الصدام بين خزاعة وبكر ، وساندت قريش بكرأ على خزاعة ، فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ، فلما استعانت خزاعة برسول الله ، قرر أن يعينهم قائلاً لزعيمهم عمرو بن سالم الذى جاءه مستصرخاً ومستهزئاً « نصرت يا عمرو ابن سالم » ، وتهيأت الفرصة لفتح مكة . . . وكان الإعداد ثم التحرك ثم الفتح .

وها هو ذا مثل من مصر .

فبعد أن تم الصلح بين عمرو بن العاص وتيودور قائد قوات الروم بعد هزيمة الروم في الاسكندرية ، أعد امبراطور الروم أسطولاً ضخماً من ثلاثمائة سفينة حربية ، ليعود به إلى الاسكندرية لطرد المسلمين منها وإعادتها إلى حكمه ، وتولى منويل قيادة الحملة ، التى تم إعدادها فى كتيان وسرية ، ثم تحركت القوات إلى الاسكندرية ، وفوجئ المسلمون بالروم يحتلون الإسكندرية ، ثم بدءوا التحرك جنوباً ، وبلغت الأبناء الخليفة عثمان ابن عفان ، فأمر عمرو بن العاص بالتصدي للحملة ، ومواجهتها ، وفى ثقيوس كان اللقاء عنيفاً ، هزم فيه الروم ، وتم جلاؤهم عن البلاد . . . كان تصرف الروم خرقاً للاتفاق ونقضاً للعهد فكان لابد من مواجهتهم وقتالهم .

* * *

فنتهى من هذا إلى أن الإسلام كان حريصاً على السلام الذى يقوم على العدل والتفاهم والصدق دون الإضرار به أو الاساءة إليه ، وكان يسعى إلى السلام بالقلب المفتوح والعقل الواعى والنية الصادقة ، ولكنه كان يرفض السلام القائم على الغدر أو الخيانة أو الخداع .

كان من أهم ما تميز به الجند المسلمون هو الرغبة في نيل الشهادة .

وكان الاستشهاد هو غايتهم القصوى وأملهم المرتجى .

خطب مالك بن سفيان في المسلمين يوم أحد فقال « نحن والله بين إحدى الحسنيين .. إما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى أن يرزقنا الشهادة ، والله ما أبالي أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير » .

وجاء رجل من أهل الشام إلى عبد الله بن يزيد وقال له « والله لا أبرح حتى أقتلك » ، فقال له عبد الله « شر لك وخير لى » .

وكان الجند المسلمون - كما ثبت من تاريخ المعارك والوقائع والحروب - أكثر الجند سعيًا إلى الموت في سبيل الله ، وكانوا يأملون أن يكونوا من أصحاب الجنة حيث يعيشون في ظل العناية الإلهية والرعاية الربانية ، فرحين بما آتاهم الله .

كان الواحد منهم يخرج من بيته ويخلف وراء ظهره مصالحه وأفراد أسرته وكل ماملكت يده ، لا يفكر في عودة ، ولا يجذبه حنين ، ولا تقعه مصالحة .. كانت مصالحة الإسلام أمام ناظريه ولا شيء غيرها ، فيخرج وروحه على كفه ، لا يخاف الموت ولا يهاب مواقفه ، يندفع بكل أحاسيسه

إلى المعركة ، مؤمناً بالنتيجة ساعياً إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلد فيها راضياً مطمئناً .

كان الواحد منهم يخوض غمار المعركة وهو يعلم عن يقين أنه صاحب رسالة وداعى حق ، وأن القتال فى سبيل الله واجب ، وأن الجهاد فى سبيل الله أمانة ، وأن الموت فى الميدان شرف لا يرقى إليه شرف ، وأن الحياة الآخرة خير وأبقى .

من خلال هذه المعانى كان الجند المسلمون يدفعون إلى القتال فى شدة وصلابة وعنف وغلظة ، يواجهون الشدائد بقلوب ثابتة لا تهتز ولا ترتجف .. وصفهم المقوقس فى خطاب وجهه إلى ملك الروم « والله لإنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشدّ منا على كثرتنا وقوتنا ، إن الرجل الواحد منهم يعدل مائة رجل منا ، ذلك لأنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستبسل ، ويتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوا منا ، ويقولون لإنهم إن قتلوا ادخلوا الجنة ، ونحن قوم نسكرو الموت ونحب الحياة ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ، وكيف صبرنا معهم » .

ويصفهم رجل من عدوهم فيقول « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة » .

وتتضح لنا مفاهيمهم للحياة على لسان أحدهم وهو عبادة بن الصامت ، إذ يقول « ما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، ألا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده » . . ويقول

« إن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورحاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

ويخاطب المغيرة بن شعبه أعداءه فيقول لهم « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار » .

ويوجه النعمان بن مقرن إلى ربه بكل خشوع وبكل رجاء ، وغاية أمله أن تستجاب دعوته « اللهم أعز دينك ، وانصر عبدك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم » .

إذن فقد كرم الجند المسلمون حياة تقف بدينهم ، وقبل الله تبارك وتعالى منهم هذا الإحساس ، فأكرم الشهيد الذي يبذل حياته ، ووعد الخير كل الخير ، وجعله حياً عنده في الجنة ، يؤتيه من فضله ، ويشفع لأهله ، ويغفر له ، كما جاء في محكم آياته . . ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة ١٥٤] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١١١] . . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۚ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠] .

أما المزايا التي تكون للشهيد فقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها

فقال « إن للشهيد عند الله خصالاً . . أن يغفر له من أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده في الجنة ، ويحلى حلية الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج بائنتين من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه »

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد فقال « ... لا تغسل الشهداء من دمائهم ، فإن دم الشهيد يكون نوراً له يوم القيامة » .

وجعل الإسلام للشهداء درجات « أفضل الشهداء الذين إذا لاقوا في الصف لا يلقفون حتى يقتلوا ، أو أهلك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلى عبد من الدنيا فلا حساب عليه » .

وسمع عمرو بن العاص بعض القوم يقسمون « هشام بن العاص أفضل من نفوسكم أم أخوه عمرو ؟ » ، فأجابهم « إنما شهدت وهشام اليرموك ، فباتت وبنت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة ، فلما أصبحنا رزقها وحرمتها ، فهل في ذلك ما يبين لكم فضله على » .

واندفع عكرمة بن أبي جهل في اليرموك يهاجم العدو في أربعائة من وجوه المسلمين وفرسانهم وهو ينادى « من يهايعني على الموت ؟ » ، وبايعه ابنه عمرو وعمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ، وقاتل معهم أمام فسطاط خالد ، وجرح في صدره ووجهه وهو يواجه الأسنة والرماح ، فقليل له « اتق الله وارفق لنفسك » ، فأجاب « كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فأبذلها لها ، أفأستبقها الآن عن الله ورسوله » .

لا والله أبداً ، ، واستشهد عكرمة وابنه وعمه .

وأقبل عوف بن الحرث بن عفراء على رسول الله وسأله « يا رسول الله » ما يضحك العبد من ربه ؟ ، فأجابه « غمسه يده في العدو حاسراً » ، فنزع درعاً كانت عليه فذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحمل مصعب بن عمير لواء المسلمين في بدر ، فثبت به ثبوت الرواسي ، فأقبل عليه ابن قميئة وهو فارس من قريش ، وضرب يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » ، وأخذ اللواء بيده اليسرى فضربها ابن قميئة فقطعها ، فحنا على اللواء وضربه على صدره بمعضديه وهو يردد « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، فهاجمه ابن قميئة بالرمح فوقع وسقط اللواء ، ومحل إلى الرسول فنظر إليه ثم قال « لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت مشعت الرأس في بردة » ، وأمر بدفنه بينما كان قارئاً يقرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد ٢٤] .

واتجه عبد الله بن جحش إلى الله يناشده « اللهم ارزقني غداً (قبل أحد) رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله ويقاتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك قلت يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك فأقول فيك وفي رسولك » ، واشتبك عهد الله في القتال فأبلى بلاء حسناً ، وقتله أبو الحكم بن الأخنس ابن شريق وصدق فيه قوله تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

اللَّهُ عَالِمُ قُلُوبِهِمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
[الأحزاب ٢٣].

وحدد الرسول الكريم درجات الشهادة ، فقال « الشهداء ثلاثة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك الذي يرفع الناس أعيانهم إلى أعناقهم . . . ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فسكأنا يضرب جلده بشوك الطلح أتاها سهم غرب^(١) فقتله فذاك في الدرجة الثانية . . . ورجل مؤمن حسن الإيمان خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة » .

وفي قول آخر قال عليه الصلاة والسلام « القتلى ثلاثة رجال . . . مؤمن جاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو وقَاتلهم حتى يقتل ، فذاك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه ، لا يفضلُه البنيون إلا بدرجة النبوة . . . ومؤمن فرق على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى لقي العدو وقَاتل حتى يقتل ، فمضمضته بحت ذنوبه وخطايا ، إن السيف يحاء الخطايا ، وأدخل من أى باب من أبواب الجنة ، فإن لها ثمانية أبواب وبعضها أفضل من بعض . . . ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو وقَاتل في سبيل الله حتى يقتل كان ذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق » .

ومجد الإسلام الشهداء فقال الرسول الكريم في الشهيد « ما من مسلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دما ، اللون لون الزعفران ،

(١) سهم غرب يفتح الرء سهم رماء الرامى إلى أحد فأصاب غيره .

والريح ربيع المسك » ، روى الإمام البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنهم أنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يقطر دما ، اللون لون الدم ، والريح ربيع المسك » .

وعندما تبين للجند المسلمين صورة ما يكون عليه الشهيد من مكانة ومنزلة وشرف ، سعوا جميعاً إلى الشهادة ، وكانوا يترنمون « اللهم لا خير إلا خير الآخرة » .

وعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب فى أحد بعد الجريمة البشعة التى دبرتها هند بنت عتبة مع وحشى أداة التنفيذ فيها ، قال رسول الله « جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » .

وفى بدر سمع عمر بن الحام رسول الله يحض جنوده قائلاً « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وقيل فى رواية أخرى أنه سمع الرسول يقول لأصحابه « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، فسأل « يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض !! » ، فقال الرسول « نعم » ، فقال عمر « بنح ... بنح » ، فسأله الرسول « ما يحملك على هذا القول » ، قال « رجاء أن أكون من أهلها » ، فطمأنه رسول الله « فإنك من أهلها » ... وباتفاق الروایتين أخرج عمر بعض تمرات كانت معه فجعل يأكل منها ، ولكنه تنبه فقال لنفسه « أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ » ، إن أنا حييت

حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة » ، ثم رمى ما معه من تمر
وأخذ سيفه وخاض المعركة ، وشارك المقاتلين ، وأبلى أحسن بلاء حتى
وهو يردد :

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة للفناء
غير التقى والبر والرشاد

وجدير بنا ونحن نعرض نماذج من هذه البطولات ، أن نذكر بطولة
ابن أبي طالب في غزوة مؤتة ، فبعد أن استشهد زيد بن حارثة القائد
للمعركة ، تولى جعفر القيادة بعده بناء على تعليمات رسول الله حين
تسلسل القيادة في هذه السرية ، فجعلها لزيد ، ثم جعفر ، ثم عبد الله بن رواحة
فبعد أن استشهد زيد أخذ جعفر الراية وقاتل بها حتى إذا لم يجد مخلصاً
بنفسه عن فرسه وعقرها (كانت أول فرس عقرت في سبيل الله) ، وحمل
بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ؛
ينشد :

يا حبيذا الجنة واقتربها
طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
على إذا لاقيتها ضاربها

وعن قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 لما قتل زيد أخذ الراية جعفر رضى الله عنه ، فحماه الشيطان — لعنه الله —
 فحبب إليه الحياة ، وكرهه إليه الموت ، ومثناه الحياة ، ثم مضى حتى استشهد
 رضى الله عنه ، وقال عهد الله بن عمر « وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه
 وما أقبل منه تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح » ، وعن
 عبد الله بن جعفر قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هنئنا لك ،
 أبوك يطير مع الملائكة فى السماء » .

وفى أحد استشهاد الأحنيد من بنى عبد الأشهل ، وكان قومه قد
 خرجوا لحرارة رسول الله ، فلما عرف ذلك رغب فى الإسلام ، وأخذ سيفه
 ورمحه ولأتمته ، وركب فرسه ، ودخل فى المعركة إلى جانب المسلمين ،
 وقاتل حتى أثبتته الجراح ، وبينما قومه يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذاهم
 به ، فسألوه هل جاء مناصرة لقومه أم رغبة فى الإسلام ، فقال « بل رغبة
 فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم جئت ، وقاتلت
 حتى أصابنى ما أصابنى » ، ولم يلبث أن مات وقال عنه رسول الله « إنه
 لمن أهل الجنة » .

وقاد النعمان بن مقرن جيش المسلمين إلى نهاوند حيث قاتل الألو ف
 المؤلفة من جنود يزدجرد كسرى الأعاجم ، وولاه عمر قيادة الجيش الإسلامى
 وكتب إليه « قد بلغنى أن جوعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا السكم بمدينة
 نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن
 معك من المسلمين .. » ، والتقى النعمان بالفرس فى أسبندخان ، وفادى فى

جيشه « الله أكبر » - نداء حالداً يحلب النصر - وردّده المسلمون من ورائه ، فزلزل نفوس الأعاجم ، وقذف في قلوبهم الرعب . قال النعمان لجنده « إني مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت الثالثة ، فإني حامل ، فاحملوا ، وإن قتلت فالأمر بعدي لحذيفة » ، وعندما دنت ساعة الهجوم قال النعمان « اللهم أعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ... اللهم إني أسألك أن تقرّ عني بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضني شهيداً » ، ومن مركز القيادة كبر ثلاثاً ، وبدأ الهجوم وهو في المقدمة ، وتصاخفت السيوف ولاحت بارقة النصر وضاءة منيرة في عيني النعمان ، ولسكن الفرس أراذله ، وتوجّهت سهامهم إليه ، فأصابه سهم في خصره ، فسقط شهيداً وقال أخوه نعيم « هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة » ، ووقف عمر فوق المنبر ، ونماه إلى المسلمين ، وبكى حتى نشج ، ووقف عبدالله بن مسعود في أسفل المنبر ، وقال « إن للايمان بيوتاً ، وإن من بيوت الإيمان بيت النعمان بن مقرن » .

واستشهد حارثة بن قيس في بدر ، وكان قد استقبل رسول الله يوماً ، فسأله الرسول « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » ، قال « أصبحت مؤمناً بالله حقاً ، يا رسول الله ، قد عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري ، فسكّاني بعرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها » ، فقال له الرسول « أبصرت فالزم عبد » (أي أنت عبد بذر الله الإيمان في قلبه) ، فسأله حارثة « ادع الله لي بالشهادة » ، فدعاه رسول الله . . . وبلغ أمه خبر استشهاد ، فسارت إلى رسول الله وقالت له « يا رسول الله ، قد

عرفت موقع حارثة من قلبي ، فأردت أن أبكي عليه ، ثم قلت لا أفعل حتى
أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإن
كان في النار بكيته » ، فقال لها الرسول « ويحك ، أجنة واحدة !! إنها جنات
كثيرة ، والذي نفسى بيده إنه لفي الفردوس الأعلى » ، فرجعت وهي تضحك
وتقول « بنخ ، بنخ ، لك يا حارثة » .

كان الجند المسلمون يرون في الإقدام على الاستشهاد حياة ...

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

* * *

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعى

* * *

تهين النفوس وبذل النفوس يوم الكويهة أبقى لها

* * *

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال : ويحك إن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع

* * *

وكان الجند المسلمون يطمنون أن يموت الواحد ثم يبعث ليموت ثم
يبعث ليموت ... أخرج النسائي عن أنس رضى الله عنه قال « قال رسول الله :

يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله تعالى : يا ابن آدم كيف وجدت منزلتك ، فيقول : أى ربى خير ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : وما أسألك وأتمنى ، أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة .

وعن رسول الله « الذى نفس محمد بيده لوددت ألى أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، فأحيا ثم أقتل . »

كانت سمية بنت خياط أول شهيدة فى الإسلام ... قتلها أبو جهل وقدمت زوجها وابنها شهيدين ، ووعدهم الرسول بالجنة ، « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

وقتل عبيدة بن الحرث فى بدر ، وهو صاحب أول راية عقدتها رسول الله لواحد من المسلمين

وقتل عمير بن أبى وقاص وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فكان أول شهيد من الشباب

وقتل حمزة بن عبد المطلب فى أحد فكان أول شهيد من آل الرسول .

وقتل قبلهم وبعدهم كثيرون قدموا حياتهم فداء لله والإسلام .. قدموها بنفس راضية ، كانوا يتمنون الشهادة ، ودعوا ربهم أن يرزقهم إياها ، فقالواها سعداء بما وعدهم ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تَوَاصَوْا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرَ لَكُمْ

ذُنُوبِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةِ فِي
جَنَّاتٍ هَٰذِهِنَّ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ
وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣/١٠﴾ (الصف).

كان عمرو بن الجحوح يشكو عرجا شديدا في قدمه يمنعه من
القتال ، ولكنه أصر على الخروج ، وقُتل ، ومرَّ به رسول الله وهو يتوسّد
التراب فقال « والذي نفسى بيده لقد رأيت عمرو بن الجحوح يطأ في الجنة
بمرجته » .

وقُتل حنظلة بن أبي عامر الذي ترك عروسة جميلة بنت عبد الله بن سلول
ليلة الزفاف ليقاتل في صفوف المسلمين ، وروى عن رسول الله أنه عليه
السلام رأى الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف
الفضة .

وقُتل مخيريق أول يهودى دخل الإسلام ، وكان يعرف رسول الله
بصفته وما يجد من علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، ولم يزل على ذلك حتى إذا
كان يوم أحد وكان يوم السبت فقال « يامعشر يهود ، والله إنكم لتعاملون
إن نصر محمد عليكم لحق » ، قالوا « إن اليوم يوم السبت » ، فقال « لا سبت
لكم » ، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله بأحد ، وعهد إلى من
وراءه من قومه « إن قُتل هذا اليوم ، فأموالى لحمد ، يصنع فيها ما أراه
الله » ، وكان غنياً كثير الأموال من النخل ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى
قتل ، فكان رسول الله يقول « مخيريق خير يهود » .

وقدمت قبائل عربية كثيرة عدداً من أبنائها تجمعهم رابطة الأخوة

شهداء ، ولم تبكهم عين ولم يحزن لقلوبهم قلب ، بل كان استشهادهم شرفاً ووساماً ومفخرة ، ومن هؤلاء أبناء سيد بنى عهد شمس سعيد بن العاص ابن أمية المعروف باسم أبي أحيحة ، والأبناء الخمسة هم خالد وعمرو والحكم (أسماء رسول الله عبد الله) وأبان وسعيد .. دخل الأخوة الخمسة الإسلام ، وأبوم أشد الناس عداوة له وحمله عليه وقسوة على معيقيه ، وهو القائل « أخاف ألا تعبد العزى بعدى » ، حارب سعيد في الطائف وقتل ، وقاتل الحكم المرتدين وقتل في اليمامة ، وكان خالد أحد جنود الجيش الإسلامي في أرض الروم واستشهد في مرج الأصفى ، واستشهد عمرو وأبان في أجنادين ، وكتب أولاد أبي أحيحة الخمس صفحات مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي والعطاء والفداء .

واستشهد في معارك الإسلام بعض من حفظة القرآن رغم قلتهم ، فما كان لحامل القرآن أن يخشى الموت في موضع من المواضع ، وما كان له أن يكون مع القاعدين ، وقد استشهد منهم في حرب اليمامة وحدها تسعة وثلاثون منهم سالم بن عتبة بن ربيعة مولى ابن حذيفة ، وكان يسمى سالم بن أبي حذيفة وهو أنصارى كان يطلق عليه « سالم بن الصالحين » وكان النبي يقول لأصحابه « خذوا القرآن من أربعة » وكان سالم أحد الأربعة ، وكان حسن الصوت جميل الأداء ، حتى أن الرسول قال له « الحمد لله الذي جعل في أمي مثلك » ، وفي يوم اليمامة قال له المسلمون « يا سالم ، إنا نخاف أن تؤذي من قبلك » ، فقال « بئس حامل القرآن أنا إن أوتيت من قبلي » وقاتل وقتل ، وقال فيه الخليفة عمر حين أقبلت عليه سكوة الموت « لو كان سالم حياً ما جعلتها شورى » .

وفي القادسية استشهد سعد بن عبيد القارى، ذو الصوت الجليل العذب، ولم يكن من الصحابة من يسمى بالقارى، غيره، وقد فاخرت به الأوس، لأنه كان أحد أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله، ولأن الرسول أقره على الإمامة في مسجد قباء، وأقره من بعده عليه السلام أبو بكر وعمر، وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى النعمان بن المنذر، وكان قائد الميمنة في قتاله، ووقف في القادسية يخطب في المسلمين قائلاً «إننا ملاقو العدو غداً وإنّا مستشهدون، فلا يفسنّ عنا دماً، ولا نكفن إلا في ثوب كان علينا»، واستشهد في ليلة التحرير الشهيرة، وقد دفع حياته ثمناً للإقتصار العظيم الذي أحرزه المسلمون في القادسية

لقد تحققت الشهادة لكثيرين فانتقلوا إلى الرياض الخالدات في جنات عالية قطوفها دائية يعيشون حياة لا لغو فيها ولا تأثيم، لا شهوات ولا صفائر، لا حقد ولا كراهية، لا فسق ولا فجور، لا إثم ولا عدوان.

وتاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية يعطينا صوراً عديدة مشرفة للشهداء الأبرار الذين كانوا يسعون إلى الشهادة عن رضى واقتناع، ولا شك في أن هذه الصور تختلف في جوهرها وروعها عما تعطينا المدارس الأخرى من صور.

ففرق كبير بين أن يخرج جندي للملاقاة عدوه بدافع من نفسه وبإحساس بالواجب والمسئولية - دون أن يُطلب منه الخروج - دفاعاً عن كلمة الله وعن الحق المستباح وعن كرامة الإنسان وخير البشرية وتقدم العالم، فيجمل هدفه الأسمى وأمنيته الكبرى شهادة أو نصراً، وبين أن يخرج جندي إطاعة

لأوامر الرؤساء وخوفاً من بطشهم ، تدعياً للشر وسعيًا وراء مصلحة خاصة أو نفوذ مطلوب ، واعتماداً على وفرة في العدد والسلاح وأملًا في نصر رخيص يحقق به إذلال غيره وإهدار كرامته وقيده حريقه .

شقان بين خروج من أجل تثبيت دين الله ونشر العدل والرخاء والحرية والأمان ، وخروج من أجل القتل والتدمير والحرق والهدم ونشر المظالم . ودفع الإنسانية إلى مواطن الذلة والمهانة والمسكنة .

والشهيد في المدرسة العسكرية الإسلامية كان يخرج إلى المعركة لا يفكر في عودة ، ولا يفكر في ولد أو تجارة أو أهل أو مال ، لا تفزع أهوال المعركة ، ولا تلين قناته عند اشتداد القتال ، ولا يهن عزمه عندما يرى مصارع إخوانه ، ولا يحرص على حياته حرصه على البذل والفداء ، تتكسر السيوف في يده فلا يتزعزع ، وتنحطم الحياة من حوله فلا يرتجف ، ويرحف الموت في اتجاهه فلا يجبن ، ويتساقط الرجال فلا يفزع ، وتأتيه الضربة أو الطعنة فلا يخشاه ، وحتى في لحظات اليأس كان لا يفقد السيطرة على نفسه ، وفي لحظات الهزيمة لا يجزن ، يتقدم في بسالة وجراءة ولا يتأخر ، ولا يرتد على عقبية ولا يبحث عن نجاة ، ولا يسكت عن عدو يريد أن يطفىء دين الله ، يضرب بكل قوته أعداء الله ، فإذا فاز وعاش فكأنه انتصر لسكرامة البشر وأحيا المبادئ والمثل ، وإن مات فقد حقق أمنية طالما تمنهاها وسعى إليها ، وصعد إلى السماء يعيش في جنات ربه حيث الرغد والهناء ، وسجل لنفسه شهادة شريفة كريمة في معركته كإنسان كريم ضد شيطان رجيم .

أما هؤلاء الذين سقطوا في حروب ما بعد الإسلام ، والذين ما زالوا

يتساقطون في حروب اليوم ، فقد خرجوا تحت تأثير أوامر السلطة ، مستعمرين
لغيرهم ، يبغون تدمير العالم وتعطيل تقدمه ، أذلم الشيطان وسيطرت
عليهم رغبات كاذبة وأطماع واهية وأحلام زائلة ، ففحلوا من صفات
البشرية الأصيلة ، وأبدلوا رذيلة وفجورا ، وخرجوا من محيط الأخوة التي
دعت إليها الأديان إلى جحيم الاستعباد والاستغلال والسيطرة والعدوان ،
فرحين بقوة في أيديهم وكثرة في عددهم ، يشنون حملات عدوانية مسعورة
دون مبرر ؛ ترمى إلى إشاعة اليأس في النفوس ؛ وتعرقل مسيرة الإنسان ؛
وتجعل الكلمة العليا للشيطان ؛ وتؤكد الانحلال في المجتمعات البشرية ؛
وتبيح الخنوع والجهل والفقر ؛ وتزلزل القيم والمبادئ التي نادى بها
الأديان وفي مقدمتها ديننا الإسلامي الحنيف ، وتنشر السلبية ، وتعلي كلمة
الباطل .

هل يستحق لقب شهيد أحد هؤلاء الجنود الفرنسيين الذي سقطوا في
ميادين القتال في مصر وأوروبا وأفريقيا تحقيقا لأطماع زعمائهم أو قادتهم من
هواة الاستعمار ومحبي الاستغلال والتوسع على حساب الغير ؟

هل يستحق لقب شهيد أحد هؤلاء الجنود الألمان الذين راحوا ضحية
غرور زعمائهم المتمطشين للدم وقياداتهم التي سمعت خلال حربيين عالميين إلى
سيطرة الجنس الألماني على العالم ؟

هل يستحق لقب شهيد هذا الجندي البريطاني الذي سقط قتيلا في
الحروب المتعددة التي شنتها إنجلترا في كل مكان من أجل بسط نفوذها
وسيطرتها على أجزاء متعددة من العالم خلال حقبة طويلة من التاريخ ؟

هل يمكن أن يكون شهيدا هذا الجندي الأمريكى الذى يعتقد على طالب الحرية فى مختلف بقاع الأرض ، ويقف فى وجه مسيرة الإنسان إلى التقدم والإرتقاء ، ويحاول أن يفرض حياة تحت تهديد السيف أو السلاح المدمر أو القنابل أو الطائرات التى انشغل العقل والفكر هناك بتعديلها وتطويرها لغتنااسب مع حجم العمليات والرغبات الجامحة من أجل ضرب الإنسان وتقييد حريته ؟

هل يمكن أن نصف هؤلاء وهؤلاء بأنهم شهداء ، وهذه هى رسالتهم وأهدافهم ؟ ... أبداً .

فهؤلاء جميعا خرجوا معتدين ، وماتوا وهم يعتقدون ، فأية فائدة يجنيها الإنسان من وراء خروجهم ، وأية غاية تبرر عدوانهم ، وأى ثواب يمكن أن يناله معتد .

المبحث الثاني

الاعتماد للمعركة

عقائدياً .. ومعنويًا .. وماديًا

- (١) الجيش الإسلامي
- (٢) الجهاد والمجاهدون
- (٣) الإمداد المعنوي
- (٤) الإمداد البدني
- (٥) المرأة في المعركة
- (٦) السلاح

”مَنْ اغْتَبَرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
عَرَّيْتُهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ“
حدیث شریف

القتال في سبيل الله قائم مقامات الحياة ، فإذا كان القتال ينسب بين
الناس في وجوه كثيرة وسبل غير سبل الله ، فالقتال في سبيل الله أوجب
القتال وأبره وأعدله وأكرمه ، لأنه انتصار للحق وتمكين له ، وخاصة أنه
قتال للدفاع وليس للهجوم ، للصد وليس للعدوان ، للدفع وليس للإيذاء ،
قتال يحسم الشر ويقيم الأمن ويثبت السلام ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة ١٩٠] .

ولقد أمر القرآن المسلمين بقتال المشركين حين يلتقون بهم في ميدان
قتال ، ولا يتخرجون من قتلهم أينما التقوا بهم ، من غير أن تعطفهم عليهم
عاطفة قرابة أو نسب ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم ، لأنهم
يبدؤهم بالعدوان ، وأخرجوهم من ديارهم ، وأرادوا فتنهم عن دينهم ،
وسلطوا عليهم ألواناً من العذاب والنكال ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾
[البقرة ١٩١] .

ومع صراحة هذا الأمر الإلهي بالقتال ، فإن القرآن أقر القتال على ما فيه
من إيذاء وضرر للإنسان والوجود ، ولكنه أمر لا مفر منه ولا يحيص عنه ،
لأنه فرض لازم على المؤمنين ، ماداموا يريدون أن يكون لهم وجود ، وأن
يكون للدين بقاء ، وأن تكون للحق راية

والقتال في الإسلام أمر مكروه ، يقدم عليه المؤمنون مكرهين ضائقين به ،

فهم في عداوة مستمرة بينهم وبين أرباب الضلال وأهل سوء وجند الشيطان ، وهم بالتالي في دفاع عن حق يتصارع مع باطل ، وهدى يتلاحم مع ضلال ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة ٢١٦] .

والقتال أمره مكروه ، والنفوس تقبل عليه كارهة ، ولكن الحق تبارك وتعالى قال ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، والله تعالى يخفف عن النفوس هذا الأمر ويسيفه لها مع مافيه من مرارة .

ولإذا كان المشركون من قريش قد طاردوا المسلمين حتى اضطروهم إلى الهجرة ، ثم طاردوهم في مهجرهم حتى حملوهم على الحرب حملاً . . . وإذا كان اليهود قد نقضوا موافقتهم مع المسلمين ، وانتهزوا كل فرصة للنيل منهم أو الإعتداء عليهم . . . فمن الطبيعي أن يؤمر المسلمون أمراً واضحاً وصريحاً بأن يدفعوا العدوان ويواجهوا المعتدين . . . وهذه عملية تتطلب إعداداً للرجال والسلاح ، ولهذا صدر لهم أمر إلهي بأن يعدوا لأعدائهم كل ما يستطيعون إعداده من قوة ، وأن يدرّبوا كل من يملكون تدريبه من أفراد ، وأن يحصنوا مدنهم ، وأن يشددوا الحراسة عليها ، وأن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات ، ولهذا نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال ٦٠] .

والخطاب في قوله تعالى « وَأَعِدُّوا » موجه للأمة كلها ، وهو خطاب يشمل كل قادر على الإعداد والاستعداد ، سواء كان رجلاً أو امرأة ،

شاباً أو شيخاً ، غنياً أو فقيراً ، فالإعداد هنا مهمة الجميع ومسئولية المجتمع الإسلامي كله . . كل يبذل ما يستطيعه من ماله أو جهده أو عقله في سبيل الإعداد ، ومادام المسلمون أصحاب حق فيجب أن تكون لهذا الحق قوة تحميه وتصونه وتدافع عنه .

والإعداد « لهم » يعني لهؤلاء الذين ناصبوا المسلمين العداء ، وتربصوا بهم الدوائر ، وتمنوا لهم الضعف ، وحالوا بينهم وبين إقامة شعائر دينهم ، وأرادوا أن يمنعوا عن عبادة الله .

والآية السكرية تطلب أن يكون الإعداد بكل ما يستطيعه المسلمون ويقدر عليه من القوة ، ولغظ القوة يفيد شمول الأنواع ، أى كل نوع من أنواع القوة ، وذلك بالإضافة إلى رباط الخيل ، والمقصود كل قوة سريعة قادرة على التحرك والانتقال (ذكرت الخيل في الآية لأنها كانت السلاح الراسب عند العرب ، وكانت في هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفرسية ، فثبتت كانت الخيل وكان فرسانها كانت القوة والمنعة ، ولكن منطوق الآية يدسحب الآن على كل وسائل الانتقال التي تستخدم في الحروب) .

ولم تدع الآية للإعداد والتجهيز بقصد الإعتداء ، فالمسلمون أصلاً لا يعتدون ، لأن العدوان ضد طبيعة دينهم ، وهو أمر ممنوع ومحظور ، ولكنه أجزى لسبب آخر هو الإرهاب ، أى إرهاب الأعداء ليعرفوا أن المسلمين قادرون على الرد إذا تعرضوا للعدوان ، وليروا في الإعداد الجيد ما يرهبهم ، ويقتل في نفوسهم كل داعية من دواعي الطمع في المسلمين .

فمنطوق الآية إذن لا يعنى إجازة الإعتداء ، ولا يعنى أن الإعداد للحرب

إشباع لشهوة الحرب والرسول يقول لأصحابه « لا تمنّوا لقاء العدو ، وسوا الله العافية » ، ولكنه يعنى السلم المسلح الذى يهدف إلى الإرهاب ، أى إيقاع الرهبة والخوف والرعب والفرع فى نفس العدو ، فيظل المسلمون مهيبين ، لا يطمع فيهم طامع ولا يتطاول عليهم متطاول ، وفى هذا المعنى يقول الفخر الرازى « إن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد مستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات ، خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة . . أولها أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام ، وثانيها أنه إذا اشتد خوفهم فرموا التزموا من عند أنفسهم جزية ، وثالثها أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان ، ورابعها أنهم لا يعينون سائر الكفار » .

ولكن إذا لم يحقق هذا السلم المسلح الإرهاب والخوف المطلوبين ، وتمادى الأعداء فى عدوانهم ، فإن من الواجب على المسلمين أن يواجهوا عدوهم بهذه القوة التى أمرهم الله بإعداد ما يستطيعون منها ، فقد شاعت عناية الله التى حفظت المسلمين من كل سوء ألا يخوضوا المعارك دون إعداد تام وتجهيز كامل . . لهذا كانت هذه الآية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، أمراً إلهياً صريحاً بالإعداد للمعركة والإستعداد لها ، والتجهيز بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، والإستعانة بكل وسائل الدعاية وجميع ضروريها ، أملاً من تصدع صفوف العدو وانخذه ، أو أملاً فى النصر ساعة اللقاء والمواجهة .

والأمر بالإستعداد للقتال كما جاء فى الآية هو أمتع للقتال ، وكان الرسول الكريم يقول لأصحابه « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ » وكان مجرد ذكر اسم سيف الله

خالد كان كافياً لكي يهرب العدو ويتجنب لقاءه ، كان اسمه يسبقه إلى أعدائه قبل موافقتهم ، فينشر الرعب في قلوبهم ويشيع الفزع بينهم ، وتنحل قواهم ، وتنهار عزائمهم ، روى الطبري عن عدي بن حاتم أنه قال « أغرنا على أهل المصيص ، وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من التمر ، وإذا حوله بنوه وامراته ، وبينهم جفنة من خر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة ، وفي أعجاز الليل ؟ ، فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خراً بعدها ، هذا خالد بعين التمر ، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا » .

والإعداد للمركة عمل هام وخطير ، فالجيش الذي يخوض غمار معركة ما دون أن يكون قد أتم لها كل ما تتطلبه بما يؤهله لخوضها يكون قد افتقد العنصر الأساسي للحرب والركيزة الأولى للمركة ، وبالتالي يكون مصيره الفشل والإفدحار والهزيمة ، وإن الأمة الناهضة الواعية المتوثبة تعد جيشها وسلاحها لتواجه به أعداءها بالتجهيز والتدريب والتسايح ، وليس بالتقول العريض والتمنى الواسع والأحلام الخيالية ، وليس بترديد مفاخر الآباء والأجداد ، والتاريخ الحربي وتاريخ الشعوب منذ قيام الحروب وانشغال الناس بها يؤكد أنه ما من حرب قامت واشتعل أوارها إلا وقد أتم طرفاها أو أطرافها إعداد كل مستلزماتها رجالاً وسلاحاً ، أفراداً وعدداً .

ومن الحقائق التي يجب أن ننهب إليها في هذا المقام ، أن الإسلام دين سلام ورحمة ، وليس دين سيف ودماء وقهر ، ولكنه دعا أتباعه للحذر من العدو ، والإعداد للحرب ، والأخذ بأسباب القوة ، ذلك لأنه دين واقعي يعيش الحياة بكل أحوالها وواقعها ، ولا يعيشها مجرد أحكام أو مقررات نظرية

يتمثلها الفاس ولا يحققونها ويتصورونها ولا يتعاملون بها ، والإسلام يريد لأتباعه أن يكونوا قوة عاملة في الحياة ، وهم مدعوون إلى التعامل مع الخير ومطالبون في ذات الوقت بتجنب الشر والأشرار ، وأخذ حذرهم منه ومنهم ، فإذا ما امتد الشر إلى مواقعهم وحاول الأشرار الإضرار بهم وجب عليهم استخدام قوتهم رداً للشر وصدأ للأشرار .

إن المجتمع الإسلامي كأي مجتمع له سماته المميزة ، وله أيضاً وجهات نظر محددة ، وفلسفة خاصة ، ومنهاج يحدد سلوك أفرادها ، وأفكار توجه وترشد ، وهو أيضاً كأي مجتمع لا بد أن يكون له أعداء يخافون قوته أو يطمعون فيه لضعفه ، ومن هنا يبدأ الصدام ، ويكون الصراع الذي لا بد منه للحياة ، والذي لا بد له من قوة يعتمد عليها ويحافظ بها على الحياة ، وهذه القوة بالتالي في حاجة إلى رجل قوى وسيف صارم .

ولقد حدد القرآن الكريم مقومات الإعداد ووسائله ومنهاجه ، وسلط عليها الأضواء وحصرها في :

● ● إعداد المقاتلين .

● ● إعداد السلاح الذي يستخدم في المعركة .

● ● إعداد الخطط الحربية التي توجه دفعة المعركة .

● ● إعداد ما يتطلبه الموقف السياسي بعد انتهاء المعركة .

ولقد أعطى الرسول الكريم ومن بعده الخلفاء ثم الحكام هذه المقومات كل عنايتهم واهتماماتهم ، وكانت تمثل دائماً المقام الأول في تفكيرهم .

لقد كان همّ الجميع الأول التجهيز للمعركة والإعداد لها ، وبذلك تكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد أرسيت قاعدة هامة للحرب ، تدارسها المدارس العسكرية الأخرى وأخذت بها ، ووضعتها في المقام الأول قبل خوض أية معركة .

وتاريخ الحرب في الإسلام يثبت ويؤكد أن المسلمين كانوا ينفذون أوامر القرآن في الإعداد للمعركة بصورة تدعو إلى الفخر ، تحت تأثير الإيمان العميق بالقرآن ، والثقة المطلقة في أوامره ، فما من معركة خاضها المسلمون في داخل الجزيرة أو في خارجها إلا وقد تم تنظيم شئونها وإعداد كل أمورها وتجهيز كافة متطلباتها ، ودليل ذلك هذه الإقتصارات العظيمة التي حققتها المدرسة العسكرية الإسلامية حين واجهت بجيوشها قوات أعدائها في مختلف المعارك والميادين .

كان الجيش الإسلامى منذ عهد النبوة لا يلتزم بعدد معين من الأفراد ، لأن عدده كان يتوقف على عدد المؤمنين به الداخلين فيه ، فكل من دخل فى الإسلام أصبح بدخوله جندياً ، يقع عليه عبء الدفاع عن دينه ، وواجب المشاركة الفعالة الإيجابية فى خدمة الدين .

وكان الإسلام يشترط فى الحاربين اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة ، وإيمان سليم ، وإدراك واعٍ ، ومعرفة تامة بأوامره ونواهيه .

وكان يشترط أيضاً اللياقة ، والقوة ، والسن المناسبة لإمكان تحمل أهوال المعركة وشدتها وقسوتها .

وكان المسلمون يدفعون إلى المعركة بدافع من إيمانهم ، شبابهم وشيوخهم ، وحتى نساؤهم ، ولم يقف السن أو المرض حائلاً بينهم وبين الرغبة فى الاشتراك فى القتال ، فعمرو بن الجوح كان يشكو عرجاً وأصر على الخروج « إن بنى يريدون أن يمحسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، والله إلى لأرجو أن أطأ بعرجتى الجنة » ، وخيثمة بن سعد كان شيخاً عجوزاً فقال لرسول الله « والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مراقبته (يقصد ابنه الذى استشهد فى بدر) فى الجنة ، وقد كبرت سننى ورقّت عظمى وأحببت لقاء ربى » .

وخرج كثير من الشباب فى بدر ، فودّهم الرسول ، وكذلك فى أحد ،

فإنهم لم يبلغوا عند خروجهم السن الذى يسمح لهم بمباشرة القتال ، ومع ذلك كانوا يصرون على الخروج ، وعندما ردّ رسول الله رافع بن خديج يوم أحسد قال للرسول إنه رام جيد ، فأجازه ، وسمع بذلك سمرة بن جندب فقال لزوج أمه « أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج وردّنى ، وأنا أصرعه » ، فأعلم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما تهمازعا ، فصرع سمرة رافعا ، فأجازه الرسول .

فالمؤمنون كانوا هم جند الإسلام ورجاله فى المعارك ، تحاذت أمامهم قوات أعدائهم ، وتراجع أمام بطولاتهم الأبطال من الأعداء ، وكانوا جميعاً مضرب المثل فى القوة والشجاعة والإقدام ، وكان لواؤهم لا يستقر من يد حامله حتى يأخذه خلفه ، وبهذا الإيمان وبهذه العقيدة كان كل جندى مسلم معجزة من معجزات الحرب . . دخل عبادة بن الصامت على المتوقس ، فخافه لأنه كان شديد السواد ، وقال له عبادة « إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً مني ، وإني ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني ، وكذلك أصحابي » . . وأمدّ عمر عمرو بن العاص بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل ، وكتب إلى عمرو « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة » . . جاء فى كتاب الفتوحات الإسلامية (١٠) « كتب ملك الروم إلى المتوقس يقول له « أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً ، وعندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت ، فهاهضهم للقتال ولا يكون لك رأى غير ذلك » ، فقال المتوقس بعد

أن قرأ الكتاب » والله لإنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، إن الرجل الواحد منهم يعدل مائة رجل منا ، ذلك لأنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة .

في خلال غزو اليمامة تحصن مسيلمة الكذاب وقومه بحديقة على مقربة منهم كانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن ، فأحاط المسلمون بالحديقة ، وأشار عليهم البراء بن مالك « يا معشر المسلمين القونى عليهم في الحديقة » ، ولسكن ماذا يصنع البراء وحده بين الألوف التي تكدست هناك ، فقالوا له « لاتفعل يا براء » ، ولسكنه أصر على رأيه ، وقال « والله لتطرحننى عليهم فيها » ، ورفع المسلمون إلى أعلى الجدار ، فرأى كثرة القوم ، ولسكنه لم يضعف أو يهن ، بل ألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، وظل يقاتلهم وحده ، وقتل منهم كثيرين ، ثم فتح الباب للمسلمين فدخلوا الحديقة وسيوفهم تلمع في أيديهم والموت يطل من حلق عيونهم .

وفي أحد حاول أبو عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى أن يستميل قومه من الأوس إلى جانبه يحاربون محمداً ، وكان يرى أن مجرد ظهوره أمامهم وسؤاله لهم سيكون كافياً لانفصالهم عن الرسول ، وانقلابهم على الإسلام ، وارتدادهم عن الدين الجديد ، وعودتهم إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ولعله كان قاصراً في رؤيته جاهلاً بمدى رسوخ الإيمان في قلوب الناس ، لأنه حينما دعاهم لم يجبه أحد ، بل ردوه رداً قاسياً ، قال لهم « يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر » ، فأجابوه « لا أنعم الله بك عيماً يا فاسق » ، وخاب أمه وساء ظنه وطاش سهمه .

وفي أحد أيضاً قتل حمزة وحده قبل استشهاده واحداً وثلاثين من كفار قريش (جاءت في بعض الروايات ثلاثة وعشرين رجلاً) ، ووصف وحشى غلام جبير بن مطعم وقاتل حمزة كيف كان حمزة يقاتل « إلى أن نظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ، رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدداً » .

والقادة الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة شهداء غزوة مؤتة ، مثل للإيمان الصادق ، فقد قادوا الجيش الإسلامي ضد جيوش الروم ، وتقدم زيد القائد حاملاً راية النبي في صدر العدو ، وهو موقن أن ليس من موته مفر ، وحارب حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول جعفر - وهو في الثالثة والثلاثين من عمره - الراية وقاتل ، فأحاط به العدو ، فاندفع وسطهم كالسهم ، يهوى بسيفه على رؤوسهم ، وقطعت يمينه ، فحمل اللواء بشماله ، ففُطِط ، فاحتضنه بعضديه ، حتى قُتل ، وأخذ الراية من بعده عبد الله وقاتل وقُتل .

ورغم الرغبة الجارحة من جانب المسلمين في حمل السلاح وخوض المعارك ، فإن الرسول الكريم أعق من الاشتراك في القتال الضعفاء والمرضى وغير القادرين والعجزة والشباب الذي لم يبلغ السن الذي يؤهله للقتال وخوض المعارك ، فهؤلاء لا يقدرّون في ظل ظروفهم على القتال ، وبالتالي يكون وجودهم ضمن الجيش وفي أرض المعركة عبئاً ضاراً بصالح المعركة ، هذا فوق أن قلب الرسول الرؤوف الرحيم أبي أن يتحمّل هؤلاء فوق طاقتهم ، وأن تلقى على عاتقهم مسؤوليات أضخم وأكبر من سنهم وقدراتهم وطبيعتهم .

جاء في رسالة أبي بكر إلى خالد وهو يقود الجيش الإسلامي لمحاربة المرتدين « لا تقا تل بمجروح فإن بعضه ليس منه »

وأعفى رسول من كانت ظروفه لا تسمح له بالمشاركة في القتال ، والإسلام بذلك كان يخفف عن المسلمين أعباءهم ، ولا يثقلهم بما يزيد على طاقتهم ، أو يفوق إمكانياتهم وخاصة النفسية ، ذلك أنه دين يسر ولين ورحمة . . حدث في غزوة بدر أن سمح الرسول لعثمان بن عفان بالبقاء بالمدينة وعدم الخروج للقتال ، لأن ظروفًا عائلية تشغله فلم يعد قادرا على المواجهة ، فأمر أنه « رقية » مريضة ، وهى فى حاجة إلى زوجها ليسكون قريبا منها ليعتق بها ، وقال له الرسول « إن لك لأجر رجل وسهمه » ، ومنع الرسول أبا أمامة بن ثعلبة من الخروج لمرض أمه ، وأمره بالبقاء بجانبها للعناية بها ، ومنع الرسول على بن أبى طالب من الخروج يوم تبوك ، ليبقى بين أهله يرعى شئونهم .

ولم يسمح الرسول لغير المسلمين بالمشاركة في القتال ، ورفض في شدة أن يحارب أهل الشرك بجانب المسلمين ، وأبى أن يسهم غير المسلم في الدفاع عن الإسلام ، وذلك لأن غير المسلم يخوض المعركة طمعا في منفعة ، وليس لضرورة الإسلام لأنه لا إيمان عنده ، كما أنه لا يكون شديداً في القتال حيث لا دافع يبعث في نفسه الشجاعة والجرأة . .

خرج عبد الله بن أبى في جمع من حلفائه من يهود لمعاونة المسلمين يوم أحد ، وكان الجمع مؤلفا من ستمائة مقاتل على تمام الاستعداد والأهبة ، ورغم أن المسلمين كانوا في أشد الحاجة إلى هذا الجمع الفقير إلا أن رسول الله أبى .

أن يسمح لهم ، وردّهم قائلا إن الله يغنيهم عن مساعدتهم ، ووضع بذلك مبدأ هاماً لكل التيارات التي جاءت من بعده « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يساموا » ، ذكرت السيرة الحلبية « وسار إلى أن وصل رأس الثنية (تقصد الرسول) ، وعندها وجد كتيبة كبيرة ، فقال : ما هذا؟ ، قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول من يهود ، فقال : أساموا ؟ ، فقيل : لا فقال : إنا لا نقتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » .

وتكررت الصورة عند الخروج إلى تبوك ، فقد خرج عبد الله بن أبي في جيش من قومه ، يسير به إلى جانب جيش الرسول ، فرأى الرسول أن يظل عبد الله بجيشه في المدينة ، لأنه كان ضعيف الثقة به وبصحّة إيمانه .

وعلى هذا الدرب سار خلفاء الرسول ، فكانوا لا يسمحون لغير المسلم بالمشاركة في القتال ، وقد رفض أبو بكر أن يسمح للمرتدين الذين عادوا إلى الإسلام أن يحاربوا في صفوف المسلمين ، وظل قرار منعهم سارياً طوال فترة خلافته وجزء من خلافة عمر ، ثم سمح لهم بالجهاد واستنفرهم للفتح دون تأمير أحد منهم .

وحين تطلبت ظروف القتال الدائر في العراق حشد حشود ضخمة لمواجهة حشود الفرس الكثيفة ، دعا المنذر بن حارثة أنس بن هلال النمرى من نصارى النمر وقال له « يا أنس إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا فإذا رأيتنى قد حملت على مهران (في موقعة البويب) فاحمل معى » ، وقال مثل هذا القول لعبد الله بن كليب المعروف بمردى الفهرى التغلبى من نصارى تغلب ، وأجابه الإثنين ، وشاركاه ، وهاجماه ، وقتل غلام نصرانى مهران قائد الفرس واستولى على فرسه ...

ودعا خالد بن الوليد خلال معركة اليرموك جرجة القائد الرومي إلى الإسلام فأسلم ، وسمح له بالقتال في صفوفه حتى قتل ونال الشهادة ، وكان جرجة قائد القلب في جيش الروم ، فجاء خالدا وسأله « يا خالد أخبرني إلى ما تدعوني ؟ » ، فأجابه « إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله » ، فعاد يسأل « وهل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر ؟ » ، فقال له « نعم » ، فسأله « كيف يساويكم وقد سبقتهموه ؟ » ، فقال خالد « إنا دخلنا في هذا الأمر وباعنا أنفسنا وهو حتى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالسكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويباع ، ولأنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا » ، فطلب من خالد أن يعلمه الإسلام ، فصحبته إلى فسطاطه ووضأه ، ثم صلى ركعتين ، وأسلم معه جنده ، وأسهموا في قتال قومهم .

وكان خالد في العراق يجمع السلاح من أعدائه بعد استسلامهم ، ولا يسمح لهم بالمشاركة في القتال ، خوفاً من أن يستخدموا سلاحهم ضده ، أو أن ينفروا من الحرب خلال المعركة ، فتضعف صفوفه وتقل صلابة رجاله .

* * *

ومن أهم الأعمال التي تمت في عهد عمر أنه أمر بإجلاء قصارى نجران عن ديارهم ، فبعث إليهم يعلى بن أمية « أعلنهم إنا نجليهم بأمر الله ورسوله ، ألا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرج من أقام على دينه منهم » ، وكان الدافع إلى هذا الإجراء أن بلاد العرب أصبحت كلها مع بداية عهده دولة تدين كلها بدين واحد ، ويسوسها رجل بايعه أهلها جميعاً ، فحذير بأميرها أن

ينفى عنها كل أسباب الضعف والوهن . . ومن اسباب الضعف والوهن لأمة أن تتمدد فيها الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها ، والإسلام يقنأول فيها تناوله أموراً لاتتفق ومقررات النصرانية ، فهو يحرم الربا والخمر والنصارى فى الجزيرة يمارسونهما ، والإسلام دين التوحيد والنصرانية دين تثليث ، ولهذا أصر عمر على ألا يبقى بالجزيرة دينان ، وقد ارتضى العرب جميعاً ديناً واحداً ، ووحدت الدين كفيلة بتأكيد الأمن والطمأنينة وتحقيق القوة ، والخليفة بهذا الإجراء يكون قد استهدف توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين فى نطاق الجزيرة . فتجنى ظهور القوات المحاربة فى العراق والشام ومصر وتسكون عوناً لها وسنداً .

وموضوع الجبهة الداخلية موضع حيوى ، وخاصة وقت أن تكون الدولة فى حالة حرب ، ولقد سبق أن حقق رسول الله بعد استقراره فى المدينة توحيد الجبهة داخلها ، لإدراكه أن الجبهة يقع عليها عبء كبير وخطير خلال اللقاء مع العدو ، فعلى قدر تماسكها وصلابتها وعلى قدر مقاومتها ومساندتها للقوات المحاربة تكون نتيجة المعركة ، وبهذا تكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد أولت الجبهة الداخلية أصدق العناية ، وعالجت شئونها بحكمة تقديرأ لدورها ، ولقد أدركت المدارس العسكرية التى جاءت بعد الإسلام أهمية الجبهة ، فأولتها العناية والإهتمام ، وكان الإسلام فى هذا المجال كما هى عادته فى كل المجالات المعلم والرائد . . لقد لعبت الجبهة الداخلية فى مصر خلال الحملة الفرنسية دوراً خطيراً ، وكانت شوكة فى جانب الفرنسيين ، أزجعتهم وأفلقتهم ، وكانت الثورتان القاهريتان من أهم عوامل فشل الحملة ، وكانت رشيد تمثل جبهة قوية ضد حملة فريزر ، حتى أنه يرجع إليها فضل

هحر القوات البريطانية خلال هذه الحملة ، ومن تاريخ الغرب نعرف أن
إنهيار الجبهة الداخلية في فرنسا أدى إلى إنهيار جيوش فرنسا أمام قوات
ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، كما أدى صمود الجبهة في إنجلترا
ضد غارات المحور المستمرة إلى انتصارها في النهاية .

ولقد كانت المدرسة العسكرية الإسلامية أسبق القيادات في هذا المضمار ،
فاهتمت بالجبهة الداخلية ، وعملت على تدعيمها وصلابتها ، وهذا السبق يعتبر
تطوراً في العقيدة العسكرية ، فعندما بلغ الرسول المدينة ومعه رفيق الهجرة أبو بكر
الصديق ، فذكر أول ما ذكر في جميع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد
رابطة قوية تجمعهم . . لقد كان أهل المدينة بعد إتمام الهجرة مهاجرين
وأنصاراً ، وكان الأنصار أوساً وخزرجاً ، وكانت العلاقات بين المهاجرين
والأنصار جديدة العهد حديثة الخلق ، ولم يكن هناك تنظيم لهذه العلاقات ،
ولم يكن لها ضابط أو رابط ، ولهذا استلزم الأمر عقد صلة الأخوة بين الفئتين
لتصبحا فئة واحدة مترابطة . . كان المهاجرون قد تركوا بلدنهم وأرضهم
وممتلكاتهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وجاءوا إلى المدينة والكثير منهم
لا يجد قوته ، ولم يكن منهم أحد على جانب من الثراء والنعمة سوى عثمان بن
عفان ، ومن هنا كان على الأنصار أن يستقبلوهم ، وأن يفسحوا لهم مكاناً
في بلدنهم وبيوتهم ، وأن يقدموا العون ، وألا يبرموا بوجودهم ، وأن
يشعروهم بأنهم إخوتهم في الله وفي الدين ، ولهذا دعا الرسول المهاجرين
والأنصار لسكى يثآخوا في الله أخوين أخوين ، وبدأ عليه السلام بنفسه ،
فأعلن أنه على أخوان ، وأخذ المسلمون يعلنون تأخيهم ، فكان حمزة وزيد

أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعثمان بن مالك أخوين ، وتأخى كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخوان جعل له الرسول عليه السلام حكم إخوان الدم والنسب ، وألف الإسلام بين الفئتين بأوثق رباط .

وكان الأوس والخزرج يعيشون على خلافات مستمرة وعداوات متأصلة ، وأراد رسول الله وقد جمع بينهم الإسلام أن يشككوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يزول ما بينهم من خلافات وعداوات ، وأن يقضى على كل شبهة قد تثير العداوة من جديد ، فجمع بينهم ودعاهم إلى تناسى الماضي ونبت الخلاف وتوحيد الكلمة وجمع الصف ، فاستجابوا وفتحوا صفحة جديدة تقوم على الود والحب والرضا ، وأصبحوا جميعاً صفّاً واحداً متراساً يحمي الإسلام ويذود عنه ويصونه .

وتسكنت المدينة بأسرها في إخوان كان الأول من نوعه بين جماعات البشر ، وتمكن النبي بهذا الإجراء أن ينشئ حول المسلمين سياجاً قوياً ، وأن يقيم صرحاً عالياً يحمي ويصد ويدفع ، حتى أنه عندما خرج المسلمون في أول غزوة لهم في بدر ، لم يستطع اليهود وهم قوة لها وزنها وثقلها داخل المدينة أن يستغلوا الفرصة لإثارة الفتن أو العداوة ، وبقيت الجبهة الداخلية قوية صامدة ، حتى ألقوا أخبار النصر على لسان البشيرين عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، إذ بعث رسول الله أولها إلى أهل العالية من المدينة ، وثانيهما إلى أهل الواطئة فيها .

ونتيجة لصلابة الجبهة الداخلية فشلت كل محاولات إيجاد تصدع فيها ،

وبقى المسلمون المحاربون في الجبهة مطمئنين إلى سلامة الخطوط خلفهم ، وإلى قوة الإرادة الشعبية التي تعيش وراء ظهورهم .

ولقد كانت تصدع الجبهة الداخلية لقربش عاملاً هاماً من عوامل استسلامها في غزوة الفتح دون قتال ، حين أعلن أبو سفيان أنه لا يقبل لهم بجيش محمد وطلب منهم الاستسلام فأطاعوه .

وكان تصدع الجبهة الداخلية لدولتي الفرس والروم عاملاً هاماً في هزيمتهما ، إذ غزت مبادئ الإسلام هذه الجبهة ، والتجمت في معركة نفسية مع الأهالي قبل أن تلجأ الجيوش المقاتلة ، فجملت الناس في الداخل يفكرون في الدين الجديد على ضوء أنه يدعو إلى الحرية والمساواة والعدالة ، فأقبلوا عليه بصدق وإيمان ، واهتزت مشاعرهم تجاه حكوماتهم ورؤسائهم ، وثارت نفوسهم على الأوضاع التي يعيشونها ، وتمنوا أن ينتصر الدين الجديد لتشرق فوق أرضهم شمس ، ولتسود حياتهم مبادئه ، وكان مجرد الترقب والتثني والإنتظار هدم للجبهة التي تسند وتوازر المقاتلين في جهات القتال .

لقد اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بالجبهة الداخلية ودعمتها لتكون درعاً وسنداً وقوة تحمي وتصون وتمضد المقاتلين .

وبرز أثر الجبهة الداخلية في جميع معارك المسلمين .

وبرز أثرها أيضاً في جميع المعارك التي شهدتها العالم في عهود ما بعد الإسلام .

وهكذا تكون المدرسة العسكرية الإسلامية - وهي تسلط الأضواء

منذ أول عهدنا على جانب هام يؤثر تأثيراً مباشراً على نفسية المحاربين وسين
المعارك — قدوة ومثلاً .

* * *

بعد ثمانية أشهر من الهجرة وبعد أن استقر المسلمون المهاجرون في المدينة
ووجد الرسول بين جماهيرها أوساً وخزرجاً ، ومهاجرين وأنصاراً ، وعاهد
اليهود ، رأى عليه السلام بفكره العسكرى المتألق المميز ضرورة حماية المدينة
من كل جهاتها ، على أن تمتد هذه الحماية إلى مدى بعيد حتى لا يؤخذ
المسلمون على غرة ، وحتى لا تعطى الفرصة لليهود المدينة فيقتصمون بالأعراب
المجاورين في محاولة لتسأليهم على المسلمين ، لهذا قرر رسول الله أن تخرج
دوريات مسلحة أطلق عليها اسم السرايا (جمع سرية وهي قطعة من الجيش
يقال إنها لا تزيد على أربعمائة رجل) .

وفكرة هذه السرايا فكرة مستحدثة لم يأخذ بها أحد قبل الإسلام ، فهي
نبت الفكر العسكرى الإسلامى ، وهي ثمرة من ثمرات المدرسة العسكرية
الإسلامية .

وكانت هذه السرايا تخرج في أعداد قليلة ، فهي إذن لم تخرج لغرض
تعرضى أو هجومى ، ولسكنها كانت تقوم بعمليات استكشاف للمناطق حول
المدينة ، ودراسة للأرض ومتابعة لأخبار قريش ، وكانت من أهم مهامها ..

أولاً .. إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة في المدينة ، لعلها تدرك
ذلك فتخفف من عداوتها وترفع يد الإرهاب عن المسلمين الموجودين
(١٧ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

تحت يدها بمكة ، وإن ظهور هذه القوة على مسرح الأحداث كقوة قادرة على تهديد طريق القوافل ، وبالتالي إضعاف قوتها الاقتصادية عماد مروتها ومصدر غناها ، يجعلها تسعى جاهدة إلى إيجاد نوع من التفاهم والوافق مع المسلمين ، على أساس ترك حرية الدعوة إلى الدين وإيقاف حركة تأليب العرب ضدهم ، وإذا كانت قريش تعيش في مكة التي تقع في واد غير ذى زرع ، فإن سلامة القوافل أمر حيوى ، وبذلك كانت السرايا أسلوباً لتحقيق هدف استراتيجى هام يجبر قريشاً على الخضوع ويلزمها بالبحث عن وسيلة للتفاهم وتقريب وجهات النظر .

ثانياً . . . التقرب إلى القبائل العربية التي تسكن حول المدينة والارتباط معها بمعقود ومخالفات تضمن بقاءها على الحياد في الصراع القائم بين المسلمين وقريش ، وفي اتخاذها لهذا الموقف تعزيز لموقف المسلمين ، هذا فوق أن بعض هذه القبائل تقع في المنطقة بين المدينة وساحل البحر حيث طريق القوافل ، وحيث يتيسر للمسلمين العمل ضدها لزعة موقف قريش الإقتصادي ، الذي تعمد عليه كلية في جمع المال الذي تشتري به السلاح .

ثالثاً . . . بعث العرب في نفوس يهود المدينة الذين رغم ارتباطهم بمعاهدة فإنهم يرون في وجود المسلمين في المدينة عنصراً غريباً يجب استئصاله ، ولهذا فهم ينتظرون لحظة تتاح بثبون فيها على المسلمين ، وبث العرب عندهم يجعلهم حذرين في تعاملهم وفي أفكارهم ، فيمسكون عن الدس والكيد وإنارة الفتن وإشعال نار العداوة بين الأوس والخزرج ، وكان لابد من أن يشعر يهود بقوة المسلمين ، ويدركوا أن هذه القوة قادرة — إذا تحركت — على التصرف بحزم ضدهم .

رابعاً . . هذه السرايا تتيح للرجال الذين خرجوا فيها فرصة دراسة طبيعة الأرض حول المدينة ومعرفة أحوالها والوقوف على طرقها ودروبها وتضاريسها ومناخها والأماكن التي تصلح للتجمع والحشد ، وخاصة أن هذه المنطقة هي ميدان المعركة المنتظر ، والإسلام بطبيعة ومعرفة أحواله ييسر التحرك والمناورة ، وإن هذه الدراسة التي نعنيها هي موضع اهتمام كافة القيادات في العصر الحديث ، ويطلقون عليها اسم الإستطلاع ، وتقوم بها دوريات خاصة ويقدر نجاح هذه الدراسة بمدى حجم المعلومات التي تحصل عليها وتتجمع لديها .

خامساً . . إن بقاء المهاجرين في المدينة دون عمل يهيء لهم حياة الدعة والخلول ، وهي تفسد النفوس وتزعزع الثقة وتضعف المعنويات وتهبط بالمزيمية ، وأراد رسول الله أن يكونوا يقظي ، فجهز هذه السرايا ، وجعلها للمهاجرين وحدهم ، إثارة لروح القتال عندهم ورفعاً لمعنوياتهم ، وإدراكاً لقوتهم ، وهي عناصر الإعداد النفسي والتأهب والإستعداد .

وبمتابعة تشكيل هذه السرايا يتبين لنا أمران هامان :

الأول . . إن هذه السرايا كانت قاصرة على المهاجرين دون الأنصار ، ذلك أن الأنصار كانوا قد عاهدوا رسول الله على مناصرته حين يتعرض لهجوم ، ولم يعاهدوه على مشاركته في أية حرب يقودها ضد أعدائه ، ومن جانب آخر فإن الأنصار عاشوا في المدينة سنوات عمرهم فهم على علم واف بطبيعة المنطقة التي تحيط بالمدينة .

الثاني . . إن هذه السرايا كانت تتسكون من عدد قليل وهذا يحدد مهمتها ، لأن هذه القوة لا تملك القدرة على القتال ، وبالتالي فإن مهمتها ليست

قتالية ، ولكنها في المقام الأول مهمة استكشافية للدراسة والاستعراض
القوة .

ولقد قاد رسول الله بعض هذه السرايا ، وتولى قيادة الباقي رجال كانوا
موضع ثقة رسول الله ، وكان عليه السلام يختارهم وهو مطمئن إلى عمق إيمانهم
ورسوخ عقيدتهم ، وما يتميزون به من شجاعة وصلابة وتفكير عسكري
متقدم متطور .

ولعل سرية عبيدة بن الحارث من أهم هذه السرايا لسببين فقد أتاحت
لبعض المسلمين الذين حبستهم قريش في مكة أن يلحقوا بها فراراً من مكة ،
ومن هؤلاء المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان ، هذا فوق أنها أول سرية
تدخل في صدام مع المشركين ، إذ ترمى الفريقان بالنبل ، وكان سعد بن
أبي وقاص أول الرامين ، وكان يفخر بذلك ويقول « إني لأول المسلمين رمى
المشركين بسهم » .

وتأتى بعدها سرية عهد الله بن جحش ، فقد خرج ومعه ثمانية نفر ،
والتقى بقافلة يقودها عمرو بن الحضرمي ، ومعه عثمان بن عبد الله التميمي
وأخوه نوفل ، ومولى هشام بن المغيرة ويدعى الحكم بن كيسان ، وكان اللقاء
آخر ليلة من شهر رجب ، ورأوا أنهم إن تركوا القافلة إلى الغد دخلت
الأرض الحرام وامتنع عليهم قتالها وضاع منهم ماتحمله القافلة ، وإن هاجموها
فكانهم قاتلوا في شهر من الأشهر الحرم التي حرم فيها القتال ، واستقر الرأي
على مهاجمتها ، وغضب رسول الله وغضب معه المسلمون ، وافتهزت قريش
ما وقع من عدوان في رجب ، وأثارت العرب ضد المسلمين ، وكان لليهود أيضاً

نشاط في مهاجمة المسلمين ، وظل عبد الله ورجاله في حزن وهم حتى أباح الله القتال في الشهر الحرام ، ونزل في ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . . ﴾ (البقرة ٢١٦) ، وسعد المسلمون بما أنزله الله في شأن سرية عبد الله .

* * *

كان من الطبيعي أن يبدأ الجيش الإسلامي بعدد قليل من المقاتلين ، هم المجاهدون الأوائل الذين دخلوا في الإسلام . . . وبارتفاع عدد المسلمين وإتساع رقعة الدولة زاد عدد المقاتلين .

لقد كانت غزوة بدر أول عمل عسكري في تاريخ الإسلام ، ولم يكن عدد المقاتلين كبيراً لأن الإسلام كان في بداية عهده . . كان عدد المقاتلين خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين فيهم عليّ وحزرة وعمر وعبيدة بن الحارث ، وواحد وستون من الأوس على رأسهم سعد بن معاذ ، والباقي من الخزرج وفي مقدمتهم سعد بن عباد .

وفي أحد ارتفع عدد المقاتلين إلى سبعمائة ، وعندما فسكر رسول الله في حرب يهود خيبر وأمر الناس بالإجماع على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية ، انطلق المسلمون إلى خيبر في ألف وستمائة ومعهم مائة فارس كلهم واثق بالنصر .

وفي جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة تحرك من المدينة ثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة زيد بن حارثة وجهتهم بلاد الروم حيث كان أول لقاء للمسلمين مع الروم .

وتجهّز المسلمون لفتح مكة ، واستجابات القبائل لدعوة الرسول الكريم ، وسار الجيش الإسلامي مهاجرين وأنصاراً ، وجوعاً من سليم ومزينة وغطفان وغيرها ، وقد بلغ عدده عندما بلغ مر الظهران عشرة آلاف ، ولقد دار حديث بين أبي سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء حين شاهدا معا النيران التي أمر رسول الله بإيقادها في رؤوس الجبال دون أن يعرفا أنها نيران المسلمين :
أبو سفيان — مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً .

بديل — هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها .

وسمع العباس عم الرسول الحديث ، فنادى أبا سفيان ، وقال له « ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله في الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة » ، وأركبه العباس في عجز البغلة التي كان يركبها ، ومر به بين عشرة آلاف مسلم أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب في قلب مكة ، وأدرك أبو سفيان أن قريشاً لا قبل لها بجيش محمد ، فدخل في الإسلام ، وأسرع إلى قريش يدعوها للتسليم .

وبعد أسبوعين من قيام المسلمين في مكة ، تحركوا وعلى رأسهم الرسول عليه السلام في عدة وعديد لم يكن لهم عهد بها من قبل ، وزحفوا إلى حنين في إثني عشر ألفاً من المقاتلين في مقدمتهم الفرسان والإبل ، ومن بينهم

أبوسفيان بن حرب ... وكان مثل هذا الجيش فريداً من وجهة نظر العرب ، لأنهم لم يعرفوا مثله عدداً من قبل ، وكان يتقدم كل قبيلة علمها ، وقد امتلأت النفوس والقلوب إعجاباً بهذه السكثرة ، كما امتلأت إيماناً وثقة بأنه لا غالب اليوم لها حتى تحدث بعضهم إلى بعض بذلك وجعلوا يقولون « لن نُغلب اليوم أسكثرتنا » ، وقال الحق تبارك وتعالى في هذا الموقف ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ (التوبة ٢٥) .

واتصل بالرسول نبأ من بلاد الروم بأنها تهيب جيوشها لغزو حدود العرب الشمالية ، فلم يتردد عليه السلام في مواجهة هذه القوى بنفسه ، وأخبر الناس بما استقر عليه رأيه ، وأرسل إلى أثرياء المسلمين يدعوهم لتجهيز الجيش بما أتاهم الله من فضله ، ودعا القبائل للتهيؤ ، وتجمع لديه عليه السلام ثلاثون ألفاً من المسلمين ، وعندما تحرك الجيش ثار النقع وصهلت الخيل ، وصعدت النساء سقف المدينة يشهدن هذا الجيش الجرار ، وهو متجه إلى بلاد الشام مخترباً الصحراء ، مستهيناً في سبيل الله بالحر والظما ، وكان يتقدمه عشرة آلاف فارس ، فلما سمعت الروم بحجم الجيش وكثرة الخارجين ، آثرت أن تنسحب إلى داخل حدودها ، لتحتوى بأرضها وحصونها .

هكذا كان الجيش الإسلامي على عهد رسول الله .

بدأ بمجموعة قليلة من الرجال آمنوا بالدعوة والرسالة ، ودخلوا في الإسلام عن إيمان وعقيدة ، ثم ارتفع عدده تدريجياً حتى وصل إلى عدة آلاف ، ومرد هذه الزيادة والارتفاع في أرقام المحاربين أن كل عربي دخل

في الإسلام أصبح جندياً من جنوده ، متى كان قادراً على حمل السلاح ومواجهة العدو مادياً ومعنوياً .

وبعد وفاة الرسول ، وفي عهد الخلفين أبي بكر وعمر ، اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً وبعدت حدودها وزاد عدد أنصارها في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ، فتعددت الجيوش الإسلامية ، وأصبحت الحشود ضخمة كثيرة العدد ، وكثر أيضاً السلاح والعتاد ليناسب مع عدد المقاتلين ، فكثره دون سلاح لا تفيد ، وسلاح دون رجال لا قيمة له .

أحسن أبو بكر بمسئوليته بعد توليه الخلافة ، وأدرك أنه أمام مهام تتطلب يقظة واستعداداً ، وخاصة أن رسول الله أقام دولة في داخل الجزيرة وأمن لها حدودها وجمع كلمة العرب ، فكان على أبي بكر أن يحافظ على هذه الدولة وأن يؤكد أمنها ، ولكنه فوجيء مع بداية عهده بأمرين هامين . . جيش أسامة الذي كان الرسول قد أعده قبل وفاته لغزو الروم . . وفتنة الردة التي كادت أن تقوض الدولة الإسلامية .

وقرر أبو بكر أن يُبعث أسامة « ليتم بعث أسامة ، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرف » ، وكان أسامة حدثاً لم يبلغ العشرين ، وقد ولّاه النبي قيادة الجيش رغم معارضة كثيرة « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة فلعمرى لئن قلت في إمارته لقد قلت في إماره أبيه من قبله ، وإنه خلّيق للإمارة ، وإن كان أبوه خلّيقاً لها » ، ولقد ظهرت هذه المعارضة في عهد أبي بكر ، فقد قالت الأنصار لعمر « أبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة » ، فأجاب أبو بكر « لو خطفتني

الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بلحية عمر وقال له غاضبا « فكذلك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه » ، وتحرك الجيش بعدده الكبير وعدته الوفيرة قاصداً الملقاء وقضاعة .

وأعد أبو بكر العدة لمواجهة فتنة المرتدين ، فعين قادة وأبطال الاسلام لمحاربة الردة ومقاومتها ، ولقد بلغت الجيوش الإسلامية في عهده أوج قوتها عدداً وعدة ، فقد جهّز أحد عشر لواء ، وجعل على كل لواء أميراً ، وكان لواء خالد هو أمتع الألوية ، وتوجهت هذه الألوية إلى قبائل المرتدين في كل أنحاء الجزيرة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ونجحت في مهمتها ، وانتصرت على أعداء الدين ، وعادت الجزيرة كما كانت على عهد رسول الله مؤمنة بالله . وبرسوله وبقرانه ، ودفعت القبائل الزكاة وأقرت بها .

ولا يفوتنا أن نذكر أن خالد بن الوليد حاول - وهو على رأس اللواء الأول - محارب طليحة ومالك ومسيلمة - أن ينزع من عدوه بعض قطاعاته العسكرية ويضمها إليه ، ففي ذلك قوة له وإضعاف لشأن عدوه ، فقد سعى مثلاً إلى انسحاب طيء وانسلاخها عن طليحة ، وجاءه عدى بن حاتم وقال له « أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك » ، ونجح عدى أيضاً في أن يضم جديدة إلى قوة خالد « إن طيئنا كاطائر ، وإن جديدة أحد جناحي طيء » . فأجلى أياماً لعل الله أن ينتقد جديدة » ، وانضم ألف راكب منهم إلى جيش خالد ، وهكذا كانت قوة المسلمين تزيد عدداً في وقت يفقد أعداؤهم الأنصار والمقاتلين ، بما أضعف موقفهم وفت في عضدهم .

وبينما كان المنفى بن حارثة يحارب الفرس في أرض العراق ، أمر أبو بكر خالد بن الوليد بالتجرك لمعاونة المنفى وقال له « استنفر من قاتل أهل الردّة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وأمدّه أبو بكر بالقمعاع بن عمرو التميمي وقال « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » ، ثم أمدّه بعياض بن غنم بعد أن يكون قد أخضع أهل دومة الجندل ، ثم أمد عياضاً بعبد بن عوف^(١) . وتجمع لدى خالد ألفان ، انضم إليها ثمانية آلاف من ربيعة ومضر قدم بهم إلى العراق ، حيث انضم إليه هناك ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوا إليه وفي مقدمتهم المنفى .

وبينما كان الجيش الإسلامي يحارب فوق أرض العراق ، سير أبو بكر الجيوش الإسلامية الأربعة التي أعدها وجّهزها إلى بلاد الروم ، فقد استنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يدعوهم للانضمام إلى جيوش المسلمين « أما بعد فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد ، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً » ، وقال « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك ، وعسكروا ، وخرجوا ، وحسنت في ذلك نيتهم ، وعظمت في الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » ، ولقيت هذه الدعوة أذناً صاغية ، فما أن كاد رسول الخليفة يقلو كتابه ، حتى أسرع الناس يستجيبون إلى الدعوة .. سار ذو السكّلاع الحميري وقومه وجوع من اليمن إلى المدينة . وسارع قيس بن هُبيرة في مدحج ، وجُنْدَب بن عمرو الدوسي في الأزد ، وحابس بن سعد الطائي في طيء إلى المدينة .

(١) في الكامل لابن الأثير « عبد بن عوف » .

كان خالد بن سعيد أول قائد عربي مسلم يتولى القيادة في قطاع الشام ،
وتقدم بقواته حتى بلغ القسطل في طريق البحر الميت ، وظل أبو بكر في المدينة
بعد الجيوش ويجهزها ويسيرها إلى الشام . . . كان مثلاً عكرمة بن أبي جهل
قادمًا من كندة وحضر موت ، فلما بلغ المدينة أمره بأن يتحرك إلى الشام ،
وكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص - وكان مقيمًا في قضاة « قد أردت
أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك إلا أن يكون الذي
أنت فيه أحب إليك » ، فقال عمرو « إني سهم من سهام الإسلام وأنت
بعد الله الراعي بها والجامع لها ، فأنظر أشدها وأخشاه وأفضلها ، فارم بها
شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي » ، وأمره الخليفة بالتحرك إلى الشام ،
... وكتب أبو بكر إلى الوليد بن عقبة بمثل ما كتب به إلى عمرو فاستجاب
وآثر الجهاد ، وأعد الخليفة جيشًا من أهل مكة ولأه يزيد بن أبي سفيان ،
وأمر شرحبيل بن حسنة وكان مع خالد في العراق بالتحرك إلى
الشام ، وندب جيشًا آخر جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان من القادة
المسلمين الذين توجهوا إلى الشام معاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان ،
وأجمعت الروايات على أن جيش المسلمين في بلاد الروم كان ثلاثين ألفًا ،
وكان هذا الجيش يواجه جيوش الروم التي بلغت أربعين ومائتي ألف .

وأراد أبو بكر أن يحصل المسلمون في الشام على نصر يشبه نصر زملائهم
في العراق ، وأحس بأن جموع المسلمين هناك في حاجة إلى قائد جسر لا يعرف
المهواة ولا يخاف الموت ، فقال لأصحابه « والله لأنسين الروم وسأوس
الشیطان بخالد بن الوليد » ، وبعث إليه في العراق « سر حتى تأتي جموع
المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا (يريد أن المسلمين ضاقوا

بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم ليمض كالشجاع في الحلق) « وتحرك خالد إلى الشام بنصف جيش العراق ، فزادت كثافة الجيش بالمدد الذي جاء به ، وتولى هناك قيادة الجيش الإسلامي كله ، بعد أن جمع الناس جميعاً تحت قيادته ، وألنى نظام الألوية ، ووحد جبهة المسلمين ، ثم خطب في الناس قبل القتال فقال « إفسكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، ولأنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا اليوم من أيامك ، أنزل نصرك على عبادك » وأنزل خالد بالروم هزيمة قاسية في معركة اليرموك ، وتحقق للمسلمين نصر عزيز فتح أمامهم أبواب بلاد الشام كلها .

وخلال معركة اليرموك توفي أبو بكر ، وتولى الخلافة من بعده عمر ، ولم يكن بأقل تقدير للمسؤولية ، فقد حمل الأمانة وهو أهل لها ، وأدرك خطورة الموقف وهو قادر عليها ، وحرص على صالح الإسلام والمسلمين وهو أمين على ذلك كله .

تولى عمر الخلافة ، ووضحت له منذ اللحظة الأولى خطورة الموقف ، فقرر أن يشرف بنفسه على عمليات العراق والشام في آن واحد ، ولهذا بعث إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يوافيه دائماً بتقرير كامل ومفصل عن الموقف العسكري ، حتى يستطيع تقدير الموقف واتخاذ الخطط اللازمة لمواجهة « اكتب إليّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ... كيف تنزلون ؟ ، وأين يكون معكم عدوكم ؟ ، واجعلني بكتبك إليّ كأنني أنظر إليكم ، واجعلني من أمركم على الجليّة » .

وكان عمر حريصاً على أن يتولى بنفسه إعداد الإمدادات والإشراف

على تجهيزها وتحركاتها ، وكان يدعو الناس إلى الخروج ويحثهم عليه ،
ويذكرهم بواجبهم ومسئولياتهم « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة
(طلب الكلاء) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطّراء المهاجرون
عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها
فإنه قال : ليظهره على الدين كله ، والله مظهر دينه ، ومعز ناسره ، ومول
أهله مواريث الأمم » .

وبعد هزيمة المسلمين في موقعة الجسر بالعراق التي استشهد فيها القائد
العربي أبو عبيد بن مسعود ، أخذ عمر يتدب الناس إلى العراق مدداً للمثنى
ابن حارثة الذي تولى القيادة هناك ، ورفع عمر من أجل توفير المدد اللازم
الخطر على أهل الردّة ، وسمح لهم بالاشتراك في القتال ووجه من تجمع منهم
إلى العراق .

واستجاب عمر إلى طلب جرير بن عبد الله البجلي ، لجمع بني بجيلة
وكانوا مشتتين في القبائل ، ولذلك قصة نرونها باختصار .. فبجيلة من قبائل
العرب الكبرى ، ولكنها تشقت في القبائل نتيجة إشتباكها في معارك في
الجاهلية ، وجرير من ساداتها وأشرفها ، وكان قد كُلم رسول الله ليجمعهم
فوعده بذلك ، ولحق النبي بربه ، فأعاد الأمر مع أبي بكر ، ولكنه كان
مشغولاً بالفاتوح فقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين من بإزائهم
من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو
أرضى الله ورسوله » ، وطالب جرير عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة ،
فكتب عمر إلى عماله « من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت

عليه إسلامه يعرف ذلك فأخرجوه إلى جرير ، وحدد لهم مكانا يجتمعون فيه بين العراق والمدينة ، فلما اجتمعوا ، ولّى عليهم جرير (كان قد ولّى في الأصل عرجة بن هرثة ، ولكنهم اعترضوا على ذلك وقالوا لعمر : استعمل علينا رجلا منا) ، وطلب منهم التحرك إلى العراق مدداً للمسلمين ، ووعدهم بربع خمس ما أفاء الله على المسلمين يضاف إلى نصيبهم ، وذلك لأنهم كانوا يريدون الخروج إلى الشام دون العراق .. سألهم عمر « أى الوجوه أحب إليكم ؟ » ، قالوا « الشام أسلافنا بها » ، فقال « بل العراق ، فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم ، وإن الشام في كفاية » .

وتولى عرجة بن هرثة قيادة بنى الأزد بعد أن قال لعمر « أنا امرؤ من الأزد » ، فقال له « نعم الحى الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر » ، وتحركوا إلى العراق ، وكانوا يريدون الشام ، فقال لهم عمر « ذروا بلدة قد قتل الله شوكتها وعددها ، واستقبلوا جهاد قوم قد حوّوا فنون العيش ، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك ، فتمشوا مع من عاش من الناس » وعلق غالب بن فلان الليثي وعرجة بن هرثة على قوله كل مخاطبا قومه « يا عشيرناه ، أجيئوا أمير المؤمنين إلى ما يرى ، وأمضوا له ما يسكنكم » ، فأجابوا « إنا قد أطعنا وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد » .

وبعث أمير المؤمنين إلى العراق كل من تجمع لديه في المدينة ...

خرج هلال بن علفه القيمي على رأس قوم من الرباب .

وخرج ابن المنفى الجشمي على رأس قوم من بكر بن هوازن .

وخرج عبد الله بن ذى السهمين على رأس أناس من خثعم .

وخرج ربيعى على رأس قوم من بنى حنظلة وتولى أمرهم من بعده ابنه
شيث بن ربيعى .

وخرج ابن الهوير والمفذر بن حسان على مجموعتين من بنى ضبة .

وخرج قُرْط بن سَجَّاح على رأس قوم من عبد القيس .

توجه هؤلاء جميعاً إلى العراق مدداً للمثنى بن حارثة ، وشاركوا في موقعة
البويب التي ثار فيها المسلمون من هزيمة الجمر .

ونجح المثنى بن حارثة وكان قائد القوات الإسلامية في العراق بعد
استشهاد أبي عبيد بن مسعود في إثارة الإحساس العربى عند كثير من قبائل
العرب المقيمة بالعراق فقالوا « نقاتل مع قومنا » ، وبذلك أضافت النخوة
العربية عدداً من المقاتلين العرب النصارى إلى الجيش الإسلامى ، فزاد بذلك
عدد المقاتلين وارتفعت كثافتهم .

وبينما الفرس يعدون أنفسهم لمعركة القادسية ويحشدون لها الحشود
ويجمعون لها المقاتلين ، كان عمر أيضاً يفكر في هذه المعركة ، وكان يرى
ضرورة إمداد القوات المقاتلة ، حتى تنال نصراً كبيراً في القادسية يكون له
أثره في مستقبل الحرب في العراق .

كتب عمر إلى عماله في السكور والقبائل في بلاد العرب « لا تدعوا
أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى

والمجل العجل » ، وقال لأصحابه « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب »
وتوافدت عليه الوفود وتجمع الناس في المدينة ، وأراد أن يخرج بهم ، وعرض
الأمر على أصحاب المشورة ، فقال له عبد الرحمن بن عوف « أقم وابعث
جنداً ، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فإنه إن هُزم جيشك
ليس كهزيمتك ، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أفن الأمر خشيت أن لا يكبر
المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله » ، واستقر الرأي على أن يبعث رجلاً
من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ، ويبقى هو بالمدينة ، واستجاب عمر
لهذا الرأي وقال مخاطباً المسلمين « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم
شورى بينهم ، وإنما كنت كرجل مفك حتى صرفني ذوو الرأي منكم
عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً » ، واختار سعد بن أبي
وقاص خال رسول الله وأول من رمى بسهم في الإسلام وأسد الله في برائه ،
وتحرك سعد ومعه أربعة آلاف من المقاتلين معهم نساؤهم وأبنائهم ، ثم لحق
به مدد من قوات الشام بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو بلغ عدده
ثمانية آلاف ، وتجمعت في موقع القادسية قوة إسلامية قوامها ستة
وثلاثون ألفاً ، وكان هذا الحشد هو أضخم حشد عسكري منذ عهد رسول
الله ، وأصر عمر على أن يكون مع هذا الحشد عدد من الشعراء والخطباء
بالإضافة إلى شخصيات الحرب المسلمين كعمرو بن معدى كرب وطلحة
ابن خويلد والأشعث بن قيس والقعقاع بن عمرو ، وكانت معركة القادسية
هي مفتاح الطريق إلى إيوان كسرى في عاصمة ملوكه ، فهي التي مهدت
لزوال دولته وقضت على سيطرته ، فالقادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة في
تاريخ العالم ، ففيها كسر المسلمون شوكة الجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبداً ،
إذ ألقي الفرس فيها بكل طاقاتهم سلاحاً وعتاداً ورجلاً وفيلة ، وتولى قيادتها

أشهر رجالها في الحرب ، فكانت هزيمتها ضياعاً للملك كسرى بأكله ،
فبعدها دخل المسلمون المدائن ، وفتح هاشم بن عتبة والمقداد بن عمرو جلولا ،
ثم ارتفعت فوق أرض العراق راية الإسلام ، وأصبحت جزءاً من أمة
الإسلام . . . أمة محمد .

وكانت لجيوش المسلمين جولة أخرى فوق أرض مصر ، فقد تحرك عمرو
ابن العاص من فلسطين إلى مصر على رأس أربعة آلاف مقاتل ، ولم
تشغل مهام الدولة العظام الخليفة عمر عن أن يقدم لعمرو الجند تلو الجند
والمدد بعد المدد . . .

دعا عمر الزبير بن العوام ابن عمه النبي وصاحبه ومن أبطال العرب
المعدودين ، وقال له « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ » ، فأجابه
« لا حاجة لي فيها ، ولكني أخرج مجاهداً وللمسلمين معاناً » ، وخرج
الزبير إلى مصر على رأس المدد ومعه عبادة بن الصامت والمقداد وخارجة
ابن حذافة ومسلمة بن مخلد ، وانضم المدد إلى عمرو الذي تلقى كتاب
الخليفة الذي يقول له فيه « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل
ألف رجل منهم رجل مقام ألف » ، وفتح المسلمون مصر واسقبت لهم
الأمر فيها ، ثم امتد نفوذهم بعد ذلك غرباً إلى طرابلس وبرقة وجنوباً
إلى النوبة .

إذن بدأ الإسلام نفراً قليلاً ، ثم ازداد عدد رجاله ، فكانوا جميعاً
جندة ورجاله وأبطاله ، أدركوا أن دخولهم في الإسلام يعني أن كلا
منهم قد أصبح جندياً ، عليه أن يحمل سلاحه ، وأن يخوض
(١٨ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

المعارك ، وأن يواجه العدو ، وأن يبذل من ذات نفسه من أجل
ديفته وأمته .

* * *

كان المسلمون كلهم جنـداً محارباً ، وعندما فتحت الأمصار ورأوا
بأعينهم خصب الأرض رغبوا في زراعتها ، ولكن الخليفة عمر رفض خوفاً
من أن يميلوا إلى الرخاء فيتقاعدوا عن الحرب ، ولهذا أمر مناديه أن يخرج
إلى أمراء الجند يبلغهم أن عطاء الجند قائم ، وأن رزق عيالهم باق ، وبينهم
عن الزراعة ، ولعله أراد بذلك ألا يتوطنوا في بلد فيثقل عليهم التحرك
للقتال في بلد آخر ، فنتيجة ارتباطهم بالأرض ، لقد رفض عمر أن تقسم
الأرض بين الجند وقال « فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض
بعلوها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ماهذا برأى ؟ » ، وقال مؤيداً
وجهة نظره . . « إذا قسمت أرض العراق بعلوها وأرض الشام بعلوها ،
فإذا تُسَدُّ به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من
أرض الشام والعراق ؟ » ، وأرسل إلى عشرة من كبار الأنصار وأشرفهم
خمسـة من الأوس وخمسـة من الخزرج ، وقال لهم طارحاً عليهم القضية
« . . لكني رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله
أموالهم وأرضهم وعلوهم ، فقسمت ماغنموا من أموال بيت أهله ،
وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوها ،
وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فتسكون فيثا للمسلمين
المقاتلة والذرية ولن يأتي بعدهم ، أرايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال

يلزمونها ، أرايتم هذه المدن العظام لا بد لها من أن تشجن بالجيوش ، ولا بد من إدرار العطاء عليهم ، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟ » ، فقالوا له « الراى رأيتك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشجن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم ما يثقفون به رجح أهل الكفر إلى مدنهم » .

الذى يهمنى فى هذا الأمر هو أن رأى عمر خضع أساساً لإعتبارات تتعلق بسياسة الدولة الحربية ، وقد أوضح ذلك أبو يوسف فى كتاب الخراج « توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخبرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشجن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذ خلت من المقاتلة والمرزقة » .

وفى عهد عمر أنشئ ديوان الجند دُونت فيه أسماء الرجال وأعطياتهم (الديوان كلمة فارسية معناها السجل أو الدفتر يكتب فيه رجال الجيش ومن فرض له العطاء ، وتطور المعنى فصار يطلق على المكان الذى تحفظ فيه السجلات ، ثم صار يطلق على المكان الذى يجلس فيه القائمون على أمر السجلات ، وصار يطلق أيضاً على السجلات ذاتها) .

وأدخل الأمويون تعديلات على الديوان أهمها ألا يمنح العطاء إلا لمن يقوم بخدمة عسكرية فعلاً . أما العباسيون فقد أبقوا على الديوان ونيط به مهمة تجنيد القوات ودفع أرزاقها دون تمييز بين أجناسها .

حدث فعلا تطور في نظام الجند في عهد الدولة الأموية ، وظهر نظام التجنيد الإلزامي ، فقد كان الناس من قبل يذهبون إلى الحرب جهادا في سبيل الله ، ويصيبون الغنائم والفيء ، فلما قامت الفتنة أيام عثمان اندلعت نيران الحرب بين المسلمين ، وانقسموا إلى طوائف كانت تندفع إلى القتال دفاعا عن رأيها لأنها تراه حقا وصوابا ، فلما أصبح الأمر لبني أمية وتلاشت هذه الطوائف واتحدت الأمة تحت سلطان معاوية ، لم يعد هناك ما يدفع الناس إلى الحرب طوعا ، فأخذوا يتقاعدون عنها ، فاضطر الخلفاء إلى إقرار نظام التجنيد بالإلزام ، وكان أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج شديدا عنيقا فلم يتخلف أحد .

ولما تولى العباسيون الأمور على أنقاض الدولة الأموية ، رغب بنو العباس في مؤازرة العجم لهم وتأييدهم لسلطانهم ، فسمحوا لعدد منهم بالدخول في الجيش ، وكان أول الداخلين آل خراسان ، الذين نصروهم في أول دعوتهم ، وانقسم الجيش في عهد الخليفة المنصور إلى أربع فرق يقودها أبو مسلم الخراساني ، وهي اليمنية والمضرية والخرسانية والحرس الخاص .

وفي خلافة المعتصم بالله تشكلت فرقة أفرادها من مصر وسميت بفرقة المغاربة على اعتبار أن مصر تقع في غرب بغداد ، وتكونت فرقة أخرى أفرادها من سمرقند وفرغانة سموا بالفراغنة ثم بالأتراك ، وبني المعتصم مدينة سامرا خارج بغداد وأقام فيها مع جيشه . . وظهرت فرقة الشاكرية في عهد المهتدي واستفحل أمرها في عهد المستعين بالله . . وظهرت فرق كثيرة ذات أسماء متعددة كالبلالية والسعدية والساجية . .

وتطور نظام الجند في عهد المماليك ، وأصبح الجيش خليطاً من الأتراك
والجركس والروم والأكراد ، وظل سلطان المماليك قائماً وقوياً ، حتى
خلال الحكم العثماني ، إلا أنه انتهى تماماً في مصر على يد محمد علي .

وظهر في عهد الدولة العثمانية الجند الإنكشارية ، فقد جمع السلاطين
الغلمان النصاري الذين قُتل آباؤهم وأصبحوا دون نصير ، وأنشأوهم نشأة
عسكرية إسلامية ، وعلموهم فنون الحرب ، وجعلوهم جنداً للدولة ليعمل لهم
غير الجندية ، والجندية فقط ، ولا دين لهم غير الإسلام ، وكانت لهم تقاليد
يؤمنون بها ، ومبادئ يعتنقونها ، منها مثلاً الطاعة المطلقة للقادة ، والاتحاد
بين سائر الفرق وكأنها فرقة واحدة ، والتمسك عن كل ما لا يليق بالجندى
بالباسل ، وعدم الزواج ، وعدم مغادرة الثكنات ، والإهتمام البالغ بالألعاب
الرياضية والتربينات العسكرية .

* * *

وكانت للجند المسلمين أعطيات منذ عهد النبوة .

وكانت هذه الأعطيات غير محددة في عهد النبي ، فكانت الغنائم
تقسم على أساس أن يخص الخس للرسول ، وأن يفرق الباقي على الناس
دون تمييز .

وجرى على هذا النظام أبو بكر .

أما في عهد عمر فقد وضع نظاماً خاصاً ، فرتبت الناس طبقات ، وميز
راتب كل منهم باعتبار نسبه من رسول الله أو سابقته في الإسلام ، فكان

راتب كل من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدرأ خمسة آلاف درهم ،
وكل من المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوا بدرأ أربعة آلاف درهم ،
« لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » .

فرض للعباس عم النبي إثني عشر ألف درهم ، ولصفية ابنة عبد المطلب
سنة آلاف درهم ، وفرض لكل واحدة من نساء النبي عشرة آلاف درهم ،
وللمهاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف ، وللحسن والحسين خمسة آلاف ، ولعبد الله
ابن عمر ثلاثة آلاف ، وكل من أبداء المهاجرين والأنصار ألفين ، وكل من
أهل مكة ثمانمائة ، وكل من سائر المسلمين من ثلاثمائة إلى خمسمائة ، وكل
من نساء المهاجرين والأنصار من مائتين إلى ستمائة .

وظلت رواتب الجند على هذا النظام حتى تناوله التغير في عهد الأمويين ،
فأصبح راتب الجندي ألف درهم ، وقيل إنه كان يعرف على جنده ستين
مليون درهم سنوياً ، وفي عهد الوليد زادت رواتب الجند عشرة دراهم
للوحد ، إلا أن هذه الرواتب أثقلت الدولة ، فأخذت في النقصان حتى بلغ
راتب الجندي في أواخر الدولة الأموية خمسمائة درهم .

وفي عهد العباسيين كان رزق الجندي ثمانين درهما فقط في الشهر ، وكان
للفارس ضعف هذا الراتب ، وتناقصت الرواتب حتى صارت في عهد المأمون
عشرين درهما المشاة وأربعين للفارس ، وظلت الرواتب تدفع نقداً حتى أيام
الدولة السلجوقية ، وأصبحت تدفع أقطاعاً (أى مساحات من الأرض) ،
وكان ذلك في عهد الملك الطوسي وزير آل سلجوق ، واقتدى به من جاء

من بعده من الملوك والسلاطين إلى أوائل القرن الماضي .

* * *

كان للخلفاء في صدر الإسلام عناية بإحصاء المسلمين اقتداءً بما فعله الرسول الكريم ، فجعلوا على كل قبيلة رجلاً يمر على الناس يسألهم « هل وُلد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ » ، فيكتب الأسماء والأعداد ثم يذهب إلى ديوان المسلمين ويثبت الأسماء فيه .

وكانوا يحددون التدوين كل فترة في كل ولاية على حدة ، وأول تدوين جرى في مصر كان في عهد عمرو بن العاص ، ثم في عهد عبد العزيز ابن مروان ، ثم قرة بن شريك ، وكان آخر تدوين في خلافة هشام ابن عبد الملك .

ولما تولى العباسيون الأمر أهملوا التدوين ، وقد بعث المعتصم بالله إلى عماله في الأمصار يأمرهم بأن يستقوا العرب من الدواوين ، وأن يقطعوا عنهم العطاء ، وأصبح الجيش في عهده من العجم والموالي ، ولم يكن يضم بين صفوفه أحداً من العرب .

* * *

وكان المسلمون إذا فتحوا بلداً أقاموا معسكرهم في بعض نواحيه ، وكانوا لا يقيمون في مكان بينه وبين المدينة بحراً أو نهر عملاً بوصية عمر ، لهذا لم يقيم المسلمون في الاسكندرية ، ولكن أقاموا في معسكر قرب حصن بابل في منطقة الفسطاط ، ولم يقيموا في الدائن بل أعد لهم معسكر

ما بين البصرة والكوفة . . وكانت هذه المعسكرات تقسم للجند وللسائهم
اللائي كن يصحبهن أو يتبعهن .

وظلت إقامة المعسكرات تتم خارج المدن ، وكانت هذه المعسكرات
تتحول إلى مدن ، كما حدث في الفسطاط ، والبصرة ، والكوفة ، والقطائع
(التي بناها أحمد بن طولون) ، والقاهرة (التي بناها جوهر الصقلي) ،
وبغداد (التي بناها المنصور) .

* * *

وأخيراً

لقد تطور الجيش الإسلامي عدداً وكماً .

كان على عهد رسول الله مئات ، ثم أصبح عدة آلاف ، يدفعها الإيمان ،
فإذا بها قوة لا يحبسها حابس ولا يحجزها حاجز ولا يوقف اندفاعها سد . .
انطلقت لإطلاقة الإيمان ، وأنت بالعجب العجيب ، ماتوقفت عن فتح ،
وما أغمدت سيوفها ، بل ظلت تدفع بها في نحور الأعداء ، تفتح البلاد ، وترفع
راية القرآن ، وتبرز المسلمين ، وتثبت في النفوس والقلوب والعقول الإسلام ،
دين الله الذي ارتضاه لخلقه وختم به الرسالات .

تأصلت العقيدة الإسلامية لدى فئة آمنوا حق الإيمان بربهم ، وبما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، فزادهم الله هدى ، وكفر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بهم ، وبارك أعمالهم ، وخلقت العقيدة من ضعفهم قوة ، ومن قلتهم كثرة ، ومن تنافروهم وحدة ، وأصبح منهم قادة أجداد وجند ميامين .

وبتأصل العقيدة لديهم استحقوا أن يلقبوا بالمؤمنين ، وأصبح أول أهدافهم في الحياة نصر الله ، فهم بذلك ينصرون دينه وبقِيمون شريعته ويدفعون الضلال والشرك والإثم ، ويقاومون كل من يعترض سبيل الله ويخالف ما أمر به ، وإذا اقتنعنا بأن الله القوى العزيز في غنى عن من ينصره ، فإن نصره هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء له سبحانه ، ومن هنا يأتيهم نصر الله ، فينصرهم على أعدائهم ، ويثبت في مواقع القتال أقدامهم ، على حين يملأ قلوب الذين كفروا الرعب والفرع ، ورغم أن النصر من عند الله ، فإنه محسوب لهم ، يلقون عليه أحسن الجزاء ، وصدق الله حيث قال وهو أحكم القائلين : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (محمد ٧) .

كان المسلمون الأوائل مجاهدين بكل ما تحمل كلمة الجهاد من آماد وآفاق وأبعاد وأعماق . . كانوا يعرفون لماذا يحملون السلاح ولماذا يحاربون ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، (الأنفال ٨) . وكان اقتناعهم بالهدف راسخاً عميقاً نابعاً من العقل والقلب والوجدان ، وفي

ضوء اقتناعهم الذي يعنى تعبيراً صحيحاً عن إيمانهم ، جاهدوا بالمال والنفس في سبيل الله ، فسيطروا على أنفسهم ، وسيطروا على أعدائهم ، وأكدوا أن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وخَلَّتْ أَسْمَاؤُهُمْ بَيْنَ خِوَالِدِ الْأَسْمَاءِ ، وكتب لهم في سجل الإستشهاد حظ البقاء .

والجهاد في سبيل الله يعنى بذل الجهد بقوة مطلقة مطلقة ، ولقد شغلت آيات الجهاد حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى (الذى نزل بالمدينة) . حيث كان العهد المبكى عهد دعوة وضعف وقلة ، ومن هذه الآيات على سبيل المثال دون الحصر ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، (التوبة ٧٣) و ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٤١) و ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج ٧٨) و ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ٦٩) .

وعندما قرر الاسلام الجهاد ودعى المسلمون ليجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وأصبح الجهاد فريضة واجبة الأداء على كل مسلم حماية للدعوة ورداً للمعتدين وصوناً للحياة المسلمين ، ولم يكن الجهاد الإكراه على أمر ، أو للإجبار على سلوك ، أو للإنتقام من مخالف أو معارض ، فقد قام الإسلام أساساً على العفو والمسامحة والحكمة والموعظة .

— ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٩) .

— ﴿ اذْعِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنُّوعِظِ الْحَسَنَةَ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥) .

— ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ
لِلَّذِينَ أُوتُوا السِّكِّينَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا
وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران
٢٠) .

— ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ٦٤) .

— ﴿ يَا بَنِي إِدْرِسَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ
عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ (لقمان ١٧) .

— ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى
فَإِنَّمَا يَنْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس ١٠٨) .

— ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
(المنكحوت ٤٦) .

والجهاد يعني بذل الجهد والطاقة والقدرة في سبيل الله بالنفس والمال
والرأى .

والجهاد فرض على المسلمين ... فرض كفاية ، وفرض عين .

ويُزَمُّ فرض الكفاية جميع المسلمين الموجودين من أهل القتال ، فإن قام البعض بالجهاد سقط الفرض عن الكل ، وإذا لم يَقم به أحد أثم الكل من المكلفين به بتركه ، وفي هذا الفرض لا تخرج المرأة إلا بإذن زوجها ، ولا الولد إلا بإذن والديه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتاً .

ويكون الجهاد فرض عين إذا هاجم العدو بلدًا من بلاد المسلمين فجأة فيخرج أهل البلد جميعاً ، لأن الجهاد في هذه الحالة يكون فرض عين كالصلاة والصوم ، وتخرج المرأة دون إذن زوجها ، والولد دون إذن أبيه .

والجهاد أنواع . . جهاد بالنفس وبالقلب وباللسان وباليد وبالمال .

والجهاد بالنفس فرض عين وكفاية أيضاً . . أما باقى أنواع الجهاد ففرض عين فقط .

والجهاد بالقلب لصاحب العذر الذى له نيته فى القتال ولا يستطيعه ، وليس لديه مال يجاهد به ، ومن أصحاب العذر البكاهون الذين أرادوا الخروج مع رسول الله وجاءوه يسألونه أن يحملهم فقال لهم ﷺ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾ وَتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ (القوبة ٩٢) .

والجهاد باللسان يعنى الحث على الجهاد والدعوة له فى كل مكان ، وكان هذا هو دور الخطباء والشعراء ، فكانوا يثيرون بأحاديثهم وأشعارهم الحماس ، ويشعلون الرغبة فى القتال ، ومن هؤلاء حسان بن ثابت شاعر

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان للشعراء الشماخ والخطيئة وعهدده .
ابن الطيب دور كبير في القادسية ، فقد دعاهم سعد وقال لهم « أنتم من العرب
بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذووا رأيهم
ونجدتهم ، وأنتم ساداتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرّضوهم على
القتال » .

والجهاد باليد هو استخدام اليد في كل ما ينفذ الجهاد ويعين على
النصر ، كتقديم الدواء والمال والطعام وتضميد الجرحى ، وهو الدور العظيم
الذي قامت به النساء المسلمات في كافة الميادين والمعارك ، وسوف نعرض
لذلك بالتفصيل .

والجهاد بالمال هو التبرع بالمال للأسلح وللمعاونة في تموين المجاهدين
وكانت غزوة تبوك مثلاً حياً للجهاد بالمال ، فقد أنفق عثمان عشرة آلاف
دينار غير تسعمائة بعير ومائة فرس ، ودعاه الرسول فقال « اللهم ارض عن
عثمان فإني راضٍ عنه » ، وأنفق كثيرون غير عثمان كأبي بكر وعمر والعباس
وعبد الرحمن بن عوف ، وحتى النساء المسلمات فقد أنفقن ما قدرن عليه من
مال أو حلى .

ولقد جعل الإسلام للجهاد مرتبة خاصة ، فهو أسمى العقائد الدينية ،
وأفضل الأعمال الربانية ، ولهذا جعلت للمجاهدين أعلى درجات المسلمين ،
فهؤلاء يتميزون دون ريب في الفضل والمنزلة عند الله عن هؤلاء الذين
يحبسون أنفسهم وأموالهم عن سبيل الله .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى
الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (النساء ٩٥/٩٦) .

وتوضح هذه الآيات أن منازل المسلمين تختلف باختلاف نصيبهم من
البذل والعطاء ، فهناك مجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، وهؤلاء منحههم الله المال
والصحة فأدوا حق الله وبذلوا المال في سبيله ، وقدموا أنفسهم أيضاً مقاتلين
أوشهداء ، وهم بذلك يستحقون جزاء المحسنين ، وهناك مسلمون لديهم المال
والعافية ، لكنهم لم يجاهدوا بالمال أو بالنفس وآثروا السلامة وبخلوا بما
آتاهم الله من فضله وبخسوا دينهم حقه فوجب أن يكونوا في درجات أدنى ،
وشتان بين هؤلاء وهؤلاء ... الفرق شاسع والمدى بعيد .

والتقصير في الجهاد فوق أنه لإخلال بواجب ديني ، مستوجب لغضب
الله ، لأن الإسلام اعتبره عاملاً يؤدي إلى التهلكة والفساد والذل واختلال
نظام الإسلام .

وكذلك اعتبر الإسلام التثبيط والتعويق والتخلف والتعاس عن
الجهاد جريمة دينية ، تستحق عقوبة الله وغضبه وسخطه ، وجريمة سياسية
تعطى أولى الأمر حق مؤاخذه أصحابها بالشدة والقسوة .

وقد وضعت للجهاد شروط ..

فهو واجب على المسلم إذا كان قادراً عليه ، فمن لا قدرة له لا جهاد عليه ،

ومن عجز عن الجهاد بنفسه ولا مال له ، فقد منحت له فرصة الجهاد بالقلب واللسان واليد .

وهو واجب على الرجال أصلاً دون النساء ، لأن بنية المرأة لا تحمل العنف ، ولهذا فهي لا تخرج لقتال أو لحمل سلاح ، وإنما تخرج لأعمال الطب والسقي والتموين وإثارة الحماس ، وحُرم الجهاد على الشباب الذي لم يبلغ الحلم ، لأنه يكون في حالة نفسية وصحية وجسدية وعقلية لا تسمح له بمواجهة أحداث القتال بعنفها وضراوتها .

وُسمح للقادرين على القتال ولا يملكون سلاحاً أو راحلة أن يخرجوا لتكثير السواد إرهاباً للعدو .

وأعفى من الجهاد الضعفاء والمرضى والشيخوخ وصغار السن ، فلا يأخذ الله بالإثم والعقاب أحداً من هؤلاء ، كما لا يأخذ الفقير الذي لا يجد ما ينفقه إذا تخلف عن الجهاد ، وهؤلاء جميعاً أصحاب أعذار واضحة ، والإسلام دين يسر و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، فهؤلاء لا حرج عليهم في أن يتخلفوا عن الجهاد ، فهم معفون منه بحكم أعذارهم ، إذ أنهم لا يملكون القدرة عليه ، بل هم في عجز عن مباشرته ، ويكفيهم أن يكونوا مع المسلمين المجاهدين بمشاعرهم وقلوبهم يدعون لهم بالنصر ، ويرجون لهم الغلبة والسلامة ، ويقومون على رعاية مصالحهم وقت غيائهم ، يقضون لهم حوائجهم ويساعدون أهلهم .

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ
تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ
تَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاكُمْ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
وَوَطَّبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (التوبة ٩١/٩٣) .

• ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ (الفتح ١٧) وأعفى من الجهاد هؤلاء الذين أحاطت
بحياتهم الخاصة ظروف تمنع خروجهم للجهاد ، فالإسلام دين رحمة ، ومن
الرحمة أن يبقى الرجل بجانب أسرته إذا كانت في حاجة إليه ، وليس أحد
غيره يسد حاجتها ، ولقد أعفى رسول الله عثمان بن عفان من الخروج في
بدر ، لأن زوجته رقية كانت مريضة ، وكانت في حاجة إلى من يبقى إلى
جوارها يعني بها ويرعاها في مرضها ، وقال له رسول الله « إن لك لأجر
رجل وسهمه » .

وأعفى على بن أبي طالب من الخروج في غزوة تبوك ، فقد أبقاه رسول الله
على قومه وقال له « ... ولكنني خلفتك لما تركت ورأيت ، فارجم فاخلقني في
أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ،
إلا أنه لا نبي بعدي » .

وفضل الجهاد عظيم لأن فيه بذل النفس تقرباً لله ، واعتبر الجهاد أفضل
من قيام الليل ، ولقد أثنى الله على المجاهدين ووعدهم بالجنة في كثير من آياته
الحسكات ، ووصف القرآن المجاهدين بالعزة والقوة ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ

الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿ (الشورى ٣٩) ، ويقول عنهم ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾
 (المائدة ٥٤) ، ثم يوسع لهم في حدود العزة حتى يجعلها موصولة بالله فيقول
 ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون ٨) ، ويرتفع بهم إلى مراتب
 الصلة الربانية فيجعلها في مقام الحب من الله ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
 فِي سَبِيلِهِ ﴾ (الصف ٤) ، ويؤكد لهم بعد ذلك النصر في الدنيا والفلاح
 في الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهَادُ ﴾ (غافر ٥١) ، ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصفات
 ١٧٣) وتوج فضل المجاهدين بهذا الوعد الكريم ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى
 بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ
 الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة ١١١) .

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله دلني على عمل
 يعدل الجهاد ؟ » ، فأجاب « لا أجده » ، وقال عليه السلام « والذي نفسى
 بيده ، لولا أن رجلا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يقتلوا ولا أجده
 ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسى بيده
 لو ددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيى ، ثم أقتل ثم أحيى ، ثم أقتل ، وقال
 « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، وقال « لغدوة
 في سبيل الله أو روضة خير من الدنيا وما فيها » ، وسأله رجل « أى الناس

أفضل ؟ » ، فأجاب « مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله » ، وقال « من أغبرت قدماءه في سبيل الله حرّاهما الله على النار » .

ووضعت مبادئ عامة للجهاد هي :

— يعتقد المسلم بإسلامه عقداً مع الله بأنه باع نفسه له للجهاد في سبيله بالمال والنفس ، واشترى الله منه ذلك بالجنة ، فيجب إذن على المسلم أن يوفّي بما عاهد الله عليه ، وأن ينفر إلى الجهاد كلما دُعي إليه ، وأن يؤمن بأن الله مُوفٍ له بوعده الحق .

— يؤمن المسلم بأن الله قد كتب على نفسه نصرة المؤمنين ، وأنه تعالى ناصر من ينصره حقاً وصدقاً .

— يعتقد المسلم أنه رابح بجهاده ، فإن بقي حياً يكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتل يكون له حسنى الشهادة ، وإن كُتِبَ للمسلمين النصر فذلك عزة لهم ، وإن كُتِبَ عليهم الهزيمة فهي اختصار سماوى يثاب الصابرون عليه .

— إيمان المسلم وصدقه موضع اختبار ، فإن الله قد يبتلي به بالخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس في سبيل الله ، وعليه أن يقابل ذلك بالصبر ، فلا يضعف في طلب العدو ، ولا يهين في جهاده ، وأن يعرف أن ما يلقاه في جهاده من صغيرة أو كبيرة قد كتبها الله له وأثابه عليها بأحسن الثواب .

— شهداء الجهاد أحياء عند ربهم يرزقون ويكرمون ويتمتعون بكل أسباب النعيم ، أجل المرء لا يتقدم لحظة ولا يتأخر عما هو مقرر في علم الله ، ويجب أن يعرف المسلم أنه حينما يدركه أجله يموت ، وأن الجهاد لا يقدم من أجله ، وتجنبه لا يؤخر منه .

— يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله بالمال والنفس أحب إلى المسلم من كل شيء ، حتى أبيه وأخيه وزوجه وعشيرته وماله وتجارته .

— معظم أجر من يسرع إلى تلبية الجهاد بالمال والنفس في وقت الشدة والضيق .

— الفرار من العدو لغير غاية حربية جريمة لا تغتفر .

— الاستماتة في سبيل الله والخشية من الله ، واجب إلزامي على كل مجاهد .

— الإهمال في الجهاد والتخلف عنه والتقصير فيه وعرقلة ابتغاء الفتنة وإذاعة الوسائس والفسائس والإشاعات جرمية تستحق غضب الله وعقوبته .

وقرر الإسلام بجانب هذه المبادئ آداباً كثيرة للجهاد يلتزم بها

المجاهدون ويعملون في حدودها مثل :

• • المبايعة على السمع والطاعة ، والمبايعة تعنى مبايعة على الإيمان

يا الله ورسوله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله ،

وإن بيعت العقبة الأولى والثانية تؤكدان هذا المعنى ، وإن الله تبارك وتعالى قد رضى عن المؤمنين الذين بايعوا ، وقد علم ما فى نفوسهم وقلوبهم من إذعان للرسول وولاء لدعوته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (الفتح ١٠) .

● ● الوفاء بالوعد والصدق فى العهد ، ذلك أن المؤمنين قوم سادوا
من النفاق وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فهم على حالة واحدة من أمر ربهم ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب ٢٣) .

● ● الثبات عند اللقاء وذكر الله عند الفزع ، فالثبات للعدو والتصميم
على لقائه فى عزم وإصرار هو السلاح الفعال فى المعركة ، فلا بد إذن للمقاتل وهو يواجه الموت فى الميدان ، أن يشد عزمه بالإيمان وبالصبر على الشدائد والثبات فى وجه الموت وعدم الإصغاء إلى دعوات الشيطان بالحرص على الحياة وطلب السلامة وحب البقاء ، كما أن ذكر الله يبعث فى قلب المقاتل القوة والشجاعة ، ويجعله يستخف بالموت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال ٤٥) .

● ● طرد الخوف والأوهام والحزن ومعايشة المعركة بكل المشاعر
والعاطفة والوجدان ، فبلاء المجاهدين المؤمنين هو الذى يكشف عن إيمانهم ، فإذا تعرضوا الموقف حرج ، فعليهم أن يواجهوا هذا الموقف بقوة الإيمان .

مطمئنين إلى أن الله قد حكم بأن يكونوا إذا ثبتوا على إيمانهم في المنزلة العليا في الحياة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩) .

• • الجراءة والشجاعة عند اللقاء ، فعلى المؤمنين إذا ما التقوا بالكافرين أن يوطنوا أنفسهم على أن تكون الغلبة لهم ، فإن انتصارهم لانتصار الحق ، وهزيمة تمكين للباطل وتسليط للبغى والعدوان على مواقع الخير والحق ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (محمد ٤) .

• • الصبر حين البأس والمصابرة عند المجادلة والتميق وتقوى الله ، فهذا كله هو زاد المسلمين وعقادهم في مسيرتهم إلى الله ، يمكن لهم من أن يضعوا أقدامهم على الطريق الصحيح الذى يقود إلى الظفر ويحقق الغاية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (آل عمران ٢٠٠) .

• • مطاردة العدو ومتابعته حتى يتم النصر ، فلا بد من طلب العدو دون ملل أو اكتفاء بنصر وقتى لا يقصم ظهره ولا يقضى عليه ، بل لا بد من تعزيز النصر بمطاردته حتى تتم هزيمته ، ويبقى نصر المسلمين واقعا وحقيقة ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ (النساء ١٠١) .

• • عدم التسليم ، فلا وهن ولا ضعف ولا فتور ولا تخاذل ولا مطالبة بالسلم ، حتى لا يحمل الأعداء هذا الطلب على أنه ضعف وشعور بالهزيمة والاستسلام ، فيغري ذلك العدو فيشتد في وطأته ﴿فَلَا تَهِنُوا

وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ (محمد ٣٥) .

• • عدم الفرار من المعركة ، بل لابد من الثبات للعدو ولقائه لقاء جادا دون أن يتواجد شعور بالفرار أيا كان الموقف وأيا كانت قوة العدو ، فالذي يفر وقت المعركة وينسكص على عقبه ويعطى العدو دبره بغضب عليه الله لأنه خرج عن أوامره وتعاليمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ مُنْجَرِّمًا لِقِتَالٍ أَوْ مُعَصِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَتَدْبَأْ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال ١٥ / ١٦) وقال تعالى ﴿قُلْ لَنْ يَغْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ (الأحزاب ١٦) ، وهذا يعنى أنه من الخطأ أن يتصور الإنسان أن فراره من ميدان القتال يحفظ عليه حياته ويرد عنه غائلة الموت ، فهذا التصور فيه خداع للنفس ، وفيه حب للحياة . أنسى الناس أن الموت أمر مقدر مكتوب ، وأنه آت لا ريبه فيه طال العمر أم قصر ﴿قُلْ إِنْ الْعَمَلُ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (الجمعة ٨) .

• • عدم الاختلاف ، والاختلاف في مراحل القتال أمر قاتل يذهب بالجيش وبالمقاتلين ، وشئون المعارك بالذات لا تحتل احتملا في الرأي ويجب أن تكون الأوامر من جهة واحدة هي التي تشرف وتقود وتحرك وتصدر القرار المتعلق بشئون المعركة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال ٤٦) .

• • عدم الخوف من العدو ، لأن الله أقوى وأعز ، ويجب عدم
الاستماع إلى ما يشيعه العدو عن نفسه وعن قوته وعن إمكانية قضائه على
المسلمين ، لأن العدو قوم سيطر عليهم الشيطان ، فجعلهم أولياء له وأعوانا ،
ويجب الإطمئنان إلى أن هؤلاء لا قدرة لهم على قتال المسلمين الذين يشقون في
أن النصر من عند الله ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
(آل عمران ١٧٥) .

• • عدم التشاؤم من هزيمة تلتحق بهم ، فإن بلاء المؤمنين هو الذي
يكشف عن إيمانهم ، ويعطى الدليل على صدقه ، ويؤكد أنهم أدوا حق هذا
الإيمان بلاء وجهاداً ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾
(آل عمران ١٤٠) .

• • الترفع عن الطمع في الغنائم ، فالقتال في سبيل الله يجب أن يكون
لله وحده ، ولا يكون القصد منه الحصول على منافع شخصية أو غنائم ، فإن
ذلك يبعد بالغاية ويشوه المقصد ويفسد النية ، ولقد كان الطمع عاملاً مباشراً
لما تعرض له المسلمون في أحد بعد أن كان النصر في ركبهم ، فقد غادر
الرماة - الذين وضعهم رسول الله على جبل أحد لحماية ظهور المسلمين وأمرهم
بعدم مغادرة موقعهم في حالتي النصر أو الهزيمة - أما كنهم ، حين رأوا نصر
المسلمين واضطراب أحوال الكفار وفرارهم تاركين غنائم كثيرة ، ولعبت
الرغبة في الغنائم دورها ، فأهاجت مشاعرهم وأنستهم أوامر رسول الله ،
﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران ١٦١) .

• • الإيمان بأن الجهاد هو السبيل إلى الجنة ، ﴿ إِنِ اللَّهُ اشْتَرَى مِنْ

الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ تُهْلِكَ الْجَنَّةُ ﴿١١١﴾ (التوبة ١١١) .

● ● الاطمئنان النفسى والاقتناع بأن الله مع المؤمنين فى جهادهم

لا يتخلى عنهم ، فهو تعالى الذى مكَّن لهم من عدوهم ، ويد الله هى التى ضربت العدو ، وإن الله قد أجرى على أيدى المسلمين النصر ، نفوق أيديهم كانت يد الله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال ١٧) .

فى حدود هذه المبادئ والآداب جاهد المسلمون ، وأدوا بجهادهم إلى إرساء قواعد الإسلام وتأكيده الدين ، وبذلوا فى سبيل ذلك كل ما يملكون ، فمكان كل شيء رخيصاً . . المال والنفس والولد والتجارة والدار ، وكافوا لا يبيعون بشيء حتى بالنفس وهى أتمن ما يملك الإنسان ، ولا شك فى أن بذل الحياة هو غاية البذل ، وأن الجود بالنفس هو أقصى غاية الجود .

إلا أن هناك فئة من المسلمين تقاعدت عن الجهاد ، ولم تشارك فى إقامة صرح الدولة الإسلامية ، بل حاولت أن تفت فى عضد المجاهدين وأن تززع إيمانهم وأن تحول بينهم وبين الجهاد .. هذه الفئة لم تكن لديها القدرة على مواجهة العدو ، فجنبت وخافت وودت لو عادت أدراجها وتركت الإسلام ، ذلك أن الإسلام لم يكن قد تمكن منهم ، فكانوا ضعاف الدين لم يكتمل إسلامهم .

وكشف الله أمر هذه الفئة فى مواضع كثيرة فى القرآن ، وأبان حقيقة قسهم وعزائمهم ، وبصر رسوله والمؤمنين بهم وبمكرهم ، وأنزل فيهم آيات احتوت تقريباً شديداً متنوع الأساليب ، وأحاطهم بشعور الحقارة والزراية والمقت ، وأوضح كيف أن نفسياتهم خبيثة وقلوبهم مريضة .

لقد كان لأصحاب هذه الفئة في بدء أمرها كلمة نافذة ومكانة بارزة ، وكانت سهام مكرهم تزيد من حرج المواقف التي يواجهها الرسول والمؤمنون المجاهدون شدة وخطورة ، ولكن بعد أن كشف الله أمرهم وأنزل فيهم آياته وقال كلمته وأصدر حكمه ، ضعف أمرهم وهان شأنهم وضؤل مركزهم وانكشفت ألعابهم ، فنبتذهم المؤمنون ، وألقوا بدعواهم خلف ظهورهم ، ولم يستمعوا لهم ، بل تهافتوا على الجهاد وسارعوا إلى الخروج ، وذهبت محاولة الآخرين مع الرياح .

وانقسم أصحاب هذه الفئة إلى :

(١) القاعدون

الذين آمنوا كما آمن الناس وأسلموا كما أسلم الناس ، ولكنهم لم يفقهوا في الإسلام ، ولم يعرفوا معنى الإيمان ومفهومه ، ولم يدركوا قيمة الوعد الذي وعد الله به المجاهدين من المسلمين ... ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ﴾ (النساء ٧٧) ، ولقد فضل الله المجاهدين وجعلهم أعلى درجة من القاعدين ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ٩٥) ، ذلك أنه حين كتب القتال على المسلمين استقبله المؤمنون بصدور منشرحة ونفوس راضية ، وعدوه نعمة من نعم الله ، وفضلا من فضاله ، أما الآخرون الذين في قلوبهم ضعف أو مرض ، فقد أفزعهم الأمر ، وخشوا أن يفقدوا حياتهم تمسكا منهم بالحياة وحرصاً منهم عليها وحبا منهم للدنيا ، وتهربوا من أداء مهمتهم والقيام بمسئوليتهم .

(٢) المتثاقلون

الذين يثاقلون عن القتال (العثاقل يعنى العباطؤ والتحرك فى ثقل ،
 فشأن كل ثقیل أن يكون بطيء الحركة ، وهو يشير إلى التصنع والإدعاء) ،
 مع إيمانهم بأهميته انطلاقاً من ركونهم إلى الدنيا وتفضيلها لما بها من شهوات
 ولذات زائلة وراحة مع الذل والخنوع ، وانطلاقاً أيضاً من حبهم للحياة
 والتعلق بما للإنسان فيها من هوى إلى المال والأهل والولد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افْقَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِمَّا قَلْتُمْ إِلَى
 الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (العوبة ٣٨) .

(٣) المتباطئون

الذين لم يرقوا إلى الإيمان بالجماعة والدخول فى الطاعة لله ولرسوله ،
 ولا يتسابقون إلى الخير العام ، ويغلب الطمع والأثرة على نفوسهم فيما يقع فى
 أيدى المجاهدين من غنائم . ليس عندهم إثبات أو تضحية ، يتظاهرون
 بالإيمان ولكن يغلب الحرص على أنفسهم ، فإذا جاء النفي إلى الجهاد يتعللون
 بالعمل ويبطئون ويتخلفون ، فإذا أصابت المسلمين هزيمة فرحوا ، لأنهم لم
 يكونوا معهم فيصابون وحمدوا لأنفسهم السلامة والنجاة ، وإذا أصاب
 المسلمين فضل امتلأت نفوسهم حسرة وأسى وندما لأنهم لم يكونوا معهم
 فيأخذون نصيبهم من الفضل ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لُّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ
 مُصِيبَةٌ قَدْ أَتَعَسَ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ

أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ (النساء ٧٣/٧٣) .

(٤) المترفون الأغنياء

الذين شغلهم أموالهم وأولادهم وأنفسهم عن ربهم ، وتملقوا بالحياة
الدنيا ، وتناسوا الخير الذي وعد الله به عباده المخلصين ، ورضوا بالتخلف
عن الواجب ولا عذر لهم لأنهم قادرون ، فهم ليسوا من هؤلاء الذين رفع
الله عنهم الحرج ، وانصرفت نفوسهم عن الخير ، فإذا دعوا إلى الجهاد استأذنوا
في التخلف ، واعتذروا باعتذارات باطلة ، راضين لأنفسهم أن يكون شأنهم
شأن أرباب الضعف من النساء والصبية والعجزة ، وقد أعى الله بصيرتهم
وختم على قلوبهم ، فغفلوا عن سوء عاقبتهم وآثروا السلامة والعافية ، وضنوا
بالمال والجهاد ، ولفقوا لذلك الأعذار ، ونسجوا الأكاذيب ، ولكن الله
كذب أعذارهم ونضح أكاذيبهم ، ودعا الرسول والمؤمنين أن يعرضوا عنهم
اشعرازا ونفورا ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ
أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا
لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ . سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعُرْضُوا عَنْهُمْ
فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٣﴾
(التوبة ٩٣/٩٥) .

(٥) المتربصون

الذين أظهروا إسلامهم إلا أنهم نكصوا عن الجهاد ولجأوا إلى وسائل وحيل ليتخلصوا من تبعاتهم وليتخلوا عن دورهم في الجهاد ، وكانوا يقدمون أعذاراً يمامون مدى بطلانها حتى لا يشاركوا في الجهاد ... كانوا يتربصون بالمؤمنين وهم على طرين الجهاد ، فإذا عادوا منتصرين اغتموا وحزنوا ، ولما وقع بهم سوء فرحوا لما أصابهم ولأنهم لم يكونوا معهم . فبينما هم شيء من البلاء وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . وَإِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَفَخَنُّ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَذِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿ التوبة ٥٩/٥٢ ﴾ .

(٦) الظانون بالله غير الحق

وهؤلاء خافوا على أنفسهم وأساءوا الظن بربهم ، فلم يصدقوا أن الله ناصر نبيه وأخذ بيده ، وكذبوا ما وعدهم الله به ، وقالوا لو أن الأمر في أيديهم ما تركوا أنفسهم يُقتلون ، وما خرجوا ليلاقوا مصارعهم ، وكان الله قد جعل خروجهم إختباراً لما في أنفسهم من الشك ، وإظهاراً لحقيقة أنهم أمام المؤمنين ، ليتبينوا ما في قلوبهم من عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهؤلاء لم يكن لهم نصيب من الأمن الذي سكبته الله في قلوب المؤمنين ، فلم يكن همهم

الإسلام بل السلامة لأنفسهم ، ولهذا تجنبوا المعركة ووقفوا يرقبونها من بعيد ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران ١٥٤) .

(٧) المتخلفون

وهؤلاء قوم طلبوا من الرسول أن يسمح لهم فيقعدوا ولا يخرجوا ، فأذن لهم ، لأنه يعلم أنه لا فائدة ترجى من خروجهم ، وقد أسعدهم عدم الخروج ، فالكفر والنفاق راسخان في قلوبهم ، فلم يبذلوا أموالهم ، وكرهوا الجهاد ضناً بها وبه ، وعمدوا إلى تثبيط همم الخارجين ، فانتهزوا فرصة دعوة الرسول إلى الخروج لغزو الروم في الصيف وفي شدة الحر ، فانتشروا يقولون « لا تخرجوا في الحر فتمعرضوا للجهد والعطش وتلقوا بأنفسكم في الهلاك » ، وتناسوا أن نار جهنم أشد من حر الصيف وحر الصحراء وأقسى ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة ٨١) .

(٨) المرتابون

الذين لا ثقة لهم في أنفسهم ولا في غيرهم ، لا يريدون عملاً ولا يعدون
 عدة ، ويبدلون الجهد لإشاعة الفتنة والفرقة تغطية لموقفهم وحقداً على غيرهم ،
 وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر رغم زعمهم أنهم مؤمنون ، وهم لا يشعرون
 في قرارة نفوسهم ببيع يباعث يحفزهم على الجهاد فيسكروهونه ، ويبدون المعاذير
 لتركة ، لأن قلوبهم لم يستقر فيها الإيمان ، فيأتون رسول الله بأعذار كاذبة
 مستأذنين في التخلف ، أما المؤمنون فهم لا يطلبون إذناً للتخلف ولا يحجزون
 أنفسهم عن أخذ حظهم من الجهاد ، فإذا دعا الداعي للجهاد كانوا مستجيبيين
 إليه حتى لو كانت لديهم أعذار تمنعهم ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا
 الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاءَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
 لَهُمْ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَلَأَوْضَعُوا
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .
 لَقَدْ ابْتِغُوا النِّتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ
 أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة ٤٥/٤٧) .

(٩) المعوقون

وهم فئة من أهل النفاق اشتركوا في الحرب اشتراكاً محدداً حتى يراهم
 المؤمنون ، ثم ينصرفون ، فهم يشهدون الحرب بنفوس مريضة ، ويضنون
 بأي جهد يبذل لكسب المعركة ، وهم حريصون على طلب الخير لأنفسهم ،
 وهم فوق ذلك يحرضون الخارجين ويزبنون لهم التعمود أو العودة دون المشاركة

في القتال . . . وهم إذا زال الخطر عنهم يسهون المسلمين ويذمونهم
ويبسطون ألسنتهم بالسوء ، ولكنهم عند توزيع الغنائم يظهرون ويتظاهرون
بالإيمان رياءً وخداهاً وطمعاً في الحصول على نصيب منها ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ
إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ تَدُورَ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَفُوا كَمَا بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب ١٨/١٩) .

(١٠) المرجفون

وهم أخطر فئة فقد حذر الله رسوله منهم ، فهم عين العدو ، ولسانه بين
المسلمين ، ينشرون الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة والوقائع الباطلة
والأراجيف المصطنعة ليشغلوا الناس بها ، ويفسدون عليهم حياتهم ، ويؤدنون
أعمالهم في الخفاء ، يظهرون غير ما يبطنون ، يكيدون للمسلمين في السر ،
ويعملون على إضعاف معنوياتهم ، ومن هؤلاء تهب ريح خبيثة على المجتمع
الإسلامي الذي أقامه رسول الله في المدينة ، وكان لابد لهذا الريح من أن
يعزل حتى لا يكون له أثر ، وأن يحرم من البقاء في المدينة كل من كان له
قلب فاجر أو لسان بذيء ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴾ . (الأحزاب ٦٠) .

(١١) المنافقون

قوم في قلوبهم ضعف إيمان وضعف عقيدة ، كانوا يشكّون في أن الله سينصر المجاهدين ، وكأنهم ظنوا بالله ظن السوء ، ولهذا تحدّثوا إلى أهل يثرب بأن إنضمامهم إلى محمد يمثل خطورة عليهم ، فإنهم سيكونون في متناول أيدي قریش يقتلون منهم من شاءوا ، وطالبوهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه والتخلّي عن محمد ، وأوضحوا لهم أنهم إذا استمعوا إليهم سيحقّقون الخير والسلام لهم « يا أهل يثرب ، لا مقام لكم فارجعوا إلى دياركم وأهليكم حيث الأمن والسلامة فإنكم مخدوعون » ، وهذه دعوة صريحة إلى الردّة ، والاستجابة إليها نقض لعهد أهل يثرب مع الرسول حين دخلوا في الإسلام ، فقد عاهدوه وقتها على الطاعة والجهاد وألا يولوا الأذبار ... هؤلاء القوم طلبوا من رسول الله أن يسمح لهم بعدم القتال والعودة إلى بيوتهم لأنها غير حصينة ومعرضة للسرقة إن هم غابوا عنها ... هؤلاء دون شك ضعاف الإيمان قليلوا الثقة في الله لم يستقر الإسلام في عقولهم وقلوبهم ووجدانهم ، فلو دعوا إلى الردة أجابوا وعادوا وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجموا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأذبار وكان عهد الله مستؤلا . قل لن يفعلكم الفرار إن فرزتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا (الأحزاب ١٢/١٦) .

من هذه القثات تقدم هاتين الصورتين

الصورة الأولى . . . عبد الله بن أبي بن سلول

كان سيد أهل المدينة ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه عليهم ، ولكن ما أن وصل رسول الله إلى المدينة حتى انصرف الناس عن عهد الله ، فأكله ذلك ، ورأى أن الرسول قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً مصرعاً على النفاق ، قال سعد ابن عباد لرسول الله « يا رسول الله أرفق به (يقصد عبد الله) ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لتتوجوه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا » ، وأصبح عهد الله معروفاً بين المسلمين والعرب أجمعين بأنه رأس المنافقين .

حين قرر رسول الله قتل يهود بني قينقاع ، توسط لهم عبد الله عنسد الرسول ، قائلاً « يا محمد أحسن من موالى » ، فأبطأ الرسول عليه ، فكرر الطلب ، فأعرض الرسول عنه ، فأدخل يده في جيب درع الرسول ، فقال له الرسول في غضب « أرسلنى » ، ثم قال غاضباً حتى رأوا لوجهه ظملاً « ويحك أرسلنى » ، فقال عبد الله « لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربع مائة حاصر ومثلث مائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة إلمنى والله امرؤ أخشى الدوائر » ، وتدخل عبادة بن الصامت ، ووافق الرسول على أن يخرجوا من المدينة ، وأراد عبد الله الاعتراض على قرار الرسول فشججه أحد المسلمين ، فقال له بنو قينقاع « والله لا نقيم ببلد تشج فيه يا ابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعاً »

وفي غزوة أحد رأى رسول الله أن يقحصن المسلمين بالمدينة ، ورأى
عبد الله رأى النبي وقال « لقد كفنا يارسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء
والأطفال في هذه العصاى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشيك المدينة بالهنيان
فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمتهم النسوة والأطفال
بالحجارة ، وقتلناه بأسيا فإنا في السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء
حافضة علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو
قط إلا أصاب منا ، فدعهم يارسول الله وأطعن في الأمر ، فإنما ورثت هذا
الرأى عن أكابر قومي وأهل الرأى منهم » ، ولكن تغلب الرأى الآخر
القائل بالخروج ، وتحرك الجيش إلى أحد ، وشاهد رسول الله كتيبة فسأل
عنها ف قيل « هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود » فأمر الرسول بإعادتها قائلا
« لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلما » ، وغضب لذلك
ابن أبي فقال له يهود « لقد نصحتته وأشرت عليه برأى من مضى فكان رأيه
من رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه » ، وصادف حديثهم
هوى من نفسه ، فانخذل مع الكتيبة وعاد .

وعندما أئذ الرسول بنى النضير وطلب منهم مغادرة المدينة والخروج منها ،
استشاروا عبد الله بن أبي فقال لهم « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا
في حصونكم ، فإن معى ألقين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم
حصنكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وبذلك وقف ضد
رسول الله مع قوم يختلفون عنه ديناً ، ولكنهم يتفقون معه في كره الإسلام
ورسول الإسلام ، ونزل بنو النضير على رأيه ، فهاجمهم الرسول ، ولم يسرع

عبد الله إلى معاوتهم كما عاهدكم ، ونزل فيه قول الحق تبارك وتعالى
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ فَاَقَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الحشر ١١) ،
والله تعالى في هذه الآيات كشف موقف عبد الله وجماعته ، فهو قد عاهد
القوم على الخروج معهم إذا أخرجوا ولم يفعل ، وعاهدكم على أن يقاوم معهم
إذا قوتلوا ولم يقاوم ، فوعوده كلها كذب .

وخرج عبد الله وقومه من المنافقين مع الخارجين إلى غزوة بني المصطلق
ابتغاء الغنيمة ، وكانت في نفسه حفيظة على الرسول والمهاجرين ، فقال لرهط
من قومه من الخارجين من المنافقين وكان عندهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث
السن « والله ما رأيت كاليوم ذلة ، أوقد فعلوها ؟ ، نأفرونا وكأثرونا في بلدنا ،
والله ما أعدنا وجلايب قريش هؤلاء إلا كما قال الأول : سمن كلبك يا كلك ...
أما والله اثنى رجعتنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، ثم أقبل على من
حضر من قومه وقال « هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم
أموالكم ، أما والله لو أمسكنهم ما بأيديكم لتجولوا إلى غير داركم ، ثم
لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للنساي فتقلتم دونه ، فأيتتم
أولادكم ، وقلائم وكثروا ، فلا تبقوا عليهم حتى ينفقوا من عند محمد » ،
ومشى زيد بالحديث إلى رسول الله (قيل في بعض الروايات أن ناقل الحديث
هو سفيان بن تيم) ، وجاء عمر إلى رسول الله وقال « يا رسول الله ائذن لي الله
أن أضرب عنق ابن أبي ، أو مِرْ محمد بن مسلمة بقتله » ، فقال له الرسول

« كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه » ، وقال أسيد بن حضير لرسول الله « أنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . . يارسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم إلا خزيمة واحدة عند يوشع اليهودي ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكاً » ، وسأله رسول الله « أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى عنك » ، فقال « والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك ، وإن زيدا لكاذب » ، وقال بعض القوم « يارسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل » ، وقال رجال من قومه « يارسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام » ، وبعد فترة نزل قول الله تبسارك وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ كَثِيرٌ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَقَرُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون ٨) .

وشاع أن رسول الله سيأمر بقتل عهد الله ، وكان له ابن حسن إسلامه كان اسمه الحباب وسماه رسول الله عبداً لله . . جاء إلى رسول الله وقال « يارسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عهد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً ففرنى أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ، إني أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار » ، وفى رواية أخرى « فرنى ، فوالله لأحملن إنيك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإني لأخشى يارسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبي يمشى فى الناس فأقتله ، فأدخل

النار ، فعمفوك أفضل وممّتك أعظم » ، فقال له رسول الله « ما أردت قتله ،
ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » .

عندما أمر الرسول بئذب الناس للخروج إلى تبوك كان عبد الله أ كثر
الناس مقاومة للئذب ، وكان يقول للناس « يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر
معه اللعب ، والله لسكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الجبال » ، ومع هذه
المعارضة المبدئية فقد جهز جمعا من قومه للخروج ، فلما بلغ الجيش الإسلامى
ثنية الوداع ، تخلف عبد الله ومن معه وعاد إلى المدينة وهو يقول « يغزو
محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد » .

الصورة الثانية . . . منافقو غزوة تبوك

عندما قرر رسول الله أن يسير إلى تبوك أرسل إلى القبائل بدءوها
للإستعداد والتهيؤ .. وانقسم الناس إزاء هذه الدعوة إلى فريقين :

● — أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى وفورا ، ونفوس
غمرها ضياء الإيمان ، وهؤلاء لبّوا دعوة الرسول خفافا مسرعين ، منهم
الفقير الذى لا يجد دابة يحمل نفسه عليها ، والغنى الذى يقدم ماله فى سبيل
الله راضية نفسه .

● — أولئك الذين دخلوا فى الإسلام رغبة فى مغائم الحرب ورهبة من
قوة المسلمين ، وهؤلاء قوم ضعاف الإيمان والعقيدة والعزيمة ، لم تكن لديهم
قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ، وكان بهم خوف وجزع ، فعمدت بهم

همتهم ، فتمثالوا وأخذوا يلتمسون الأعذار حتى لا يخرجوا ، فقالوا حر شديد ، وقالوا مشوار طويل مجهد ، وأذن لهم رسول الله ففرحوا بذلك ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . (التوبة ٨١/٨٢) .

وكان من المعتذرين الجدة بن قيس قال له رسول الله « يا جدّ ، هل لك في جلاد بنى الأصفر » ، فاعتذر عن الخروج لسبب تافه لا يرقى إلى مستوى مسئوليته كرجل مؤمن يعرف حق الله عليه ، قال « يا رسول الله ، أو تأذن لي في التخلف ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل أشدّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر » ، فأعرض عنه رسول الله وقال « قد أذنت لك » ، أذن له لأنه لا جدوى في رجل لا إرادة له ، هو عهد هواه ، لا يستطيع جهاد نفسه عن الإثم ، ولقد غضب ابنه عبد الله وقال له « والله ما يمنعك إلا النفاق ، وسينزل الله فيك قرآنا » ، فأخذ نعله وضرب بهوجه ابنه ، فلما نزلت الآية « ... ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لم تحيطه بالكافرين » ، (التوبة ٤٨) قال له ابنه « ألم أقل لك » ، قال له « اسكت يا لكع ، فوالله لأنت أشد على من محمد » .

وفي بيت سويلم اليهودي اجتمع نفر من المنافقين وأخذوا يرددون عبارات التخذيل قائلين « أتخسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم

بعضاً » ، وأمر رسول الله ﷺ بن ياسر « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلتم » ، وأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون ، ونزل فيهم قول الحق ﷻ « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ » ، وأمر الرسول طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه أن يحرق البيت ، ففعل .

وتسلل بعض منهم إلى الجيش على فرصة تواتتهم يتخلصون فيها من رسول الله ، وكانوا قد عزموا على الخيانة عندما يقوم القتال ، فينفثون خلاله سموم التردد والهزيمة ، فلما لم يقع قتال ، قرروا أن يطرحوا رسول الله من عقبة عالية في الطريق ، ولكن الله تعالى أعلم رسوله بما بيته هؤلاء ، فاحتاط عليه السلام للأمر ، وجمع المتأمرين وأخبرهم فحلفوا بالله كذباً .

ومنهم من تعاون على إنشاء مسجد ضرار ، وطلبوا من رسول الله أن يصلى فيه « يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى فيه » ، فقال لهم « إني على جناح سفر ، وحال شغل (وقت التجهيز لتبوك) ، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه » وكانوا قد أقاموا هذا المسجد بناء على اقتراح لأبي عامر الراهب ليكون معقلاً يقدم عليهم فيه ، وعصم الله رسوله من الصلاة فيه ، فقد أخبر بخبر المسجد ، فدعا الرسول مالك بن الدخشم ومعد بن عدى وأمرها « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقا » ، ونزل قول الله تعالى « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَّارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » (التوبة ١٠٧) .

وحدث خلال التحرك أن ضلّت ناقة رسول الله فقال رجل من المنافقين « إن محمداً يزعم أنه نبي وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقةه » فقال رسول الله « إن رجلاً يقول كذا وكذا ، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلى عليها ، إنها في شعب كذا ، وقد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونني بها » ، فذهبوا ووجدوها كما قال عليه السلام ، فجاءوا بها .

كان الجيش الإسلامى يتكون كما تتكون الجيوش من قادة وجند .
وكان هؤلاء جميعاً يتفقون فى صفات عامة تؤهلهم لخوض غمار المعارك
ومواجهة ظروفها .

١ — فلم يكن يخرج للقتال إلا من آمن بالله وبرسوله إيماناً بلغ حد
الرغبة الجادة الكريمة فى الإستشهاد ، فهو قد عقد بينه وبين ربه عقداً باع به
نفسه ووهبها للجهاد فى سبيله ... من خلال هذا العقد وانطلاقاً من مضمونه
خرج المسلمون إلى الغزوات والحروب موقنين أن الله معهم يشد من أزرهم
ويعينهم على عدوهم ويشجذهمهم ويثبت أقدامهم ويعطيهم النصر ، وكمن
مواقف كثيرة تعرضوا لها وأحسوا وهم يعانون أحداث المعارك الرهيبة أن
قوة الله تؤازرهم وتخفف عنهم وتهون عليهم .

فى بدر كان واضحاً أن العدو يملك التفوق العددي ، وخشى المسلمون
أن يخسروا لقاءهم الأول ضد قوى الشر ، فاتجبه الرسول بكل جوارحه
وأحاسيسه إلى ربه ، وجعل يناشده ما وعد به المجاهدين من عباده وظل يردد
« اللهم هذه قريش قد أنت بخيلائها تحاول أن تكذب رسو لك ، اللهم فنصرك
الذى وعدتنى » ، وما زال يدعو حتى سقط رداؤه ، وأبوسكر يردد الرداء إلى
موضعه ويقول « يانبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك

ما وعدك» ، وخفق الرسول خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله ، فقال لأبي بكر « أبشر أبا بكر ، أنك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فوسه يقوده على ثنايا النقع » ، ثم خرج عليه السلام إلى الناس وقال « والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ولـكن أى رجال خاطبهم رسول الله ، إنهم المهاجرون الذين قال عن لسانهم المقداد بن عمرو « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك » ، والأنصار الذين قال عن لسانهم سعد بن معاذ « امض يا رسول الله فنحن معك » . . . إنهم جند الله وجند الإسلام المؤمنون بالله حق الإيمان ، والذين أدركوا أن قيمة حياتهم في جهادهم من أجل الله والدين ، وأن أكبر ثواب لهم هو الجنة ثمناً لبذل أرواحهم فداء لرسالة الله وعطاء الله .

وفي غزوة الأحزاب اجتمع حول المدينة جيش كثيف العدد التقت فيه قوات قويز بقوات حلفائها من القبائل العربية المختلفة ومن يهود الذين قال عنهم حيي بن أخطب « تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فقتلوا منهم إلى محمد وأصحابه » ، وكان هدف هذا التحالف هو القضاء على محمد وصحبه في المدينة ، ولم يكن بالمدينة من يستطيع أن يواجه هذا الجمع الذي بلغ عشرة آلاف ، وجاءت فكرة الدفاع عن المدينة على لسان سلمان الفارسي الذي شرفه الرسول بقوله « سلمان منا أهل البيت » ، فقد أشار بحفر الخندق وتحصين المنازل وإخلاء المساكن « يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا » ، وفوجئت قريش بهذا النوع الجديد من الدفاع واسكنها لم تفقد الأمل في الوصول إلى المدينة ، واتجه الرسول بقلبه ووجدانه إلى ربه « يا مجيب المضطرين ، اكشف همي وغمي وكربي ، فإنك ترى ما نزل

بى وبأصحابى » ، وأتاه جبريل بالبشرى ، وكان الوقت شتاء ، فاشقد البرد وهبت العواصف وصفرت الريح وانكفأت القدور وطرحت الأبنية واقتلعت الخيام وأطفئت الديران وأظلمت الدنيا ، ولم يحتمل الرجال قسوة الريح ، وامتلأت العيون بذررات الرمال ، وفقد القرشيون وحلفاؤهم القدرة على الرؤية . . قال حذافة بن اليمان « ما أنت علينا قط ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تطن من رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من ققامها السائد » ، وساءت حالة قريش ، وأدركوا أنه لا حيلة لهم ولا مخرج ، وقال لهم أبو سفيان قائد الجيش : يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك السكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل » ، ووثب على جملة وحلّ عقاله وهم بالرحيل ، فتمعجب عكرمة بن أبي جهل لمسلكه فقال له « إنك رأس القوم وقائدهم وتترك الناس » ، فأتبعه أبو سفيان إلى الناس ودعاهم إلى الرحيل « ارحلوا » ، ورحلت قريش وبقي المسلمون فى مدينتهم لم يمسه سوء آمين مطمئنين ، وقد تأكدوا أن العقد الذى باعوا به أنفسهم لله مازال قائماً وأن وعد الله حق وأن الله منجز وعده .

إن لكل قتال جانبين مادية ومعنوية ، والمادى هو القوة بكل مقوماتها ومكوناتها ، أما المعنوى فهو يشمل الإيمان والروح المعنوية ، ولقد نجح المسلمون لأن الإيمان كان يسيطر على أفعالهم وعقولهم ووجدانهم ، وكانت صلتهم بالله وثيقة متصلة لم تنقطع أبداً ، فكانوا خلال المعارك يتجهون بكل قلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم إلى الله ، ويعيشون معه كل

لحظات حياتهم ، وكل يعرف أنه مقدم على عمل يرضى عنه الله ، وبالتالي فهو مقتنع به راضٍ عنه يملؤه الأمل في النصر والثقة في الله ، ولقد قدم قادة الإسلام بداية برسول الله ومفد صدر الإذن بالقتال ، أروع المثل في ميادين القتال انطلاقاً من إيمانهم بالله ، وكانوا جميعاً على مستوى الأداء العظيم والبذل والعطاء ، ولعل استشهاد قادة مؤتة يؤكد ذلك .

وظلت الصلة الإيمانية موصولة بين القيادات الإسلامية والله بعد وفاة الرسول ، وكانت هذه الصلة هي جسر الزاوية في كل عمل عسكري ، واخط الرئيسى لسياسة القادة والخلفاء ، فأبو بكر الصديق حين وجه جيوشه لمحاربة المرتدين ، بعث بتوجيهات منه إلى قادة الجيوش قال في مقدمتها « هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لفلان) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليهم أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وعلايته » .

وهو يذكر الله دائماً ويذكر به رجاله ، طمعا في توثيق العلاقة واستمرارها ، وكان لا يترك فرصة أو يدع مناسبة إلا وجه فيها قاداته إلى الله ، فمثلاً عندما بلغه انتصار خالد على طليحة كتب إليه يقول « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتق الله في أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ، جُدَّ في أمر الله ولا تَفِين » .

وفي قتال ردة البحرين ، كان المسلمون يفتحون البحر رجالاً وركباناً في أول مغامرة إسلامية مع البحر ، وتابعهم قائدهم العلاء بن الحضرمي وهو يفاشد ربه ويخاطبه « يا أرحم الراحمين ، يا أحد ، يا حي ، يا قيوم ، يا محيي

الموتى ، لا إله إلا أنت يا ربنا » ، ومع هذه التوسلات ومع إيمان الجندي المسلم ومع شجاعته وجسارته ، نجحت عملية الإقتحام وعبر المسلمون مياه الخليج إلى جزيرة دارين ، حيث تجمّع المرتدون ، فقتلهم جميعاً وسبوا النساء واستاقوا الأموال ، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف درهم والراجل ثلث ذلك .

وفي معركة أليس بالعراق كان القتال محتدماً شديداً عنيفاً ، فاتجه خالد بجوارحه ومشاعره إلى الله فخاطبه قائلاً « اللهم إن لك علىّ إن منحننا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم » .

وفي البويب خاطب المثنى جنده فذكرهم بإيمانهم بالله وبرسالته وبالهدف الكبير الذى يحاربون من أجله ، وبالنصر الذى يأملونه قال لهم « إني لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم من قبلكم » ، ورأى خلال القتال خلافاً فى صفوف بنى عجل فبعث إليهم من يقول لهم « إن الأمير يقوئك السلام ويقول لانفضحوا المسلمين اليوم » ، فيقولون له « نعم .. نعم .. » .
والأمثلة كثيرة .

وواقع الحروب الإسلامية وواقع التاريخ الإسلامى يؤكدان ذلك .

(٢) ولم يكن يخرج للقتال إلا من أدرك عن عمق وفهم أن إيمانه

وصدقه تحت الإختبار ، وأن الله تجلّت قدرته قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وأن عليه أن يقابل ذلك بالصبر ، فلا يزع ولا يخاف ولا يهن ، ولا يفقد عزمه وإصراره ، ولا يضعف فى

طلب العدو ، ولا يخفف من حماسه عند لقاء العدو ، فإن كل ما يلاقيه في الجهاد من صغيرة أو كبيرة قد كتبه الله له وأثابه عليه .

فما أن نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرماة وقلة مَنْ به منهم ، بعد أن تركوا مواقعهم مخالفين بذلك أوامر رسول الله في غزوة أحد ، حتى كره بالخيل ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلهم مع أميرهم عبد الله بن جبير ، وعادت قوات المشركين الهاربة إلى ميدان القتال وهم يتصايحون بشعار الحرب عندهم « يا للعزى . . . يا لهبل » ، وفوجيء المسلمون المنتصرون بهذا الهجوم المضاد المفاجيء فتفرقوا في كل وجه واختلطوا ، حتى أن بعضهم كان يضرب بعضهم الآخر . . اضطرب الحال ولم يثبت من المسلمين إلا رسول الله ومعه نفر يسير ، ولما تفرق الناس صاح رسول الله فيهم « إلى . . . إلى . . . أنا رسول الله . . . أنا النبي لا كذب . . . أنا ابن عبد المطلب » ، أما ابن العواتك « ، وكان مع الرسول أبو طلحة وهو رجل رام شديد الرمي ، شاهد النبل تأتي من كل جهة في اتجاه رسول الله ، فنثر كسافته بين يديه عليه السلام وقال « نفسي لنفسك الفداء ، ووجهي لوجهك الوقاء » ، وكان رسول الله يشرف على ساحة القتال ، وينظر إلى القوم وينادي رجاله ، فكان أبو طلحة يقول له « يا بني الله ، يا بني أنت وأمي ، لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك » ، وظل رسول الله يرمي عن قوسه حتى اندقت سيئها وتقطع وتره ، فأخذ عكاشة بن محصن القوس ليوتره وقال « يا رسول الله لا يبلغ وتر » ، فقال له « مدّه يبلغ » ، قال عكاشة « فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لغتين أو ثلاثا على سية القوس » .

هذا الموقف الذى تعرض له المسلمون فى أحد بعد انتصارهم فى بدر
يعنى أن جهاد المسلمين ليس كله إنتصاراً ، فهو نصر تارة ، وتعرض للهزيمة
تارة أخرى ، فى حالة الإنتصار لا يجوز لهم أن يقيها فيملأهم الفـرور
ويأخذهم أسوأ مأخذ لأنه مرض قاتل ، وفى حالة الهزيمة لا يجوز لهم أن
يضعفوا أو يجبنوا أو يبعدوا عن إيمانهم ويتخلوا عن عقيدتهم أو يئسوا
العهد الذى عقده معهم الله . . . إن الهزيمة إمتحان صعب ، وهناك مبررات
أدت إليها ، ولا بد من الوقوف عليها والإستفادة منها ، مع الإستمرار على
طريق الجهاد إيماناً بالله وثقة فى نصره وأمل فى نصر أو استشهاد .

وموقف آخر فى حنين .

فعندما تجتمع أهل هوازن وبنو سعد للملاقاة المسلمين ، خرج هؤلاء تحت
قيادة الرسول لمواجهة هذه القوى التى تولى قيادتها مالك بن عوف ، وكان
مالك قد أصدر تعليماته للجيش بأن ينحاز إلى قم حنين عند مضيق الوادى ،
فلما مرَّ المسلمون فى واد من أودية تهامة هاجهم مالك ورجاله ، واختلط أمر
المسلمين واضطربوا من المفاجأة ، واختلت صفوفهم وتراجعوا ، ثم تفرقوا
يرجون النجاة ، وانتهاز العدو الفرصة فهجم بخيله ورجله وأمعن فى ظهور
المسلمين طعناً وضرباً ، وشاع الاضطراب فى داخل الجيش ، وسرت فى
صفوفه عدوى الهزيمة .

وكما حدث فى أحد ثبت رسول الله وحده ، والناس يتراجعون ويتدافعون
دون وعى . . بقى رسول الله وحده وأخذ يصيح فى الناس . . « أين أيها
الناس . . . هلموا إلى . . أنا رسول الله . . أنا محمد بن عبد الله . . أنا النبي

لا كذب... أنا ابن عبد المطلب» ، والناس في هلمهم لا يسمعون ولا يفهمون ولا يعون ، وكان العباس عم الرسول أحد نفر قليل أحاط بالرسول بعد أن انكشف عنه الناس ، وكان جهر الصوت ، فأمره الرسول أن يدعو الناس ليرجموا ، فجعل يصيح فيهم ويصرخ « يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . هلموا إلى رسول الله . . » وعاد الرشد إلى القوم وسمعوا دعوة العباس وأسرعوا في اتجاه الرسول وهم يقصارعون « لبيك . . لبيك » ، وشد بعضهم أزر بعض ، ونظموا صفوفهم ، وتماسكوا ، وهاجوا العدو فانكشفت لهم مواقعه ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فتمزقت جموعه وانقلبت الهزيمة نصراً مؤكداً . .

إذن خاض المسلمون في حنين إمتحاناً ، وتعرضوا لموقف فيه بلاء ، ولكنه في حاجة إلى قوة اليقين وعزم الإيمان ، ولقد أدرك المسلمون ذلك ، فعبروا هذا الموقف من فرار وهروب وهزيمة إلى تجمع وإندفاع وإنتصار ، واستهانوا بالموت الذي كان يحيط بهم ، واندفعوا إلى المعركة بكل الثقة فتملكوا زمام الموقف وهزموا عدوهم ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذَرَّبِينَ ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة ٢٥/٢٦) .

الدرس المستفاد من هذين الموقفين موقف أحد ثم موقف حنين ، هو أن التجربة القاسية التي تعرض لها المسلمون يجب ألا يكون لها أثر على نفسية

المقاتلين ، ففي أشد المواقف صعوبة وحرجاً يأتي فضل الله ، فيدّكر المسلمين بعظمة الله وقدرته وبيده على المؤمنين من عباده ، وفي هذا ما يخفف عنهم ما قد يتعرضون له من ضيق أو ألم ، وبذلك يشتمد عزم المؤمن ويقوى يقينه ويؤمن بأن أمداد السماء ونفحات الحق تأتي في الوقت الملائم ، لتجعل الهزيمة نصراً ، ولكنه نصر مشروط باجتياز إختبار الله المؤمن بنجاح وثقة وأمل .

وهناك فوق أرض العراق أجرى الله لعباده إمتحاناً آخر .

فقد اجتمع جيش الفرس بقيادة بهمن جاذويه الذي قيل عنه إنه أشد العجم على العرب ، فسار إليه أبو عبيد بن مسعود قائد المسلمين ، ووقف كل جيش في مواجهة الآخر على جانبي نهر الفرات (في موضع بين برج بابل والعاقول) ، وكان لابد من أن يعبر أحد الجيشين إلى حيث الجيش الآخر ، وأرسل بهمن إلى أبي عبيد « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » ، وقال المسلمون لأبي عبيد « لا تعبر يا أبا عبيد » و « نهاك عن العبور » و « قل لهم فليعبروا » ، ولكن القائد أبي أن يسمع لهم ، وقرر أن يعبر قائلاً « لا يكونوا أجراً على الموت منا ، بل نعبر لهم » ، وعبر المسلمون ولم يترك لهم بهمن إلا مكاناً ضيقاً لا يسمع لهم بالحركة أو المناورة ، وليس فيه مجال للسكر والفر ، والتجم الفريقان ، وهاجمت أفيال الفرس ، وأقبلت الخيل من كل جانب ، وانهزم المسلمون وهربوا ، ولكن إلى أين ؟ ، فالمكان ضيق وسهام الفرس تأخذهم من كل جانب ، ووصف الأغر العجلى ذلك الموقف فقال « وخزقهم الفرس بالنشاب وعض المسلمين الألم » ، ولما عجزت خيل المسلمين وقعدت فاعايتها أمر أبو عبيد الناس

بالتزلزل ومحاربة الفرس وجهاً لوجه ، وكانت معركة غير متكافئة ، قتل فيها وقتل معه كثيرون ، وقيل إن سبعة من ثقيف حملوا اللواء بعده وقاتلوا حتى قتلوا ، وذكرت الروايات أن المسلمين قعدوا في هذه المعركة أربعة آلاف مابين قتيل وغريق .

تري هل كان لهذه الهزيمة أثر في نفسية المقاتل المسلم ؟

إن الخليفة عمر قد عالج الموقف في كلمة بسيطة ، فحين بلغه أمر المعركة وخسارة المسلمين قال « عباد الله لاتجزعوا » ، وقدم بهذه الكلمات الدواء الناجع ... نعم ... فإن المطلوب من المسلم في حالة وقوعه في مأزق أو ابتلائه أن يتجه إلى الله ، وأن يؤكد صلته به تعالى ، وأن يعمق إيمانه وأن يظل على دينه قوياً صامداً ، فهو في موضع إمتحان من السماء ، فإن صمد على إيمانه وتحمل ما تعرض له فانه فضل من الله ، وانفتحت أمامه السبل ، وأشرقت في دنياه شمس النصر ، ولكن إن تغلبت عليه الظروف ولم يصمد للمحنة ، وفقد ثقته بنفسه وبربه ، فقد ارتد ، ولا بد من أن يتخلى عنه الله تماماً . لأنه أكد أن إيمانه الضعيف لم يعبر به المحنة ، وأعجزه عن أن يجتاز الأزمة ، التي أراد الله بها أن يمتحن قدراته الإيمانية .

إن أزمة الجسر لم يكن لها صدى في نفوس المسلمين ، ولم يكن لها أثر في إيمانهم ، ولم يكن لها أثر في حبهم للجهاد واندفاعهم إليه ، وإن أزمة الجسر انتهت بانتصار رائع للمسلمين بقيادة المثنى بن حارثة في البويب ، فقد ثار المسلمون لأنفسهم من هزيمة الجسر ، وقتلوا من الفرس أعداداً بلغت عشرات الألوف ، حتى أن الأرض لم تسكن ترى ، لأن جثث القتلى غطتها جميعاً ،

وقال عوفجة بن هرثمة في وصف القتال « قاتلناهم قتالا شديداً ، فوُتُّوا نحو القروات فما بلغه أحد فيه الروح » .

وما بين العراق والشام كان هناك موقف يستحق الإشارة .

فعمداً اجتمعت الجيوش الإسلامية في اليرموك ، أرسل أبو بكر إلى خالد في العراق يأمره بالتحرك إلى الشام لمعاونة الجيوش هناك «... أن سر بنصف الناس حتى تأتى جميع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا (تعبوا وأتعبوا) ... دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز . حتى تأتى الشام ، فغلق أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، ولما التقيتم فأنت أمير الجماعة » .

وخرج خالد بجنده متجهاً إلى الشام ، وكان عليه أن يحتاز منازة السماوة ، وهى الصحراء الفاصلة بين العراق والشام .. ولم يكن التحرك بالأمر الهين السهل ، بل كان أمراً شاقاً عسيراً ، فالطريق وعرة والمتاعب فيه كثيرة ، والعقبات عليه متعددة ، حتى إن الأدلاء الذين دعاهم خالد « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين ؟ » ، قالوا له « نحن لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أن تفرر بالمسامين » ، وأبدى رافع بن عمير رأيه لخالد فقال « إنك لن تطيق ذلك بالتحيل والأثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مفرور ... إنها لحس ليال جياذ لا يصاب فيها ماء » .

حالد ورجاله إذ أن أمام إمتحان عسير شاق ... هل يملك بإيمانه القدرة على اجتياز الطريق ، أم تضعف قدراته الإيمانية فلا تؤهله لاجتياز هذا الإمتحان ؟؟؟ ، أحس خالد أنه في موضع الإمتحان والإمتحان قاسٍ ، وعليه أن يصمد ، وأن يتحدى الطبيعة ، وأن يجتاز الإمتحان ، فهو شخصية جديرة بأن تتعرض لهذه المواقف وتتغلب عليها ، وهو مؤمن بأن رسالة السماء يجب أن تتم بنقض النظر عن أية صعوبات أو عقبات ، وواجه خالد رجاله بالموقف والقرار ، قال « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن بيمينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله » ، واقتنع الجند بمنطق القائد ، وقالوا له « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » ، وكلف خالد رافع بن عير بقول عملية الإعاشة والشؤون الإدارية خلال التحرك ، فطلب من خالد « أبغى عشرين جزوراً عظاماً سمناً أحساناً » ، فعمد إليهن فظءأهن حتى إذا أجهذهن العطش أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشارفهن ثم كعمهن لئلا يجترن » ، وقال للجند « استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصبر أذن فاقتنه على ماء فليفعل ، فإنها المهالك » .

اجتاز المسلمون الصحراء في وقت عصيب وموقع مهيب ووسط يادية قاسية لاماء فيها ولا زرع ، ولم يفقدوا إيمانهم ، بل صبروا وتحملوا حتى جاءهم فرج الله الكبير .. وهذه هي عاقبة المؤمنين .

٣ --- ولم يكن يخرج للقتال إلا مَنْ آمن بعمق بأهمية الاتفاق التام على جميع العمليات الميدانية ، وعدم الاختلاف في شأن من شئونها ، والتجرد من

الأمر الشخصية ، والسعى الصادق الأمين لتحقيق الهدف والوصول إلى الغاية ، ولم يسجل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية اختلافاً في الهدف عند المقاتلين على مختلف المستويات ، فالهدف كان واضحاً ومعلومًا للجميع ، والكل مؤمن به ومقتنع بهدأته ، وكذلك لم يسجل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية اختلافاً في الوسيلة والأسلوب ، بل لقد سجل هذا التاريخ كل ما هو رائع وعظيم وشريف ، فقد امتلأت صفحاته بصور التضامن بين القيادات والتفاهم الصريح بينهم ، والفقاش العادل وإنكار الذات ، والخضوع للرؤساء بنفس راضية ، وتنفيذ الأوامر بكل أمانة ، والطاعة إلى أقصى حدودها ، ولعل الجيوش الإسلامية تميزت عن غيرها من الجيوش قديماً وحديثاً بهذه المقومات التي هي حجر الزاوية في البناء العسكري .

بعد وفاة رسول الله وبعد أن أطلت الفتنة على الجزيرة دار حوار طويل بين الخليفة وأصحابه عن كيفية مواجهة تيار الردة ، ولعل الآراء اختلفت خلال الحوار ، إلا أنه حين قرر الخليفة مواجهة المرتدين تنازل كل عن رأيه ، وأصبح رأى الخليفة هو رأى الجماعة ، وقف المسلمون جميعاً من خلفه يواجهون الفتنة الكبرى صفاً واحداً وفكراً واحداً واستراتيجية واحدة ، والكل درع للإسلام وعون للخليفة ومدد في سبيل الله .

وهناك في اليرموك لا خط خالد أن جيوش المسلمين تعمل مستقلة كل جيش تحت إمرة أميره ، دون تنسيق بين كافة الجيوش ، فرأى أن هذا أمر لا يتفق مع العسكرية الصحيحة وأسلوب الحرب ، فلم يحبس رأيه بل جمع القادة وقال لهم « هل لكم يا معشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين ولا يدخل

عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه ؟ » ، فأجابوا بالإيجاب ، فقال « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتبعية ، وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبه » ، فسألوه « فها الرأي ؟ » ، أجاب « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنقياسر ، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله ، الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا يفتقركم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء (يقصد الروم) قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم » ، ووافق الأمراء على رأى خالد ، وجعلوا له القيادة أولاً ، وهم راضون مقتنعون فكلل يود أن يرى بعينيه مصارع الروم .

ولم يقف الأمر عند الاتفاق على القائد وشخصه ، ولكن تم الاتفاق بالإجماع على خطة اللقاء التي وضعها خالد ، فقد عرض عليهم الخطة ونالت رضاهم واستحسنهم وقبلهم لتفاصيلها . . انفقوا على رأيه في أن يجعل الجيش كراديس (كتائب) « إن عدوكم قد كثر وطفى ، (كان عدد الروم

يزيد على خمسة أضعاف جيوش المسلمين مجتمعة) ، وليس من التعبية (الحشد)
 تعبئة أكثر في رأى العين من الكراديس ، وعرض خالد عليهم أيضاً تنظيم
 القوات ، فعلى القلب أبو عبيدة ، وعلى الميعة عمرو ومعه شرحبيل ، وعلى
 الميسرة يزيد بن أبي سفيان ، وجعل على كل كردوس (مفرد كراديس)
 بطالا من أبطال المسلمين المغاوير مثل القعقاع بن عمرو ، وعكرمة ، وعياض بن
 غنم ، وعبد الرحمن بن خالد ، وأقام على القضاء أبا الدرداء ، وأسند مهمة
 الوعظ وإثارة المعنويات إلى أبي سفيان ، وأمر المقداد بقراءة سورة الأنفال ،
 إذن فقد عرض خالد الخطة كاملة ووافقت كلها كل الآراء ، ودخل المسلمون
 المعركة وهم متفقدون تماماً على شخص القائد وخطة العمل ، وكان هذا الموقف
 من بشائر النصر العظيم في اليرموك .

عندما ولى أبو بكر خالد بن الوليد قيادة الفتح الإسلامى فى بلاد فارس ،
 كتب إلى المثنى بن حارثة وكان قد عهد إليه بالإمارة هناك ، يأمره فيه
 بطاعة خالد ، فلما وصل خالد سار إليه المثنى جواداً كريماً مطواعاً ، وسلمه
 القيادة راضياً ، وعمل تحت قيادته جندياً بسيطاً بعد أن كان قائداً له شأنه ،
 وتعرض المثنى لموقف مشابه فى عهد الخليفة عمر ، فقد ولى عمر القيادة أبا عبيد
 ابن مسعود ، ثم سعد بن أبى وقاص ، وتحت القمادتين عمل المثنى جندياً ،
 رغم الإنقصارات العظيمة التى تمت على يديه هناك ، وخاصة نصره الكبير
 العظيم فى موقعة البويب ، التى استعاد بها كرامة الجندى المسلم بعد
 الهزيمة التى تعرض لها المسلمون فى الجسر ، والتى أنهت حياة أبى عبيد
 باستشهاده .

ولم يكن المثنى وحده هو الذى تعرض لمثل هذا الموقف ، فقد عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وهو فى أوج إنتصاراته على الروم فى الشام ، بعد سلسلة الانتصارات التاريخية على المرتدين فى الجزيرة ، وعلى أهل فارس فى العراق ، وولى الخليفة مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، وتقبّل خالد أمر العزل بروح الإسلام ، وعمل تحت قيادة أبى عبيدة دون حرج أو ضيق .

إن المثنى ومن بعده خالد قبلا الأمر بنفس راضية غير حقودة أو غاضبة ، فشكل منهما يحارب لا لأنه قائد الجيش ، ولكن لأنه رجل مسلم وهب نفسه لله تبارك وتعالى ، قائداً كان أو جندياً ، ومن خلال هذا الإدراك نفّذاً أمر الخليفة بصفته المسؤول الأول عن سياسة الدولة ، والقائد الأعلى للقوات المحاربة ، وصاحب رأى فى شئون القتال .

المهم هو أن الجيش بكافة رجالاته لم يكن ليختلف على أمر من أمور المعركة ، والشئ الذى كان موضع الفخار أن مسلماً واحداً لم يحجم عن إبداء رأى ، وأن واحداً من المقاتلين لم يحبس فكرة أو خطة ، فكان كل رأى يثار يوضع موضع المناقشة الجادة ، فإن كان فيه خير أخذ به ، وهذا يعنى أن مامن معركة خاضها المسلمون إلا والرأى فيها واحد متفق عليه .

حين اتخذ المسلمون مواقعهم فى بدر لم يكن الموقع من وجهة نظر الحباب مناسباً لطبيعة القتال ، وعرض وجهة نظره على الرسول فاستجاب لها على الفور .

وبعث المثنى فى مرضه الأخير برسالة مع أخيه وزوجه إلى سعد بن أبى

وقاص نصحه فيه بأن يحتفظ بالجيش على حدود الصحراء ، لأنها تمثل من وجهة نظره عمقاً استراتيجياً يحمى ظهره ويمنحه فرصة السكر والفرو والهجوم والإانسحاب ، ويضمن له بقاء خطوط مواصلاته مع رئاسته في المدينة سليمة ، ويصون خطوط التموين من إغارات العدو . . . واحترم سعد رأى زميله في الجهاد وأخذ به

كان الجيش الإسلامي كما أشرنا قادة وجنوداً

كان القائد يتولى أمور جنده ويعالج مواقف المعركة ومشاكلها ، ويضع لها خططها ويتحمل مسئوليتها .

كانت القيادة تتمثل في مستويين :

● مستوى القيادة العليا .

● مستوى قيادة الجيوش .

وكان رسول الله يقولى القيادة العليا بنفسه طوال حياته ، ثم تولّاها من بعده عليه السلام الخلفاء ، وكان مركز القيادة في المدينة .

واختلف وضع القيادة بعد وفاة الرسول ، ففي عهده كان عليه السلام يتولى بنفسه قيادة الجيش ، يضع له الخطط ، ويعدّ له السلاح ، ويمده بالرجال ، ويضع سياسة المعركة ، ويشرف على تنفيذها ، وكان عليه السلام يخرج على رأس الجيش ، فقد كانت المعارك على عهده تتم في نطاق الجزيرة ، واصل أكثر المعارك بعداً عن مركز القيادة كانت تبوك ، وكان الرسول يقلّد

أمر المدينة فترة غيابه أحداً من رجاله يتولى شئونها وإدارتها ، فمثلاً عند الخروج إلى بدر استعمل عليه السلام أبا لبابة على المدينة .

إلا أن الأمر تغير في عهد الخلفاء ، لأن الخليفة ما كان يستطيع أن يترك أمور الدولة الناشئة ليخرج مع الخارجين ، وخاصة أن الجيوش زادت عدداً ، وأن ميادين القتال تعددت ، وأن الفترة الزمنية للمعارك طالت .

استوجب الأمر إذن في ضوء هذه الظروف أن يبقى القائد العام في المدينة في مركز القيادة ، يصدر منها الأوامر ويحرك منها الجيوش ويجهز منها الإمدادات رجالاً أو سلاحاً أو مؤناً ، ونظراً لبقاء القائد العام في مركز القيادة بعيداً عن أرض المعركة ، ونظراً لأنه لا بد من وجود قائد مباشر يكون مسؤولاً عن إدارة المعركة ومتابعة أحداثها وتنفيذ خططها ، فكان من الضروري أن تتواجد في أرض المعركة قيادة مستقلة تتحمل وحدها مسؤولية المعركة في كافة الجبهات . . في الشام . . في العراق . . في مصر . . في شمال أفريقيا . . في كافة المواقع التي كانت فيها لقاءات للمسلمين مع أعدائهم ، وألقت المسؤوليات الجديدة نتيجة اتساع ميادين القتال وتعدد جبهاته مهمة خطيرة على عاتق القائد العام ، فأصبح مسؤولاً عن متابعة الأحداث ، ومداومة الاتصال ، وإمداد الجيوش ، وإصدار الأوامر والتوجيهات ، بالإضافة إلى مسؤولية وظيفته كخليفة للمسلمين ينظم شئون الدولة ويرتب أمورها ويرعى مصالحها .

تولى أبو بكر قيادة الجيوش بعد وفاة الرسول ، وتعرضت الأمة الإسلامية في بداية حكمه لفتنة الردة ، فأعد الجيوش وحركها للقضاء على

المرتدين ، فلما تم له ذلك — وقد شارك في بعضها بنفسه حين قاد جيشاً حارب به مانعى الزكاة وهزمهم — أراد أن يصرف أذهان العرب إلى ما يعود عليهم وعلى الإسلام بالخير ، ووصلته أنباء القتال الدائر بين المنى ابن حارثة والفرس ، وأدرك أن الصدام بين الديانتين واقع لا محالة ، فجهز الجيوش وحرّكها إلى العراق ، وتعذر أن يقول بنفسه قيادة هذه الجيوش ، فبحث بين العرب عن القائد الصالح القادر ، واختار خالد بن الوليد لهذه المهمة .

وعندما بعث بالألوية إلى بلاد الشام اختار لسكل لواء قائداً يثق به ويؤمن بقدراته وإمكانياته ، ويرى فيه القلب الشجاع والعقل المفكر والحس الصادق والفكر السليم ، وبقي في مكان القيادة يرقب سير العمليات وبعد الإمدادات وينظم شئون الفتح ، فمثلاً حين أحسّ بأن الجيوش الإسلامية في الشام في حاجة إلى مدد ، أمر خالد بن الوليد بالتحرك من العراق إلى الشام بجزء من جيش العراق ليتولى مهمة القيادة في هذه الجبهة ذات الأهمية بالنسبة لمستقبل الإسلام .

وتولى عمر بن الخطاب القيادة بعد أبي بكر ، ولم تتغير الصورة ، فقد بقي في مركز القيادة بالمدينة يباشر منها مهام عمله ، ولقد أراد أن يخرج بنفسه على رأس مدد إلى العراق إلا أن أصحابه منعه ونصحوه بالبقاء في المدينة ، وإدارة شئون المعارك منها ، بإصدار التعليمات والتوجيهات ، وإعداد المؤن والامدادات وتجهيز الحشود ومواصلة التعمية اللازمة لمواجهة الأحداث في مختلف قطاعات المعارك ، وكان عمر يقوم باختيار القادة ويعرض الأسماء

على أصحابه ويطلب منهم الرأي والمشورة ، ولقد اختار سعد بن أبي وقاص لقيادة الجيش الإسلامي في العراق ، ومن قبله اختار أبا عبيد بن مسعود وكان يوجه التعليمات وأوامر العمليات بناء على المعلومات والبيانات التي كانت ترد إليه من قادة الجيوش ، وكان رغم بقاءه في المدينة كأنه يعيش في كافة الميادين ، فالصلة قائمة بينه وبين القيادات ، وبياناتها وأعمالها نجاحها أو فشلها كانت دائماً بين يديه وتحت بصره ، وفي ضوءها كان يقرر ويبعث بقراراته .

وكذلك كان الأمر مع عثمان بن عفان مع قلة الممارك التي دارت في عهده .

ثم اختلف الأمر في عهد علي بن أبي طالب ، فقد اضطر إلى مواجهة طائفة من المسلمين رفضوا مبايعته وقاوموا عهده طمعاً في الخلافة ، فحرك الجيش لمقاتلتهم ، وتولّى هو بنفسه قيادة الجيش ، ونقل مقر القيادة إلى الكوفة التي أصبحت مركز عملياته ، وظلت الكوفة على عهده عاصمة الدولة ومقر القيادة باشر منها أمور الدولة واحتياجات المعركة ضد قوات السيدة عائشة في الجمل ، وضد قوات معاوية بن أبي سفيان في صفين .

وفي عهد الأمويين انتقلت العاصمة ومقر الجيش إلى دمشق ، حيث كان الخليفة معاوية رئيساً للدولة ، وقائداً عاماً للقوات الإسلامية .

ثم تغير مقر القيادة فأصبح في عهد العباسيين في بغداد ، ثم في القاهرة عاصمة الفاطميين ، ثم في القسطنطينية عاصمة العثمانيين ، ثم تفرق أمرها بتفرق أمر المسلمين .

وكان مستوى قادة الجيوش باتى في المرتبة العالية لمستوى القيادة

العليا ، ولم يكن اختيار القائد يخضع لسبب شخصي أو تحت تأثير وضع خاص ، وإنما كان يتم على أساس الأقوى والأصلح والخير بشئون الحرب والقادر على معالجة أمور المعركة ، وكان يأتي في المقام الأول صدق الإسلام وصحته ، وعمق الإيمان وثبوت العقيدة .

فاختيار خالد مثلاً تم على أساس فنه وقدراته وطاقاته التي تتمثل في قول أكيدر بن عبد الملك « أنا أعلم الناس بخالد .. لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قتلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه » ، ولقد اختاره أبو بكر قائداً لجيش المسلمين في حروب الروم بعد أن لمس قدرته على القيادة ونجاحه في مواجهة أعدائه وطاقاته العسكرية التي تميز بها . فقال حين وقع عليه اختياره « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ، .. لقد كان خالد مدرسة في فن الحرب حرص على أن ينقل فنه إلى جنده ، ولهذا اعتمد عليهم في حروبه ، فبرز منهم قادة أمجاد حققوا انتصارات خالدة لا مثيل لها ، منهم المنفى بن حارثة ، والقعقاع ، وعاصم بن عمرو ، والأفرع ابن حابس ، وبشر بن أبي رهم ، وضرار بن الأزور ، وعدى بن حاتم الطائي ، ومحمد بن مسامة ، وفرات بن حيان ، وغالب بن عبد الله ، وعياض بن غنم ، وغيرهم ... وكان خالد يتميز بفكر عسكري متطور غلب به أقرانه ، وكانت قرش تعتمد عليه في حروبها ، كما سعد به رسول الله حين أسلم ، وبدت عبقريته في إنقاذ الجيش الإسلامي في مؤتة ، ثم عوف عنه أبو بكر قدراته فأسند إليه أقوى لواءاته ضد المرتدين ، فكافت له معهم جولات سجلت له أروع صفحات.

الفن العسكري ، فلما احتاج إليه الموقف في العراق كان على رأس جيش المسلمين هناك ، ثم كان القائد الذي حقق أعظم انتصارات المسلمين في اليرموك ضد الروم ، وكان انتصاره بداية لانتهاز دولتهم في بلاد الشام .

وخلال التجهيز لمدد خالد وهو في العراق بعث إليه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو ، فلما سئل كيف يبعث بفرد واحد مدداً ، قال « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » ، فالقعقاع وحده في نظر الخليفة أقوى من جيش ، وهو وحده مدد لأنه شجاع ذو رأى وبصيرة ولا عجب ...

فالناس ألف منهم كواحد وواحد كألف إن أمر عني

وحين وقع الاختيار على عمرو بن العاص ليقول فتح فلسطين قال عنه عمر « رمينا أوطيون الروم بأوطيون العرب » .

واختار عمر سعد بن أبي وقاص قائداً للجيش الإسلامي في العراق ، وقد وصفه لأصحابه فقال عنه « الأسد في برائه » ، فأجاب أصحابه « نعم ، إنه رجل شجاع رام » .

وقبل أن يخوض الجيش الإسلامي معركة هليوبوليس في مصر ، بعث عمر بمدد وكتب إلى عمرو يقول له « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف » ، وكان هؤلاء هم الزبير بن العوام ، والمقداد وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، واختار عمر الزبير قائداً للمدد ، وكان الاختيار خاضعاً لماضيه المشرف في خدمة الإسلام ، فهو أحد عشرة شهد لهم النبي ، وأحد ستة اختارهم عمر للشورى ، وخامس رجل في الإسلام فقد أسلم في سن الخامسة عشرة وهاجر إلى الحبشة ثم يثرب ، وأخى رسول الله

بينه وبين سلامة بن سلامة ، وقال عنه رسول الله « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » ، ولقد شارك فى معارك كثيرة يأتى فى المقام الأول معها اشتراكه فى موقعة بابلون ، وله فى هذه المعركة دور ذو أهمية ، فقد قال « إني أهب نفسى لله ، وأرجو أن يفتح الله على المسلمين » ، ثم أقبل مع كتيبة آزرته تحت جنح الليل ، وطمّموا الخندق المحيط بالحصن فى موضع اختياريه ثم وضع ساما على السور وعلاه ثم أمر أصحابه أن يرقوا إليه إذا سمعوا تكبيره ، فلما سمع الروم تكبيره ظنوا أن المسلمين قد افتتحوا الحصن فهربوا .

والقادة المسلمون كثيرون امتلأت بهم صفحات التاريخ ، وعزّت بهم المعارك الإسلامية ، وطارت شهرتهم فى كل مكان ، حتى أن خالد بن الوليد كان ينتصر بإسمه كما كان ينتصر بسيفه ، يسبقه إسمه إلى أعدائه قبل منازلهم فيدب الذعر والرعب فى قلوبهم ، ويعملان مانعمله الصواعق ، ويشيع الفرع فيهم ، فتتجلى قواهم وتنهار عزائمهم ... روى ياقوت فى معجم البلدان أن ربيعة تجمعت إلى الهذيل بن عمران غضبا لعقة بن أبي عقة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، فنهاهم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد فعضوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقياني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا فاسقياني بالزجاج وكررا علينا كيت اللون صافية تجرى
أظن خيول المسلمين وخالدا ستطرقكم عند الصباح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر
لقد أثبتت المعارك التى خاضها القادة المسلمون أن هذه القيادات كانت

على مستوى المسئولية ، فقد امتاز من تقلدها بالقدرة والطاقة ، واشتهر بالحكمة وحسن التصرف ، وإجادة تقدير الموقف ، والمهارة في تحريك الجيوش ووضع الخطط ومواجهة ظروف المعركة وأحداثها . . لقد تحققت لديهم العبقرية العسكرية بكل خصائصها ومزاياها ، ولاريب في أن الإسلام بعقائده ومبادئه ومنطقه في تربية الرجال وسياسته في إقامة أمة تعتمد على الحق والعدل والقوة كان له الفضل في خلق أجيال من العسكريين كانت لهم بطولات ارتقت إلى المستوى العالمي بل إلى مستوى الخلود في دنيا الحرب والمعركة .

· وما لا يختلف فيه إثنان أن القيادات العسكرية الإسلامية لم تبتعد أبداً عن الجنود بل كانت لصيقة الصلة بهم ، تعيش معهم وترعاهم ، وتحافظ عليهم وتوجههم ، كانت تخلق فيهم الروح الحربية القوية الناهضة ، ولما كانت القيادة على مستوى الكفاءة والقدرة ، فقد كان الجنود كذلك ، ولا عجب فالجندي يتطلع دائماً إلى القيادة وينظر إليها باعتبارها المثل والقوة والسبيل والمهج والصورة ، والجنود دائماً يسرون على هدى قادتهم ويتمثلون بهم ، وكانت القيادات تحرص على توافر الثقة بينها وبين الجنود ، وعلى أن تكون هذه الثقة على مستوى المسئولية ، وكذلك كان الجنود حريصين على ثقة القيادات بهم ، ومن خلال هذا الحرص من الجانبين كان الجيش الإسلامي قادة وجنوداً قوة صلبة وصفاً متراصاً وقلباً جريئاً وعزيمة لا تغل .

ولنقرأ معاً كتاب أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان وقد أمره على جنود عظيم جلهم من أهل مكة وبعث به وبهم إلى الشام .

قال أبو بكر في كتابه « وإذا قدمت على جنودك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدّهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً .. واسمر بالليل في أصحابك... » ، وفي هذه الكلمات الخط الرئيسى الذى وضعته القيادة العليا لما يجب أن تكون عليه العلاقة فى الميدان بين قائد الجيش وجنده ، فالخليفة وهو القائد الأعلى حريص فى كلماته وتوجيهاته على وجود تقارب بين القادة والجند ، فلا يتعالى قائد أو يتكبر أو يزهو ، أو يحس جنده بأنه بعيد عنهم لا يعيش بإحساساتهم ومشاعرهم ، فالكل إذن جمع متحاب متعاون يسعى إلى خيره وخير الإسلام . تجمعه ثقة ومحبة واحترام وتقدير وولاء .

لقد حدد القرآن الكريم صفات القائد المسلم فاشتراط فيه أن يكون عالماً بكتاب الله فقيهاً حافظاً .. عارفاً بالحروب ومعداتها وأساليبها .. قوياً شجاعاً حائزاً لثقة جنده .. ثابت الجنان صلب العود قادراً على قيادة الجند ... قادراً على ضبط عواطفه ومشاعره .. عادلاً حتى مع أعدائه ... وفيك للعهد .. حازماً غير متردد .. يتجرى الأمور ويمحصها .. واثقاً من نفسه ومن قدراته ... لا يكره أمر عدوه ، ولا يجزع لمصائب أصاب صفوفه .. ملماً بالموقف الذى يواجهه ، يدبر أمره فى يسر ، ولا يتعجل فى أمر يقدم عليه .. دائم الاتصال بجنده رحيماً بهم ، عطوفاً عليهم ، سامعاً لشكواهم ، رقيقاً فى معاملتهم ، محباً للقشاور معهم .. حريصاً على معرفة أمر عدوه قبل أن يلقاه .. قادراً على الحركة والمناورة .

ولقد زود القرآن المسلمين قادة وجنداً بصفات روحية كانت زاداً لهم خلال

لمعارك مثل :

● ● السكينة ، التي كان الله تبارك وتعالى يبعثها في قلوب المؤمنين
رضاً وطمأنينة ، فلا تنال من إيمانهم الأحداث ، ولا تنسرب إلى مشاعرهم
الوساوس ﴿ هُوَ الَّذِي أَفْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا
إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح ٤) .

● ● الشوق إلى الاستشهاد والجنة وما فيها من نعيم مقيم ؛ فالشهيد
لا يغيب ولا يصير في عالم الفناء والعدم ، وإنما هو عند ربه حتى باق خالد ،
وهذا هو حسن المآب الذي أعدّه الله لعباده الملقين ، فقد عوضهم في الآخرة
عن متع الدنيا وشهواتها جنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواجاً مطهرة ،
﴿ قُلْ أُوْنَبِّئْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (آل عمران ١٥) ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ
قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ
بِمَا أَنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (آل عمران ١٦٩ / ١٧٠) .

● ● الكره والمقت والإحتقار لأعدائهم أعداء الله ، لأنهم قوم كفروا
بالله واستحقوا الضلال ، وآذوا المسلمين بالسنتهم وأيديهم ، فهؤلاء يستحقون
الغزى والعار ﴿ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ (التوبة ١٣)

● ● المودة التي تربط بين المجاهدين ، وتؤلف قلوبهم وتوحد غاياتهم ،
وهي عامل من عوامل النصر ، فإن الله قد ألف قلوب المسلمين وجمعهم على
الإيمان والإخاء في الله ، فأصبحوا كياناً واحداً ومشاعر واحدة ، واجتمعوا
على الولاء لله ولدينه ورسوله ، وهذا أمر ما تستطيع قوة بشرية أن تحققه في

أَيَّ مَجْتَمَعٍ إِنْسَانِي ﴿هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِغَضَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنَّمَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَتَمَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ (الأنفال ٦٢/٦٣) .

• • الرعب الذي يقذف الله به في قلوب أعداء الإسلام ، فعضطرب صفوفهم وتزوغ أبصارهم حتى يتمكن المسلمون من رقايتهم ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (الأنفال ١٢) ، و ﴿سَفَّلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (آل عمران ١٥١) .

• • مشاركة الملائكة للمجاهدين في المعركة ، حين واجهوا العدو وأفزعتهم كثرتهم ، وفزعوا إلى الله أن يمدهم بنصره ، فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة يأتي بعضهم إثر بعض ويردفع بعضهم بعضاً ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ (الأنفال ٩) .

• • الاطمئنان إلى مستقبل أبناء المجاهدين وأسراهم ، فאלله تبارك وتعالى قد دعا إلى مراعاة اليتامى وحفظ حقوقهم وصيانة حياتهم وإعدادهم إعداداً صالحاً تماماً كما يفعل الأب مع أبنائه ، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء ٩) .

لقد انتصر المسلمون ، لما كانوا يتميزون به من صفات افتقر إليها أعداؤهم .
وكانت هذه الصفات أسلحة بقتارة في المعارك تنبت أقدامهم وتهد من قوى
العدو .

هذه الصفات كلها هي أبرز المعاني التي غرسها الإسلام في قلوب رجاله ،
وتعهدا رسول الله بحكمته ، حتى جاء الرجل من هذا الفرس الكريم معادلا
لعشرة رجال في ميدان البأس ومجال القوة ، وليس هذا التقدير عن حدس
أو تخمين ، أو عن فراسة ونظر ، ولكنه عن خبر صادق ، يقول تعالى عز من
قائل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال ٦٥) .

وصدق الله العظيم .

فهذا هو وزن الرجال الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله .

إن الرجال هم أساسا عماد الحرب .

والحرب تحتاج إلى نوع معين من الرجال يتميز بقدرات خاصة ، تأتي نتيجة لإعداد خاص بدنيا وفنيا .

ولقد اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بتنمية هذه القدرات وإعداد المقاتلين إعداداً يتناسب مع إحتياجات المعركة ، ويؤهلهم لخوض غمارها ، ولعل الإنتصارات العظيمة التي حققها الجند المسلمون في مختلف الليادين وفي شتى المعارك خير دليل على تميزهم بهذه القدرات .

ولا يغيب عن البال أن المحاربين الذين اعتمدت عليهم المدرسة العسكرية الإسلامية منذ أول عهدها وحتى عهود أخرى لاحقة عاشوا حياتهم الأولى في البيئة العربية التي كانت ذات ميزات وخصائص أثرت تأثيرا مباشرا على سلوكهم وعاداتهم وصفاتهم ، فكان الشباب العربي قويا جادا سليم البنیان شجاعا متواضعا ، ونشأ على تمجيد الشرف والوفاء بالوعد وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف ، كما عرفت عنه صفات أخرى ، كالعفو والاتزان وقوة الاحتمال والحلم .

نشأ المسلمون الأوائل في بيئة صحراوية فرضت عليهم أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد محددة ، أصبحت على مر السنين جبهة وطهيرة وفطرة ، وصارت عنوانا لهم بين العالمين .

فالمصحراء تمثل نوعاً من الطبيعة الخشنة ... رمال مختلفة الألوان، وجبال
جرداء، وصخور صم، وشمس قوية محرقة، ورياح زفوف، وسيول متدفقة .
وانمكست هذه الطبيعة الخشنة على نفس العربي قوة وصلابة وجلداً
فأصبح لا يخشى الليل، ولا يفزع من سفر، ولا يزعجه عصف الرياح أو بخل
السما .

وأفاد العربي من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة في البصر
وقوة في السمع وقدرة على الشم كانت موضع فخاره، ومن هنا كان يشتم
الخطر قبل وقوعه .

واقدم علامته هذه الطبيعة الخشنة الصبر والجلد والكفاح المر على حد قول
تأبط شرًا :

| | |
|--|--|
| قليل التشكى للمُهمِّ يصيبه | كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالك |
| يظلُّ بمُومة ^(١) ويُسى بغيرها | جَعِيشاً ^(٢) ويُغزورى ظهور المهالك |
| ويجعل عينيه ربيثة ^(٣) قلبه | إلى سَلَّةٍ ^(٤) من حدٍّ أخلق ^(٥) صائك ^(٦) |

(١) المأزة التي لا ماء فيها .

(٢) المنفرد .

(٣) الرقيب .

(٤) تجريد السيف .

(٥) أملس .

(٦) القاطع .

وعلى حد قول أبي بكر الهذلي :

فإذا نبتت له الحصاة رأيتَه ينزو لوقتها طموور الأخيل^(١)

وكان العربي يعيش في خطر دائم ، فهو لا يسكن القصور ولكنه يقيم في بيوت من الشعر والوبر ، تهزها الريح إذا هبت ، ويجرفها السيل إذا تدفق ، وليس هناك شرطة تحميه من الغارات ، ولهذا لم يكن له حارس إلا مقابض السيوف وأسنة الرماح ، ولم يكن له حى إلا ظهور الخيل ، وشجاعة القلب وعظم النفس ، ولهذا تحلى أول ما تحلى بالشجاعة ، شجاعة فيها قوة وتحد للمنية ، ودربة وتفوق في استعمال الأسلحة ، فأصبح بهذا كله أصح أهل الأرض بنية وأوفرهم قوة وأروعهم قامة وأبينهم عافية وأكثرهم احتمالا للشدائد والمشقات ، وأصبح عدلا لعشرات من الناس من حيث طاقته البشرية .

وتدرب شباب العرب على أعمال البطولة والإقدام ، وكان العربي يوحى إلى أبنائه بالقوة والشدة ، وكانت المرأة العربية لا تدلل أولادها دلالة يضعف شخصيتهم ويسئ إلى مستقبلهم ، بل كانت تدفع بهم إلى طريق الشرف واحتذاء آثار الأبطال ، ولقد خلق هذا النوع من التربية شخصيات عظيمة بارزة ، اشتهرت فيما بعد في الإسلام ، حين دانت للعرب دول عديدة عتيقة ، وتطلب الحكم الجديد خبرة ومهارة وعقولا نيرة ، فتجلت تلك العبقريات السكامنة ، وظهرت على مسرح التاريخ شخصيات فاقت في قيادة

(١) شاعر مخضرم صحابي، والبيت معناه أنه إذا رماه بحصاة ليعرف مقدار استفراقه في النوم وثب كما يثب الصقر .

الجيش والقضاء والخلافة... ويرجع هذا كله دون ريب إلى النشأة الأولى وإلى الحياة التي تشربتها نفوسهم في الحداثة .

وكان العرب يختارون لأبنائهم الأسماء التي تحمل معنى القوة والرهبة والشدة مثل أسد وقهد وثور وصخر ، وسئل في ذلك أبو العرفيش « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » ، فأجاب « إننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .

وكان العرب يفضلون الذكور على الإناث ، لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى .

وكانت الصلات القبلية قبل الإسلام قد أسست على العداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، فإن البيئة الطبيعية والاجتماعية أهملت نفوس العرب وطبيعتهم للحرب والنزال ، فقد كانوا يتنازعون على المرعى وعلى المنهل وعلى الرئاسة ، كما كانت المفازعات تثار بينهم رغبة في السلب والإغارة ، أو نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، كانت كل معركة تستبغ ثأراً ، وكل ثأر يولد معركة .

وجاء الإسلام والعرب على هذه الطبيعة فهدبها وارتقى بها إلى المستوى الذي يخدم الفرد ويرعى مصلحة الدين .

جاء الاسلام ليوجه هذه الطبيعة ويعددها الرسالة جليلة هي هداية العالم ، ولذلك قال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران ١٠٤) ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ

معانيه وغاياته ، وامتزجت الفتوة العربية بالمثل الدينية ، وأضيف إلى الجدى الفردى وإعزاز العشيرة الرغبة فى الثواب والرهبة من العقاب ، والعمل على السعادة فى الدارين والسعى فى خير المجموع .

وعندما اضطر الإسلام إلى مواجهة أعدائه فى ميادين المارك زكى بين العرب روح الإعداد الجيد المقيد للحرب ، حتى أن أحد التابعين قال « كنا نعلم أبناءنا الغزوات كما نعلمهم الآية من القرآن » .

وكان الرسول عليه السلام يطلب من أصحابه المعاونة والمساعدة فى تكوين شخصية الجندى لدى بنائهم ، وإثارة روح الجندية بينهم ، ليجعلوا من كل رجلا قوى الشكيمة صعب المراس شديد البأس صلب العود عميق التفكير .

ولما كان الجهاد فى سبيل الله يتطلب من المجاهدين قوة وشبابا ، فقد كانت تعاليم رسول الله تحث على القوة ، وكان سلوكه الخاص نماذج عليها لأنباعه وأصحابه .

وقد اهتم رسول الله بصحة الأبدان ودعا إلى العناية بها ، وطالب بممارسة الرياضة لتجعل من الجند أفراداً لائقين جسمانيا لفتحهم أعباء المعركة ومواجهة عنفها وشدتها ، فالرياضة تساعد على صقل الجسم وتقويته .

ولقد مارس العرب أنواعا كثيرة من الرياضة ، كالعدو ، وركوب الخيل ، والضرب بالسيف ، والمصارعة ورمى النبل ، والسباحة ، وكان رسول الله يحث

على ممارسة هذه الأنواع ، بل كان هو نفسه يمارسها ، فكان للمسلمين جميعاً
المثل والقدوة والأسوة .

فقبل البعث كان عليه السلام نموذجاً كاملاً للرجولة الحقة ، ومثلاً
راقياً للخلق العظيم ، وقد وصفته السيدة خديجة حين خطبته لنفسها « إني قد
رغبت فيك لقراءتك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك »
و « إني لك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم
وتقري الضعيف وتعين على نوائب الحق » .

كان الرسول يمارس المصارعة وهي من أنواع الرياضة التي تتطلب قوة
جسمية ... صارع عليه السلام ركانة بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن
إسحاق « إن ركانة بن عهذ زيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف
كان من أشد قريش ، فغلا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياركانة ، ألا تتقي الله
وتقبل ما أدعوك إليه ؟ ، قال : إني لو أعلم الذي تقول حق لانبعتك ، فقال
رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتفهم أن ما أقول حق ، قال : نعم ، قال :
فقم حتى أصارعك ، قال : فقام إليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله
صلى الله عليه وسلم أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عد
يا محمد ، فعاد فصرعه ، فقام ركانة وهو يقول : أشهد أن هذه ليست
قوة بشر » .

واهتم الرسول بالسباق ومارسه ، ففي مسند أحمد من حديث عائشة
قالت « خرجت مع النبي في بعض أسفاره وأنا لم أحمل اللحم ، فقال للناس
تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعال حتى أسابقتك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى

إذا حملت اللحم ، قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعالى أسابقك ، فسابقته فسبقتني ، وجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك . . .

وفي صحيح مسلم عن سلامة بن الأكوع قال « بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبداً فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة . . هل من مسابق ؟ فقلت : أما تُكرم تكريماً وتهاب شريفاً ؟ قال : لا إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل ، فقال : إن شئت فسبقته إلى المدينة » .

وكان الصحابة يتسابقون على الأقدام بين يدي رسول الله ولكن بغير رهان .

وسابق رسول الله بين الخليل وفي الصحيح من حديث ابن عمر قال « سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخليل ، فأرسلت التي ضُمرت منها وأمدتها الحفياة إلى ثنية الوداع ، والتي لم تُضمّر أمدتها ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق » (جاء في الصحيحين عن موسى بن عقبة إن بين الحفياة إلى ثنية الوداع ستة أميال ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق ميل) .

وفي المسند من حديث أنس أنه قيل له « كنتم تراهنون على عهد رسول الله ؟ » ، قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس يقال له سَبَجَة ، فسبق الناس فبشّ لذلك وأعجبه » .

وفي مسند أحمد عن ابن عمر أن النبي سابق بين الخليل وأعطى السابق .

وإدراك لأهمية الإبل فقد سابق رسول الله بينهما كما سابق بين الخليل ، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال « كانت العضباء لا تسبق لجاء لمعرابي

على قعود فسابقها ، وكأن ذلك شقّ على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : إن حقا على الله عز وجل ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه .

وكانت الرياضة البدنية الخشنة - وهي ما يطلق عليها في عصرنا الحالي التكتيك العنيف - من شعائر الإسلام ومن أساليب نشره ، فقد كان الرسول عليه السلام يقول على مسامح أصحابه « المؤمن القوى خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف » ، ورأى عمر رضى الله عنه مرة شابا ناسكا أحنى قامعه وطأ رأسه علامة الخشوع والتبذل فحمل عليه وضربه وهو يقول « ارفع ، رأسك ، وأصلح قامتك ، لا تمت علمنا ديننا ، أماتك الله » .

وفي مقدمة ما اهتم به الإسلام في هذا المجال الرماية ، فقد أعطاه الرسول غاية رعايته واهتمامه ، وكان يحث على مباشرتها وإجادتها ، ويشجع المسلمين عليها قائلا « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . . صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

وكان الصحابة يتناضلون بالرمي عن القوس في حضرته عليه السلام ، ففي صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال « مرّ النبي عليه السلام بنفر من أسلم ينتضلون بالسوق فقال : ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال الرسول : مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم » .

وقال عليه السلام « ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل

فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة فإنها نعمة تركها .

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وقال أيضا : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » .

وكان النبي يفضل الرماية حتى قيل إنه عليه السلام كان يخطب وهو متوكئ على قوس وقال أنس « ما ذكرت القوس عند النبي عليه السلام إلا قال : ما سبقها سلاح إلى خير قط » .

وكانت الرماية سلاحاً حاداً في قتال محدود السلاح . . كانت سلاحاً هاماً ورئيسياً في المعركة ، فقد كان السهم يعد بمقام رجل ، فمن كان يعمل مثلاً عشرة أشهر ويحيد الرمي كان يصيب عشرة من الأعداء ، ويقول ابن القيم أن الخصم كان يخاف من النشأ أضعاف خوفه من السيف والرمح ، وهذه حقيقة ، فالرماية أنسكى للأعداء وأشد فتكاً بهم ، وكمن كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً لأنه يضرب عن بعد وهي لا تصل إليه ، فكان يصيبهم ولا يصيبونه ، ويقتل منهم عدداً يقساوى مع ما يحمله من سهام .

وكان المسلمون جميعاً يحيدون الرمي ، وكان أول رام فيهم سعد ابن أبي وقاص ، وكان هذا موضع فخره وكان يقول « إني لأول المسلمين

رمى المشركين بسهم » ، ولقد دعا له رسول الله فقال « اللهم سدد رميته »
وأنشد سعد :

ألا هل أتى رسول الله أنى حميت صحابى بصدق نبلى
أذود بها عدوم ذيادة بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام من معد بسهم مع رسول الله قبلى

وروى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بنى أمية ، وقد تعامها
محمد الباقر وهو في حدائنه فلما قدم على عبد الله بن مروان وكان القوم يرمون
أراد إحراجه وطلب منه أن يرمى كما يرمى الناس ، فومى وفاق كل الموجودين
فقال له « لله درك !! أنت أرمى العرب والعجم » ثم قال « يا محمد ، لا يزال
العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك » .

وقيل إنه في أخريات الدولة العباسية كونت فرقة من الرماة ، كان لها
زى خاص ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، وقد ورد في كلام حاجبى خليفة
في كشف الظنون عن سنة ٥٧٨هـ أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة الناصر
هذا الزى ، ويقولون عنه أنه موروث عن علي بن أبى طالب ، ثم سلمان
الفارسى ، وصفوان بن أمية ، وحذيفة بن اليمان ، والمقداد بن الأسود .

وفي أواخر أيام عثمان بن عفان ، أخذ العرب عن الفرس رمى البندق ،
واهتموا بهذه الرياضة كثيراً حتى نبغوا فيها ، وبرزت هذه الرياضة في عهد
الرشيد ، ثم في عهد الناصر لدين الله ، والبندق هو كرات من الطين أو
الحجارة أو الرصاص تُرمى بالقوس .. ثم اقتصروا في رميها بالزاريق أو الأنايب

بضبط الهواء من مؤخرة الأنفوية ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها صناعة الهندقية ثم المدفع بعد ذلك . . . وقيل إن فرقة من البارزين في هذه الرياضة كان لها شأن كبير في الحروب الصليبية .

واهتم الإسلام برياضة الضرب بالسيف ، وكان فناً من الفنون التي اشتهر بها المسلمون ، فقد أجادوا استخدام السيف لإجادة تفوق الوصف ، حتى إنهم كانوا يعتمدون على هذه الإجادة في جميع مواقعهم ، وسطر السيف الإسلامي صفحات مشرقة في تاريخ البطولات الإسلامية .

كان عليّ بن أبي طالب من أشهر المقاتلين بالسيف ، وهناك ألوف من المسلمين يقفون على صف واحد في المقام الأول في هذا المجال ، ويمثلون مكان الصدارة في هذه الرياضة ، وكان عليّ يتقدم في كل موطن الصفوف وينتدب المسكاره ، اعتماداً على قدرته في استخدام السيف ، حتى أنه لم يهزم في مبارزة مرّة في حياته ، ولا عجب فقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال فيه « لاسيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا عليّ » ولقب بسيف الله الغالب ، كما سمي خالد بن الوليد بسيف الله المسلول .

واهتم الإسلام بالصحة العامة للمسلمين عملاً بالمبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » ، ومن خلال هذا المبدأ دعا إلى العناية بالصحة في ما يريد الله ليجعلنا من عباده من حوج والسكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴿ وإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ و « إن النظافة من الإيمان » .

وكان الرسول يدعو الناس إلى التطهر ، ليبقى الجسم نظيفاً لا يدخله

مرض ، قوياً محصناً لا تهده علة ولا يضعفه سقم ، وطالما كان الجسد سليماً أصبح قادراً على تحمل المشاق وما أكثرها في الميدان وقت النزال .

ومن هنا كانت الحكمة في العناية بالأجسام ولقد أدركت الرئاسات الإسلامية في عهود ما بعد الرسول هذه الحكمة ، فأولتها عنايتها وتقديرها ، وبذلت غاية ما تستطيعه من جهد حتى تتحقق الكفاءة الجسمانية ، فأولت شئون الحياة عنايتها الفاتقة بالتنظيم والترتيب والتدقيق ، فظهرت في تاريخ الأمة العربية صور جذابة ونماذج أخاذة وأمثلة قوية للتفوق الجسماني .

وكان رسول الله عليه السلام مثلاً للمسلمين وأسوة في الكفاءة الجسمانية ، فقد تميز بجسم رياضي متين التركيب قوى البنية ... جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض عن صفة رسول الله « أنه كان عظيم الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخيم العظام ، عَظْلَ العضدين والذراعين والأسافل ، رَحْبَ الكفين والقدمين ، رُبْعَةُ الْقَدِّ ، ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد » .

ووصف على رسول الله فقال « لم يكن بالطويل الممغط (البائن الطول) ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة من القوم (معتدل القامة) ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط ، كان جمداً رجلاً ، ولم يكن بالمطهم (الفاحش السمنة) ولا بالمسكثم (كثير اللحم) ، كان أسيل الخد شين الكف والقدمين (غليظ) ، جليل المشاش والكتد ، إذا التفت التفت معها ، وإذا مشى يقكفاً تسكفياً كما ينحط من صلب (يميل في المشى إلى الأمام) » .

وقال أبو هريرة « ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢٣ - المدرسة الإسلامية العسكرية)

عليه وسلم في مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، كدنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإلنه لغير مكترث .

وهذه الأقوال تدل على صحة جسمه عليه السلام وسلامة تركيبه وقوة بنيانه ، وقال كفار قريش وهم يشاهدون المسلمين يطوفون بالكعبة حين اعتمرُوا بعد صلح الحديبية « سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حتى يثرب » ، فقال عليه السلام لأتباعه « رحم الله امرأأ أراهم من نفسه قوة » ، واصطبغ عليه السلام بردائه وكشف عضده الأيمن دليل القوة (أى أدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن وردّ طرفه على يساره وكشف منكبه الأيمن وغطى الأيسر) ، ففعل مثله المسلمون .

وبجانب الإعداد البدنى اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بتوفير الشجاعة والجرأة والإقدام لدى الحاربين المسلمين ، وبذل الرسول ومن بعده القيادات المختلفة جهداً كبيراً حتى يتصف المسلمون بهذه الصفات التى يتطلبها العمل الحربى فى المعركة ، وكان الرسول وكاف من بعده القيادات المختلفة مثلاً للجند وأسوة صالحة ، ولذا قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » .

كان أصحاب رسول الله هم القوة التى تمد المسلمين بالنور وتدفعهم إلى النصر ، وليس أدل على ذلك مما فعله خالد حين أمره أبو بكر بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين فى حربهم ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله وأخذهم معه ضمن قواته ، ففضب المثنى لهذا الاستئثار وقال « والله لا أقيم على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، والله ما أرجو من النصر إلا بهم ، وكيف

تقرئني منهم»، والسرى فى الاستئثار والغضب أن الصحابة قوم تميزوا بالشجاعة والإقدام والجرأة، وهم أخرى الناس بالاستبسال فى القتال وطلب الشهادة، لأن صفاتهم وحرارة إيمانهم وصحة النبى وسيرته تقودهم وترشدهم وتزكى فيهم روح الحرب، ولأنهم شهدوا مع الرسول غزواته وثبت بلاؤهم وعظمت تجربتهم وصقلتهم المعارك، فسكانوا فى كل جيش القبس الذى يهديه، والحجة التى يلجأ إليها، والقدوة التى تحتذى، ثم لأنهم حفظوا القرآن تدوى به أصواتهم، إذا اشتد سمير المعركة، فيزداد الجيش قوة ويقينا.

وارتقى المسلمون جميعاً إلى مستوى صحابة رسول الله، فكانوا جميعاً أبطالاً لا يستغنى عنهم أحد... كانوا أبطالاً شجعاناً تنبعث شجاعتهم من عقيدة يضحى فيها المسلم بكل شىء.. بأمه وأبيه وولده وكل عزيز لديه.. واجه أبو عبيدة ابن الجراح أباه فى ساحة القتال فى بدر فقال له « يا أبت اغرب عنى حق لا يقال إن أبا عبيدة قتل أباه»، ولكن أباه أمر على القتال ولكن أبا عبيدة كان يؤمن بصدق وبحق أن رابطة الله وإيمانه به أقوى من أبوة أبيه له فرفع سيفه فأرداه قتيلاً... ولد يضحى برابطة الدم والقربى فى سبيل عقيدته فيمنبرى ليصارع أباه بسيفه ويصرعه وهو يدري أى كرب يلحق به وأى حزن يمانيه من بعده، ولكن له الولاء الصادق للمبدأ وللعقيدة يسمو به عن كل ولاء وعاطفة.

لقد أذهب الإسلام من قلوب رجاله حمية الجاهلية واجتث من نفوسهم الأثرة والمصيبة... دفعهم إلى قتال المشركين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ واعلموا أن الله مع

الْمُتَّقِينَ ﴿ [التوبة : ١٢٣] ، وهذه الآية تحمل أمر مقاتلة الكفار الذين يحيطون بالمسلمين ويعيشون في مجتمعهم كمرض يجب استئصاله ، حتى يسلم هذا المجتمع فلا يتعرض للتصدع والتشقق ويجد أمناً وسلاماً واستقراراً .. ونهاهم عن الفرار من العدو وحشهم على الصبر والثبات ﴿ وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ بِأَتْمُنٍ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .. والله تبارك وتعالى في هذه الآية يستحث عزائم المسلمين ويوقظ مشاعرهم للجهاد في سبيله بعد ما عاينوه من شدائد وأهوال ، ويأمرهم بالألّا يفترّوا في طلب العدو ، وإذا كان المؤمنون يلقون أهوال الحرب إلا أنهم يستعذبونها ، لأنها تفتح أمامهم طريق الرحمة ، وتنزلهم عند الله منازل الرضوان ، وخاصة أنهم يقاتلون عن شعور بأنهم إن انتصروا عادوا بالسلامة والغنيمة، وإن قتلوا ظفروا بما عند الله ، أما العدو فليس أمامه إلا النصر أو الموت على الكفر ... ورسم لهم الاسلام طريق القتال وأسلوبه ، فالمؤمن وهو يجاهد في سبيل الله يأتي أعظم الأفعال وأكرمها وأصدقها وأشرفها ، فعليه حين يشهد القتال أن يلتحتم في صفوف المجاهدين ، وأن يأخذ مكانه في الصف ، وأن يعطى الجهاد حقه ، وأن يقاتل حتى يكتب الله النصر للمؤمنين ﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .. وحذّرهم من الفرار فإن لقوا العدو فليثبتوا له وليكون لقاؤهم معه جاداً ، فيه تصميم على النصر أو الشهادة ، دون أن تسيطر على أحد منهم رغبة في الفرار من وجه العدو ، أياً كان الموقف وأياً كانت قوة العدو وشوكته ، فإن من ينسكص على عقبه ويعطى العدو دبره ، يكون قد خرج عن الخط المرسوم ، ويكون موضع الغضب من الله ، ولكن لا مانع من أن يعطى

المسلم للعدو ظهره إذا كان ذلك لمصلحة الموقف أو للإيضاح إلى فئة أخرى من المؤمنين رغبة في النكاية بالعدو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا الْمُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال : ١٥/١٦] .

كانت شجاعة الجندي المسلم المحارب وجراته وإقدامه ، حجة للشهادة ، تنف كلها أمام فكرة الحرب من الميدان ، وتسد عليها طريقها فلم يفكر عربى في الحرب من عدوه ، لأن الإسلام جعل عقوبة الحرب صارمة وهى غضب من الله ثم جهنم .. لقد بكى المسلمون عند هزيمتهم فى موقعة الجسر ،^(١) فقال لهم عمر « لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم ، إنما إنحزتم إلى » ، اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم » ، فقد واجه المسلمون فى هذه الموقعة سلاح الفيلة ، ولم يكن لهم دراية بقتاله ، ففرّوا منه ، وتدخلت عوامل أخرى فى المعركة أدت إلى هزيمتهم ، ثم فرارهم ، فلما عادوا إلى رشدهم تنبهوا إلى خطورة ما فعلوه فبكوا وهم يألون ، وكان من الفارين معاذ فسمع قارئاً يقرأ ﴿ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ ... ﴾ إلى آخر الآية فبكى ، وعلا نحيبه ، فقال له عمر « لا تهك يا معاذ ، أنا فئتك وإنما إنحزت إلى » ، ولقد سجل التاريخ الإسلامى موقفاً مشابهاً على عهد رسول الله حين هزم المسلمون فى موقعة مؤتة ، وفروا عائدين إلى المدينة ، فقد استقبلهم الناس استقبالا سيئاً ، وقالوا لهم « يا فرار ، فررتم فى سبيل الله » ، ورفض أهل المدينة أن يغفروا لهم فرارهم حتى أن كثيراً من العائدين لم يعودوا إلى بيوتهم مداراة لخليجهم ، وقيل إن سلمة ابن هشام كان لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع لوما ، ولسكن

(١) إحدى معارك العراق .

رسول الله كان له موقف آخر فقد خفف عنهم وواساهم ، وقال للناس « ليسوا بالفرار ، واسكنهم السكوار إن شاء الله » ، فهدأت بهذا القول الكريم نفسية العائدين واطمأنت قلوبهم .

إذن فإبراز جانب الشجاعة والجرأة والإقدام عند المسلمين عامل هام له خطورته وقيمته ، لأن المعركة تحتاج دائماً إلى الرجل الشجاع الجسور صاحب القلب القوى الذى لا يهاب المواقف ولا يخشى هول المعركة ... ولهذا كان الإسلام يثير في نفوس المحاربين كل مقومات الشجاعة وعواملها وأسبابها ودوافعها .

وكان رسول الله هو القدوة ، فقد روى في الصحيحين من حديث ثابت . ابن أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم واستبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة رضى الله عنه وفي عنقه السيف وهو يقول : « لن تراعوا .. لن تراعوا » . وقال ابن عمر « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقال علي بن أبي طالب « إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرَّت الحداق انقمينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي عليه السلام ، وهو أقرب بنا إلى العدو ، وكان من أشد الفاس يومئذ بأساً » .

وتمثلت شجاعة النبي في مواقف كثيرة خلال غزواته ، نذكر منها على سبيل المثال موقعة يوم حنين وشجاعته الفائقة إذ أعجبت المسلمين كثرتهم

وكانوا يزيدون على اثني عشر ألف رجل ، وهاجمهم عدوهم وصب عليهم
وابلا من النبال فولوا متفوقين ودبّ الذعر فيهم حتى قال أخ لصفوان بن أمية
« الآن بطل السحر » ، ولكن الرسول وسط هذه الأحداث لم تفارقه شجاعته
ولم يبرح مكانه بل وقف على بقلته البيضاء في قلة من أصحابه وهو يردد « أنا النبي
لا أكذب .. أنا ابن عبد المطلب » ، وشهد المسلمون ثبات الرسول وفائق
شجاعته فعادوا من جديد متمثلين به ، وكان النصر ، وقال عليه السلام « إن
الصبر في مواطن البأس مما يفرّج الله به الهم وينجي به من الغم » .

ونذكر أيضاً ما حدث في غزوة غطفان فقد نزل المسلمون على ماء يسمى
« ذا إمر » ونزع الرسول ثوبه يحففه من مطر بلله ، وارتاح تحت شجرة
فأبصره رجل يدعى دعثور ، فجاءه بسيفه ، ووقف على رأسه وقال « من
يمنعك مني يا محمد ؟ » فقال « الله » ، فأدركت الرجل رهبة ، فوقع منه السيف ،
فتناوله الرسول وقال له « من يمنعك مني ؟ » قال « لا أحد » ، فعفاه عنه الرسول
وأسلم الرجل ، وأسلم معه قومه .

لقد أخذ المسلمون عن رسول الله وتمثلوا به واقتدوا بسلوكه .

ولهذا كان المسلمون جميعاً صورة لمواقف رسول الله شجاعة وجسارة
وإقداماً وعزماً .

ألا يدل إسلام حمزة على تجمع كل هذه الصفات في نفسه ... لقد سمع
أن أبا الحكم بن هشام آذى رسول الله وسبه ، فغضب وحمل قوسه وبحث
عنه حتى وجده جالساً في قومه ، فأقبل نحوه ثم رفع القوس ، وضربه فشجه
شجة منكراً ، وقال له « أنشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول »

وكان حمزة شجاعاً في كل معاركه حتى قتل يوم أحد . . شهدت بدر
شجاعته حين قتل الأسود بن عبد الأسود المخزومي وكان رجلاً شرساً من
كفار قريش ، وحين قتل شيبه بن ربيعة . . لقد كان معلماً بريشة نعامة في
صدره يوم بدر ، وسأل أمية بن خلف « من منكم المعلم بريشة نعامة في
صدره ؟ » ، فأجابه عبد الرحمن بن عوف « ذاك حمزة » ، فقال أمية « ذا
الذي فعل بنا الأفاعيل » .

ومن المسلمين الذين ذاعت شجاعتهم على بن أبي طالب الذي نام في
فراش رسول الله يوم الهجرة ثم شارك في جميع الغزوات ، وكانت له فيها
مواقف تتسم بالجرأة والشجاعة ، ومنها موقفه يوم الخندق عندما واجه
عمرو بن عبد ود قائلاً « يا عمرو إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل
من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .. فإني أدعوك للنزال » ،
فأجابه عمرو « ولم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك » ، فقال على « ولكني
والله أحب أن أقتلك » ، ثم تبارزا وقتله على . . . وكان على صاحب الراية
في غزوة بني المصطلق ، فلما رفض بنو قريظة حكم سعد بن معاذ صاح على
« يا كتيبة الإيمان ، والله لأذوقنّ مذاق حمزة ، أو لأفتحن حصنهم ... » ،
فلما سمعوا صيحته قالوا « يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ » .

ووصف الشاعر العربي الأعور الشنّي شجاعة المشي بن حارثة وبلاءه
في قتال الفرس في قوله^(١) :

(١) قال هذه القصيدة بعد انتصار المشي في موقعة البويب التي أزال عار الهزيمة في الجسر
وردت للمسلمين اعتبارهم والثقة بأنفسهم وبالله الذي وعدهم النصر .

هاجت لأعور دار الحى أحزاناً واستبدلت بعد بعد القيس همداناً
وقد أرانا بها والشمل مجتمع إذ بالْمُخَيَّلَةِ^(١) قتلى جندٍ مِهْراناً
أزمان سار المثني بالخيول لهم فقتل القوم من فرسٍ وجيلاًنا
سما لأجناد مِهْرانٍ وشيعته حتى أبادهم مثني ووحداًنا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثني الذي من آل شيهاناً
إن المثني الأميرُ القرمُ لا كذبٌ في الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفاناً

وبدت شجاعة القعقاع في كل المعارك التي خاضها وأسهم فيها ، ففي
يوم أغواث ثاني أيام القادسية بارز بهمن جاذويه قائد الفوس وقتله وهو
يقول « بالثارات أبى عبيد^(٢) وأصحاب الجسر » ، وكان يصيح في الجنود خلال
الاشتباك « باشروهم بالسيفوف » ، وفي يوم عماس تقدم ومعه رمحه إلى الفيل
الأبيض الذي كان يتقدم جند الفرس فوضع الرمح في عينه فقع الفيل وخفض
رأسه وطرح سائسه ودلى مشفره فضر به بسيفه فوقع لجنبه وفرت الفيلة كلها ،
وفي ليلة الهدير تعاهد مع جماعة على الموت وقال لهم « إن الدائرة بعد ساعة
لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر » ، وزحف إلى
سرير رستم ، فهرب منه إلى النهر ، حيث قتلة هلال بن علقمة ... وقاتل
القعقاع في جولاء وفي نهاوند ، فكان القائد الباسل الذي قال عنه أبو بكر
« لا يهزم جيش فيه مثل هذا » .

وكافت شجاعة سعد بن معاذ مثلاً وقدوة ... مرّ يوم الخندق بمحصن

(١) مكان قرب البويب .

(٢) يقصد أبا عبيد بن مسعود الذي استشهد يوم الجسر وكان قائد جيش المسلمين

وقتله الفيل

بنى حارثة وهو من أحرز حصون المدينة، وعليه درع قصيرة قد خرجت ذراعه.
كلها منها وفي يده حربته وقال

كَبِثَ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَلَّ لَا بِأَسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ وَكَانَتْ دَاخِلُ الْحَصَنِ « الْحَقُّ يَا بَنِي فَقَدْ وَاللَّهِ أَخَّرْتَ » ،
وَكَانَتْ مَعَهَا عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَقَتْ نَظَرَهَا الدَّرْعَ الْقَصِيرَةَ فَوَجَّهَتْ نَظَرَ
أُمِّهِ « يَا أُمُّ سَعْدٍ ، وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنْ دَرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْمَعُ مِمَّا هِيَ » ، وَأَصِيبُ
سَعْدٍ بِسَهْمٍ قَطَعَ مِنْهُ عِرْقٌ فِي الذَّرَاعِ يُقَالُ لَهُ « الْأَكْحَلُ » ، وَمَاتَ مُتَأَثِّرًا مِنْ
جُرْحِهِ ، بَعْدَ أَنْ حَكَّمَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَرَثَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ
وَمَا اهْتَزَّ عَرْشُ اللَّهِ مِنْ مَوْتِ هَالِكٍ سَمِعْنَا بِهِ إِلَّا لِسَعْدٍ أَبِي عَمْرِ
وَرِثَتْهُ أُمُّهُ فَقَالَتْ

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدًا صَرَامَةً وَخَدًا
وَسُوْدَدًا وَوَجْدًا وَفَارَسًا مَعْدًا
سَدُّ بِهِ مَسَدًا

وَفَوْقَ أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ كَانَ جَيْشُ الْقُوطِ يُزِيدُ عَلَى السَّعْمِيِّينَ أَلْفًا ، عَلَى
حِينَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَا يُزِيدُونَ عَلَى لِمِائَتَيْ عَشْرِ أَلْفًا ، وَخِلَالِ الْمَوْقِفِ الَّذِي
امْتَلَأَ حِمَاسَةً وَتَوَقَّدَ أَمْرُ طَارِقٍ أَنْ يَحْرِقَ أَسْطُولَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَ فِي خُطْبَةٍ
طَوِيلَةٍ « أَيُّهَا النَّاسُ أَيْنَ الْمَفْرَقُ ؟ ، الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ
لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ » ، وَكَانَ الْقِتَالُ شَدِيدًا ، وَاسْتَمَرَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ،
وَانْتَهَى بِنَهْضِ عَظِيمٍ وَبِهَزِيمَةِ زَلْزَلَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْقُوطِ وَرَذْرِيْقٍ .

وهناك أيضاً برزت صورة القائد الإسلامى عبد الرحمن بن معاوية صقر قریش والداخل من بنى أمية أرض الأندلس، فأسس هناك دولة ووضع دعائمها وقضى ثلث قرن فى صراع مع المقادير، وقال عنه أبو جعفر المنصور « صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ووطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذلّ الجبابرة النافرين » .

إن الكاتب - وأى كاتب - لا يسهه أن يحصى أسماء الذين تألقوا فى تاريخ الإسلام شجاعة وجوأة وإقداماً، فقد كان هناك كثيرون .. ألوف من المسلمين لا يسمع المجال بنشر روائع موقفهم، فالكل كان بطلا مغواراً شجاعاً، آمن برسالة وبهدف، وبذل كل شىء جهداً ومالاً وذاتاً، وتقدم إلى الممارك تحميه شجاعته ويجذبه إلى المعركة لإقدامه .. كأبطال مؤتة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ... ككثابت بن قيس بطل اليمامة ... كزيد بن الدائنة الذى سأله أبو سفيان « أنشدك الله يا زيد، أحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلاك »، فقال « والله ما أحب أن محمداً تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى » .. ككرام بن ملحان الذى سار إلى بئر معونة يعلم الناس الدين فضربه عامر بن الطفيل برمح فى جنبه فقال « الله أكبر، فزت ورب الكعبة » .. كزيد بن الخطاب الذى خطب الناس يوم اليمامة « أيها الناس، عضوا على أضراسكم، واضربوا عدوكم، وامضوا قدماً، والله لا أتسكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي » ... كآبى محجن الثقفى الذى قال فى بلائه يوم القادسية

لقد علمت ثقيف غير فخر بأننا نحن أزمها سيوفاً

وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوف
فإن أحبس فذلکم بلائی وإن أترك أذيقهم الختوفا

وكهاشم بن عتبة أحد أبطال فتح العراق .. وكعمرو بن العاص فاتح
مصر ... وكيزيد بن معاوية أحد أبطال فتح الشام ... وكأبي عبيدة
ابن الجراح ... وكسعد بن أبي وقاص بطل القادسية ... وكأبطال فتح مصر
عبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، وعقبة بن نافع ... وكالمهلب بن
أبي صفرة الذي حارب الخوارج وأذلهم وأذّبهم بعد أن سادنهم وعجز
كثيرون عن مواجهتهم ، فقتلهم لم يكن هيناً إذ كانت عندهم عصبية المذهبهم
وقال فيه ابن عرّاة

وليس لها إلا المهلبُ إنه ملئ بأمر الحرب شيخٌ له شأن
إذا قيل من يحمي العراقيين أومأت إليه مَعْدُ بالأكف وخطان
فذاك امرؤ إن يلقيهم يُطْفِئ نارهم وليس لها إلا المهلب إنسان

وقال أحدهم وقد رأى تصميم المهلب على تنعيمهم :

حتى متى يتبعنا المهلب
ليس لنا في الأرض منه مهرب
ولا السماء ، أين .. أين نذهب

وكعتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح كل ما وراء النهر وأدخل في حوزة
الإسلام بخاري وسمرقند ، ووصل بفتوحاته إلى بلاد الصين .. وكمحمد
ابن القاسم بن محمد الثقفي فاتح بلاد السند ... وكسلمة بن عبد الملك بن مروان

فاتح القسطنطينية . . . وكوسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحا الأندلس
ومقاتلا الفرنجة .

إنهم كثيرون . . . كثيرون . . . فوق الحصر والعد .

لقد كان لسكل قائد جيش واسكل جندى موقف يستحق الإشادة . .
إنهم كثيرون هؤلاء الذين ظهروا في تاريخ الفتوح الإسلامية ،
ولاسيما إلى حصرهم في صفحات كتاب ، وكتب التاريخ على كثرتها بها
أسماؤهم وبطولاتهم ومواقفهم ، فهي سجل خالد لا يفي ، يؤكد أنهم كانوا
أشد بأسا وأعظم شأنا وأعمق إيمانا وأقوى عزيمة وأكثر شجاعة وجراءة
وإقداما . . . لقد كان شعارهم جميعا في معاركهم التي غيروا بها وجه التاريخ
ماقاله الشاعر أبو رواء الشكري ...

إن الفتى كلّ الفتى مَنْ لم يَهْلَ إذا الجهان حاد عن وقع الأسل
قد علمتْ أنى إذا البأس نزل أروعُ يومَ الهَيْجِ مِقدام بَطَل

وفي الختام

هناك موقف تاريخي حان وقت التعرض له . . موقف لعمر بن الخطاب . .
فقد كان حريصا كل الحرص على سلامة رجاله تشبها برسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخشى عمرو قد انتشر الجند المسلمون في أما كن لم يألفوها ، واختلطوا
بسكان هذه المناطق ، أن يترفهوا ، فيفسد ذلك خلاصهم وصفاتهم ، ويقدم
الأجساد القوية والمشاعر العالية ، ولهذا وجه بيانا عاما من القيادة العامة إلى
كافة الجيوش الإسلامية في مختلف مواقعها ، وقال في هذا البيان « أما بعد
فاتزروا وارعدوا وافتعلوا (أى يأمرهم بلبس الإزار والرداء والنعل) ، والنوا

الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل (أى يأمرهم بالتمسك بعاداتهم وملابسهم) ، وإياكم والتنعم وزى العجم (أى يمنعهم من التشبه بالعجم حتى لا ينسوا عاداتهم وتقاليدهم) ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب (أى يوصيهم بالتعرض للشمس حتى تصبح أجسامهم) ، وتمددوا (أى يلزمهم عادات جدهم معد بن عدنان) ، واخششوا (أى وجههم إلى ممارسة ما يوجب الخشونة ويجعل الجسم مقيناً قوياً صلياً قادراً على تحمل المشاق) ، واخولقوا (أى يطلب منهم أن يكونوا مستعدين لما يطلب منهم فيكونون خلقاء به) ، واقطعوا الركب (أى يأمرهم بركوب الخيل من غير ركاب ، بقصد الظهور بمظهر القوة أمام العدو) ، وازروا على الخيل نزوا (أى يثبون عليها وثبا) ، وارتموا الأغراض (أى يجعلون قصدهم إصابة الهدف حين يرمون عن القوس) .

واستجاب له الجند ونفذوا أوامره .

والسبب

هو الإيمان العميق الكبير بالله وبالرسالة وبالرسول .

هو الإيمان العميق بالقدرة على المواجهة والتصرف

هو الإيمان العميق بالقيادات العليا والثقة فيهم والاطمئنان إليهم .

هو الإيمان العميق بأن الجهاد في سبيل الله شرف ، وأن الاستشهاد أرقى

مراتب الشرف

لم يكن الرجال وحدهم هم عدّة الجيش الإسلامى منذ بدر ، وحتى اتسعت رقعة الدولة ، فقد كانت المرأة المسلمة بجانب الرجل ، إذ أحست بأن على عاتقها واجباً يجب أن تؤديه كما يؤدي الرجل المسلم واجبه حيال دينه وربه ، ولهذا خرجت المرأة المسلمة تجاهد بجانب الرجل وتأخذ بنصيبها في المعركة وتؤدي واجباً أحست به من وحي إيمانها .

وأكدت المرأة المسلمة إيمانها العميق بالدين الجديد حين أصرت على الخروج مع الخارجين ، وأبت أن تبقى في بيتها تقوم بدورها العادى في الحياة .. لقد أرادت أن تسجل لنفسها مثل الرجال صفحات مليئة بالبطولة والمجد ، ولقد أثبت تاريخ الحرب الإسلامية أنها قد أتت في الميدان بجلائل الأعمال ، شأنها في ذلك شأن أعظم الرجال ، كما حفل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية بنماذج متعددة لكثير من المجاهدات اللواتي كان لهن شأن في المعارك .

وقد يقول قائل إن المرأة المسلمة هي في الأصل امرأة عربية عاشت ونمت في الجزيرة العربية ، وكانت تخرج أيضاً إلى ساحات القتال بجانب الرجل في كل ما كان يدور بين القبائل ، تعاون الرجل وتساعد ، وفروجهما إذن في العهد الإسلامى لا يضيف فضلاً إلى الإسلام .

وهذا القول صحيح لا غبار عليه ، فهند بنت عتبة زوج أبى سفيان كانت

من أشد الناس عداوة للإسلام ، حتى أنها فاقت في عداوتها كثيراً من الرجال الأشداء ، وكافت تشجيع الخارجين من قومها إلى بدر ، وتثير فيهم الحماس ، وتدعوهم لقتال المسلمين ، فلما جاءت بها أنباء الهزيمة ، وعلمت أن أباه وأخاه وعمها كانوا ضمن القتلى ، أبت أن تبكي ، وقالت للنساء اللاتي مشين إليها وقن لها « ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ » ، قالت « أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه ! والدهن على حرام حتى نفزو محمداً ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأري بمعنى من قتلة الأحبة » ، وبينما قريش تحشد حشودها استعداداً ليوم أحد أبت نساء قريش إلا أن يخرجن ، وتشاور القوم في الأمر ، فن قائل بخروجهن « فإنه أقمن أن يحفظكم وبذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » ، ومن قائل بعدم الخروج « يامعشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدبرة (الهزيمة) عليكم ، فتفضحوا في نساءكم » ، وبينما النقاش مستمر صاحت هند فيمن اعترض الخروج « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك ، نعم نخرج فنشهد القتال ، ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة ، فقتلت الأحبة يومئذ » ، وكانت هند أكثر القوم تحمساً لخروج النساء وأكثرهم رغبة في الثأر ، وانصرف رأيها ، ووافق الجميع على خروج النساء يحمسن الرجال ويثرن الحمية ويقدمن للمقاتلين الخدمات ويمدعن الغارين من الفرار ، وخرجت هند ومعها كثيرات مثل أم حكيم زوج عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد ابن المغيرة زوج الحارث بن هشام ، وبرزة زوج صفوان بن أمية ، وربطة زوج عمرو بن العاص وغيرهن . . .

ولقد اتفقت امرأتان وتآمرتا مع وحشى على قتل واحد من ثلاثة
رسول الله وحمزة وعلى ، قالت الأولى له وهى ابنة طعيمة بن عدى وكان قد
قتل يوم بدر « إن قتلتم محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى ، فإنى لا أرى فى القوم
كفوؤا له غيرهم ، فأنت عتيق » ، وقالت له الثانية وهى هند بنت عتبة
« ويها أبا دسمة اشف واشتف » ، وكانت كل واحدة من النساء قد أعدت
مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن فجعا ببدر من أب أو أخ أو زوج أو
عزيز ، وسارت النساء مع الجيش خلال الصفوف ، يضربن بالدفوف
والطبول ، وينشدن :

ويها بنى عهد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بثار

ويرددن :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق مشى القطا البوارق
والمسك فى المفارق إن تقبلوا مغانق ونفرش النمارق
وإن تدبروا نفارق فراق غير وامق عرس المولى طالق

وعندما بلغ الجيش إلى الأبواء حيث قبر السيدة آمنة أم رسول الله ،
حرضت هند الناس على نهب قبرها « لو بحثتم قبر أم محمد فإن أسر منكم أحد
فديتم كل إنسان بأرب من أربابها » ، ولسكن الناس اعترضوا على ذلك
ورفضوا ما اقترحته خشية انتقام المسلمين منهم .

ونجح حبشى فى قتل حمزة ، فأسرعت هند إلى موقعه وبقرت بطنه
وأخذت تلوك كبده بأسنانها ، واندفعت نساء قريش إلى أوضاع المعركة
يمثلن بالقتلى يجعلن الأنوف والآذان .

هذا هو موقف نساء قريش من الحرب .

إذن فالقول بخروج النسوة إلى الحرب قبل الإسلام ومشاركتهن في أحداثها قول صحيح ، ولكنه مردود عليه بردين جديرين بالتسجيل .

الأول .. إن المرأة العربية قبل الإسلام لم يكن لها وضع أو مكانة في المجتمع الجاهلي .. وكانت مهانة مستعبدة مظلومة ذليلة مهملة ، تباع وتشتري كالبهيمة والمتاع . . كان لأبيها أو لزوجها حق التصرف فيها حسب رغبته وطبقاً لشيئته ، دون أن يكون لها رأى في أمر نفسها ، فلا أحدهما أن يبيعها أو يقابض عليها أو يهبها لغيره أو يقتلها ، وإذا مات أحدهما أصبحت جزءاً من تركته يرثها من يرثه . . وكانت مكروهة من الرجال يحرمونها من الحياة بوأدها .

فأما جاء الإسلام حرر المرأة وخلّصها من استبداد الرجل ، وعاملها كخلق له مكانة في المجتمع ، ومنحها كل حقوقها ، ورفع عنها ظلم الجاهلية ، ومنع وأدها ، ونظم أساليب حياتها ، وأصبحت في عهده أهلاً للإسهام في الحياة العامة ، كما غدت ركناً هاماً في المجتمع الإسلامي ، وذكرها القرآن في مواضع كثيرة وحدّد لها رسالتها وحفظ لها حقوقها ، وجعل إحدى السور باسم النساء ، وأخرى باسم مريم ، وأول ما أكده أنها والرجل من مصدر واحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء : ١) ، و ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ

إِلَيْهَا ﴿ (الأعراف : ١٨٩) ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

وخاطب القرآن الرجل كما خاطب المرأة ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴾ (الأحزاب : ٣٥) وأعطى القرآن المرأة حقوقها المسلوبة التي افترقتها في ظل المجتمع الجاهلي ، كحق التملك والبيع والشراء والتصرف في المال ، وحدد لها نصيبها في الميراث بعد أن كانت هي جزء منه ، وفرض على الرجل أن يحسن معاملتها حتى لو كرهها ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَبَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٩) ، واحتفظ لها عند الطلاق بحقوقها في النفقة ، وقيد تعدد الزوجات بشروط قاسية ، وذكرها في آيات كثيرة مع الأب ، وطالب بالإحسان إليها ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الاسراء ٢٣) و ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (لقمان : ١٤) وعن الرسول الكريم « إنما النساء شقائق الرجال » ، وقد أوصى رسول الله بالمرأة خيراً ، ودعا إلى حسن معاملتها ومعاشرتها وحفظ حقوقها ، فأصبحت بفضلها تعدل الرجل داخل المجتمع الإسلامي ، حتى أن أول مصحف جمع فيه القرآن حفظ عند حفصة أم المؤمنين وظل عندها في عهد أبي بكر ثم عمر وعثمان .

والخلاصة أن القرآن اهتم بالمرأة وحررها من عبودية الرجل ، ورفعها إلى مرتبة إنسانية ، ونظم لها حياتها مع الأب والزوج والابن ، بعد أن كانت تعيش وسط هؤلاء جميعاً كماً مهملاً .

الثانى : إن المرأة المسلمة كانت تدرك وهى تخرج مع الخارجين أن خروجها واجب يحتمه إيمانها ، فهى لم تخرج رغبة فى انتقام أو ثأر كما خرجت هند وزميلاتها فى أحد ، ولسكنها خرجت لتقف بجانب الرجل فى كفاحه الشريف وجهاده الأعظم دفاعاً عن دينه ودفعاً للامدوان ، فهى إذن تخرج لهدف أفضل وغاية أنبل ، وهى بإسهامها فى القتال تمثل جانباً من قوى الخير التى تواجه قوى الشر ، تدافع عن حق ، وتسعى إلى سعادة البشر وارتقاء الإنسان .

فرق كبير إذن فى مبررات الخروج وأسبابه . فالمرأة الجاهلية كانت تسعى إلى نصره الظلم وتثبيت الشر وإيقاف تيار التقدم والتطور ، واستمرار الظلام والضلال والفساد . أما المرأة المسلمة فكانت تخرج لهدم هذا كله ، ولتقديم على أنقاضه مجتمعاً فاضلاً شريفاً ، تسوره مبادئ العدالة والسلوك ، ويحظى فيه الإنسان بكل ما وهبه خالقه من حرية وكرامة وحياة فيها ارتقاء وسمو .

إذن فالمرأة المسلمة كانت تمثل قطاعاً فى الجيش الإسلامى يعرف واجبه ويدرك هدفه ويقدر مسؤوليته ويفهم رسالته ويعبى دوره وأعباءه .

ولقد بدأ جهاد المرأة السلمة منذ أبدت السيدة خديجة رغبته في الزواج من رسول الله ، والمعروف تاريخاً أنها عرضت عليه على لسان صديقتها نفيسة بنت منية الجمال والمال والشرف والكفاءة والعراقة ... ووقعت السيدة الفاضلة بجانب زوجها رسول الله تشد من أزره وتعاونيه ، وتهوّن عليه الأمر وتثبتته ، وبقيت معه طوال رحلة الجهاد حتى توفاه الله وهو عنها راضٍ ... جاءها رسول الله يوماً وقال « افقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب إلى ؟ » ، فسارعت إلى الإيمان به وهى تقول « أبشر يا ابن عمى واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك أبداً » ، وكانت خديجة أول سيدة عربية تؤمن بالدعوة وتدخل في الإسلام عن عقيدة ورضى وثقة واطمئنان ، وكانت قادرة على مواجهة المواقف ، فكانت وزير صدق تسرّى عنه كل همه ، وتقوى فيه كل عارض ضعف ، وتزيل من نفسه كل خشية ، وتهوّن عليه أذى خصومه ، وظل رسول الله يذكر وفاءها طيلة حياته قائلاً « آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقني إذ كذبني الناس ، وواسقني بما لها إذ حرمني الناس » ، وقد بلغت خديجة المنزلة الكبرى عند الله ورسوله ، حتى أن جبريل أتاهها بالسلام من ربها من فوق سبع سموات ، وقد بشرها الله ببيت في الجنة من قصب (لؤلؤ مجوف) ، لا صخب (ضوضاء) ولا نصب (تعب) ، وقال رسول الله « خير نساءها مريم بنت عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد » ، وأشار الراوى لهذا الحديث إلى السماء والأرض ، والحديث روى عن الإمام على رضى الله عنه .

وكانت سمية أم عمار بن ياسر أول شهيدة في الإسلام . . كانت تعيش مع زوجها وابنها عمار وأخيه عبيد الله في كنف أبي حذيفة بن المغيرة أحد كبار بني مخزوم ، فلما سمعت بالدين الجديد آمنت به هي وعائلتها ، وأمار ذلك مشاعر بني مخزوم ، فأخذوهم إلى الرمضاء ، وتفننوا في تعذيبهم بكل ما توحى به غلظتهم الجاحمة ، وطال التعذيب ، وآل ياسر - وفي مقدمتهم سمية - صابرون إيماناً بوعده الله لهم « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، وأعمى النفيظ أبا جهل فحمل حر به و طعن بها سمية وهو يقول منها « إذا كفت قد آمنت بمحمد فما ذلك إلا لأنك عشقت جماله » ، وماتت سمية وكانت في صبرها وجلدها وتحملها صورة ومثلاً وقدوة ، وفاقت بعضاً ممن أسلموا ثم عادوا إلى دين قرش حين أضعفهم الحرمان وأذلهم التعذيب .

وعندما أشار الرسول على أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة « .. فإن بها ملسكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله فرجاً مما أنتم فيه » ، خرج المسلمون في أول دفعة وكانوا ستة عشر ، وكانت رقية ابنة رسول الله واحدة من أربع نساء هاجرن مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهن ، فقد أبت هي وسودة بنت زمعة زوج السكران بن عمرو بن عبد شمس أن يتركا زوجيهما يهاجرا وحدهما ، وقررتا أن تعيشا معهما في المهجر تخففان عنهما ما احتملاه من الأذى وما لاقياه من التعذيب ، ولقد توفي زوج سودة وخلفها من غير ناصر ولا عائل ولا معين فتزوجها رسول الله .

وكان لأسماء بنت أبي بكر دور إيجابي كبير في المعركة الفاصلة بين الخير والشر تفخر به المرأة العربية المسلمة . . فعندما كان الرسول ورفيق هجرته

أبو بكر في الغار ، كانت أسماء تقول في شجاعة وجراءة إمدادها بالطعام « فكانت تشق نطاقها وتعلق الطعام في نصفه ولهذا سميت ذات النطاقين ... وكان لها موقف آخر يذكر بالفخر والتمجيد ، فعندما جاءها ابنها عهد الله ابن الزبير وقال لها « يا أماء ، خذني الناس حتى أهلى ، ولم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من جهد ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت ، فماذا ترين ؟ » ، وأبت المرأة الفاضلة ذات التاريخ والشأن التي واجهت قوى قریش أيام الهجرة ، أن تنصح ابنها بالتراجع عن موقف اتخذته ، أو رأى ارتآه ، فقالت له « يا بني ، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعوه فامض عليه ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك » ، ثم قالت له « يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستمعن بالله » .

وكان الرسول خلال غزواته يصحب معه إحدى نسائه ، وكان إذا غزا أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرجت معه .

صحبه أم سلمة في تحركه إلى مكة للحج وحضرت صلاح الحديبية .

وخرج سهم عائشة عشية غزوة بني المصطلق .

وصحبه أم سلمة وميمونة في غزوة الفتح .

وكانت أم سلمة وزينب في صحبه خلال حرب الطائف .

وفي غزوة أحد كانت فاطمة بنت محمد مع الجيش ، وعلمت بما أصاب

أبأها من جراح ، فأسرعت إليه تضمد جراحه ، وجاءت بقطعة من حصير
مصنوع من سعف النخل وحرقتها وأخذت شراها ووضعته على الجرح
فماسك وجف .

وكانت عائشة أم المؤمنين تحمل القرب في أحد وتسقى الظمآن ،
وتساعدنها في ذلك أم سليم زوج أبي طلحة زيد بن سهل وأم أنس بن مالك
وخالة رسول الله من الرضاع ، وعن أنس رضى الله عنه قال « لما كان يوم
أحد ، انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واقد رأيت عائشة بنت
أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرى خدم سوقهما (خلاخل السيقان)
تبتلان القرب على متونهما ، ثم تفرغان في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملاؤها
ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم » وقالت امرأة مسلمة هي ربيعة بنت
معوذ « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسقى القوم ونخدمهم ونرد
القتلى والجرحى إلى المدينة » .

وطلبت أم ورقة بن نوفل من الرسول أن يأذن لها في الخروج إلى بدر
فألت « يا رسول الله ، ائذن لي في الغزو معك ، أمرض مرضاكم لعل الله
يرزقني الشهادة » ، فرفض الرسول رجاءها وقال « قرى في بيتك ، فإن الله
يرزقك الشهادة » .

وفي غزوة الأحزاب رأت صفية بنت عبد المطلب يهودياً يمر بالحصن ،
فألت لحسان بن ثابت « إن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه
أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، ورسول الله وأصحابه قد شغلوا عنا
فانزل إليه فاقتله » ، فأجابها « يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله ما أنا

بصاحب هذا » ، فأخذت صفيحة عموداً ، ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى فقتلته .

وروى مسلم عن أم عطية رضى الله عنها أنها قالت « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رجالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

ودور المرأة المسلمة في تاريخ المعارك والحروب غير قاصر على عهد رسول الله ، بل كان له مكانه وآثاره وملاحمه في كافة العهود الإسلامية ، ومراجعة تاريخ الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها بالأمثلة والروايات والقصص عن دور المرأة المسلمة العظيم في تاريخنا الإسلامى العسكرى .

ولا يختلف اثنان في أن المرأة المسلمة خرجت تسعى كما يسمى الرجل ، وتجاهد بدافع من شعور وإحساس وإيماء عقائدى ، فلم تجبن وهى السيدة الرقيقة ، ولم تقاعد وهى السيدة الوديعه ، ولكنها اندفعت بكل حواسها ومشاعرها ، بكل عقلها وفكرها ، بكل قلبها ووجدانها ، تؤدى واجباً فرضه الله عليها ، بكل الثقة والأمل والإيمان ، والصبر والمصابرة ، والتحمل والجلد .

وروى أن رسول الله قدّر لأمية بنت قيس الفغارية دورها في غزوة خيبر ، فأعطاهها قلادة ظلت تزين بها صدرها طوال حياتها ، فلما ماتت دُفنت معها عملاً بوصيتها .

ولم تكن المرأة بطبيعة الحال تحمل السلاح وتقاتل به لأن طبيعتها تخالف طبيعة الرجل ، وإمكاناتها في هذا المجال محدودة ، ولكنها كانت تقوم

بالأعمال التي تناسبها كأعمال الإعاشة ، وهى أعمال هامة ذات قيمة بالنسبة للمقاتلين ، فالجيش المقاتل يحتاج دائماً إلى سيل لا ينقطع من الغذاء والماء والسلاح ، ولهذا كانت المرأة تنقل بين الصفوف ، تقدم الماء للعطشى ، والطعام للجائع ، والسلاح لمن فقد سلاحه .

وكانت أيضاً بحكم طبيعتها التي تتميز بالحنان والرفقة ، تقوم بخدمة الجرحى من المسلمين ، فتعنى بهم وتضمّد جراحهم وتسهر على راحتهم وتهون عليهم آلامهم ، حتى تشفى الجراح ويعود الجريح إلى المعركة من جديد سليماً صحيحاً قادراً على مواصلة الكفاح .

وكانت أيضاً تعمل على رفع روح المقاتلين المعنوية ، وتثير فيهم الحماس للقتال ، وتدعوهم إلى الهذل والمطاء ، وتشجعهم على مواجهة العدو .

ومن خلال هذه الأعمال الجليلة تكون المرأة المسلمة قد أدّت في الميدان الخدمات التي تؤديها في حروب اليوم إدارات الإمداد والتموين والخدمات الطبية والتوجيه المعنوي وجماعات إخلاء الجرحى .

ولو رجعنا إلى أحداث المدرسة العسكرية الإسلامية ومعاركها ، لثبت أن دور المرأة المسلمة لم يكن قاصراً على هذه الأعمال وحدها ، فالمرأة كانت حين يشد القتال ويحمى وطيسه تأخذها الحماسة وتلهب مشاعرها ، فتحمل السيف وتحارب مع المحاربين ، كما كانت تفعل صفية بنت عبد المطلب وأم نسيبة بنت كعب التي أمارتها أحداث غزوة أحد ، فتركت الماء الذي كانت تحمله وحملت سيفاً وحاربت حتى أصيبت ، ووصفت ما حدث في قولها « خرجت ليلة أحد لأنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به

الجرحى ، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والريح مع المسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ، فقامت أباشر النضال دونه ، وأدب عنه بالسيف ، وأرمى بالنبل عن القوس ، حتى خلصت الجراحة إلى » .

وان ينسى التاريخ العسكرى دور أروى بنت الحارث بن كلفة طبيب العرب المشهور ، التى قادت كتيبة من النساء ، وقالت لمن « لو لحقنا بالمسلمين . فكنا معهم (أى عوفاً لهم) » ثم عقدت لواء من خمارها ، واتخذت باقى النساء من خمورهن رايات ، واندفعت السكتيبة إلى حيث كان المسلمون فى ميسان يواجهون عدوهم ، فلما رأى العدو الرايات مقبلات من بعيد ، ظن أن مدداً للمسلمين فى الطريق إلى المعركة ، ففرّ ، وتبعه المسلمون وطاردوه وقتلوا منه عدداً كبيراً ، وكان هذا العمل من النساء المسلمات غاية فى الجرأة ونهاية فى الإقدام ، كما سجل التاريخ لأم حكيم بنت الحارث أنها خاضت معركة بين الروم والمسلمين . وهى عروس لم تفارقها رائحة العرس ، وكان زوجها هو الآخر أحد جنود الإسلام فى المعركة ، وسقط شهيداً أمامها ، دون أن تبكى وتنتحب ، فشددت عليها ثيابها وانزععت عمود الفسطاط الذى شهد ليلة زفافها ، وصرعت به سبعة من الأعداء عند قنطرة لا تزال تعرف حتى يومنا باسم قنطرة أم حكيم .

ولقد أشار الكاتب المؤرخ إدوارد جييون فى كتابه « تاريخ الإمبراطورية الشرقية » ، بدور المرأة المسلمة وتحدث عن بطولاتها وشجاعتها وخاصة فى حصار دمشق ، وقال « إن هؤلاء النساء التى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل ، اللاتى إذا وقعت إحداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينتها من أى إنسان يريد بها سوء » .

... كما أشاد كتاب غيره كثيرون . بدور المرأة المسلمة وخاصة فى اليرموك

والقادسية ومختلف معارك الإسلام ... وكان للمرأة المسلمة دور في الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، لا يقل عن الدور الذي كان لها في المعارك داخل الجزيرة .

وأكثر النساء شهرة هي سلمى زوج المثنى بن حارثة الشيباني ، فقد رافقته في جميع المعارك التي خاضها ، وبقيت بجانبه حتى وفاته ، ثم حملت وصاياه إلى سعد بن أبي وقاص الذي تولى قيادة الجيش من بعده ، وكانت لهذه الوصايا أثر كبير في تقييم الموقف العربي في أرض العراق ، وإعداد خطط المواجهة .. ولقد خطب سعد سلمى وتزوجها ، واستمرت تؤدي دورها بجانبه حتى انتهى القتال بين العرب والفرس ... بينما كانت معركة القادسية تدور رحاها ، كان سعد يقود المعركة من مكان مرتفع يشرف عليها ، لأنه كان مريضاً ، ولم تسمح له حالته بالاشتراك الفعلي في المعركة ، واكتفى بإدارتها وتوجيهها وهو خارج المعركة ، وكانت سلمى إلى جانبه ترى ما يرى وتشاهد المعركة عن قرب ، فكانت تعجب حيناً بأبطال العرب ، وتفزع حيناً مما تصيب به الفيلة رجال بجيلة وأسد ، وكانت تذكر ما كان لزوجها المثنى من مواقف حين يمتد القتال ويشتد النزال ، فلما رأت الفرس يشتدون على أسد ويقتلون منهم صاحت « وامثنياء ! ولا مثني للخيل اليوم » ، وآلم قولها سعد وأغضبته صيحتها ، فلطم خدها وهو يقول « أين المثنى من هذه السكتيبة التي تدور عليها الرحى ؟ » ، ولم تطأطأ اللطمة من رأس المرأة الأنوف ، فحدقت في سعد وقالت « أغيرة وجبناً » ، نفجّل سعد لما صنع ، وقال لها « والله لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين ما بي ... » وكان لسلمى موقف آخر يذكر لها بالفخر والتقدير ... كان سعد قد حبس أبا محجن الثقفي وقيّده ، وهو من فرسان العرب المشهود لهم ، فلما دارت معركة القادسية أراد أن يشترك فيها ، ولكن سعداً منعه ، فلما اشتد

القتال وتردد تكبير الفاس في أذنه ، صعد يجر أغلاله حتى أتى سعدا يستعفيه ،
ولكنه زجره وردّه ، فذهب إلى سلمى يطلب منها أن تحلّ قيده وأن تعيره
البلقاء فرس سعد ، وأقسم لها أن يرجع إذا سلم فتضع رجله في القيد ، فرفضت
فرجع كئيها حزينا إلى مكانه ، وأخذ ينشد أبياتا من الشعر ، فلما سمعتها
رقت له ...

كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقها
وإذا قت عناني الحديد وأغلقت مصاريع دوني قد تصم المناديا
وقد كنت ذال مال كثير وإخوة فقد تركوني واحدا لا أخاليا
هلم سلاحي لا أبالك إنني أرى الحرب لا تزدد إلا تماديا
ولله عهد لا أخيس بهمه لن فرجت أن لا أزور الحوانيا
وقبلت سلمى أن تعطيه فرصة يرجوها ، ولم تشأ أن تحبس فارسا مغوارا
عن معركة يأمل المسلمون فيها النصر على عدو يفوقهم ويحارب فوق
أرضه ، فقالت له « لقد استخرفت الله ورضيت بهدك » ، وأطلقته ،
وأسلمته البلقاء فركبها ، وانطلق بين الصفوف يكبر ويركض بالفروس إلى
الميمنة حينما وإلى الميسرة حينما آخر ، ويقصف الأعداء بسيفه قصفا منسكرا ،
وتطلع سعد إليه من مكانه وقد تولته الحيرة والدهشة ، وقال « والله لولا محبس
أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء » ، وانتهت المعركة وقد أبلى
فيها ، فرجع إلى مكانه ، ووضع رجله في القيد ، وسلم الفرس لسلمى ، وتحامل
سعد على نفسه ونزل إلى بيته ، فوجد فرسه يعرق ، فسأل سلمى فروت له
ما حدث ، فعفا عن أبي محجن وأطلقه وقال له « إذهب فإنا مؤاخذك
بشيء تقوله حتى تفعله » .

كانت المرأة المسلمة خارج الجزيرة ذات شجاعة وقدرة على مواجهة أى موقف تتعرض له ، فقد حدث أن أرسل المثنى بن حارثة بعد انقصاره فى البويب بفصيب النساء من الغنمية ، وكن يقمن فى القوادس على تخوم شبه الجزيرة بالحيرة ، وكان دليل من حل نصيبهن عمرو بن عبد المسيح بن بقليلة ، فلما رأت النسوة إقبال الخيل حسبها غارة عليهن ، فقمن ومعهن الصبيان بالحجارة والعمد ، وواجهن الخيل ، فانشرح صدر عمرو وقال مبهجاً « هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش » .

وقبل أن ننهى حديثنا عن المرأة ودورها فى المعركة ، نرى لزاما علينا أن نطرح بكل فخر وإعجاب ، ماسجلته المدرسة العسكرية الإسلامية للمجاهدة الكبيرة والمكافئة البطلة ذات الجهد والقاريخ أم نسيبة بنت كعب ، وماسجلته أيضاً للمقاتلة الشريفة والمناضلة العظيمة خولة بنت الأزور .

وأم نسيبة

هى فى جهادها مثل وقدوة للمرأة المكافئة ، لافى عصرها وحده ، ولكن فى كل العصور ، وليس فى وطنها فقط ، بل فى جميع بلدان العالم .

هى امرأة من أهل يثرب ، ومن بنى النجار على وجه التحديد
زوج لزيد بن عاصم ، وأم لولدين هما عبد الله وحبيب . . . مات عنها زوجها فتزوجت بغزية بن عمرو . . . تفتح قلبها للإسلام حين سمعت به وفهمت أصوله ، فأسلمت مع من أسلم من بنى النجار ، وأسلم معها أهل بيتها ، وخرجت معهم إلى مكة تباع رسول الله ، وشهدت العقبة وبيعة الرضوان .

وعندما هاجر الرسول إلى المدينة كانت فى استقباله ، وقدمت ابنها

عهد الله لي-كون جندياً من جنود الإسلام ، نخرج مع الخارجين إلى بدر وأبلى فيها يلاء حسناً .

وفي أحد خرجت هي بنفسها ومعها زوجها غزية وابنها عبدالله ، وكانت تقوم بالسقاية ، فسمعت ابن قميئة يقول « دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجأ » ، فتركت سقاءها وهجمت عليه فضربها بسيفه على عاتقها وقالت في ذلك « اعترضت لأمنعه عنه صلى الله عليه وسلم ، أنا ومصعب بن عمير وأناس ، فضربني هذه الضربة ، ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات ، ولكن عد والله عليه درعان فلم تؤثر فيه ضرباتي » ، وقال رسول الله « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » .

هاجها ففر من قريش أثناء القتال ، ولحقها رسول الله ولم يكن معها ترس تحمي به نفسها ، فأمر رجلاً معه ترس أن يقدمه لها وقال « إلق ترسك إلى من يقاتل » ، فأخذت أم نسيبة الترس ، وكانت تترس به رسول الله دون نفسها ، ولحقها أحد فرسان قريش فهاجها وضربها ، فلم تصب لأنها تترست ، ثم هاجته وهو يهيم بالفرار ، فضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره ، ولحقها الرسول فصاح يدعو ابنها لمعاونتها « يا ابن أم عمارة .. أمك .. أمك » ، ولحق بها ابنها وتعاونوا معاً فقتلا الفارس .

وجرح ابنها خلال القتال وأشار عليه الرسول « أعصب جرحك » ، فأقبلت الأم ومعها عصائب تباشر مهامها الأصلية ، فربطت جرحه ، وأمرته على الفور أن يحمل سلاحه وأن يباشر القتال « انهض فضارب القوم » ، وسمعها رسول الله فنظر إليها في إعجاب وقال « من يطيق ماتطيقين يا أم

عمارة » ، ثم أشار عليه السلام إلى رجل من المشركين وقال لها « هذا ضارب ابنك » ، فاعترضت طريق الرجل ، وضربت ساقه فوقه ، فانقضت عليه وقتلته ، فقال لها الرسول « الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك تارك بعينيك » .

روى صخرة بن سعيد المازنى أن أم عمارة كانت تقاقل أشد قتال وهى حاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً ، وأن الرسول قال لابنها « مقام أملك خير من مقام فلان وفلان » ، فلما سمعته صاحت والدم ينفجر منها تطلب منه أن يدعو لها بالشهادة لتدخل الجنة . « ادع الله أن يرافقك فى الجنة » . فقال الرسول « اللهم اجعلهم رفقاءى فى الجنة » ، فهتفت فور سماعها دعاء الرسول « ما أبلى ما أصابنى من الدنيا » .

بعد عودة المسلمين من أحد أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو ونادى « لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس » . (يقصد قتال الأمس فى أحد) ، وأرادت نسيبة أن تخرج مع الخارجين إلى حمراء الأسد ، ولكن جراحها غلبتها فمنعها ، وتقول الروايات إنها شددت عليها ثيابها فما استطاعت أن توقف الدم ، فلما تعذر عليها الخروج ، بعثت بابنها عهد الله ، وأوصته بالكفاح المبرر .

وبعث رسول الله بابنها حبيب إلى مسيلمة الكذاب ، فلم يرجع الأخير حرمة الرسل ، وقبض عليه وأوثقه ، ثم سأله « أتشهد أنى رسول الله » ، فقال « لا أسمع » ، فجعل مسيلمة يقطعه عضواً عضواً حتى مات ، فنذرت أمه أن ترى مقتل مسيلمة .

وبعد أن جهز أبو بكر جيشه إلى اليمامة خرجت نسبية مع الخارجين ، وكانت في السنين من عمرها ، أملا في أن تفي بنذرهما وفي الاستشهاد ، وسمع لها أبو بكر بالخروج على شرط أن تبقى محجبة في هودجها ، وخرج معها ابنها عبد الله .

ولما أشد القتال وانهزم المسلمون في أول الأمر وفر كثيرون منهم ، لم تستطع أن تبقى بعيدة عن المعركة ، فاسقلت سيفاً وتقدمت مع الجوع التي زحفت مع خالد ، وأدرك جند مسيلمة الجهد الذي تبذله هذه المقاتلة الباسلة ، فهاجمها نفر منهم ، وأصابوها اثني عشر إصابة ، وقطعوا يدها ، فلم تقبل ، وظلت على إقدامها حتى وصلت مع كوكبة من الأنصار - كان أحد جنودها ابنها عبد الله - إلى حيث مسيلمة ، وهناك شهدت مصرعه ، فقد رآه وحشى قاتل حمزة - وكان قد أسلم بعد أحد وحضر اليمامة - فمزح به حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته ..

وعادت المرأة بعد ذلك إلى بيتها حيث وافاها الأجل ، وحانت لحظة الوداع التي كانت تسعى إليها في الميدان ..

وأسلمت المرأة المكافأة الروح .

هذه هي قصة امرأة عربية مسلمة شاركت في الحرب وأسهمت في الكفاح في سبيل الله والدين والحياة ، وأكدت صدق مشاعر وأحاسيس المرأة الإسلامية وصدق إيمانها وعقيدتها وصدق بلائها .
رحم الله أم نسبية وغفر لها .

وخولة بنت الأزور

كانت صورة ومثلاً لامرأة مسلمة جاذبت الرجال حبلى البطولة ، واصطلت نيران الحروب ، فأمالت ميزانها ، وأثارت نيرانها ، وعقدت دخانها ، وملكت عفانها .

وخولة هي أخت ضرار بن الأزور ، نشأت في بيت قامت دعائمه على القوة والمضاء في الجاهلية ، ثم في الاسلام . . قُتل أبوها دفاعاً عن رسول الله وبين يديه ، وقتل أخوها ضرار في حروب اليمامة .

بدأ دورها في أجنادين . . . لاحظ خالد أن فارساً لا يبين منه إلا الخلق ، يقذف بنفسه ولا يلوى على ماوراءه ، كما جاء في رواية الواقدي في فتوح الشام ، فساءل ومن معه « من هذا الفارس ؟ وأيم الله إنه لفارس » ، وتبعه ورجاله حتى أدرك الفارس جند الروم ، فحمل عليهم وأمعن بين صفوفهم ، وزعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، ولم تكن غير جولة جائل حتى قتل رجالاً كثيراً ، وشاهد المسلمون الآخرون القتال ، وظنوا أن هذا الفارس هو خالد ، وخافوا عليه ، فلما تقدم منهم خالد سأله رافع بن سميرة « من الفارس الذي تقدم أمامك !! فقد بذل نفسه ومهجته ؟ » ، وأجابه خالد « والله لأنا أشد إنكاراً وأعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائه » ، وبينما القوم في حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، وانخليل تعدد في أثره ، وكلما اقترب منه أحد مال إليه وضربه برمح في صدره ، حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به وناشدوه أن يكشف عن شخصيته وأن يصرح باسمه ، وأن يرفع نقابه ، ولما أعرض عنهم ، فطلب منه خالد

أن يزبح الستار عن حقيقته ، وألح في طلبه ، فقال الفارس « أيها الأمير ، أنا لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من دوات المخدور ، وإنما حملني على ذلك أني محروقة السكبد زائدة السكد » ، فسأل خالد « من أنت ؟ » ، فجاءه الرد الذي كان مفاجأة « أنا خولة بنت الأزور ، كنت مع بنات قومي ، فأتاني آت بأن أخي أسير ، فركبت وفعلت ما رأيت » .

وموقف آخر لخولة .

فقد وقعت مع بعض النسوة في الأسر في موقعه محورا ، ولم يكن مهن سلاح ، فأخذت تثير نخوة زميلاتهن ، وتضرم نار الحمية في قلوبهن ، وقالت لمن « خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، وأحملن على هؤلاء اللثام فلعن الله ينصرنا عليهم » ، فأجابها امرأة تدعى عقراء بنت عفار « والله مادعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت . . »

وتتابعت النساء خلفها ، كل تحمل على عاتقها عموداً فقالت لمن « لا ينفك بعضسكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتماسكن ، ويقع بكن النشيت ، وحطمن رماح القوم وكسرن سيوفهم » .

وكانت هذه الكلمات هي بمثابة أمر عمليات ، أصدرته عقلية ذات حنكة عسكرية ، وقدرة قتالية فائقة ، وفهم عميق لكيفية التعامل مع العدو ، وإدراك واع لأسلوب القتال ومنهجه ، فهي قد طلبت منهن أن يكن يداً واحدة متأسكة متضامنة ، فإن ذلك يضعف العدو ويكون قوة يعجز أمامها ، كما أنها طلبت أن يهاجن دفعة واحدة فلا تكون هناك فرصة أمام العدو

ليفترق بينهم ، ثم لما طلبت منهم أن يوجهن كل قوتهن ضد سلاح العدو فإذا حرمنه منه أسقط في يده ، وأصبح عاجزاً عن المقاومة . . ملخص
أمر العمليات أن تكون قوة الهجوم متماسكة ، وأن يكون هدف الهجوم
تخريب سلاح العدو .

وتم الهجوم ، وقاتلن حتى تخلصن جميعاً من قبضة الروم ، وأنشدت
خولة بعد نجاحها ...

نحن بنات تبـع وحـير وضربنا في القوم ليس يفـسـر
لأننا في الحـوب نار تسـعـر اليوم تسقون العذاب الأكبر

وتوفيت خولة في خلافة عثمان بعد أن شهدت معارك كثيرة ، ولم تجعل
للرجال فيها خلة يستأثرون بها دونها ، ولم تترك سبيلاً من سبل العظام إلا
وكانت سابقة لها ، وتمثلت فيها — في كل وقائعها — مقومات المقاتل
... الإيمان والشجاعة والإقدام .

عاشت خولة بطلة فما أكرمها وأعظمها .

في الآية السرية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
 الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ
 اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾
 (الأنفال ٦٠) ، أمر الله تبارك وتعالى بالإعداد للمعركة والاستعداد
 لخوضها ، ودعا المسلمين إلى أن يكونوا مستعدين للقتال وألا يدخروا وسعاً
 في الاستعداد لمواجهة أعدائهم ، وأن يجهزوا أنفسهم بكل أنواع القوة ،
 ولكن في حدود استطاعتهم وإمكاناتهم ، لأن النصر في أية معركة
 لا يتحقق إلا بالاستعداد الكامل التام . . أفراداً . . وسلاحاً . . وتنظيماً . .
 وخطة . . وقيادة .

وهذا الأمر الإلهي يحدد أمرين هامين هما في حقيقة الأمر ركيزتين من
 ركائز المعركة وهما :

* إعداد القوة

** الإنفاق في سبيل هذا الإعداد .

وإعداد القوة

يعنى إعداد الأفراد المقاتلين جسماً وحساً ، وتأهيلهم لدخول المعركة
 تأهيلاً نفسياً وصحياً ، لكي يستطيعوا تحمل أهوالها ومواجهة شدائدتها ،

والصبر على مرارتها ، فالحرب دون شك شر لها أهوالها ومرارتها
وويلاتها ، مصداقاً لقول الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى ...

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريرتموها فتضرم
فقركم عرك الرحي بنفاله وتلقح كشافاً ثم تلقح فتشم

هذه الصورة القاسية البشعة لميدان الحرب تتطلب مقاتلاً من نوع خاص ،
يعيش أحداثها وحوادثها بأعصاب قوية وقلب مؤمن وروح متحفز وعقيدة
راسخة ، وهذا كله كان موضع اهتمام المدرسة العسكرية الإسلامية كما أوضحنا
في الصفحات السابقة من هذا المبحث .

ولإعداد القوة يعنى أيضاً إعداد السلاح الذى يقاتل به المحاربون
ويواجهون به أعداءهم ، ولقد بالغت المدرسة العسكرية الإسلامية فى الاهتمام
بهذا الجانب من القوة . . أى بالسلاح... وأعطته كل عنايتها ، وبذلت كل
جهد ... وقدر استطاعتها فى ضوء الظروف التى مر بها المسلمون - فى سبيل
إعدادهم وتوفيره كما وكيفا ، أى بالقدر الذى تتطلبه احتياجات المعركة ،
وبالجودة الواجبة .

وكان السلاح فى بداية العهد الإسلامى هو ذات السلاح الذى تعود
العربى فى الجزيرة عليه ، وهو السيف والرمح والقوس ، ولسكن تناول هذا
السلاح التطوير فى الصناعة والاستخدام ، وأدخل عليه نوع أو أكثر مثل
المنجنيق والدبابات والسلاح البحرى . . كان المسلمون لا يتعاملون مع البعحر ،

وكانوا يحرصون على الابتعاد عن مناطق المياه قدر استطاعتهم ، لأنهم كانوا يهابونها ويخشونها ، إلا أنهم في عهد عمان ثم في ظل الخلافة الأموية اضطروا إلى ركوب البحر ، ومن هنا بدأ اهتمامهم بشئون الحرب البحرية ، «ظهرت صناعة السفن الحربية ، وأنشئت دور الصناعة ، وتطلب التوسع الكبير في استخدام البحر وجود قواعد بحرية ، فأقيمت عدة قواعد في قبرص ورودرس وجزر الأرخبيل (١) .

ولم يقف السلاح المستخدم في القتال عند نوعية محددة ، فقد شمله التحسين وأدخلت أسلحة جديدة كالديابة والسكبش ، وهى أسلحة تستخدم في ذلك الحصون وهدم الأسوار ، مع ضمان الحماية اللازمة للمهاجمين ، وهى تشبه إلى حد كبير في الشكل والمهمة الواجب التكتيكي للديابات التى تستخدم في حروب اليوم ، فهى تحمى طاقمها من نيران العدو ، وتقدم به في أرض العدو تدمر الدشم والمواقع ، وتغذف من بعيد مناطق التجمع والحشد .

وكان السلاح الراكب هو الخيل ، وكانت الخيل هى السلاح الرئيسى في المعركة الإسلامية امتداداً لدوره في الجاهلية في القتال الذى كان يقع بين القبائل ، ولهذا كان المسلمون يستخدمون الخيل ، وكذلك كان أعداؤهم يستخدمونه ، إلا أن المسلمين فاقوا أعداءهم في ركوب الخيل وفي أسلوب استخدامها في القتال بدرجة عالية من الكفاءة ، قال القعقاع بن عمرو « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت للجهاد ؟ ، قلت : طاعة الله ورسوله والخيل ، قال : تلك الغاية » .

(١) الحديث بالتفصيل عن الأسطول البحرى ص ٤٢٠ .

وكانت الدروع هي السلاح الوقائي الذي استخدمه الجنود المسلمون لحماية أنفسهم من ضربات السيوف ووخزات الرماح .

وهكذا كانت عدّة الجندي المسلم في المعركة سيف عَضْب ورمح لَدَن ودرع سابغة وبيضة تلمع ، ولقد ذكرها الشاعر العربي في هذه الأبيات ...

وأصبحتُ أعددتُ للثَّـائبَاتِ عِصاً بَرِيئاً عَضْباً^(١) صَقِيلاً^(٢)
ووقع لسانُ كحد السَّفَانِ ورمحاً طویل القنْصاقِ عَسُولا
وسابغة من جِيَادِ الدروع تسمع للسیف فیها صلیلاً
كمتن الغدير زهته الدَّبور يُجْرُ المدجَّجُ منها الفُضُولَا

وأضاف شاعر عربي آخر إلى هذه العدّة القوس والسهم ليرمي بها عدوه فقال :

بَطَّردُ لَدَنٍ صِحاح كعوبه وذی رونق عَضْبٌ یَقْدُ القَوَاسِا
وبیضاء من نسج ابن داود نَثْرَةٌ تخیرُهَا یوم اللقاء الملبِسا
وحِرْمِیةٌ مَنسُوبَةٌ وَسَـلَاجِمٌ خِفَافٌ تری عن حدها الشَّمُّ قَالِسا

فهذا الشاعر يحدد في أبياته عدته فهي رمح مستقيم لدَن يهتز في يده صِحاح كعوبه ، وسيف له رونق عَضْب يقذفه على الخوذات ، ودرع بيضاء قديمة من نسج سليمان بن داود ترد السهم كانت الملبس يوم اللقاء ، وقوس مقينة معروفة الأصل منسوبة ، وسهم طوال خفاف تقذفه الشَّمُّ .

(٢) صَقِيلاً = مصقولاً لا مَعاً .

(١) العَضْب = السيف القاطع

وانفق أكثر من شاعر عربي في تحديد هذه الأسلحة في أشعارهم ، ولم
يزيدوا عليها ... وهاهو ذا شاعر آخر يقول ...

يومَ لامال للمحارب في الحرب سوى نصر أسمر عسَّال^(١)
ولجام في رأس أجرد^(٢) كالجذع طوالٍ وأبيض قصَّال^(٣)
ودِلاص^(٤) كالنَّهْي^(٥) ذات فضول ذاك في حلبة الحوادثِ مالى

كان السيف هو السلاح الأول في المعركة

كان سلاح الهجوم والقوة الضاربة في يد الجند المسلمين ، يهجمون
به على العدو ويوجهون إليه به طعنات واثقة قاتلة ، ويطعنون به الخيل التي
تحمل الأعداء ، واستخدمه العرب في قتل الفيلة التي استخدمها الفرس في
معاركهم ضد المسلمين .

كان السيف أشهر الأسلحة وأحسن آلاتهم وأكثرها استخداماً ،
وأعظمها ذكراً وإسماعاً وصفة ، وأقربها إلى نفوسهم . . كانوا يعشقون السيف
ويحبونه ، حتى أنهم كانوا يطلقون عليه أسماء متعددة (قاربت الأسماء مائة
اسم) ، وكانت الأسماء صفات ، والصفات تسكّر للشئ حين تزيد العناية
به والتفنى بمحامده وآثاره . . وكان العرب في خصوماتهم يحتمكون إلى
السيف .

(١) رمح مرن لا ينقص

(٢) قصير الشعر

(٣) قاطع

(٤) درع ماساء

(٥) الجدول

ولسكن حكم السيف فيكم مسلط فترضى إذا ما أصبح السيف راضيا
وبالغ العرب في امتداح السيف فوصفه الفابغة مثلاً بالحسدة وقوة المضاء
في قوله ...

فهم يقساقون المنية بينهم بأيديهم يبيض رقاق المضارب
بطير فضاضاً^(١) بينها كل قونس ويتمها منهم فراش الخواجب
تقد السلوق^(٢) المضاعف نسجه وتوقد في الصفا^(٣) ناراً لها حجب^(٤)
والنابغة يعنى أن السيف حاد ذات ضربة قوية تطيح بالبيضة المصنوعة
من الفولاذ ، ثم تطيح بمعظم جمجمة العدو ، وتقطع الدروع ، وتنفذ إلى بدن
العدو ، ثم تصل إلى الحجارة فوق الأرض فتقده منها الشرر .
وكان السيف يصنع محلياً وكان يستورد أيضاً .

وكان أول من صنعه رجل من العرب يسمى الهالك بن عمرو بن أسد
ابن خزيمة ، وكان يطلق على صانعي السيف لقب الصقيل ، وعلى كل حداد
لقب هالكي ...

ولم ندر إن جضنا من الموت جيضة كم العمر باقي والمدي متطاول
وإذا ما ابتدرنا مازقا فرجت لنا بأيما لنا بيض جاتها الصياقل
وكان السيف يؤثر على سواء من أسلحة الحرب ويفضل عليها ، قال ضرار
بن الأزور

(١) شوقا

(٢) دوع نسبة إلى بلدة سلوق بالشام

(٣) الحجارة العريضة

(٤) ذباب له شعاع بالليل

ولو سئلت عَنَّا جَنُوبَ لُخْبَرْت عَشِيَّةَ سَالَتْ عَقْرَبَاءُ^(١) بِهَا الدَّم
عَشِيَّةَ لَا تَفْنَى الرِّمَاحَ مَكَانَهَا وَلَا النَّبِيلَ إِلَّا الْمَشْرِفُ^(٢) الْمَصْعَمُ

وكانت أشرف السيوف العربية اليمنية والسليلية والخراسانية والمشرقية
والهندية والسُريجية ، ومن هذه الأسماء الكثيرة ندرك أن العرب كانوا
يبحثون عن السيف الجيد الصفة فيستجلبونه من أى بلد يشتهر بصناعته ،
فقالوا مثلاً فى السيوف الهندية ...

أَكْرَهَ عَلَى الْفَوَارِسِ يَوْمَ حَرْبٍ وَلَا أَخْشَى الْمَهْمَّةَ الرِّقَاقَا
وَتَطْرَبُنِي سِيُوفُ الْهِنْدِ حَتَّى أَهْمَ إِلَى مُضَارِبِهَا اشْتِيَاقًا^(٣)
وقالوا فى السيوف الرومية (نسبة إلى الروم) ...

زَاوَحَ بِالْحَصْرِ الْأَصْمَ رَمَوْسَهُمْ إِذَا الْقَلْعُ^(٤) الرُّومِيُّ عَنْهَا تَنَلَّمَا
وكانت السيوف المشرقية أجود سيوفهم ، وقيل إنها كانت تُصنع فى
المشارف^(٥) ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل إنها نسبت
إلى مشرف وهو رجل من ثقيف كان يصنعها ...

تَجِيدُ الطَّعْنَ بِالسُّحْرِ الْعَوَالَى وَنَضْرِبُ بِالسِّيُوفِ الْمَشْرِفِيَّةِ
ومن أجود السيوف أيضاً الهندية ...

كَدَتْ أَسْطُو حِينَما جَدَّتِ الْعِدَا غَدَاةَ اللَّقَا نَحْوَى بِكُلِّ يَمَانِي
بَأَسْمَرٍ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ كَدْنٍ وَأَبْيَضَ صَارِمٍ ذَكَرَ يَمَانِ

(٢) السيف نسبة إلى مشارف الشام

(٤) القلم = السيف

(١) موقع فى أرض اليمن

(٣) الأبيات لعنترة

(٥) واحدها مشرف .

وبلغ من اعتدا العرب بالسيف أن حفظوا تاريخ المشهور من سيوفهم
مثل ذلك صمصامة سيف عمرو بن معدى كروب .

وكان للسيف العربى دور كبير فى معارك المسلمين ، وكان المسلمون
يستعملونه بكفاءة نادرة وقدرة عالية .. كانوا يجيدون المبارزة بالسيف ركباناً
ومشاةً وقعوداً وجثياً على الركب .

قال على بن أبى طالب حين خرج يوم حنين لمبارزة مرحب :

أنا الذى سمتنى أمى حيدر
كليث غابات شديد المنظره
أكيلسكم بالسيف كيل السندره

وكان للسيوف المسلمة دور هام وخطير فى غزوة الفتح ، وصقه حماس
ابن خالد من قبيلة بكر ، وكان ضمن القوة التى اعترضت طريق خالد
ابن الوليد فقال ...

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالنومة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطع كل ساعد وججمة ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة

وبلغ من اهتمام المسلمين بالسيف ، أن أطلق رسول الله على خالد بن الوليد
اسم « سيف الله المسلول » . . روى الترمذى عن أبى هريرة قال « نزلنا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ ، فأقول : فلان ، حتى مرَّ خالد بن الوليد فقال :
من هذا ؟ ، فقلت خالد بن الوليد ، فقال : نعم عبد الله ، هذا سيف من سيوف
الله .

وجاء في الإصابة « لما عقد أبو بكر خالد على قتال أهل الردة قال : إنما
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نعم عبد الله وأخو العشرة خالد
ابن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار . . . وسأل جرجة قائد
الروم خالد بن الوليد « يا خالد أصدقني القول ولا تكذبي ، فإن الحر لا يكذب ،
ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل . . . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً
من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ » ، فأجابه خالد « إن الله
عز وجل بعث فينا نبياً ، فدعانا فنفرنا معه ، وقأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا
باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا
ونواصيتنا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله على
المشركين ، ودعنا إلى النصر ، فسميت سيف الله ، وأفا من أشد المسلمين على
المشركين . »

وفي أحد أملاك رسول الله بسيف وقال « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ »
وكان مكتوباً على إحدى صفحته « نصر من الله وفتح قريب » ، وعلى الصفحة
الأخرى...

في الجين عاروف الإقبال مكرومة والمرء بالجين لا ينجو من القدر

فقام رجال فأمسكه عنهم منهم على ، فقال له الرسول « اجلس » ، و عمر
فأعرض عنه الرسول ، والزبير فنفعه ، وقام سماك بن أوس بن خرشة الأنصاري .

الذى اشتهر بأبى دجانة وقال « وما حقه يا رسول الله ؟ » ، قال « تضرب به فى وجه العدو حتى ينحني » ، قال : « أنا آخذه بحقه » ، فدفعه إليه رسول الله بعد أن قال له « لعلك إن أعطيتته تقاثل فى الكبول (الصفوف الخلفية) » ، فقال « لا يا رسول الله » ، وعصب أبو دجانة رأسه بمصاصة حمراء يعلم بها نفسه حتى يقصده من يريده من العدو ، وقال الأنصار « لقد أخرج عصاة الموت علم بها نفسه » ، وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصفين وهو يقول ...

أنا الذى عاهدنى خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكبول أضرب بسيف الله والرسول

وعندما رآه الرسول وهو يمشى مشية المتكبر قال « إنها مشية ييفضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » ، وكان أبو دجانة لا يلقى أحداً إلا قتله بالسيف وكان إذا كلّ السيف يشجذه (أى يحده بالحجارة) ، ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل . . وهم أبو دجانة بضرب أحد المقاتلين من قریش ، ولكنه ردّ السيف حين أدرك أن العدو هو هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وقال « رأيت إنساناً يحمس الناس بوقد الحرب ويثيرها ، فعمدت إليه ، فلما حملت عليه بالسيف ولول ، فعلمت أنه امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » .

ووصف أمية بن خلف أفعال حمزة خلال أحد فقال « كان يهد بسيفه الناس . . »

وأشهر السيوف المسلمة سيف ذوالفقار الذى كان لعلی بن أبى طالب ،

وقيل إن آل أبي طالب توارثوه ، حتى أصبح مع المهدي العباسي ، ثم الهادي ، ثم الرشيد ، وكان به ثمانى عشرة فقرة . . . وسيف الصمصامة الذى كان لعمر و ابن معدى كرب ، وقيل إن عمرواً أهداه إلى خالد بن سعيد حين سيره رسول الله إلى اليمن ، فرَّ برهط عمرو فأغار عليهم وسبى امرأة عمرو ، فعرض عليه أن يمن عليهم ويسلموا ، فقبل ، فوهبه السيف وقال :

خليلى لم أهَّبه من قِلاهْ ولكن المواهب للسكرام
خليلى لم أخَّنه ولم يخْنى كذلك من خِلالى أو نِدَامى
حَبَوْتُ به كريماً من قريش فَمُسرَّ به وصين عن اللُثام
واستشهد خالد فى معركة مرج الصُفَر وفى عنقه الصمصامة .

ولقد أدى السيف الإسلامى دوراً كبيراً فى الفتوحات الإسلامية فى جميع العمود ، وكان الجند المسلمون يحملون سيوفهم وحديث رسول الله فى قلوبهم ووجدانهم « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وكان الرمح من أسلحة الحرب الهجومية

والرمح هو قناة من الخشب ركب فيها سنان من حديد ، وقال فى ذلك المتنبي ...

كلما أنبت الزمان قنساء ركب المرء فى القنائة سنانا

وكان العرب يتميزون باستخدام الرمح . . كانت تستخدمه الفرسان والمشاة معاً ، ولكن الفرسان كانوا أكثر استخداماً له ، وهو أنسب لها من

السيف ، وتستعمله المشاة وقوفاً وجثياً ، خطب عمرو بن العاص يوم اليرموك فقال « غَضُّوا الأبصار واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا في وجوههم وثبة الأسد » .

وكان العرب يستوردون الرماح من الهند ، وكانت أجود الرماح الردينيّة ، نسبة إلى امرأة كانت تصنعها لإسمها رُدَيْيَّة .

قال عنتره ...

إذا خصمى تقاضانى بدينى قضيت الدين بالرمح الردينى
والرماح الآزائيّة نسبة إلى ذى وزن الملك ، والرماح الخطيّة نسبة إلى جزيرة بالبحرين تسمى الخطّ كانت مرفأً للسفن التى تحمل الرماح آتية من الهند أو من جنوب فارس .

وَبُعْطَى القنا الخطّى في الحرب حقه وبُيْدَى بحدّ السيف عَرْضُ المناكب
والسمهرى نسبة إلى سمهر صانع الرماح .

قال عنتره ...

وأطعن في الهيجاء إذا الخيل صدها غداة الصبح السمهرى المقصّد .

وكانت للرماح أسماء مختلفة باختلاف صفتها مثل صعدة وعنزة ويزك وسمهرى ، وكانت أيضاً متعددة الأنواع منها القعصية والشرعية ، وكانت أسنتها تختلف شكلاً فمنها المشعب والعريض والرفيع والمستوى والموج ، وكان أحسنها الرمح الصلب المتين اللدن المرن المستقيم ، الذى إذا هزّه صاحبه لا يئنشى ، وإذا طعن به لا ينقص .

لَدَنْ يَهْزُ الكَفَّ يَغْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا غُسِّلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

وقيل إن أجود السهام سهام بِلَامٍ^(١) وسهام يثرب وها بلدان قريبان من حجر اليمامة .. قال الأعشى « بسهام يثرب أو سهام بلام » ، وكان أردوها الرمح الملتوى المعوج العصاب الخشن .

ووصف الرسول الرماح بأنها وشاء المنية ، وقال عليه السلام « عليكم بالقفا والقسي فيها نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » ، وقال أيضاً « جُعل رزقي تحت ظل رمحي » .

ولم تعتمد المدرسة العسكرية الإسلامية كثيراً على الرمح في الحرب ، فقد كانوا ينجشون انكسارها ، سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معدى كرب « ماتقول في الرمح ؟ » ، فأجابه « أخوك وربما خانك فانهصف » .. ومع هذا الضعف في الرمح فقد وضعت المدرسة العسكرية الإسلامية قواعد معينة ، وتعليمات واضحة لاستخدامه . . منها . . « إذا تحركت بالرمح في مواجهة العدو فعليك أن تحمل على مبارزك ، وقد أخذت الرمح تحت إبطك ، وجعلته بين أذني فرسك ، وتقصده مستقبلاً حتى تقترب منه ، فإن وجدته قد طرح رمح يمينه فاطرح رمحك يسرة ، وإن طرحه يسرة فاطرح رمحك يمينه ، واجتهد أن تبدأ بالجل عليه وأنت مسدد ، وتحول الرمح يمينه ويسرة كي تدهشه ، فلا يدري من أين يجيئه ، فإذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمح فيه ، وإذا أردت أن تبتدىء بالخروج فخذ أسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه في الهواء ، وهو على عاتقك الأيمن ، وتحمل على قوتك ، وأنت كذلك إن شئت قربت منه حتى لا يدري من أي وجهة يلقاك . . وإن خرجت إلى

(١) وردت في بلوغ الأرب بلاد

فارسين وتفرقا ، فاحمل على الأدنى ، وإذا كافا قريبين فأر أحدهما أنك تريد رفيقه ثم احمل عليه ، ولا تتم حملتك ، ثم اعدل إلى الآخر وأصدقه الجملة . . وإن دخلت مضيقا فتلقاك فارس برمح فأياك والمصادمة ، بل انزل إلى الأرض واطمنه . . وإن كان خلفك فارس وقدامك فارس في مضيق ، فانزل واقصد أقربها إليك ، وتترس من الآخر بدابتك » .

وهذه القواعد والتعليمات توضح للمسلم كيف يستخدم رمحه . . كيف يحمله بطريقة صحيحة سليمة تيسر له استخدامه . . كيف يفاجئ عدوه عند اللقاء ويطمئه . . كيف يواجه عدواً أو أكثر في أرض عراء أو في مضيق . . كيف يستخدم دابته كترس يحمي به أثمان استعماله الرمح .

وكان الرمح هو السلاح الذي استخدم في قتل حمزة في أحد ، قال وحشي « فقد عثر حمزة وانكشف الدرع عن بطنه ، فهزئت حربتي حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت في ثنته (موضع تحت السرة وفوق العانة) فأقبل نحوي ، فقلب فوق ، فأملهته حتى إذا مات ، جثته فأخذت حربتي » .

خطب عمرو بن العاص جنده يوم اليرموك فقال « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فامهلوم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد »^(١) .

وقد وردت روايات تفيد استخدام الرمح بمعرفة المشاة وقوفاً وجثياً على الركب شأن استعمال السيف

(١) عبقرية خالد للمقاد

وكان القوس من أسلحة الهجوم أيضا .

وساعد على استخدامها ما كان يتميز به المسلمون من حدة البصر ، فقد كانوا يستعملونها وقت السلم في صيد الغزلان ، ولهذا كانت لهم قدرة كبيرة على استخدامها بكفاءة ومقدرة ، حتى كان يُطلق على مهرة الرمي منهم « رماة الحدق » ، وبلغ من مهارتهم في استعماله أن الواحد منهم كان يرمى إحدى عيني غزال فيصيبها دون الأخرى ، وكان الواحد يعلق ضبا بشجرة ويرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطئ واحدة منها^(١) ، وروى أن سعد بن أبي وقاص كان يصيب حمامة بعينها من سرب حمام يطير في السماء .

والقوس عود من الخشب لين منثن قوى ، يقوس كالللال ، ويثبت فيه وتر من جلد الإبل ، ترمى به السهام ، وكان أشهر صانعيها رجل يدعى عصفور ، ولهذا كانت القوس العصفورية أجود الأنواع ، تليها الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة وهو أول من عملها ، وكان أشهر مكان تقوم فيه صناعتها هوزُغَر بالشام ، ولهذا اشتهرت السكنائين الزُغَرية .

وقيل في وصف القسي « صفراء وسطا بين الطول والقصر .. ملء الكف إذا ما استعملت لها صوت هو النثيم والأزمل ، وإذا شدد وترها تقارب قاباها حتى يتصل السهم بمقبضها ثم ينطلق إلى غايته البعيدة » .

جُردها صفراء لا الطولُ عابها ولا قِصرَ أزرى بها فتعظلا
كثُوم^(٢) طلاع الكف^(٣) لا دون ملئها ولا عَجَسها^(٤) من موضع الكف أفضلًا

(١) عبقرية خالد للعقاد (٢) كثوم = لاصنع في نبيها

(٣) طلاع الكف = ملء الكف (٤) العجس = مقبض القوس

إذا ماتعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا^(١) عنها نثيا وأزمل^(٢)
وإن شدَّ فيها النزعُ أدبر سهمها إلى منتهى من تجسها ثم أقبلًا

وكان الرسول يحمل القسيّ والمسلمون يتناضلون بالرمل عن القوس في
حضرتة ، وفي صحيح البخاري عن سامة بن الأكوع قال « مرّ النبي عليه الصلاة
والسلام بنفوس من أسلم يتناضلون فقال : ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً »
... وأثر عن الرسول قوله « مامدّ الناس أيديهم إلى شيء من السلاح إلا
وللقوس فضل عليها » . و . « إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله
المحتسب والرامي في سبيل الله » . و « من رمى بسهم في سبيل الله وبلغ العدو
فأصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة » ، و « اركبوا وارموا وإن ترموا أحب
إليّ من أن تركبوا » ، و « علّموا أبناءكم السباحة والرمية » ، و « أعدوا لهم
ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة
الرمي » ، وكان رسول الله يحث الناس على الرماية وإجادتها وطالما شجع
عليها وقال « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة في الجنة : صانعه المحتسب في
عمله الخبير ، والرامي به ، والممد له » .

وكان الخلفاء والقادة بعد النبي يستحثون رجالهم على إتقان الرماية .
ولقد شمل القوس تطور في صناعته وفي طرق استخدامه ، فقد صنع
المسلمون آلات مركبة كالجرار وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه
شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً ، وهذه صورة لبندقية اليوم التي

(١) أنبضوا عنها = حركوا وترها (٢) الأزمل = صوت القوس

توضع فيها الطلقة ثم يضغط على الزناد فتندفع بشدة إلى الأمام ، بل هي صورة أيضاً المدافع التي تستخدم في الحروب الحديثة .

وصنع المسلمون أيضاً نوعاً من الجانيق توضع في الواحد منها عدة سهام ترمى بالأقواس ، وهذه صورة المدفعية الصاروخية التي تستخدم في الحرب الحديثة .

والسهم هو الذي يرمى به القوس ، وأجودها كانت سهام تصنع في اليمامة ، ويقال له الذبل والنشأب والمريخ (سهم طويل له أربعة آذان) ، وهناك نوع من السهام عريض النصل اسمه المِغْبَلَة والمِشْقَص (سهم خفيف) .

وكانت السهام تسمم حتى يكون تأثيرها سريعاً ، فما أن تصيب العدو حتى يسرى السم في جسده فيقتله ، وفي هذا قال الشاعر العربي :

وارتمينا والأعدى شُهدَ بنبال ذات سم قد نفع

ولقد انتصر المسلمون على الروم لكفاءتهم في استخدام القوس والسهم ، ولأن الروم لم يكونوا يحسنون رميها .

في أحد رمى حباب بن العرفة أم أيمن بسهم وكانت تسقى البحر حتى فوقعت وتكشفت فأغرق حباب في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله فدفن إلى سعد بن أبي وقاص سهماً وقال له « ارم به » فوقع السهم في نحر حباب فوق مسدقياً حتى بدت عورته ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجزه ، وقال « استفاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » .

وفي أحد أيضاً ثبت رسول الله حين فرّ الناس ، وكان معه أبو طلحة ،

وكان رجلاً رامياً شديداً الرمي، ففتر كدنافته بين يدي رسول الله وقال « نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء » ، فلم يزل يرمى بها ، وكان إذا مرَّ رجل عليهما ومعه جُعبة من النبل يقول له الرسول « انثرها لأبي طلحة » ، وقيل إن أبا طلحة كسر يومها قوسين أو ثلاثة .

وكان سعد بن أبي وقاص رامياً شديداً المهارة ، وكان أول من رمى بسهم في الإسلام ، وقيل إنه يوم أحد كان يرمى عن قوسه المسماة بالملكقوم (لعدم تصويتها إذا رمى عنها) ، حتى صارت شظايا ، وروى عنه أنه قال « لقد رأيته (يعني النبي) يناولني النبل ويقول: ارم فذاك أبي وأمي ، حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل فيقول ارم به » ، وجاء في بعض الروايات أن سعداً رضي الله عنه رمى يوم أحد ألف سهم ، ماعنها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ارم فذاك أبي وأمي » ، فقدها هذا اليوم ألف مرة ، وعن عليّ كرم الله وجهه « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فذاك أبي وأمي إلا لسعد رضي الله عنه ، فما جمع صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد إلا لسعد رضي الله عنه » .

وكان للرمي أثر كبير في معركة الأنبار بين خالد وجيش الفرس ، فبعد أمر بأن يرشقوهم بالسهم وبأن يتوخوا العيون ، أي يركزوا الرشق على عيون جنود الفرس دون غيرها ، قال لهم « إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا تخوخوا غيرها » ، فاستجابوا له ، ونفذوا أوامره ، ورموا رشقاً واحداً ، ثم تابعوا ، ففقد لأهل الأنبار ألف عين فتصايحوا « ذهبت عيون أهل الأنبار » ، وما أن سمع قائدهم شيرزاد صراخهم ، حتى أوفد إلى

خالد يطلب الصلح ، وسميت هذه الموقعة « ذات العيون » .

ولعب الرماة دوراً خطيراً في غزوة أحد ، فقد أحالوا نصر المسلمين إلى هزيمة ، ذلك أنهم عصوا أوامر رسول الله ، ولم يعملوا في حدودها ، فقد جعلهم عليه السلام على جبل أحد وعددهم خمسون رامياً على رأسهم عهد الله ابن جبير بن النعمان ، وقال لهم « احموا ظهورنا وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، إنا لانزال غالبين ما ثبتم في مكانكم ، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » ، ولكنهم تركوا أما كنهم عندما لاح النصر طمعاً في الغنيمة ، فانطلقوا يتبعون باقي الجند في مطاردة المهزمين من قريش ، وحمل خالد ومن معه على الجبل ، وأباد الباقين الذين ظلوا في موقعة بقاء على أوامر الرسول ، وركب خالد أكتاف المسلمين وأصابهم إصابة بالغة ، حتى أن أباسقيان قال يومها « يوما بيوم بدر » ، وذكر ابن سعد في الطبقات « ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فسكر بالخيل وتبعه عسكرة بن أبي جهل ، فحملوا على من بقي من الرماة ، فقتلهم وقتلوا أميرهم عهد الله بن جبير ، وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

وكان المنجنيق أحد الأسلحة التي استخدمها المسلمون في هجومهم وخاصة

في الحصار

والمنجنيق آلة للقذف استخدمها الفينيقيون قديماً ، وأخذها عنهم اليونان ثم الفرس ، وعندها العرب ، واستخدمت لأول مرة في الإسلام ، ولم

يستخدمها العرب قبله ، ولم يستخدمها المسلمون إلا في أواسط القرن الأول للهجرة ، بعد أن اختلطوا بالفرس والروم ، إلا أنه جاء في السيرة الحلبية أن أول استخدام لها كان في حصار الطائف على عهد رسول الله عليه السلام ، إذ أرشدهم إليها سلمان الفارسي ، وقيل إنه صنعها لهم بيده ، كما جاء في السيرة أن المسلمين حين فتحو حصون خيبر وجدوا فيها منجنيقات كثيرة .

والمنجنيق أنواع متعددة ، يختلف في الحجم ، فمنها الصغير والكبير ، ومنها ما يشد بلوالب وأقواس ، ومنها ما يدار شبه المقلاع ، وكانت تستخدم في رمي السهام والحجارة والنفط . . وقيل إن المقدوفات الخفيفة كانت تنقل بالرصاص ، وإن السوائل كالنفط كانت توضع في كأس تعلق بسلاسل ، وإن الحجارة تعلق في شبه مقلاع .

وكان المنجنيق يستخدم في هدم الحصون بالحجارة ، أو لرمي الأعداء بالنبال ، أو لإحراق أماكن تجمعات العدو بالنفط . . وكان المسلمون يسمون كلا منها بإسم يدل على بعض أوصافه ، وكان رسول الله قد نصب منجنيقاً على أهل الطائف ، ونصب سعد بن أبي وقاص عشرين منجنيقاً على أسوار بهرسير ، وكان لدى الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه « العروس » كان يمد به خمسمائة رجل ، واستخدمه محمد بن القاسم في محاربة ملك الهند وهدم به صنما من أصنامهم .

ومن أسلحة الهجوم الدبابة

وهي آلة من الخشب السميك تغلف باللباد أو بالجلود المنقوعة في الخل ، ولها عجل تجري عليه ، يدفعها الرجال ويصعدون فوقها ليتسلقوا الأسوار ،

أو يستخذه ونها في هدم الأسوار ، فيجتمعون داخلها ويدفعونها إلى ناحية الأسوار لهدمها وهم بداخلها .

والدبابة سلاح أدخل ضمن تسليح الجيش الإسلامى ، أخذته المدرسة العسكرية الإسلامية عن الفرس ، وكان يستخدمه من قبلهم قدماء المصريين ، فالأشوريون فالإونيون فالرومان .

ومن أسلحة الهجوم أيضاً الكبش

وهو كالدبابة ، ولكن له رأس ، يتحصن الرجال في داخله ، ويستخدمونه في هدم الأسوار ، فرأس الكبش متركب به عمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر ، ويتمعاون الرجال من داخل الكبش بدفع العمود في اتجاه الأسوار حتى تنهدم . . وكما استخدمت الدبابة في تسليق الأسوار ، استخدم كذلك الكبش .

وكان المسلمون يستخدمون الدبابة في مهاجمة الحصون التي تحيط بها خنادق ، فكانوا يطرحون في الخندق الأخشاب والحطب والتراب وغيرها من المواد التي كانوا يملأون بها الدبابة أو الكبش لهذا الغرض ، حتى يمتلئ الخندق ويسهل عبوره . . وكانوا أيضاً يحملون لها سلاسل يصلون بها إلى سطح الأسوار ، ومنها يقفزون إلى داخل الحصن .

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم ، وكانوا يحملون مع الجيش عدداً منها أكثره صغير الحجم تسع الواحدة بضعة رجال ، واستخدمها الخليفة المعتصم في فتح عمورية ، وكانت الدبابة والكبش بمثابة الأسلحة المعاونة في حروب اليوم .

ومن أهم الأسلحة التي اقتبسها المسلمون النار اليونانية

وكان يستخدمها الروم أصلاً ، وكانوا قد بالغوا في كتمان أسماء المواد التي تتألف منها ، ولكن المسلمون استطاعوا الوصول إلى معرفة هذه المواد واستخدموها على شكل سائل يطلقونه من أسطوانة نحاسية مستطيلة ، ويقذفون منها السائل مشتعلًا أو يطلقونه على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط ، وقيل إن هذه المقذوفات النارية استخدمت في حرق الكعبة عندما حاصر الحصين بن نمير عهد الله بن الزبير .

وأطلق المسلمون على هذه النار اليونانية لاسم « النفط القاذف »

وكانت الخيل هي السلاح الراكب عند المسلمين

وكان استخدامها عند المسلمين امتداداً لاستخدام العرب لها أصلاً في جاهليتهم وخيل العرب أجود خيول الدنيا ، ويزعمون أنها كانت من الوحش ، وأول من ذلل الصعب منها أبوهم إسماعيل عليه السلام .

وكانت أعز أسلحة الحرب عندهم ، لهذا كانوا يستخدمونها وقت القتال فقط ، أي وقت الاشتباك الفعلي ، أما في مراحل ما قبل القتال أي مرحلة التجمع ثم التحرك ، فإنهم كانوا يستخدمون الإبل ويقودون الخيل ليريحوها ، فإذا ما اقتربوا من مواقع العدو وبدأت مرحلة الاشتباك ، تركوا الإبل وامتطوا الخيل ، وباشروا بها الحرب ، وهذا هو ما يحدث في الحرب الحديثة بالنسبة للدبابات ، فإنها تحمل على عربات إلى ميدان القتال ، حيث تستخدم فعلاً وقت القتال ، وهذا سبق عسكري تميز به المدرسة العسكرية الإسلامية ، تقديرًا منها للسلاح الراكب ذات الأهمية القصوى في المعركة ، وهو الذي

يحمل الرجال ويخوض بهم المعركة ، ولهذا يجب ألا يكون مجهداً بل يجب أن تحفظ له حيويته ونشاطه وقدرته لحين بدء المعركة ، فيكون في أوج كفاءته وذروة إمكانياته .

والخيل من أسلحة المسلمين الأولى ، لأنها تتميز بال مرونة والسرعة وخفة الحركة ، وهى مقومات لازمة فى المعركة ، تتطلبها ظروف المعركة من حيث المحاورة والمناورة .

ولقد جعل الله الخيل عزاً لأوليائه على أعدائه ، وجعل الخير معقوداً على ناصيتها .

وجاء ذكر الخيل فى القرآن المجيد فى سورة العاديات . . قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُسْفِرَاتِ صُبْحًا * فَأَتَرْنَ بِهِ نَعَمًا * فَوسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ، وفى هذه الآيات يقسم الله بالخيل ويصفها بأنها تجرى بسرعة فتخرج من أفواها زفيراً عالياً ، وتضرب الأرض بحوافرها ، وتفاجىء العدو بالهجوم عليه صباحاً وهو غافل ، فتثير الغبار وتشنت العدو وتقهره .

ودعا الرسول الكريم للخيل بالبركة « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانئون عليها ، فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة » ، وفى حديث آخر « بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانئون عليها » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « الخيل ثلاثة : فمن ارتبطها فى سبيل الله وجهاد عدوه كان شعبها وجوعها وريها وعطشها وجريها وعرقها وأروائها وأبوالها أجراً فى ميزانه يوم القيامة ، ومن ارتبطها للجمال فليس له إلا ذاك » .

ومن ارتبطها نخرأ ورياء كان له مثل مانص في الأول وزراً في ميزانه يوم القيامة .

وعنه عليه السلام « التمسوا نسلها وباهوا بصهيلها المشركين » . . . و . .
« أكرموا الخيل وجلالوها » .. و .. « أوردوها من الماء وأسقوها غدوة وعشية وأزموها بالجلال » .

وكان للرسول عليه السلام تسعة عشر فرساً^(١) ، كان لكل منها إسم يعرف، به وكان عليه السلام يسمح بطرف ردائه وجه فرسه ، وكان أول فرس له عليه السلام يقال له السكب ، شُبِّهَ لشدة جريه بسكب الماء وانصبابه ، اشتراه من أعرابي بعشرة أواق ، وكان اسمه عند هذا الأعرابي الضرس أى الصعب السىء الخلق ، وكان أغر أى له غرة وهو بياض في وجهه ، وكان لدى الرسول فرس يقال له المرتجز لحسن صهيله ، وآخر يقال له اللحييف أهداه له فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام ، وآخر يقال له الزراز أهداه المقوقس ، والطرف والورد أهداه تميم الدارى وأهداه رسول الله لعمر بن الخطاب ، وآخر يقال له سَبَّحَة أى سريع الجرى ، وأوصل بعض المؤرخين خيل رسول الله إلى خمسة عشر بل إلى العشرين ، وقد ذكر أنه عليه السلام كان يضمم الخيل للسباق فأمر بإضمارها بالحشيش اليابس شيئاً بعد شيء ، وأمر بستيقها غدوة وعشياً ، وأمر أن يقودها مَوتين .

وكان اهتمام الرسول بالخيل مدعاة لأن يهتم أيضاً بها جميع الرؤساء والقادة من بعده ، فقد اعتز المسلمون بالخيل، وعرفوا لها مكانتها ومنزلتها،

(١) جاء في السيرة الحلبية أن الرسول كان له سبعة أفراس وبغال ست ، ومن الجمر اثنان ، ومن الإبل ثلاثة

وعدوها شبيهة أولادهم ، بل فضّلها بعضهم على أولاده ، وكانوا يؤثرونها على النفس والأهل والولد ، وكان الواحد يفضل أن يبني بيتاً طاوياً ، ويشبع فرسه ، وجاء في كتاب « خيول الصحراء » للجنرال ديماس « إن الناس كانت تفرح بمولد الفرس ، وتحفل بهذه المناسبة احتفالاً يدل على عظيم مكانتها في قلوبهم ، حتى أن رب الأسرة كان يدعو الله : اللهم اجعل الوليد مصدر سعادة وبركة وصحة لنا » .

مغداة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع

وبلغ من اعتزارهم بالخليل أنهم كانوا يختارون لها إناثاً مشهورة معروفة بنجاحاتها .

وكانوا يعدّون الخيل للحرب ، فيسابقون بينها ويهتمون بترويضها ، حتى يشق حجب الغبار ، ويكرّ بصاحبه ، لا يجفل ولا يكبو ، ولا يرتد عن المعركة .

شديد مجامع الكتفين طُرف به أثر الأسنة كالعلوب^(١)

و

معاقلنا التي نأوى إليها بنات الأعوجية والسيوف^(٢)

وفي هذا المعنى نصّح شاعر عربي قومه أن يهتموا بالخليل وباعدادهم للمعارك فقال

(١) الطرف : الكريم من الخيل ، الأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ، والعلوب نلج السيف .

(٢) الأعوجية نسبة إلى أعوج وهو جواد مشهور عند العرب .

بنى عامر ماذا أرى الخيل أصبحت بطاناً وبعض الضر للخيال أمثل
 بنى عامر إن الخيول وقاية لأنفسكم والموت وقت مؤجل
 أهينوا لها ما تكرمون وباشروا صيانتها والصون للخيال أمثل
 متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل

وكان المسلمون يدركون أن الخيل تخوض معهم المعارك وترافقهم إلى حيث الموت ، وحيث السيوف تقطر منها المنايا ، فتصبر معهم على الشدائد ، وتحمل معهم نصيبها في المعركة ، تنخن بالجراح فلا تفر ، ولا تلين ، بل تصمد معهم وتحمل مثلهم .

يقينى باللبان^(١) ومنكبيه وأحميه بمطرّد السكوب^(٢)
 وأدفيه إذا هبت شمالّ بليل^(٣) حرّجف^(٤) عند الغروب
 ألت بصاحبي يوم التقينا بسيف وصاحبي يوم الكتيب

و

وأبقى دونه المنايا بنفسى وهو يغشى بنا صدور العوالى
 فإذا متّ كان ذاك ترائى وسخالا محموداً من سخالى^(٤)
 ومن أعظم العمليات التى استخدمت فيها الخيل تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى الشام ، حين طلب منه أبو بكر أن يخف ببعض جيشه لمعاونة جيوش المسلمين فى اليرموك (وقد أشرنا إلى هذا التحرك من قبل) ، والذى

(١) الصدر .

(٢) الرمح .

(٣) الريح الباردة الشديدة المهبوب .. بليل أى مبلولة من الندى .

(٤) جم سخلة أى ولد الشاة .

يهمنا هنا هو أن الخيل كانت سلاحاً هاماً ومفيداً خلال التحرك ، فقد تحمل مع الناس مشقة الطريق وأهواله ، ووصل بالمسلمين في الوقت المناسب إلى مكان المعركة .

وقد لعبت الخيل دوراً هاماً في فتح دارين ، وهي جزيرة في الخليج الفارسي ، تجمع فيها عدد كبير من الفارين المرتدين ، وقد ظنوا أن البحر يحميهم ، وجمع العلاء بن الحضرمي قائد لواء المسلمين إلى البحرين جنده وقال لهم « إن الله قد جمع لكم أحزاب الشيطان ، وشُرَّدَ الحرب في هذا البحر ، وقد أراكم من آياته في البر لتعبروا بها في البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم ، فإن الله قد جمعهم » ، فقالوا « نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا » ، وارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموه رجالاً وركبانا ، واجتازوا مياه الخليج ، ووصلوا إلى مواقع الفارين ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وانتصر المسلمون ، ولقد بلغ نفل الفارس في هذه العملية ستة آلاف درهم ، في حين كان نفل الراجل ثلث ذلك .

ومن أشهر المعارك التي لعبت الخيل فيها دوراً كبيراً معارك العراق ...

ففي معارك الحيرة جمع خالد مشاته على السفن في الفرات مع الأنفال والأفقال في أمغيثيا على أن تسير الخيل قريباً منها على الأرض ، ولسكنه فوجيء بالسفن تجنح في النهر ، وارتاع المسلمون لذلك ، وأكثرهم لم يركب السفن من قبل ، وعرفوا أن الفرس فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير سبيله ، وأن الماء لا يعود إلى هذا المجرى الذي هم فيه إلا بسد الأنهار التي فتحوها ، ولم يجد خالد أمامه إلا الخيل ، ففرج من فوره بها لشن غارة هدفها إعادة

المياه إلى المجرى ، فاتجه بالخييل بحذاء الفرات حتى بلغ موقع المقر ، فوجد خيلا من طلائع جيش الفرس ، ففاجأهم وهاجمهم وأبادهم ، ثم انطلق بالخييل إلى حيث القوة الأساسية ، والتحم معها بعد أن دهمها في مواقعها وهزمها ، ثم سد الأنهار وفجر الفرات ، فعاد الماء يسلك سبيله ، فأرسل إلى أصحابه أن يلحقوا به ، وعادت السفن إلى المسير بينما سار هو بالخييل حتى نزل بين الخورنق والنجف .

وعندما أراد سعد بن أبي وقاص أن يعبر الفرات إلى نهاوند ، كون كتيبتين كانت الأولى هي كتيبة الأهوال وقادها عاصم بن عمرو التميمي ، وكان قوامها ستائة من أهل النجدة على خيلهم ، وكانت مهمتها أن تعبر النهر وتقيم - ما نسميه في حروب اليوم - برأس جسر على الضفة الأخرى وتهيء لوصول باقي المسلمين .. وكانت الثانية الكتيبة الخرساء قادها القعقاع بن عمرو ، وكانت مهمتها متابعة ومعاونة الكتيبة الأولى ... وصلت كتيبة الأهوال إلى شاطئ النهر فخطب عاصم في رجالها وقال « من يندب معي لنكون قبل الناس دخولا في هذا البحر فنحصى الفراض من الجانب الآخر ؟ » ، وتقدم إليه ستون فارسا ، فاقترحم النهر وهو على فرسه ومن ورائه زملاؤه ، ثم تشجع باقي أفراد القوة ، فدفعوا خيلهم إلى النهر ، وتقدم الجميع فوق خيولهم ، والفرس على الجانب الآخر يشاهدون ويتمجبون ويتصايحون في دهشة « مجانين ... مجانين » ، وقال بعضهم لبعض « إنكم والله ما تقاتلون إنسا بل تقاتلون جنا » ، وامتلا النهر بالخييل حتى قيل إن ماءه اختفى فلم يعد يرى ، وقال سلمان الفارسي « ذلت لهم البحور والله كما ذلل لهم البر » .

وفى نهاوند حاصر المسلمون المدينة ، وطالت مدة الحصار ، وخشى المسلمون طول المدة ، فجمع النعمان أصحاب الرأي وسألهم « ما رأى الذى نستعجزهم (يقصد أهل المدينة المحاصرين) إلى المنابذة وترك التطويل ؟ » ، فأشار البعض بتضييق الحصار ، وقال عمرو بن معدى كرب « ناهضهم وكأثرهم ولا تخفهم » ، وقال طليحة « أرى أن تبعث خيلاً مؤدية^(١) فيجدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمشوم^(٢) » ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا^(٣) إلينا استطواداً ، فإننا لم نستطرد لهم فى طول ما قابلناهم ، وإنما إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ، ولم يشكروا ، فخرجوا فجاءونا وجاددناهم ، حتى يقضى الله فيهم وفيما ما أحب » ، ووافق الجميع على رأى طليحة ، ونفذ القعقاع الخطة التى رسمها طليحة ، وكانت الخيل هى ركيزة الخطة التى قامت على أساس الاقتراب من أسوار المدينة ، فإذا ما خرج العدو لملاقاتهم انسحبوا من أمامه ، وعادوا سريعاً إلى الخلف . . . كان إذن التقدم والانسحاب هما الدور الذى يعتمد فيه على الخيل فى المعركة ، ولقد تم التقدم حسب الخطة الموضوعة ، ثم تم الانسحاب أيضاً حسب الخطة الموضوعة ، وخرج الفرس وراء العرب حتى وصلوا إلى الموقع الذى بدأ فيه الهجوم العام ، وانتصر المسلمون وسمى انتصارهم « فتح الفتوح » .

ولقد ذكر ابن هشام أسماء أهم الخيل العربى وأشهره فذكر فرس سعد

(١) معها سلاحها .

(٢) أغضبه فغضب .

(٣) رجعوا إلينا لاجئين .

أبن زيد (لاحق) وفرس المقداد (بمزجة) وفرس عكاشة بن محصن
(ذواللثة) وفرس أبي قتادة (حزرة) وفرس عباد بن شمس (لماع)
وكان لزيد الخيل الذي سماه النبي زيد الخير خيل كثيرة وردت أسماؤها
في شعره .

واستخدم المسلمون الدروع للحماية

والدروع هو وسيلة استخدمها المحاربون لحماية أنفسهم من ضربات
العدو فترد الطعنات وتقي لابسها السهام ، وهي أنواع كثيرة منها الحديد
والفولاذ والسكتان ، وهي كلها من صنع الفرس والروم .

وكانت تتألف من جزء يقي الصدر يسمى الجوشن ، وجزء يقي الرأس
يسمى الخوذة والمنقر ، وأجزاء تحمي الساعدين والساقين والكفين .

وكانت الدروع حلقات متصلة تلبس فتغطي الظهر والصدر ونصف
الذراعين ، وكان داود أول^(١) من صنعها من الحلق المتضامر ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا
دَاوُدَ مِثْقَالَ حَبَّةِ الْأُوْبِيِّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ
سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ مِنْ السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِلًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
(سبا ١٠/١١) وفي الآيات توجيه إلى داود ألا يرفق الحلق فيكون ضعيفاً
فيفكسر ، ولا يغلظه فيكون ثقيلاً في وزنه لا يملك أحداً قدرة حمله ، وإن
ملكها فقد تجرده ، فالمطلوب إذن أن يكون الدرع قوياً خفيف الوزن ،
وقيل إن داود كان يصنع الدروع ثم يبيعها .

وكان بعض المسلمين يلبسون أكثر من درع ، لا جبناً ولا خوفاً من

(١) ونسبت أيضاً إلى فرعون وسليمان وتبع ويراد بذلك أنها قديمة جيدة الصنعة وكانوا
يرون أن القديم أجود صناعة وأشد لحكاماً من الجديد .

الموت ، وإنما رغبة في أن يكون حافزاً لجهاد أطول وصبر أعظم وثبات أمثل .. وكان رسول الله يلبس الدرع إذا خرج للقتال^(١) ، وكان له عليه السلام درع يقال له البتراء كان على الحسين يوم قُتل ، وكان على سعد بن معاذ يوم الأحزاب درع من حديد خرجت منها ذراعه كلها ، وكان درع عليّ بن أبي طالب صدرأ لا ظهر لها وقال في ذلك « إذا استمكن عدوى من ظهري فلا يُبق » .

ومن أشهر الدروع العربية درع خالد بن جعفر ، ودرع أبي عبد الله آخر ملوك العرب في الأندلس المعروف باسم محمد الحادى عشر .

واستخدم المسلمون التروس

وكانوا ينقشون عليها الآيات والحكم والأشعار ، وكانوا يصنعونها على أشكال مختلفة منها المسطح والمستطيل والقيب المنحني الأطراف ، وكان كل منها يصلح لشيء محدد ، وكانت التروس عامة تستخدم كالدروع لحماية الأجسام ووقايتها من دفعات السيوف وطعنات الرماح ، وذكر الطبرى (راجع الجزء الثالث) أن رسول الله كان له ترس فيه تمثال رأس كبش .

الأسطول البحرى

من الأسلحة التى اعتمدت عليها المدرسة العسكرية الإسلامية وأدت دوراً كبيراً وهاماً في حياة الإسلام ، ولو أنها لم تستخدم إلا في وقت متأخر ، فالثابت أن المسلمين في عهد النبوة لم يركبوا البحر ، وكانوا يخافونه ، ولا يتعاملون معه ، رغم أن البحار تحيط بالجزيرة من جهاتها الثلاث شرقاً

(١) جاء في عيون الأخبار أنه كان على رسول الله يوم أحد درعان .

وجنوباً وغرباً ، مما يوحى بأن العرب قد مارسوا شئون البحر وأنهم أمة بحرية ... كان أول اتصال لهم بالبحر زمن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، فقد اضطر المهاجرون إلى هناك إلى ركوب البحر وعبوره ، وكان ذلك حدث في تاريخ العرب فأطلقوا على هؤلاء اسم أصحاب السفينة .

ظلت علاقة المسلمين بالبحر غير قائمة في عهد رسول الله ، وكذلك في عهد الخليفة أبي بكر ، والخليفة عمر ، ولكنهم عرفوا البحر حين حاربوا الردة في البحرين ، واضطر لواء العلاء بن الحضرمي عبور الخليج إلى جزيرة دارين في عهد أبي بكر الصديق ، إلا أنه في عهد الخليفة عمر أراد أن يفتح سواحل فارس ، وبينه وبينها الخليج ، فاستأذن الخليفة فرفض ، وبعث إليه « والذي بعث محمداً بالحق لا أحل فيه مسلماً أبداً » ، ولكنه وقد نجحت تحريته الأولى لم يستجب لأمر الخليفة فعبر الخليج بالمراكب إلى اصطخر ، ولم يفلح في غزوته ، إذ أنهكه الفرس حتى إنه اضطر إلى ترك سفنه ، فعزله عمر وجعل قصاصه أن يكون تحت إمرة سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة .

وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر .

ولما خفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، وأصبح لهم عدد من المدن على الشاطئ في بلاد الشام مثل صور وعكا وحيفا وعسقلان ، ولما رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها البحرية ، تآقت أنفسهم للغزو في البحر ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد تولى جند المسلمين في دمشق والأردن ، فبعث يستأذن الخليفة عمر ليعت بجنوده للغزو عن طريق البحر فرفض ، فألح عليه ، فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص أمير مصر يطلب

إليه أن يصف له البحر ، فأجابه « يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، وإن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيها كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » ، فرفض عمر السماح لمعاوية بركوب البحر ، وكتب إليه « لا والذي بعث محمداً بالحق ، لا أحل فيه مسلماً ، إنا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء في الأرض يستأذن الله تعالى في كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض ويفرقها ، فكيف أحل الجفود في هذا البحر السكافر المستصعب ، وتالله لمسلم واحد أحب إلى مماحوته الروم ، فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك ، وقد علمت ما لقي العلاء ... وظل عمر مصرأ على عدم السماح بركوب البحر خشية أخطاره ، ولعدم خبرة العرب في المعارك البحرية ، ولفشل حملة أبي العلاء وحملة علقمة بن مجزر الذي بعث بها عمر لتدفع عن المسلمين الهجمات التي تعرضوا لها من الشاطئ الحبشي سنة ٢٠ هـ (راجع ابن الأثير ج ٢) ، وأثر عنه أنه قال « لولا آية من كتاب الله لعلوت راكب البحر بالدرة » . . و « لا تجعلوا بيني وبينكم ماء حتى إن أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت »^(١) . . و « وإني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف »^(٢) .

وأول من تعامل مع البحر هو معاوية بن أبي سفيان منذ تولى الأمر في

(١) من كتاب عمر إلى عمرو بن العاص حين أراد أن يجعل عاصمة حكومته في مصر في

منطقة الجيزة (اليعقوبي ج ٢) .

(٢) من كتاب عمر إلى عمرو حين أراد أن يجعل حكومته في الإسكندرية (اليعقوب

ج ٢)

بلاد الشام ، فقد اتخذ خطوات إيجابية لتصليح النفور وتحصين المدن الساحلية وتزويدها بالقوات المحاربة ، واستعار من البيزنطيين نظاماً عرف بالرباط ، ويقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو ، وطوّر معاوية هذا النظام فأعدّ الرباط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل المعادية ، وأصبح الحصن يضم حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرجاً للمراقبة ، ثم أصبح بعد ذلك قاعدة للهجوم وشن الإغارات ، وسمح معاوية للجند بسكنى المدن الساحلية ، ومنحهم إقطاعات من الأرض يستغلونها ويقيمون بنجراتها ، فزاد العمران على السواحل ، وأصلح حصون صور وعكا ، وانتقل الناس كما ذكر البلاذري « إلى السواحل من كل ناحية » .

وعندما تولى عثمان الخلافة أعاد معاوية عليه العرض ، فوافقه على أن يجعل الغزو من البحر اختيارياً ، فن اختار ركوبه حمله وأعانه ، وكانت هذه الموافقة بداية مجد بحرى فى تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية ، ونقطة تحول فى تاريخ الحروب الإسلامية .

وكانت أول غزوة بحرية للمسلمين بقيادة معاوية فى سنة ٢٨ هـ^(١) ، فقد غزا قبرص ، إذ أدرك أهمية هذه الجزيرة ، ورأى ضرورة مهاجمتها واحتلالها لصد غارات البيزنطيين على الشام ، ولمنع إتخاذها محطة تموين ، وأتم استعداداته^(٢) ، وكانت تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها ، واختار

(١) تاريخ التمدن الإسلامى - ١

(٢) أعد معاوية أسطولاً من سواحل الشام وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي مسروح عامل مصر بإعداد أسطول آخر واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسسى .
(كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة لرفيق العظم)

كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبة الحملة ، وحرص على أن تخرج النساء ضمن الخارجين بعد أن كتب إليه عثمان « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركه مأذوناً لك وإلا فلا »^(١) . وركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة ، وحمل امرأته فاخنة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حوام بنت ملحان الأنصارية (عثرت بها دابة كانت تركبها فقتلها ودفنت في قبرص وأطلق على قبرها قبر المرأة الصالحة) ، وغزا معه خالد بن يزيد ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفاري ، وفضالة بن عبيد ، وعمر بن سعد بن عبيد الأنصاري ، وعبد الله بن بشر المازني ، وشداد بن أوس ، والمقداد .

وصالح معاوية أهل الجزيرة على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها في كل عام ، وعن الواقدي في إسناده قال « لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عهد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، وجرى ذلك عليهم إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فخطها عنهم » ، وبعث معاوية إليها بائني عشر ألفاً فبنوا بها المساجد ، ونقل إليها جماعة من بعلبك ، فأصبحت مستودعاً حربياً في البحر الأبيض للمسلمين .

وكان معاوية على حق فيما أشار به من غزو قبرص ، واتخاذ قواعد في البحر لحماية الإمبراطورية الناشئة ، فقد زادت سعة وازدادت شواطئها امتداداً ، ولم يكن قد بقي للروم من وسيلة للعودة إليها إلا البحر ، فإذا أيقنوا أن أسطولهم سيلقى من بأس أسطول المساهين ما يلقي جنودهم في

(١) البلاذري

المليادين من بأس الجند المسلمين ، فت ذلك في ساعدهم ، ولقد كان رأى عثمان بالتطوع للفزوة في البحر مشورة موقفة ورأياً سديداً ، فأغلق باب الخلاف ولم يترك لمعترض سبيلا .

وكان النصر في هذه الفزوة مشجعاً للمسلمين على الإقدام والتوسع في الحرب البحرية ، فأصبح لهم أسطول لا يقل عن أسطول الروم بأساً ، وأصبحت الدولة الإسلامية ذات قوة بحرية بجانب قوتها البرية ، ولعب الأسطول دوراً كبيراً في اتساع رقعة الدولة ، فقد تم فتح جزر البحر الأبيض وفي مقدمتها مالطة التي فتحها حبيب بن مسلمة القهري الذي وجه إليها عياض بن غنم ، ورودس التي غزاها جنادة بن أبي أمية الأزدي ، وصقلية التي غزاها أسد بن الفرات بمعاونة عبد الله بن قيس ، وأصبح المسلمون سادة في البحر كما كانوا سادة في البر .

في بداية الأمر لم يكن للمسلمين معرفة بشئون الملاحة البحرية ، فاستخدموا الروم وكانوا يجيدون هذا العمل ، فعاونوهم على إنشاء السفن والشوانى ، وأطلقوا عليها اسم الأسطول ، أخذوا عن كلمة يونانية هي « Stolon » ، وجعلوا مقوره في بحر الروم ، وأقاموا دوراً للصناعة (الترسانة) تبني فيها السفن وتعد فيها كل مستلزماتها .

واهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بتعليم المسلمين السباحة ، وكافة شئون البحر ، وكيفية قيادة السفن ، واستخدام البوصلة ، وتحديد المواقع ، ورسم الخرائط ، وبلغ عدد الجند في البحرية في عهد الفاطميين خمسة آلاف ، ثم ارتفع العدد وزاد ، وأقبل الناس على هذا الفرع من فروع الجيش

تجما استدعى لإنشاء ديوان أطلق عليه « ديوان الأسطول » ، وذلك في عهد الفاصر صلاح الدين الأيوبي ، وبالعالم المسلمون في إنشاء السفن حتى بلغ الأسطول في عهد عبد الرحمن الفاصر مائتي سفينة ، وأنشئت الموانئ في الأندلس ، وكان لكل أسطول قائد يتولى شئون الحرب ، ورئيس يدبر تحريك السفن بالرياح أو بالمجاديف . . . وكان إذا اجتمعت مجموعة من الأساطيل تولى قيادتها أمير واحد . .

وتناول التوسع الأسطول وأصبح موضع اهتمام المسؤولين ، وتنوعت المراكب الحربية وتعددت أنواعها ، فكان منها الشونة والحراقة والطراوة والعشاريات . . . وأنشئ أول أسطول في مصر الإسلامية في أواخر القرن الأول للهجرة على يد عنبسة بن إسحق أميرها من قبل الخليفة المتوكل العباسي .

وفي العهد الفاطمي اعتنى الخلفاء بالأسطول ، وأنشأوا السفن الحربية في الإسكندرية ودمياط ومصر ، وكان للأسطول في عهدهم عشرة من القادة ، كانت لهم إقطاعيات يسمونها « أبواب الغزاة » ، وكان أحدهم يندب قائداً عاماً للأسطول الذي بلغ في عهد المعز لدين الله ستمائة قطعة بحرية .

ولقد موت فترة أهل الناس فيها شئون الأسطول والبحر ، وأصبح المسلمون لا يقبلون عليه أو يهتمون به ، فانحط أمره وتدهور حاله ، حتى تولى الملك الظاهر بعبس الأمر ، فأعاد له مجده ، وسكن ليس إلى مكانته التي كان عليها من قبل .

ومرة أخرى أهملت البحرية الإسلامية وتدهور حال الأسطول ، وطالت

هذه المرة فترة الإهمال والقهور ، حتى تولى العثمانيون أمر المسلمين فعاد للأسطول مجده وإشراقه ، وكان من أشهر رجال البحرية حينئذ « بربروسا خير الدين باشا » الجزائري الذي ولاه السلطان شئون الجزائر ، وإليه يرجع فضل ضم تونس إلى الدولة العثمانية .

وكانت دور الصناعة في بلاد الإسلام كثيرة وخاصة في الأندلس وأفريقيا ، وأنشئت أول دار في جزيرة الروضة تجاه القسطنطينية ، وعنى بها أحمد بن طولون ، ثم نقلت في عهد الأخشيدي إلى القسطنطينية ، وأنشأ الفاطميون داراً للصناعة قرب القاهرة .

وكانت المراكب الحربية أنواعاً متفاوتة شكلاً وحجماً وقوة . . . وكان من معدات السفن الزرد والحدود والدرق والقراس والرماح والقصى والكلاليب والباسليقات والعراصات . . . وكان الرجال يقذفون على العدو الحجارة ، قوارير النفط المشتعلة وجرارة النورة (وهي مسحوق ناعم يؤذى العين ويعمى الرجال ويفقد البصر) ، وقدور الصابون اللين والحليات والعقارب . . . وكانوا يغطون السفن من الخارج بالجلود أو اللباد المبلول بالخل والماء والشب لمنع أذى النفط الذي يلقي به العدو . . . وكانوا يجيدون إخفاء السفن ليلاً فيمنعون إشعال النار حتى لا يراها العدو وكذلك بقاء الديكة حتى لا يسمع العدو صوتها ، وكانوا يسدلون عليها قلوفاً زرقاء لمعاناً في إخفائها حتى لا تظهر للعين .

ولقد استفاد المسلمون من اتصافهم بالروم ، فتعلموا منهم فنون الحرب البحرية ، حتى أصبحوا من أعظم رجال الحرب في عهدهم ، وكانت لهم صفحات خالدة مجيدة في مجال الحرب والبحر ، نذكر منها على سبيل المثال دون الحصر أحداث معركة ذات الصواري التي تعتبر أكبر معركة بحرية ذات نتائج على

جانب عظيم من الأهمية، لأنها أرست أقدام العرب في مصر، ولأنها أتاحت الفرصة للأسطول الإسلامي (المصري والشامي) لفتح جزيرة قبرص، ومكنت المسلمين من تجريد حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية رداً على اعتداءاتها البحرية المتكررة، وتعتبر هذه المعركة من المعارك القليلة الحاسمة التي غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض، وتقف على قدم المساواة مع معركة أكتيوم في التاريخ البحري القديم، ومعركة أبي قير البحرية في التاريخ الحديث، فكما جعلت معركة أكتيوم البحر الأبيض بحيرة رومانية، وكما أكدت معركة أبي قير سيادة بريطانيا على هذا البحر، فإن معركة ذات الصواري جعلت من البحر الأبيض بحيرة عربية إسلامية وأكدت سيادة المسلمين عليه.

أيقن الروم أنهم لن يستطيعوا العودة إلى مصر وأفريقيا، ولن يستطيعوا مناهضة المسلمين في الشام، ولن تعود إليهم سيادة البحر ما لم يحطموا أسطول المسلمين، ولهذا عزموا على غزو البحر وتحطيم أسطولهم المسلمين، وكانوا موقنين أنهم سيظفرون به، فسفنهم أكثر من سفن المسلمين عدداً، وملاحوهم يفوقون ملاحى المسلمين براعة وكفاءة.

تولى قيادة أسطول الروم الامبراطور قسطنطين بن هرقل، وكان مكوثاً من نحو ألف سفينة (ذكرت بعض المراجع أنه كان ما بين خمسمائة وستمائة سفينة فقط)، وتقدم بالأسطول في اتجاه الإسكندرية بداعبه أمل استعادة سلطان الروم في مصر وتحطيم الأسطول الإسلامي نهائياً. وتولى قيادة الأسطول الإسلامي عهد الله بن سعد بن أبي سرح، وعنده مائتا سفينة، شحنها بذوى البأس في الحرب من شجعان المسلمين وأبطالهم، وأرسل به بعيداً عن الإسكندرية في طريق الروم إليها، وقيل إن معاوية بن

أبى سفيان شارك فيها على رأس أسطول من الشام .

وسُميت المعركة بذات الصواري لكثرة ما التحم فيها من الصواري ، وعُرفت في المراجع الأجنبية باسم « موقعة فونيكّة » . . ووصف الطبري والمقريزي وابن عبد الحكم والنويري والهلاذري وغيرهم من المؤرخين المعركة وصفاً دقيقاً .

ونحن نلخص أحداث المعركة نقلاً عنهم بتصريف فنقول

عندما التقى الأسطولان بات الروم يدقون نواقيسهم ، وبات المسلمون يصلون ويقرأون القرآن ، وبعث عبداً لله إلى قسطنطين يقترح عليه « إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البرلأن الأعجل مقاومتكم » ، ورفض الروم هذا العرض لأنه لا يتفق مع هدفهم من دخول معركة بحرية يدمر فيها الأسطول الإسلامي وينتهى إلى الأبد وقالوا « الماء . . الماء » ، أى أن المعركة يجب أن تدور فوق سطح الماء وليس على الأرض .

وحان وقت الاشتباك وتقدمت سفن الطرفين ، ونشب القتال عنيفاً غاية العنف ، وبلغ من عنفه أن تداخلت سفن الأسطولين ، ودفعتها الأمواج إلى الشاطئ ، واختلط الرجال ، فاستخدموا السيوف والخنجر بقسوة وكثرة القتلى في الجانبين ، وروى عن بعض من حضر ذلك اليوم أنه قال « رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج ، وإن عليه لمثل الظرب العظيم من جثث الرجال ، وإن الدم لغالب على الماء ، وصبر الناس يومئذ صبراً لم يصبروه في موطن قط » . . . وحى الوطيس وأبلى الطرفان أحسن البلاء ، وأصاب قسطنطين جراحات أوهنت قوته وضعفت عزمه ، فلما أيقن أن الدائرة للمسلمين

عليه ، ولى مدبراً بما بقي من أسطوله ورجاله ، وقد آمن بأن بأس المسلمين في البحر لا يقل عن بأسهم في البر ، ولما سأله قومه بعد فراره صرح لهم « أهلكم النصرانية وأفنيت رجالها ، لو أننا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم » ، وأغضب هذا التصريح الناس فساقوه إلى حمام وقتلوه ، أما عبد الله فقد بقي في مكان المعركة أياماً حتى استراح الناس ، ثم قفل راجعاً إلى الإسكندرية ، وقد لاهمه كثيرون لأنه ترك الروم يفرون دون أن يطاردهم ، ولعله كان بعيد النظر في ذلك ، لأن المسلمين كانوا قد فقدوا عدداً كبيراً من الرجال ، وقال من بقي منهم جهداً شديداً يقعذر معه مداومة العمل واستمرار المطاردة بالكفاءة المطلوبة والجهد الواجب .

وترجع أهمية هذه المعركة إلى أن الروم لم تقم لهم قائمة بمدى ما في البحر ، بدليل أنهم أسقطوا من تفكيرهم فكرة العودة إلى مصر أو أفريقيا أو الشام ، حيث كانت دولتهم قبل الإسلام ، وأصبح المسلمون هم القوة الوحيدة السكينة ذات السيادة والنفوذ في البحر الأبيض .

الانفاق في سبيل الإعداد والتجهيز

إن الحرب تعتمد على الرجال والسلاح ... وإذا كان الرجال هم عماد المعركة ، فرجال دون سلاح يفقدون القدرة على المواجهة والقتال .

ولهذا فبجانب إعداد الرجال وتجهيزهم معنوياً للمعركة ، لابد من توافر السلاح الذي يحاربون به ، فالقوة المادية يجب أن تقاوم بجانب القوة المعنوية ، فكلاهما مقمّم الآخر .

ولقد تحدثنا عن نوعية السلاح الذي استخدمه المسلمون وهو كثير متنوع ، ولكن من أين للمسلمين بهذا السلاح وقد نشأوا في بيئة غير صناعية ، ولا تعترف بالصناعة ، بل كان العرب - كما ذكر ابن خلدون - يحرقونها .. والعرب أمة عاشت حياتها على الرعي والتجارة والسعي الدائب إلى حيث يتوافر الماء والكلأ ، ونحن لانستطيع أن ننكر أن بعضاً منهم كان يصنع الرماح والسيوف والقسى ، ولكن هؤلاء كانوا قلة ، وكان إلتажهم لا يفي حاجة المعركة ولا يسد متطلبات القتال ، فكان عليهم إذن البحث عن مصادر لهذا السلاح ، ومعنى ذلك أنه كان لابد من أن يسموا إلى إيجاده وتجهيزه بكل الوسائل المتاحة ، والمعروف أن السلاح كان ينقل إليهم من الأسواق المختلفة ، ومن هنا تعددت مصادره ، وتعددت أيضاً نوعيته ، فكان بين أيديهم السلاح الرومي والفارسي والهندي والحبشي .

ولقد يكرت الغزوات للمسلمين وضع أيديهم على كميات مختلفة وكثيرة من الأسلحة التي كانت أصلاً ملكاً لأعدائهم ، وكانت تمثل جزءاً من الغنائم ، فمثلاً اضطر يهود بني قينقاع وبني النضير إلى الجلاء وقد تركوا الحلقة (السلاح) ، ووضع المسلمون أيديهم عليها ، فغنموا مثلاً من بني قينقاع خمسة آلاف قطعة من السلاح ما بين سيوف ورماح ودروع وقسى ، كما غنموا أعداداً أخرى من بني النضير ، ووضعوا أيديهم بعد احتلال حصون خيبر على أسلحة كثيرة متنوعة منها المنجنيق والدبابة ، واستولى خالد بن الوليد بعد انتصاره في دومة الجندل على أسلحة أيضاً ، وكذلك كافة القادة في كل معاركهم التي انتصروا فيها في مختلف ميادين القتال .

ولكن في بداية الحرب الإسلامية كان لابد من توافر السلاح ، فمن

أين للمسلمين الأوائل به ؟ كان لابد من شرائه بالثمن ، ومعنى هذا أنه لابد من أن يتوفر المال الذي يدفعونه ثمناً له ، ولهذا حض الإسلام على الإنفاق في سبيل الله .

والإنفاق جهاد . . جهاد بالمال في سبيل الله ويأتي في المرتبة الأولى .

والإنفاق من أجل إعداد السلاح وتوفيره فكرة ومبدأ وعقيدة تتفق مع فكرة القتال ومبادئه وعقيدته ، بل هو يسبق فكرة القتال ، لأن المال هو عصب الحرب ، وله تأثير كبير وعظيم ومباشر في حركة الجهاد ، وخاصة أن أكثر من مارس الحرب في الإسلام كان فقيراً معدماً وليس بغنى ، وعلى عاتق هذا البعض وقع عبء الجهاد عملاً وعدداً .

والإنفاق هو بذل المال في وجه من وجوه الخير . . ووجوه الخير كثيرة تجمعها على سعتها وكثرتها كلمة « سبيل الله » ، ذلك لأن معنى السبيل الطريق ، وسبيل الله هو طريقه الذي شرعه وارتضاه ، وأمر الناس بالاتجاه إليه والاستقامة عليه .

ولقد حض القرآن على الإنفاق بمختلف الوسائل والأساليب التي تدعو إليه وترغب فيه وتغري به ، ووضع القرآن الإنفاق في مستوى الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات ١٥)

وجعل القرآن الإنفاق وجهاً من وجوه البر وأصلاً من أصوله . . ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى

الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴿١٧٧﴾
(البقرة: ١٧٧) .

ورغب القرآن في الإنفاق في مواطن كثيرة ، فإذا كان الله سبحانه
هو الذى يعطى ويرزق ، فلا خوف إذن من الإنفاق ، لأنه إنفاق في سبيل
الله مما أعطى الله ، وهذا الإنفاق يكون بمنزلة قرض الله ولن يضيع الله
ما اقترضه ، بل إن هذا القرض سيعود إلى صاحبه ويرد مضاعفاً .

وقد شبه الله ما ينفق في سبيله وابتغاء مرضاته بالحبة التى توضع في
الأرض فتنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ، وأشار تبارك
وتعالى إلى أنه يضاعف لمن يشاء ثواب إنفاقه فيزيد عن السبعمائة ضعف
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَفْبَتْتَ
سَبْعُ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦١) .

ولقد شبه الله في موضع آخر من القرآن المؤمن الذى ينفق ماله في سبيل
الله كمثل من غرس جنة بربوة عالية تتعرض للشمس والهواء والمطر ، فيكون
ثمرها مباركاً وعطاؤها مضاعفاً فإذا لم يصبها المطر سقتها حبات الطل فتزدهر
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْبِيهًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ
يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ ﴾ (البقرة : ٢٦٥) .

كما أوضح القرآن أن ما ينفق في سبيل الله له ثوابه ، وإلى المنفق المؤمن

تمود ثماره ، وهو بهذه الصفة مقبول عند الله يجرى به أضعافاً مضاعفة
« وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » (سبأ: ٣٩) ... ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٢) .

وأحاديث الرسول في الإنفاق والحث عليه كثيرة متعددة منها على
سبيل المثال قوله عليه الصلاة والسلام « قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك »
و « المال الصالح في يد العبد الصالح » ، فبالمال الصالح تؤسس عزة
الأوطان ويرفع شأنها ويصان استقلالها ويقاكد وجودها ، ذلك لأن عزة
الأوطان ورفعة شأنها والجهاد في سبيلها لا يكون بالنفس فقط ، وإنما
بالنفس والنفيس ، والنفيس المذكور في صفقة الجهاد في قوله تعالى
﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي
بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١)

إذن فالإنفاق مبدأ من مبادئ الإسلام ، والتقصير فيه مع القدرة
عليه نكوص وخروج وتهلكة ، لما في ذلك من إغراء العدو بالمسلمين ،
ولقد اقتضت حكمة الله أن يشارك المجتمع الإسلامي كله في الجهاد بالمال
كل حسب قدرته وجهده ، فمن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ، ومن
أعان في إعداد أدوات الحرب ومثونة الجيش فقد غزا ، ويكون شأنه شأن
المجاهدين في ميدان المعركة .

والإنفاق يستهدف أصلاً زيادة قوة المسلمين ، فإذا أمسك المسلمون عن الإنفاق ضعف شأنهم في الوقت الذي يشتد فيه عدوهم ويقوى ويصبح خطراً عليهم ، ولهذا فيجب ألا يضعوا أنفسهم في موضع الضعف أمام عدوهم ، فيكون ذلك وبالاعليم ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

واشترط في الإنفاق أن يكون صادراً عن إيمان وعقيدة لا عن إكراه وخوف ، فإذا كان استكراهاً أو استئقلاً فلا يقبل عند الله ﴿ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كَفْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة : ٥٣/٥٤) .

وأندر الله هؤلاء الذين لا ينفقون في سبيله بل يكتزون أموالهم ويبخلون في الإنفاق حباً للتملك والإقتناء أو شحاً وبخلاً ، فإنهم يرتكبون ظلماً وعدواناً ويأتون إثمًا ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة : ٣٤) ... و... ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٨) .

من خلال هذه المعاني وفي ضوءها كان الإنفاق في الإسلام تربية للنفوس واطمئناناً إلى المسلمين ، وكشفاً للمنافقين ومجالاً للسابق .

والإنفاق كان ضرورياً وجوهرياً لأن المسلمين كانوا يواجهون أعداء تطلب مواجهتهم وفراً كبيراً في السلاح ، والسلاح كما أوضحنا كان الحلي منه قليلاً وأكثره مستورداً ، وكان لابد من أن يدفع الثمن سواء للمحلي أو للمستورد ، ومن هنا كان يلزم تواجد مال وفير لدى القيادة العليا التي تنظم الجيوش وتمدها بالسلاح .

ولقد زادت أهمية الإنفاق بزيادة عدد الجند وتعدد الجيوش وميادين القتال ، فكلما كثر عدد المقاتلين تطلب الأمر سلاحاً أكثر ، وهذا يستوجب مالاً أكثر ، وجيش كثيف لا قيمة له دون سلاح يحمله ويحارب به .

دعا الرسول إلى الخروج إلى تبوك ، فنجتمع لديه قوم لا يملكون السلاح أو الدابة التي تحملهم ، فصرفهم عليه السلام وكلهم رغبة في الخروج ، فعادوا أدراجهم وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ، وأطلق عليهم اسم « الهكائين » ، ومن أجل إتاحة الفرصة لكل راغب في الخروج ، فعلى كل متيسر غنى أن يمد يده بالمال ليشتري به السلاح ، ليحمله من لاسلاح عنده ، والليل لمن لا يملك ما يحمله ، ومادام المال مال الله فلا يسوغ أن يبخل أحد به ، بل ينبغي المبادرة بصرفه في سبيل الله ، وكأنه قدم لله قرضاً ، فإن الله تعالى سوف يؤدي إليهم ثمن ما قدموا وقيمة ما اقترضه أضعافاً مضاعفة ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرَضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة ۖ والله يقبضُ ويبسطُ ۖ وإليه ترجعون ﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر وما أصدق قوله :

إن الدرام في الأماكن كلها تسكو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا

ومن أعظم أمثلة الإنفاق فى سبيل الله ما حدث عند الإعداد لغزوة تبوك ، فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش ...
أنفق عثمان بن عفان وحده عشرين ألف دينار صبها فى حجر رسول الله .
فقال « اللهم لا تنسى هذا اليوم لعثمان » .

وجاء أبو بكر بماله كله ، ودفع عمر نصف ماله ، وقدم عبد الرحمن ابن عوف أربعة آلاف ، وقال للرسول « يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف فامسكت لنفسى وعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها لربى » ، فقال له الرسول « بارك الله فيما أمسكت وفيم أعطيت » .

وأنفق كثيرون غيرهم كل فى حدود طاقاته ، حتى أن جابر بن عبد الله الأنصارى قدم حفنة من برهى كل ما يملك وهى لا تساوى شيئاً ، وقبلها منه رسول الله تقديراً لمبدأ الإنفاق ، ولحدود الاستطاعة التى ذكرها الله تبارك وتعالى فى قوله الحق « وأعدوا لهم ما استطعتم » ، والأمر هنا واضح وصريح ، فالهذل والعطاء على قدر الاستطاعة و« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

ولما كان من طبيعة الإنسان أن يحرص على الحياة وعلى المال ، وهما أعز شئ عنده ، وليس من الهين بذلهما إلا بعوض هو خير منها وأبقى ، فقد أقدم المسلمون على بذل حياتهم ومالهم فى سبيل الله الذى وعدهم بمضاعفة الأجر والثواب وبجزمات تجرى من تحتها الأنهار .

المبحث الثالث

المعركة

- (١) القذائف —————
- (٢) تقدير الموقف
- (٣) الخط —————
- (٤) مشاكل ما بعد المعركة
- (٥) مبادئ الحرب

اذا رفعوا السيف رفعوه بقانونه

واذا وضعوا السيف وضعوه بقانونه

من رسالة مارية القبطية

إلى المقوقس عظيم القبط في مصر

عندما توفر لدى المسلمين الرجال الأشداء القادرون على خوض غمار المعركة ، وعندما أصبح لديهم السلاح والعتاد الذى يستخدم فى القتال ، لم يعد أمامهم إلا دخول المعركة .

ودخول المعركة فن يبدأ قبل المعركة بوقت طويل ، وهذا الفن يمر بمرحلتين . . مرحلة ما قبل المعركة أى التنظيم لها ، ثم مرحلة الاشتباك الفعلى . وهى تعنى « تكتيكات » مواجهة العدو .

ولقد كان للمسلمين معرفة عميقة بهذا الفن ، وإدراك واسع لأصوله ، وفهم واسع لأساسياته ، وقد باشروا الحرب بهذا الباع الطويل فى فن المعركة ، وانتصروا فيها ، ووضعوا للحرب أسساً ومبادئ . مازالت تستخدم حتى اليوم .

ومرحلة ما قبل المعركة تقوم أساساً على . . .

- التنظيم العام للجيش المحارب .
- تقدير الموقف العسكرى تقديراً سليماً .
- وضع الخطة فى حدود ما تراءى من تقدير الموقف .

وبعد أن يتم الإعداد على هذه الأسس يكون الجيش فى مرحلة الاستعداد للاشتباك ، وهذه تعتمد على عناصر ومقومات . . .

- قدرة المحاربين على مواجهة العدو .
- موقف القيادة وتقبيلها لسير الأحداث وسيطرتها على الموقف .
- تنفيذ الخطة التى وضعتها القيادة وعدم الانحراف عن أهدافها .

هل يستطيع أى جيش أن يخوض غمار معركة قبل أن يتناول التنظيم ؟

لا يخفى إثنان فى الإجابة على هذا السؤال ، فليس هناك اختلاف فى أن الجيش — أى جيش — لا يستطيع أبداً أن يدخل معركة ويشق بك فى قتال دون أن يكون قد رتب أموره بحيث تحدد الواجبات والمسئوليات ووسائل التعاون بين القوات .

والمعارك الكبيرة التى تمت فى ظل المدرسة العسكرية الإسلامية تؤكد هذه الحقيقة ، فبالنسبة للجيش الإسلامى لم يدخل جيش إسلامى معركة قبل أن يصل التنظيم لها إلى مستوى المسئولية ، وقبل أن ترسم السياسة العامة للمعركة ، وقبل أن توضع خطة التعاون والتفاهم بين القيادة والجند وبين قطاعات الجيش ووحداته .

ولعل التنظيم المتقن لسير العمليات فى المعارك الإسلامية كان من أهم وأجلّ عوامل انتصار المسلمين .

جاء الإسلام فوجد العرب فى جاهليتهم يحاربون على غير نظام . . كانوا يحاربون بنظام السكر والفر ، بمعنى أنهم إذا همّوا بالقتال كروا على عدوهم ، فإذا أحسوا بضعف فرّوا ثم عادوا فسكرّوا ، وكانوا يصفون إبلهم والظهر الذى يحمل نساءهم فيكون فئة ومرجعاً لهم ، ويسمونه المجبودة ، وهكذا كان نظام الحرب عندهم لا تنظيم فيه ولا يلتزم بقاعدة .

فلما قامت المدرسة العسكرية الإسلامية رفضت نظام السكر والفر ، واستخدمت نظاماً جديداً في ضوء ما أمر به الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُذَيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤) ، وفي ضوء ما أشار به الرسول عليه السلام في حديثه « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » .

وهذا يعني أن المدرسة العسكرية الإسلامية اتخذت نظام الصف في القتال .

جاء في بلوغ الأرب « ... وصفة الحروب بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين ، نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالسكر والفر ، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذي بالسكر والفر فهو قتال العرب » .

ولقد اختارت المدرسة العسكرية الإسلامية نظام الصف ، لأن قتال الزحف أشد ، فالجاهد المؤمن في هذا القتال يأخذ مكانه في صف المجاهدين ويلتحم معهم ، ويجعل كيانه من كيانهم ، ويشهد مواقف القتال ، ويعطى الجهاد حقه ، وهو في مواجهة عدوه لا يوليه دبره ، ولا محتمياً بظهر غيره من المجاهدين ، وإن الحكمة من القتال بالصف هو حفظ النظام ، فمن أعطى العدو ظهره فقد أخل بنظام الصف ، وباء بإثم الهزيمة إن وقعت ، وصار كأنه جرّها على المسلمين ، وأمكن منهم عدوهم . . عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال « اجفنبوا السبع الموبقات . . الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ،

والقولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وجاء فى بلوغ الأرب « قتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر ، لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً ، ولذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو ، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فيه . »

كان الجند المسلمون إذن فى أيام النبی الكريم يرتبون صفوفاً ، وهو ما يعبر عنه بالزحف ، وكانوا يمشون بصفوفهم إلى عدوهم ، وكانت الصفوف تقل أو تكثر تبعاً لقلّة الخارجين أو كثرتهم .

بهذا النظام واجه المسلمون العرب ، وكان الأخيرون لا يعرفونه ، فكان مفاجأة ، وكان من أسباب النصر على أهل الكر والفر ، ذلك أن أسلوب الكر والفر ليس فيه من الشدة والأمن ما فى قتال الصف ، واعتبر استخدام هذا النظام الجديد فى القتال داخل الجزيرة العربية تحولا فى أسلوب الحرب .

ومع ثبات المسلمين فى القتال بنظام الزحف ، فقد كانوا يجعلون وراءهم الإبل والنساء والأحمال ، فيزيدهم ذلك ثباتاً فى الحرب وصبراً على القتال^(١) .

ولما تسكّثر المسلمون فى عهد ما بعد رسول الله ، أى فى أيام الخلفاء الراشدين ، صاروا ينظمون أنفسهم صفوفاً باعتبار الأسلحة . . قال على ابن

(١) السيرة الحلبية .

أبى طالب لجفده يوم واقعة صفين « سوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ،
وقدّموا الدارع ، وأخروا الحامر ، وعضّوا على الأضراس ، فإنه أنبى
للسيوف عن الهام ، والتّووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة ، وعضّوا
الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأخفّتوا الأصوات فإنه أطرد
للفشل وأولى بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجمعلوها إلّا بأيدي
شجعانكم ، واستمعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر . .
وقال الأشتر يومئذ يمرض الأزد « عضّوا على النواجذ^(١) من الأضراس ،
واستقبلوا القوم بهامكم ، وشدّوا شدّة قوم موتورين ، يتأثرون بأبائهم
وإخوانهم ، حنّاقا على عدوهم ، وقد وطنوا على الموت أنفسهم ، لئلا يسبقوا
بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار » .

وكان المسلمون يسوّون صفوفهم كصفوف الصلاة ، وجاء في السيرة
الحلبية أن النبي كان يمر بين الصفوف يسويها بنفسه ويعدّها ، وفي يده عليه
السلام سهم بلا ريش ، وروى أنه عليه السلام مرّ بصفوف المسلمين في بدر
فوجد رجلا اسمه سواد خارجا عن الصف ، فطعنه في بطنه وقال له « استو
ياسواد بن غزية » .

ومع الزيادة العددية في عدد المقاتلين طوّرت المدرسة العسكرية نظام
الصفوف ، واستبدلته بنظام جديد أطلق عليه « التعبئة » ، أى ترتيب المقاتلين
على نظام السكرايس .

(١) جمع فاجذ وهو ما بين الناب والضرس . وقيل إنه آخر الأضراس ، ويقولون ضحك
حتى بدت نواجذه .

والسكردوس^(١) كلمة يونانية معناها الكتلة أو الكتيبة koortis ،
والكتيبة تسمى باليونانية فلانكس Phalanx . قلنا إن هذا النظام استخدم
عندما زادت الكثافة العددية للجند ، وحشدوا من مواقع كثيرة متعددة
مقابلة ، فجعل بعضهم بعضاً ، فإذا ما اختلطوا في مجال الحرب كانوا يطعنون
بعضهم لعدم توافر المعرفة بينهم ، ولهذا اضطرت القيادات إلى تقسيم الجند
إلى جموع ، تضم المتعارفين بعضهم لبعض ، ويحددون لهم موقعهم خلال
القتال ، مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، وكان موقع القائد عادة في وسط
هذه القوات ، ويسمى موقعه القلب .

ولقد استخدم خالد بن الوليد نظام السكراديس في موقعة اليرموك ،
فجعل جيشه ستة وثلاثين كردوساً ، ارتفعت في بعض الروايات إلى الأربعين ،
وقال لجنده « إن عدوكم (يقصد الروم) قد كثروا وطغى ، وليس من التعبية
تعبية أكثر في رأى العين من السكراديس » ، وجعل القلب كراديس ،
وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل الميمنة راديس وعليها عمرو بن
العاص وفيها شرحبيل ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي
سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من
أضراب القعقاع وعكرمة وعياض بن غنم وعبد الرحمن بن خالد^(٢) ، وكان
أبو سفيان يسير في السكراديس ويقف عليها وهو يقول « الله ، الله ، إنكم

(١) في القاموس كردس الخيل أى جعلها كتيبة كتيبة .

(٢) كان يومئذ ابن ثمان عشرة سنة .

قادة العرب ، وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم ، وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » ، وهكذا أعد خالد جيشه لمواجهة حشود الروم - التي تزيد على خمسة أضعاف عدد قواته - بإعداداً روحياً ونظامياً لم يسبق للمسلمين أن خرجوا في مثله .

واقتبس سعد بن أبي وقاص هذا النظام في القادسية .

ولم يصبح هذا النظام رسمياً إلا في عهد مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية ، فقد أمر بإبطال نظام الصفوف نهائياً ، واتبع نظام الكراديس ، وبهذا النظام حارب الضحاك الغسارجي ثم الجبيري ، قال الطبري « لما ذكر قتال الجبيري فولّى الخوارج عليهم شيخان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب (أبا الدفاء) ، قاتلهم مروان بالكراديس وأبطل الصف يومئذ » .

وكتب عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصي ولي عهد الخلافة بتعبئة الجيوش قال « إذا كنت من عدوك على مسافة دانية ، وكان من عسكريك مقرباً ، وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعد إعداد الحذر ، وعب جنودك ، وإياك والمسير إلى المقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا بالأسلحة ونشروا البنود والأعلام ، وعرف جنودك مراكزهم ، سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ، ملحين إلى مواقفهم عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجمهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ، وعرف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليمة ، لازمين لها غير مغلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما أهيت بهم إليه ، حتى تكون عساكرهم في

كل منهل تصل إليه ومسافة تختارها كأفه عسكري واحد في اجتماعها على العدة، وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفة مواقعها ، إن ضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هي ومن صاحبها ، وفي أى المحل حلوله منها فردت إليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها ، فإن تقدمك في ذلك وإحكامك له لإطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة ، ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً ورضاء في العامة ، وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وأدبك ، وواقعاً عند أمرك ونهيك ، معتمداً على مناصحتك وتزيينك ، نظيراً لك في الحال ، وشبيهاً بك في الشرف ، وعديلاً في المواضع ، ومقارباً في الصيت . . . إلى آخر الرسالة .

غير أن نظام التعيئة لاقى معارضة من بعض دعاة الخلافة من أهل البيت ، الذين اعتبروا العدول عن نظام الصف إلى نظام الكراديس بدعة يجب إبطالها ، وظلوا فعلاً على الزحف صفوفاً .

حدث أن أرسل الخليفة المنصور عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب فالتقى بأخيراً^(١) ، فأراد إبراهيم أن يحاربه زحفاً بالصفوف ، فأشار عليه بعض رجاله أن يجعل جنده كراديساً ، « لأن الكراديس أثبت في الحرب ، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره » ، ولكنه أصر على رأيه قائلاً :

(١) موقع على بعد ١٦ فرسخاً من الكوفة

« لا نصف إلا صفّ أهل الإسلام » ، ودارت عليه الدائرة وخسر المعركة .
وتفنن المسلمون في نظام تعبئة الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند
القدماء بعد ترجمة كتبهم ، وتعددت ضروب التعبئة حتى صارت سبع تعبئات ،
وإن كانوا لم يستخدموها كلها .

الأولى ... أن ترتب الجيوش بشكل هلال بسيط كهلال السماء .
الثانية ... أن ترتب الجيوش بشكل هلال مركب يكون على جانبيه
هلالان كأهما جناحان .

الثالثة ... أن ترتب الجيوش على شكل مربع مستطيل .
الرابعة ... أن ترتب الجيوش على شكل هلال مقلوب .
الخامسة ... أن ترتب الجيوش على شكل المربع أو المنحرف أو المعين .
السادسة ... أن ترتب الجيوش على شكل مثلث .
السابعة ... أن ترتب الجيوش على شكل دائرة مزدوجة ، أى دائرة في
داخل أخرى .

* * *

اهتم المسلمون منذ عهد رسول الله باستعراض الجيش الخارج إلى المعركة ،
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعرض أصحابه بنفسه ، وجاء في السيرة أنه
عليه السلام استعرض جنده في بدر ، كما استعرض جيشه عند فتح مكة ، وشهد
هذا العرض أبوسفیان - وكان مازال على دين آباه يقود قريشاً في فضالهما -
(٢٩ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

ومقاومتها الدعوة الإسلامية - بصحبة العباس عم النبي . . . جاء في السيرة
الخلبية أن رسول الله أمر العباس أن يحبس أبا سفيان وبديلاً وحكيم بن حزام
وقال له « احبسه (يقصد أبا سفيان لشرفه) بمضيّق الوادي ، حتى تمر به جنود
الله فيراها » ، ومرت القبائل كلها أمامهم ، فكانت كلها مرت قبيلة سأل
أبو سفيان العباس عنها ، فيقول له اسمها ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم
في كتيبته الخضراء وعمر يقول « رويداً حتى يلحق أولكم آخركم » ، فقال
« سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ » ، فقال « هذا رسول الله صلى الله عليه
وسلم في الأنصار والمهاجرين » ، فقال « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، فوالله
يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » ، قال العباس
« يا أبا سفيان ، إنها النبوة » ، فقال « نعم لأذن » ، وأدرك أبو سفيان أن قومه
لأقبل لهم بجيش المسلمين فأسلم ، وعاد إلى مكة يدعو القوم إلى عدم المقاومة
« من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق عليه
بابه فهو آمن » .

وأقيم استعراض ضخم للجيش الإسلامى السائر إلى تبوك ، وارتقت نساء
المدينة سقفا يشهدن الجيش الجرار ، وقد ثار النقع ، وصهلت الخيل ، وكان
منظر الجيش مثيراً لبعض النفوس التى لم تحركها دعوة الرسول فتقاعست ولم
تقبعه فخرجت نقبته ، كما حدث مع أبى حيشمة الذى قال لامرأتين له « رسول الله
في الضح والربيع والحر ، وأبو حيشمة فى ظل بارد ، وطعام مهيب ، وامرأة حسناء ،
فى ماله مقيم ، هيئنا لى زاداً حتى ألحق به » .

وفعل الخلفاء ما فعله رسول الله فكانوا يعرضون الجند .

خرج أبو بكر يسه عرض جيش أسامة بن زيد ويشيعهم ، وسار مع الجيش
 حينما أسامة راكب ، فغلب أسامة الحياء وقال لأبي بكر « يا خليفة رسول الله
 أتركبن أو لأنزلن » ، فقال له « والله لا أنزلن والله لا أركب ، وما على أن
 أغبر قدمي في سبيل الله ساعة » ، فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة « إن
 رأيت أن تعينني بعمر فافعل » ، فأذن أسامة لعمر - وكان ضمن الجيش - أن
 يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

واستعرض خلفاء بني أمية الجيش . وكان الحجاج إذا عرض الجند
 يسأل عنهم رجلاً رجلاً ، من هو؟ ما هي قبيلته ؟ ، ويسأل عن حاله وعن سلاحه ،
 وهذا ما كان يفعله فابليون فقد ذكرت كتب التاريخ التي تناولت تاريخ حياته ،
 أنه كان يسأل عن أسماء ضباطه الأصغر وجنده قبل أن يمدحهم ، فإذا بدأ
 الحديث معهم نادى كل واحد باسمه ، فيسعدده ذلك ، لأن الإمبراطور يعرفه
 بنفسه ، ومن ثم ترتفع روحه المعنوية .

واقتمس الخلفاء العباسيون نظام الاستعراض من القرس ، فكان الخليفة
 يجلس في مكان يعد عرض الجند . . وكثيراً ما كان الخليفة يرتدى الدرع
 والخوذة وقت العرض ، وكان المنادى ينادى بأسماء القادة ، فيمرون أمام
 الخليفة الذي يتفقد أفراسهم وعدتهم ، ثم يأمر لهم بجائزة كانت تسمى
 الأرزاق .. قال عمرو بن الليث إعجاب الخليفة المعتمد فأمر له بثلاثمائة درهم
 تحملت إليه في سريرة فقال « الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى
 استوجهت منه الرزق » .

لم يكن للعرب في الجاهلية جند ، ولهذا لم تكن لهم رتب . كانوا يولون على القبيلة الأمير وكان الأمير يرسل بدلا منه من ينوب عنه ويسمى « المنكب » .

ومع بداية العهد الإسلامي قسم الجند إلى عرفاء ، وكان العريف يقود عشرة رجال ، وازداد العدد فوصل إلى ثلاثين وأربعين ، وكان على العرفاء أمراء .

وقسم أبو بكر القوات الإسلامية المكلفة بمقاتل المرتدين إلى ألوية ، وجعل على كل لواء أميرا ، أما القوات المتوجهة إلى الشام فقد جعلها أربعة جيوش ، وعلى كل جيش أمير .

ولم يحدث تغيير في رتب الجند في أيام بني أمية .

ولكن تطور الأمر بعض الشيء في عهد العباسيين ، فأصبح العريف يقود عشرة وعلى كل عشرة عرفاء (أى مائة مقاتل) نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب (أى ألف مقاتل) قائد ، وعلى كل عشرة قواد (أى عشرة آلاف مقاتل) أمير .

ولم تكن لهذه الرتب علامات خاصة تميز أفرادها .

واستخدم المسلمون الرايات والأعلام والألوية ، وهي تشبه في هذه الأيام الأعلام والبنود والبيارق ، واختلفت التعريفات بالنسبة للواء والراية ، وقال أبو بكر بن العربي « اللواء غير الراية ، لأن اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيسه ويترك حتى تصفحه الرياح » ، وقيل اللواء

العلم الضخم وهو علامة على محل الأمير ، والراية يتولاها صاحب الحرب ، ولم يفرق بعض اللغويين بين الراية والعلم واللواء ، قيل « العلم الراية وما يعقد على الرمح ، واللواء هو العلم » ، وقيل « لافرق بين اللواء والراية » .

وكانت عادة العرب اتخاذ اللواء في حروبهم ، وكان من عاداتهم أيضاً جعل الرايات في أطراف الرماح ، وكان اللواء والراية في الحرب شأن كبير ، لأن الناس كانوا يتدافعون تحتها ويحرضون على بقائها مرفوعة ، فإذا ظلت مرفوعة فالنصر مازال في جانبهم ، وإن زالت دل زوالها على الهزيمة .

وكانت الراية واللواء معروفة قبل الإسلام ، وكان منصب اللواء من أهم ما تفخر به قريش ، وقد سموا رايتهم العقاب ، اقتباساً من الروم الذين كانوا يرسمون العقاب أو النسر على أعلامهم وينقشونه على أبنيتهم .

ولقد تعددت الألوية في الجيش الواحد ، ففي غزوة أحد خرجت قريش وحلفاؤها ومعهما ثلاثة ألوية عقدوها في دار الندوة ... لواء حملة سفيان بن عوف ابني كنانة ، ولواء الأحابيش حملة رجل منهم ، ولواء قريش حملة طلحة بن أبي طلحة ، وذكرت بعض الروايات أن الجيش خرج كله بلواء واحد حملة طلحة ، وقد حملة من بعده أحد عشر رجلاً قتلوا جميعاً ، ثم لم يجد من يحمله ، وقد حلت بهم الهزيمة في مراحل القتال الأولى ، وظل ملقى على الأرض ، حتى تغير الموقف فأخذته عمرة بنت عقمة ورفعته ، فرآه الناس فاستداروا به ، وراجتموه إليه .

وأقرت المدرسة العسكرية الإسلامية استخدام الرايات والألوية .

في بدر — أول غزوة إسلامية — دفع رسول الله اللواء وكان أبيض اللون إلى مصعب بن عمير ، وكان أمامه صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوتان حمل إحداها على بن أبي طالب ويقال لها العقاب ، وروى أنها صنعت من كساء للسيدة عائشة يقال له الموط (وهو ماتضعه المرأة على رأسها أو تتأزر به) وحمل الثانية رجل من المسلمين .

وجاء في الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة ألوية : لواء حملة مصعب بن عمير ، ورايتان سوداوتان إحداها مع عليّ ، والأخرى مع رجل من الأنصار ، وقيل إن راية عليّ سميت العقاب في مقابل الراية التي كانت في الجاهلية تسمى بهذا الاسم ، ويقال لها « راية الرؤساء » ، لأنه كان لا يحملها في الحرب إلا الرئيس ، وكانت في زمنه صلى الله عليه وسلم مخصصة لأبي سفيان لا يحملها في حرب إلا هو ، أو رئيس مثله إذا غاب كما حدث في يوم بدر .

وفي قتال يهود بني قينقاع ، حمل حمزة بن عبد المطلب لواء المسلمين ، وكان أبيض اللون .

وفي أحد عقد رسول الله ثلاثة ألوية ، لواء للأوس ، وكان بيد أسيد بن حضير ، ولواء للمهاجرين وكان بيد مصعب بن عمير ، (كان بيد عليّ في أول الأمر فلما علم الرسول أن لواء المشركين يحمله طلحة بن أبي طلحة وهو من بني عبد الدار أخذ الرسول من عليّ ودفع به إلى مصعب) ، ولواء للخزرج وكان بيد الحباب بن المنذر (وقيل من بعض الروايات إنه كان بيد سعد بن عباد)

وحمل على راية المسلمين في قتال بني النضير ، وفي قتال بني قريظة ، وحمل أبو بكر راية المهاجرين ، وسعد بن عباد راية الأنصار في غزوة بني المصطلق ، وحمل زيد بن حارثة راية المسلمين في مؤتة ، ثم حملها من بعده جعفر ابن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ، وعن جابر رضى الله تعالى عنه « كان لواء رسول الله يوم دخل مكة أبيض » ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « كان لواء لواءه يوم الفتح أبيض ورايته سوداء تسمى العقاب » ، وفي حنين كان لواء المهاجرين بيضاء على ، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس بيد أسيد بن حضير ، وقيل إنه عليه السلام أعطى سعد بن أبي وقاص راية ، وعمر بن الخطاب أيضاً راية .

واختلفت ألوان الألوية ، فكانت راية رسول الله سوداء اللون ، وكانت أعلام بني أمية حمراء ، وكانت أعلام الدولة العلوية بيضاء ، وأعلام بني العباس سوداء ، وقد اختاروا هذا اللون بالذات حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونمياً على بني أمية في قتلهم ولهذا سموها السوداء ، ولما بايع المؤمنون علي بن موسى بولاية العهد أمر بطرح السواد ولبس الثياب الخضراء ، وأصبحت راياتهم خضراء ، أما في المغرب العربي فقد أصبحت الرايات من الحرير الأحمر وكتبت عليها آيات قرآنية ، واتخذت الدولة العثمانية راية واحدة للسلطان في أعلاها خصلة من الشعر تسمى الشالاش ، ثم تعددت الرايات ، وسميت سناجق ، وكانت حمراء اللون عليها صورة الهلال .

عقد أبو سلمة الخراساني عندما بدأ الدعوة العباسية لواء بعث به إليه إبراهيم الإمام على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، كما عقد راية اسمها السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً .

ولما عقد المتوكل لبنيه عقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود والآخر أبيض ، وعندما ولى الخليفة المأمون الفضل بن سهل على المشرق جعل له لواء على سنان ذى شعبتين ، وقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمى خمسمائة راية .

وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يعتقدون الأولوية للأمرء ... وكان عمر بن الخطاب إذا عقد لواء يقول « بسم الله ، وعلى عون الله ، فامضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً » .

ولما كان العامل هو قائد الجند ، فقد كان الخليفة يعتقد له اللواء .

وكان للدولة الفاطمية دار خاصة تحفظ فيها الأعلام والرايات ، التى زادت أعدادها بصورة غير طبيعية ، وأطلق عليها اسم « خزائن البنود » وكانوا يتفقون عليها ثمانين ألف دينار كل عام .

* * *

كانت للجيش الإسلامى فى أول عهده نداءات خاصة يصدرها القادة للجنود .. فكانوا إذا تهيأوا للقتال نادى القادة « النفير ... النفير .. » ، وهى إشارة الهجوم ، وإذا أرادوا إرجاع الجند نادوا فيهم « الرجعة .. الرجعة .. » ، وإذا أرادوا ركوب الخيل نادوا « الخيل ... الخيل ... » ، وإذا أرادوا أن يترجلوا نادوا « الأرض ... الأرض .. » .

وكان النداء في بدر « يامنصور ، أُمّت أُمّت » ، وتحت تأثير هذا النداء هجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق والرغبة في الشهادة والطمع في ثواب الله ، وجعلوا هذنبهم رؤوس الكفر يتصيدونهم وسط الجموع الزاحفة ، وينقضون عليهم كالصواعق .

وكانت صبيحة « أمت .. أمت .. » هي صبيحة الحرب يوم أحد .

وكان النداء الغالب الذي ربط الجند بالقادة وربط الجميع بالسما هو نداء « الله أكبر » .

وكان القادة المسلمون يكبرون عند كل هجوم ، وتكون التكبيرة الثالثة هي الأمر بالمهجوم ، في مصر وأثناء حصار حصن بابليون ، ضاق العرب بالحصار الذي طال سبعة أشهر ، وكان الزبير بن العوام هو أشدهم ضيقاً وأكثرهم حماسة ، فخطب في الناس وقال « إني أحب نفسي لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » ، وآزرته كتيبة تحت جنح الليل ، فاقترب من جدار الحصن ، ووضع سماً على السور وعلاه دون أن يظن إليه أحد ، بعد أن اتفق مع أصحابه أن يرقوا السلم إليه وأن يجيبوه إذا سمعوا تكبيره ، واستوى فوق الحصن ، وانطلق يكبر ، وتبعه أصحابه فصعدوا السور وكبروا معه ، وأجاب المسلمون من خارج السور تكبيرهم ، ثم هاجموا الحصن وسقط .

وفي يوم أرمات وهو اليوم الأول في قتال القادسية ، أرسل سعد إلى رجاله قائلاً « إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فإذا كبرت الثانية

فتميئثوا ، فإذا كبرت الثالثة فشدوا الفواجذ على الأضراس واحلوا » ، ثم أمر بقراءة سورة الجهاد فقرئت في كل المواقع ، وبعد الانتهاء منها كبر سعد وكبر وراءه الذين يلونه ، ثم كبر الثانية ، وعندما كبر الثالثة كانت النفوس والقلوب قد تهيأت للقتال ، فبدأ الصراع عنيفاً ، وكان أول الخارجين من جيش المسلمين غالب بن عبد الله الأسدي الذي أسر هرمز وهو ينشد :

فقد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سيمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم القادح

وبتطور الحرب الإسلامية وضمت لكل حركة كلمة تدل على المراد بها ، وأصبحت هي الفداء الخاص بالفعل والحركة ، مثل « الميل ... الانقلاب .. الانفتال .. نسوية الانفتال .. استدارة صفرى ... استدارة كبرى ... استدارة مطلقة ... رجوع إلى الاستقبال . اتباع الميمنة ... اتباع الميسرة .. » ، وكان القائد إذا أراد أن يحرك جنده إلى اتجاه محدد أو أن يتخذ الجيش وضعاً خاصاً ، ناداه بإحدى هذه الكلمات .

وكانت للمسلمين شعارات خاصة يتعارفون بها أثناء القتال ، وكان شعار المجاهدين « يا بنى عبد الرحمن » ، وشعار الأوس « يا بنى عميد الله » ، وشعار الخزرج « يا بنى عبد الله » ، وشعار النخيل « خيل الله » .

* * *

ويأتى فى مقدمة عوامل التنظيم للمعركة وجود صلة دائمة بين القيادة العليا

في المدينة وقيادة القوات في الميدان .. هذه الصلة التي تقوم أساساً على الاحترام المتبادل والتقدير والطاعة ، فقد كان القائد الأعلى يعيش مع قواته المحاربة بإحساساته ومشاعره ، كأنه يعيش معهم في الميدان ، يبعث إليهم بنصائحه وآرائه وفكره ، ويكتبون إليه بكل ما يجري ، وينقلون إليه صورة المعركة والموقف والظروف .

وكافت القيادة العليا تبعث إلى قيادة القوات برسائل فيها الرأي والنصيحة والتوجيه ، ومن هذه الرسائل نعرض هنا رسالتين هامتين بعث بالأولى أبو بكر إلى خالد وكان قائداً للواء الأول الذي كلف بقتال طليحة ومالك بن نويرة .. أما الرسالة الثانية فهي رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص قائد المسلمين في العراق .

وقبل أن نعرض الرسالتين نود أن نوضح أن عمر بن الخطاب كانت له رسائل كثيرة تحمل توجيهاته إلى قادة الجيوش ، نظراً لاتساع مناطق العمليات وتعددتها في العراق والشام ومصر والشمال الإفريقي .. وكان عمر يضع في هذه الرسائل وجهات نظره وأوامره وتعليماته .

فثلاً كتب إلى النعمان بن مقرن « ... فسر في وجهك هذا حتى تأتي ماه ، فإنني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافقوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك ، فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم » .

وكتب إلى سلمى بن القين وحرملة بن ربيعة ، وإلى أمراء الجند الذين

كانوا بين فارس والأهواز « اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتىكم أمرى » .

وكتب إلى عتبة بن غزوان « ... لى قد استعملتك على أرض الهند وهى حومة من أحومة العدو ، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها ، وقد كعبت إلى الحضرمى يمدك بعرفة بن هرثة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو ، فإذا قدم عليك فاستشره ، وادع إلى الله فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية ، وإلا فالسيف » .

وكتب إلى أبى عبيدة فى الشام « .. فابدءوا بدمشق ، فانهبوا لها فأنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، وأشغلوا عنكم أهل خل بنخيل تسكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على خل ، فإن فتح الله عليكم ، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، وضع شر حبيل وعمرى بالأردن وفلسطين » .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص حين ساء موقف المسلمين فى بلاد الشام بتجمع الروم وأهل الجزيرة قال « أفدب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرحهم من يومهم الذى يأتىك فيه كتابى إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وتقدم إليهم فى الجند والحث ... وسرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة فى الجند ، وليأت الرقة ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم

على أهل حمص ٠٠٠ وسرح عهد الله بن عهد الله بن عتبان إلى نصيبين ،
ثم ليقتصد حرّان والزّها ٠٠٠ وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من
ربيعة وتنوخ ٠٠٠ وسرح عياض بن غنم ، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم
جميعاً إلى عياض بن غنم .

هذه أمثلة رائعة من كتب عمر إلى قادة جيوشه ، تصور كيف نهض
بقيعات القائد الأعلى لقوات المسلمين ، وتبين قدرته الممتازة على الاضطلاع
بأعبائه على نحو لا يزال إلى يومنا هذا مثاراً للعجب .. لقد عاش عمر مع
القوات المحاربة بكل جوارحه .. بكل قلبه .. بكل فكره .. بكل آرائه ،
وكأنه يقودها في مواقعها .. كان يدرس ويبحث ويستشير ، ثم يقرر ، ويضع
الخطّة ويبعث بها للتنفيذ .. كان يحرك القوات ، ويحدد لها الواجبات ،
ويرسم لها طريق العمل .

نرجع بعد ذلك إلى الرسالتين الهامتين اللتين أشرنا إليهما .

الرسالة الأولى

رسالة من أبي بكر إلى خالد بن الوليد

قال له فيها ...

« يا خالد .. عليك بتقوى الله ، وإيثاره على من سواه ، والجهاد في
سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ،

ثم لا تحالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة ، فإن لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاذ ، وقدم أمامك الطلائع ، ترد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، وأحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقا تل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البليان فإن في العرب عزة ، وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علافيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الدين فقموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع آذاناً ولم ترمصلياً شن الغارة ، فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة ، فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا لك ولا عليك ، يتربص دائرة السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفئك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ... سر على بركة الله .

تستوقف نظر الباحث في هذا الكتاب أمور جديرة بالتسجيل...

فالقائد العام يدعو قائد قواته إلى رعاية جنده والرفق بهم لأنهم من أهل السابقة في الجهاد وذوى نضال شريف ذوداً عن حياض الدين وحماية المسلمين ... والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية في سياسة الجند والعروة

الوثقى بين القائد وجنده ، تربط قلوبهم بقلبه ، وتمد أبصارهم إلى مواقع بصره ، وتنيط طاعتهم بإشارته وإقدامهم بأمره .

والقائد العام يأمر قائد قواته بمشاورة أهل الرأى عند الملهمات والأزمات ، والمشاورة دستور الإسلام ، وقاعدة نظام الحكم فى دولته ، أمر بها القرآن الكريم فى أكثر من آية ، وعمل بها رسول الله طوال حياته ، وأهل الرأى يمثلون فى قيادات اليوم هيئة الأركان حرب التى تعطى للقائد المشورة والرأى .

والقائد العام يحذر قائد قواته من جحافل عدوه ومراكز قوته ويدعوه إلى البحث عن مواطن الضعف فى صفوف عدوه ، فتكون هى موضع الضربة . واتجاه الهجمة الرئيسية ، فمنها ينفذ إلى داخل جيش عدوه ، فيقلب خططه . ويثير الارتباك والرعب عنده .

والقائد العام يبرز لقائد قواته أهمية الشؤون الإدارية وضرورة تدبيرها . للجنود حتى لا تشغلهم عن واجبهم فى المعركة ، ويطلب منه أن يستظهر بالزاد ، وأن يسير بالأدلاء ، وأن يقوم بالإستكشاف (الاستطلاع) ... وقد عرفت الحروب الحديثة - وهى دون ريب أشد تعقيداً من حروب المسلمين - أن تموين الجيش وتوفير الغذاء والذخيرة والسلاح أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء ، وقد أمر عن نابليون قوله « إن الجيوش تمشى على بطونها » ، فالغذاء هام وضرورى ، والماء شىء لا غنى عنه ، وخاصة فى حرب الصحراء .

حيث يقل وجوده وتندر مصادر... هذا فوق أن الحرب الحديثة تعتمد اعتماداً رئيسياً على الاستطلاع الذي أشار إليه القائد العام في قوله « سر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع » ، وهذه الطلائع هي التي تستكشف الطريق وتجمع المعلومات ، وكذلك يفعل الأدلاء ، وبعد الاستطلاع من أعظم وأبرز فنون الحرب الحديثة ، فعلى أساس ما يقدم من معلومات وبيانات ترسم خطتي الهجوم والدفاع .

والقائد العام ينصح قائد قواته بأن يسير إلى عدوه في تعبئة جيدة ، فينظم مواقع الجند ويحدد أهداف وحداته المقاتلة وواجباتها ، ويضع خطة التعاون الكامل بين قطاعات جيشه ، لتكون كلها وحدة في دفاعها أو هجومها ، وهو يستطيع بهذا الأسلوب أن يدير دفعة المعركة في حذق ومهارة وحزم .

والقائد العام يطالب قائد قواته بتنمية روح الفداء في سبيل العقيدة ، حتى لا يمتري جفده الجبن ولا يقعد به الفزع ، ولا تغلب عليه روح الانهزامية ، ولا يردده التثبث بالحياة عن الإقدام ، فيها جم عدوه قوياً ثابت الجأش رابط الجنان .

والقائد العام يوجه نظر قائد قواته إلى ضرورة منع الجرحى من المشاركة في القتال والإسهام فيه ، وإلى ضرورة العناية بهم وعلاجهم ، حتى تزول آلامهم وتطيب جراحتهم ، فإن الجريح لا يملك القدرة على المشاركة والمواجهة بالصورة المطلوبة وبالقدر اللازم وبالكفاءة القتالية التي تحتاجها المعركة ، والجريح بإصابته يكون عبئاً على القائد وعلى الجيش .

والقائد العام يبصر قائد قواته بعامل المفاجأة ، ويحذره من آثاره ونتائجها ، ولهذا فهو يدعوهم إلى اليقظة التامة والعناية الفائقة بنظام الحراسة ، حتى لا يأخذهم عدوه على غرة ، وفي إجراءات الحراسة التي اتخذها رسول الله يوم فتح مكة في مرحلة الإعداد والحشد مثل حى يلتزم به القادة ، لأن وقوع المفاجأة يؤثر تأثيراً مباشراً وسيئاً على الجند .

والقائد العام يلقي الضوء على أهمية السرية والأمن ، وضرورة المحافظة على تحركات جيشه ، والحرص الكامل على عدم تسرب أية معلومات عن جيشه وترتيباته إلى عدوه ، حتى لا يستفيد منها ويرتب أمور المواجهة على أساسها ، وبما لا يختاف فيه إثنان أن ثروة القادة وانطلاق ألسنتهم من أمدح وأخطر العيوب التي يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها ، وقد استشار قوم أكثم بن صيفي في حرب قوم أرادهم وسألوه أن يوصيهم فقال « ... واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل » .

والقائد العام يؤكد على ضرورة الاعتماد على الله ، والإيمان بالجهاد في سبيله ، والتسك بأوامره ، ونصرته تعالى بالصدق والحق والعزم والإصرار ، لأنه تعالى قال وهو أصدق القائلين « إن تنصروا الله ينصركم » و « إن النصر من عند الله » ، فالبذل والعطاء في أرض المعركة محسوب ومطلوب ، ولا بد أن يكون في سبيل الله ، وأن تسكون وجهته لله ، وأن يكون هدفه إبقاء مرضاة الله .

الرسالة الثانية

رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص

قال له فيها ...

« إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيذة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا فنصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظه من الله يعملون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .. وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيراتهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى العدو مقيم حامى الأنفس والكراع ... وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم راحة ، يحمون بها أنفسهم ، ويرفون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فإن صبروا لكم فتولهم خيرا ولا تستنصروا على أهل الحرب

بظلم أهل الصلح . . وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن السكذوب لا ينفعك خيره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك في أرض العدو أن تسكر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، وتثق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة في رأيك ، وأجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال ، ولا تخص بها أحداً تهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تقخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكابة . . فإذا عابث العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، وأجمع مكيدتك وقوتك ، ثم لاتعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكروك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . . ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك . .

واختتم عمر رسالته فقال ...

« والله ولي أمرك ومن معك وولى النصر لىكم على عدوكم والله المستعان . والحمد لله رب العالمين » .

فى هذه الرسالة وضع عمر دستوراً للحرب لم يتنبه إليه القادة الذين سبقوا العهد الإسلامى ، ولكن القيادات التى جاءت بعده اعترفت به وأقرته وجعلته أساس العمل العسكرى عندها ، ولم يأت عمر بجديد فبنود

هذا الدستور مستمدة من أحكام القرآن الكريم ، ومن أعمال وسلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقارىء لن يجد اختلافاً بين ما جاء برسالة ، وما جاء برسالة أبى بكر ، فالمنهج واحد والأصل متفق عليه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . .

ولنتابع معاً بنود هذا الدستور ومواده ...

فالقائد العام يطلب من قائد قواته أن يتقى الله ، فتمتوى الله قوة تعين على العدو وتساعد على مواجهته ، تزيد الإيمان وتثبت العقيدة ، وتدفع إلى النصر الذى وعد الله به .

والقائد العام يأمر قائد قواته أن يبتعد وجنده عن المعاصى ، فإن النصر على العدو يكون نتيجة لطاعة الله والامتثال لأوامره والابتعاد عن نواهيه ، أما العدو الذى يعصى الله فهو عدو ضعيف لا يلتزم بخلق ولا ينتهج سبيل التقوى ولا يتمسك بمنهاج سليم ، فمن عزيمته ويفتقد الرغبة فى المواجهة وتضعف معنوياته فسهل هزيمته .

والقائد العام ينصح قائد قواته أن يستعين بالله وأن يتقوى به وأن يجعله تعالى ملجأ وملاذ ، فتخلص بذلك نياته وتصفو مشاربه وترقى عواطفه ، فيتميز عن عدوه ، والقائد هو مرآة جنده يرون أنفسهم فيه ويستمدون قوتهم منه ويتمثلون به فى كل أعماله ، فإذا رأوه متجهاً إلى الله قلبه ووجدانه ومشاعره اتجهوا هم أيضاً ، وهو وهم بذلك يضعون أقدامهم على الصراط المستقيم .

والقائد العام يرسم كيفية تحرك الجنود من مواقع الحشد إلى مواقع

القتال ، فهو يوصى قائد قواته أن يترفق بجنده فلا يحملهم مالا طاقة لهم به ، ولا يحشمهم سيراً يؤثر على قدراتهم وإمكاناتهم ، حتى يصلوا إلى الميدان وهم في راحة دون جهد وفي انتعاش دون إرهاق ، فهم يتحركون إلى حيث يجدون عدواً قابلاً في أماكنه فوق أرضه وبين ناسه ، لم يبذل جهداً ولم يذله إرهاق . . . وهذا أسلوب متطور وحديث ، تأخذ به القيادات في العصر الحديث ، فتحرص على عدم إجهاد الجند قبل مباشرة القتال ، ومن أجل هذا أنشئت المركبات ووسائل الانتقال من عربات وحاملات الجنود والطائرات والسفن لتحمل الجند من مراكز التجمع إلى أماكن القتال فيكونون في حالة جسمانية وصحية وعقلية تساعدهم على دخول المعركة وقوام موفورة ، ونلاحظ أن عمر في توجيهاته يصر على أن يمنع الجنود راحة أسبوعية يجددون فيها نشاطهم ، ويعدون سلاحهم ، ويجهزون أنفسهم لمرحلة قتالية تالية ، وهذا الاتجاه في تفكير عمر هو ما تأخذ به القيادات الحديثة ، فإنها تصر على أن يمنع محاربوها أجازة بعيدة عن مواقع القتال ، وهي التي يقال عنها « أجازات الميدان » ، ونلاحظ أيضاً أنه نصح - حرصاً على راحة الجند - أن يكون مقامهم في مكان بعيد عن قرى أهل الصلح والذمة ، وأن يمنع اختلاط الجند بهؤلاء ، وهذا أمر أدركته أيضاً القيادات الحديثة ، فجعلت بعض المواقع ممنوعة على جندها ولا يسمح بتردد العسكريين عليها حرصاً على راحتهم وضماناً لأنهم .

والقائد العام يوصى قائد قواته بعدم التعرض بالإيذاء لأهل الصلح والذمة ، وبعدم التعرض للمسلمين في محاربة الأعداء ، لأن لهؤلاء حرمة ، والمسلمون مأمورون بالوفاء بالمعهود ، وهذا سلوك أخلاقي تميزت به

المدرسة العسكرية الإسلامية ، فإن التعرض لأهل البلاد يثير غضبهم وحنقهم ، فيتصرفون بأسلوب يضر بمصلحة الجيش ، وهذا جانب تميز فيه العسكرية الإسلامية عن باقي القيادات العسكرية الأخرى ، فإن الجيوش لا ترعى مصالح القوم في المناطق التي يحاربون فيها ، ولا تحافظ على مشاعرهم مما يثير الغضب عليهم ، ويدفع القوم إلى التذمر أو السلبية في معاملتهم مما يضر بمصلحتهم ، وخاصة إذا تعدى ذلك إلى الممتلكات فتهبوا أو استغلوا لخدمة أغراضهم ، فإن ذلك يكون مبعثاً للثورة ومجلبة للمشاكل .

والقائد العام يبرز في رسالته أهمية الاستطلاع لواقع العدو ، بقصد الوقوف على أخباره ومعرفة مواطن الضعف والقوة عنده ، وهو يطلب من قائد قواته أن يستعين بالعيون الصادقة الخالصة الوفية التي تنقل بصدق لا تكذب ولا تخدع ولا تبدل ، لأن المعلومات التي تقدمها تكون دائماً الأساس الذي توضع عليه الخطة ، فإن كانت معلومات صادقة وضعت خطة سليمة ، وإذا كانت كاذبة لا تتفق مع الحقيقة والواقع فسدت الخطة ودفع الجيش ثمنها وهو في الحرب ثمن غال ، وما زال الاستكشاف إلى يومنا هذا موضع الاهتمام من كافة القيادات ، وتقوم به جماعات استطلاع كانت مثيلاتها في الإسلام يطلق عليها اسم العيون .

وتتضمن رسالة القائد العام بعد ذلك المبادئ العسكرية الهامة التالية :

• • • ضرورة تحطيم مرافق العدو وقطع خطوط مواصلاته ومنع

العون والمدد عنه ، وهذه خطوة ذات أهمية بالغة وقت القتال ، فسلامة

خطوط المواصلات تعنى سلامة القوات ، لأنه عن طريقها تصل الإمدادات

بمختلف أنواعها رجالاً أو غنماً أو سلاحاً ، ويتم بواسطة الاتصال بالقيادات ، وقطع هذا الاتصال يؤدي إلى عواقب وخيمة ونتائج خطيرة ، وبقدر ما كان المسلمون محروصون على قطع خطوط مواصلات العدو وحجبه عن العالم الخارجي ، بقدر ما حرصوا على أن تبقى خطوطهم سليمة ، وعن طريقها كانت تصل توجهات القيادة العامة في المدينة ، وكانت أيضاً تصل الإمدادات التي كان يحتاجها الموقف العسكري . .

ولما كان العدو في الحروب الإسلامية يقاتل فوق أرضه ، فقد كان السبيل الوحيد لقطع خطوط مواصلاته هو الحصار ، والتهديد بحرق المزرعات والنخيل ، فقد حاصر رسول الله بنى قينقاع فلما طال الحصار وعجزوا عن البقاء داخل حصونهم ، أدركهم التعب ، وسألوا الرسول أن يخلي سبيلهم على أن يخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللرسول الأموال والسلاح ، وحاصر الرسول أيضاً يهود بنى النضير وهددهم بقطع نخيلهم ، فاستسلموا وقالوا « نحن نخرج من بلادك » ، وحاصر عمرو بن العاص حصن بابلين وطال الحصار حتى فتح الله عليهم الحصن وهزمهم الروم واستسلموا . . ولقد بذلت بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية جهداً كبيراً لقطع مواصلات الحور إلى شمال أفريقيا مما كان له أثر كبير في منع وصول الإمدادات والمؤن إلى قوات الحور هناك ، فعجل ذلك بهزيمتهم ، لأنهم لم يتمكنوا من استعاضة خسائرهم في الرجال أو السلاح أو البترول الذي كانت تعتمد عليه قوات البانزر الألمانية في تحركاتها خلال القتال .

• • • عدم إرسال السرايا إلى أماكن غير معروفة أو مدروسة

يخاف عليها فيها الهزيمة أو الضياع ، ولهذا كان المسلمون يدرسون المناطق جيداً ، ويعرفون أضرارها حتى لا يدفعوا بقواتهم إلى منطقة تكون معلومة لدى العدو ويجهلون فيها ، فيكون فيها ضيقاً عليهم ، ولهذا نصح القائد العام قائد قواته بأن يطيل مدة البقاء في أرض العدو ، لأن ذلك يزيد الخبرة بها ويمكن من دراسة تضاريسها وأحوالها .

• • • عدم البدء بالعدوان ، وهذه سياسة عامة وضع قواعدها الإسلام وجعلها مبدأ من مبادئ القتال ، إلا في حالة الإكراه على البدء به ، فإذا ما وقع العدوان وجب على قائد القوات أن يحشد جموعه وأن يلقى عدوه في كثافة عديدة .

• • • إقامة حراسة كاملة حول معسكر الجند حتى لا يفاجئهم العدو ، وضرورة اليقظة التامة وعدم الاطمئنان إلى العدو ، وهذا يعنى الاهتمام بالسرية وسلامة الجند والحرص ، خوفاً من وقوع مفاجأة تهز أعصاب الجند وتحطم معنوياتهم وتوهن عزيمتهم ، وهو يؤكد على أهمية الحراسة ليلاً واتخاذ الحيلة والاستعداد لأية مفاجأة .

• • • الاستعانة بالله والتوجه إليه ومداومة مناشدته النصر والتأييد .

* * *

وأخيراً

فإن رسائل القيادة العامة إلى قيادات القوات في كل مواقع القتال كثيرة ومتعددة ومستمرة ، وكانت القيادة العامة تواصل تقديم النصح

والإرشاد، وتشارك في وضع الخطط ، وتسهم برأيها في تحليل الموقف العسكري ، وتوجه القيادات إلى أسلوب القتال السليم .. وهذا يعني أن التفاهم كان واضحاً ميسوراً بين القيادتين .

ومجال السكتاب لا يسمح بعرض هذه الرسائل أو بعض منها ، فهذا يلزمه كتب كثيرة ، وهذه الرسائل منشورة في المراجع التي تتناول تاريخ الإسلام وتاريخ حروبه ، ويمكن الرجوع إليها ، ولهذا فنحن نكتفي بعرض هاتين الرسالتين راجين أن يكون فيهما ما يفي بغرض الكتاب .

* * *

وهنا نقطة هامة تتطلب الإشارة إليها في ختام هذا الحديث فإن عمر قد كتب إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو أكثر من أربعة أشهر وسبب ذلك أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول وكان رجليها ضمن القوات المحاربة في العراق ...

تطاول هذا الليل وأسود جانبه وأرقى أن لا خليل ألاعبه
فلولا حذار الله لا شيء مثله لزحزح من هذا السرير جوانبه

وكان رأى عمر لفظة كريمة تؤكد حرصه على صلة الجند بذويهم
و ألا تشغلهم الحروب عن واجباتهم الأسرية ... فنعم الرأى .

إن القيادة الناجحة الرشيدة هي التي تدرس وتلم بظروف المعركة قبل أن تخوضها .

وظروف المعركة من وجهة النظر العسكرية تعنى أشياء كثيرة .

فإن الجيش يدخل المعركة بخطة تضعها القيادة ، وهذه الخطة لا توضع بأسلوب إرتجالي ، وإنما تأتى بعد دراسة واعية لسكل جزئيات المعركة ، وتوضع بناء على ما يمكن التوصل إليه من معلومات سليمة صحيحة حقيقية .

ويجب إذن أن توضع بين يدى القائد معلومات وافية عن العدو الذى سيواجهه ... وعن الأرض التى ستكون المعركة فيها وفوقها ... وعن الظروف الجوية التى تسود ميدان القتال ... يجب أن يعرف كل شىء عن عدوه .. قوته .. سلاحه .. أسلوبه فى القتال .. حلفائه ..

ويجب أن يعرف طبيعة الأرض .. هل هي مستوية .. هل هي جبلية .. هل هي صحراوية .. هل أرض زراعية .. هل بها أنهار أو مجار أو مستنقعات ...

ويجب أن يعرف الظروف الجوية ... الطقس ... الرياح .. السماء .. الأمطار ..

هذه المعلومات تعين القائد على الرؤية السليمة للموقف العسكرى من

كافة جوانبه ، وتصبح الصورة واضحة المعالم متكاملة وتمسكه من وضع الخطة باقتناع وتفهم وإدراك .

كانت القيادات قبل الإسلام لا تهتم بهذه المعلومات ، وكان همها الأكبر قاصراً على جمع الجموع وحشد الحشود ، وكانت الجيوش الكثيفة عدداً وعدة تتبع قائدها دون هدف أو غاية سوى الفتح والسلطة والسيطرة وإخضاع الغير .. وكان السبيل الوحيد للإتقان في الحرب هو توافر كثرة عديدة في الرجال والسلاح ، دون اهتمام بتوجيه المعركة عن دراسة وفهم وتقدير .

ولما جاء الإسلام اختلفت الصورة وتغيرت الأفكار ، واحتل الفن العسكري مكانه في فكر القادة ، وأصبح دخول معركة ما يخضع لدراسة عميقة ولأسلوب علمي يقوم على الفهم الكامل لظروف المعركة والتقدير الصحيح لسكل جوانبها .. وبالرجوع إلى التاريخ الحربي الإسلامي نجد أن المدرسة العسكرية الإسلامية أولت الدراسات المتعلقة بالمعركة كل اهتمام وعناية ، وأن جيوشها خاضت المعارك بأسلوب متطور في فن القتال ، وبمناهج مستجدة في إدارة المعركة ، ويقشريات ووجهات نظر جديدة في كل مشكلات الحرب .

كان رسول الله - وهو أول من مثل القيادة العليا للجيش الإسلامي - حريصاً على جمع المعلومات عن عدوه ، فكان يبعث بالعيون وكان يخرج بنفسه ، وسار الخلفاء من بعده على دربه ، وأصبح جمع المعلومات أهم وأخطر مراحل المعركة ، ولهذا اهتمت بها القيادات الإسلامية على مختلف مستوياتها ،

روى ابن إسحاق أن رسول الله نزل قريباً من بدر مع رجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب يسأله عن قريش وعن محمد وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ « فإنه يلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنا ، فهم اليوم بمكان كذا (وهو المكان الذى نزل به رسول الله وأصحابه) ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدق ، فهم اليوم بمكان كذا » ،

وبعث رسول الله على بن أبى طالب والزبير وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ، يلتمسون الأخبار عن قريش ، فعادوا بغلامين أحدهما لبني الحجاج والآخر لبني العاص ، وحاور رسول الله الغلامين وسألهما أسئلة محددة . . . أين موقع القوم ؟؟ كم عددهم ؟؟ كم ينحرون كل يوم ؟؟ من فيهم من أشرف قريش ؟؟ وتجمعت لديه عليه السلام معلومات وافية عن عدوه ، فعرف أنهم « وراء هذا السكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى » . . . أنهم خرجوا فى جمع كثيف . . . أنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشرة من الجزر . . . فعددهم إذن ما بين القسعمائة والألف . . . كان مع الخارجين أشرف القوم وفى مقدمتهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأبو الهيثري بن هشام وأبو جهل ابن هشام وأممية بن خلف . . . وواجه رسول الله قومه فى ضوء هذه المعلومات وقال لهم « هذه مكة قد ألت إليكم أفلاذكبدها » .

وكان رسول الله حريصاً على معرفة موعد وصول قافلة أبى سفيان ، فبعث بائنين من أصحابه هما بسبس بن عمرو وعدى بن الزغباء يجتمعان له

الأخبار ، فمضيا إلى ماء بدر ، حيث سمعا حواراً بين جاريقتين ، قالت واحدة للأخرى « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك » ، وصدق على قولها رجل كان بجوارها وقال « صدقت » ، وعاد الإثنين إلى رسول الله ومعهما ما يفيد موعد الوصول .

وقهض عمر بن الخطاب على يهودى خلال حصار خيبر ، فسأله اليهودى أن يذهب به إلى رسول الله ليكلمه ، فلما التقى اليهودى بالرسول طلب الأمان لنفسه ولزوجته ، ثم أبلغ رسول الله أن القوم يقسلاون من حصن النطاة إلى الشق ، ويتميثون للقتال ، قال اليهودى « فى هذا الحصن فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيرف ، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله إن شاء الله ، أوقفك عليه ، فإنه لا يعرفه غيرى » ... وقال « يستخرج المنجنيق وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيجفروا الحصن ، فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصون السكتية » .

وأهتم عمرو بن العاص خلال فتح مصر بجمع المعلومات عن عدوه ، حتى أنه سعى بنفسه إلى مواطن العدو ، ليجمع بنفسه المعلومات ، فدخل حصن عدوه على أنه جفدى عربى يحمل رسالة إلى إرطابون الروم ، ودرس الحصن ، وعرف أسواره وطوقه ومواطن الضعف فيه ، ووضع خطة الاستيلاء على الحصن فى ضوء ما بين يديه من معلومات ، حتى أن إرطابون أشار بهقريته فقال « خدعنى الرجل إنه أدهى الخلق جميعاً » ، وكان هذا القول أبلغ رد على قول عمر لأصحابه « قد رمينا إرطابون الروم بأرطابون العرب ، فانظروا عما تنفرج » .

ولاشك أن حضور عمرو بن العاص إلى مصر في جاهليته ، كان له أثر كبير في معرفته بأحوال مصر وأخبارها وطرقها ومساكنها ، وكانت المعلومات التي تجمعت لديه ذات فائدة كبيرة عند عودته إليها على رأس الجيش الإسلامي ، فما أثبتته الأحداث وأجمعت عليه المصادر والمراجع أن جيش عمرو حين دخل مصر دخلها من ذات الطريق الذي قطعه مع الشامس الذي رافقه في زيارة مصر .

وقام المنفى بن حارثة بدراسة واسعة لأحوال العراق قبل أن يفسكر في غزوها ، واستطاع من دراسته أن يعرف مواطن الضعف وأن يدرك سوء الحالة الاجتماعية في داخلها ، وأن يقف على المنازعات الداخلية المستمرة بين ملوك الحيرة طمعاً في الملك ورغبة في الرئاسة . . وهذه الدراسة سهلت له عملية الغزو ، فلما لاقى في أول مرّة نجاحاً سارع إلى المدينة وعرض أمر فتح العراق على الخليفة ، وتحت يديه كافة المعلومات التي جعلت الخليفة يقتنع بوجه نظره ، وينظر إلى الأمر بصورة أعمق وأشمل ، فكان تسيير جيش خالد إلى هناك .

وعندما استأذن موسى بن نصير الخليفة للسير إلى بلاد الأندلس ، بعث إليه قائلاً « خضها بالسرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ؛ ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، وعاد الخليفة فكتب له « لا بد من إخبطاره بالسرايا قبل اقتحامه » ، وهذا يعني أن الخليفة كان يرى أن تتم عملية النزول في أرض الأندلس واجتياز البحر إليها بعد دراسة مستوفاه للبحر ، حتى لا يلقى بالجند في مهلك أو مخاطرة غير محسوبة النتائج .

وظلت عيون صلاح الدين تدرس بيت المقدس وأسواره خمسة أيام متصلة ، حتى توصلت إلى اكتشاف ثغرات في جبهته الشمالية المعروفة بباب كنيسة صهيون ، فحرك الجند إلى هذه المواقع ونصب المنجنيقات وكان الهجوم العام اعتماداً على معلومات العيون .

ومن زاوية أخرى فقد اهتم الرسول بجمع المعلومات عن طبيعة الأرض ، لإختلاف نوعية القتال بإختلاف طبيعة الأرض ، واهتمت القيادات الإسلامية من بعده بذلك أيضاً .

فقبل غزوة أحد ألقى رسول الله نظرة على أرض المعركة ولاحظ وجود الجبل ، فرأى أن يستفيد منه فيجئى المسلمين من الخلف ويمنعهم من عدوهم ، فاقتار عليه السلام خمسين من الرماة ووضعهم على شعب في الجبل وأمرهم بالبقاء لحماية ظهور المسلمين ، وبعدم مغادرة الموقع في حالتي النصر والهزيمة ، وكان رسول الله يرى في ارتفاع الجبل فرصة للسيطرة على منطقة القتال كلها ، فلما خالف الرماة أوامره عليه السلام ، وتركوا أما كنهم ، هاجم خالد الجبل وقتل من بقي من الرماة ، وسيطر على الموقع ، فتحوات المعركة إلى جانب قريش ، بعد أن كان النصر بين يدي المسلمين .

وعندما بعث بهممن جاذويه إلى أبي عبيد بن مسعود يقول له قبل موقعة الجسر « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبّر إليكم » ، لم تكن لدى أبي عبيد أية معلومات عن النهر أو عن الأرض التي سيملتقي فيها بالفرس بعد العبور ، وكان المثني على علم بالمنطقة ، ورأى أن الأرض خلف النهر ضيقة لاتتحمل قوات المسلمين . ولا تسمح بالمناورة وحرية

الحركة ، فنصح القائد أبا عبيد « لاتعبر .. إننا نهلك عن العبور » ، ولكن أبا عبيد رفض الرأي ، وصمم على العبور ، قائلا للناس « لنقطعن الفرات إليهم » ، وأمر بالعبور ، فهاجمه الفرس خلال العبور ، فوق أنهم لم يتركوا له إلا منطقة ضيقة لا تحتل كل قواته ، فكانت هزيمة الجسر المرة التي خسر فيها المسلمون بضعة آلاف ما بين قتل وغريق .. ولأن المثنى درس المنطقة وعرف طبيعتها رفض في الهويب العبور ، وبعث إلى الفرس « بل اعبروا إلينا » ، فعبروا حيث كان مقتلهم على يد المثنى ثاراً لقتلى الجسر .

إن المعلومات عن الحالة الجوية تفيد جداً عند وضع خطة اللقاء ، وقد فشلت الأحزاب التي حاصرت المدينة في موقعة الخندق ، لأن قيادتها لم تدرس حالة الجو ، ولم تنف على إمكانية التقلبات التي قد تحدث خلال فترة المعركة .. لقد كانت جموعهم عديدة كثيفة أفزعته المسلمين وزلزلت قلوبهم مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُمَا لَكَ ابْتِغَايَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب ١٠ / ١٦) ..

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيراً ، وقصف الرعد ، ولمع البرق ، واقتلعت الريح خيام الأحزاب ، وكفأت القدور ، وقام طليحة بن خويلد وفادى « إن محمداً قد بدأكم بشر فالنجاة النجاة » ، وقال أبو سفيان « يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخلف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكروه » ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، ما يطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا

نار ، ولا يستمسك لنا بقاء ، فارتحلوا فإني مرتحل .

ودعا رسول الله خلال الخندق حذيفة بن اليمان وقال له « يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم (يقصد الأحزاب) ، فانظر ماذا يفعلون ، ولا تُجدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا » ، وقال حذيفة « فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بقاءً » ، وبقي بينهم وسمع قولهم وعرف أنهم سيرحلون ، فعاد إلى رسول الله وأخبره الخبر ، فسعد عليه السلام وقال لأصحابه . . « الآن نفزؤهم ولا يفزوننا » ، ثم هتف وهتف رجاله من ورائه « الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

فهذه الظروف المناخية لم يكن لدى قريش أية معلومات عنها ، ولذا فوجئت بها ، دون أن تعد نفسها لمواجهةها ، وهذا الجهل بطبيعة الجو كان من عوامل الهزيمة التي لحقت بهم . .

ولقد حدث موقف مماثل في بدر ، إذ أرسلت السماء سحباً مثقلة حافلة بالغيوث الثقيلة ، فصبت أثقالها على الطرفين المتقاتلين ، وتحوت الأرض التي يسير عليها المشركون إلى أوحال وأغوار ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا ، فكلما انتزعوا قدماً أو رجلاً غاصت قدم أو رجل ، أما أرض المسلمين فقد أصابتها أطراف السحب بمطر خفيف ، وكانت أرضهم رملة ، فقلبت الأرض تحتهم ، وسهلت لهم مضاعفة السير ، فساروا وهم في بهجة وانتعاش ، بينما تعثر المشركون .

وهذا الذي حدث في بدر يؤكد أن الأحوال الجوية تؤثر تأثيراً مباشراً

على العمليات ، وهذا يتطلب أن تقوم القيادات بدراسة حالة الجو وتغيراته خلال فترة القتال ، واتخاذ ما يلزم لمواجهة وإعداد الجند لحملها .

وإذا كانت المدرسة العسكرية الإسلامية قد وضعت قواعد هامة قبل دخول المعركة ، وجعلت الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو والأرض والجو واجباً تلزم به كافة القيادات ، فإنها في ذات الوقت قد توقعت أن العدو الذي تجمع عنه المعلومات ، قد يتخذ هو أيضاً مثل هذه الخطوة ، فيجمع المعلومات اللازمة عن المسلمين . . . لم يغب هذا عن ذهن أحد ، ولهذا فرضت المدرسة العسكرية الإسلامية السرية المطلقة على كافة ما يتصل بأمور الحرب والمعركة ، وأصبح قول النبي « استمعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » ، شعاراً للمسلمين في كافة أعمالهم عامة والعسكرية خاصة .

ولقد نبه الرسول الكريم إلى ضرورة اتخاذ السرية في التجمع والتحرك ، حتى لا تكون لدى العدو فرصة يجمع فيها المعلومات التي تفيده ، وإذا كان جمع المعلومات سلاحاً ذا حدين ، فإن المسلمين قد استفادوا من إحدى حديه لصالحهم ، وأبطلوا مفعول الحد الآخر باتباعهم السرية ، واتخاذها أساساً لتحركاتهم واستعداداتهم .

فمثلاً حين بعث الرسول بسرية عبد الله بن جحش الأسدي ، كتب له كتاباً وأعطاه له دون أن يعلم ما به ، وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين ، فإذا نظر فيه مضى لما أمره به ، وكان الهدف من ذلك هو كتمان أمر التحرك وجهته حتى لا يعرف قبل أوانه ، وحتى لا يتسرب خبر التحرك إلى العدو فيعرف به ويحذره .

وفي غزوة الفتح دعا رسول الله ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف على نبالهم ويضر التحرك ويسىء إلى الهدف ، قال « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش » ، وأمر عليه السلام بحراسه الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، وكلف عمر بن الخطاب بأن يشرف على الحراسة ، ومنع الدخول والخروج إلى ومن المدينة « لا تدعوا أحداً يمر بكم إلا ردتموه » .

وفي هذه الغزوة فشلت محاولة حاطب بن أبي بلتعة ، وكان قد أعد كتاباً يخطر فيه قريشاً بتحريك الرسول إليهم ، وسلمه لامرأة تسمى سارة استأجرها بعشرة دنانير ، وقال لها « أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرساً » ، فقد علم رسول الله بأمر الكتاب ، فبعث علياً والزبير والمقداد وراء المرأة حتى لحقوا بها ، وفقشوها وأخرجوا الكتاب ، وعادوا به إلى الرسول ففضه ووجد فيه « إن الرسول قد أذن في الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم » .

ونهج القادة المسلمون منهج الرسول الكريم .

روى ابن حبان أن جند عمرو في ذات السلاسل طلبوا منه أن يأذن لهم فيوقدوا ناراً ليصطلوا عليها من البرد ، فمنعهم ، وأنكر عليه ذلك عمر بن الخطاب ، وكان أحد جفده ، فتشاور مع أبي بكر فقال « دعه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب » ، واعترض بعض الجند فقال لهم عمرو « لا يوقد أحد ناراً إلا قذفته فيها » ، وشكاه المسلمون إلى رسول الله ، بعد عودتهم ، فقال « خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وكان من أهم وسائل حجب المعلومات عن العدو ، حرص القادة المسلمين على أن يكون تحرك قواتهم ليلاً وليس نهاراً ، إمعاناً في إخفاء تحركاتهم عن العدو ، فلا يعرف شيئاً عنهم ولا تتجمع لديه معلومات تفيدهم وتضرهم . ومثال ذلك تحرك عبد الله بن جحش بسريته ليلاً دون النهار وكان يقول : « كفا نسكن نهاراً » .

* * *

الآن وقد أعد القائد كل مقومات المعركة ...

- فأصبح لديه جيش فيه أفراد مدربون جاهزون معنويًا ونفسيًا لخوض غمار المعركة .
- وأصبح جيشه مسلحاً بأنسب الأسلحة وأصلحها وأجداها استعمالاً .
- وأصبحت لديه المعلومات الكافية الضرورية عن عدوه ثم عن الأرض والظروف الجوية .

فإن الخطوة التالية هي تقدير الموقف العسكري في ضوء كافة المعلومات والبيانات عن جيشه وعن عدوه .

وتقدير الموقف ينتهى بتحديد ورسم خطة العمليات .

وفي الحروب التي قامت قبل الإسلام لم يكن هناك تقدير للموقف على أسس سليمة صحيحة مناسبة ، ذات قيمة فنية كبيرة ، ذلك أن هذه الحروب كانت تعتمد أساساً على السكينة العددية ، وكان تقدير الموقف

قاصراً على تجهيز الأعداد والسلاح بالكثافة المطلوبة التي تحقق النصر ، وهذا أمر بعيد عن مستوى التفكير العسكري الإسلامى ، فالكثرة العددية كانت هى محور التفكير ومحور الخطة ، فهانئياً لثلاً عندما التقى بالرومانين عند مصب نهر (يو) اعتمد فى خطته على كثرة حشوده ، فقسم الجيش إلى قسمين يهاجم أحدهما العدو ثم ينسحب فيقبعه العدو ، وهذا يهاجمه القسم الآخر ، ويعود القسم المنسحب إلى الهجوم هو الآخر ، وهذه الخطة لا يتحقق لها النجاح إذا لم يتوافر لدى القائد حشد كبير .

وبالرجوع إلى كتب التاريخ ومصادره ، نلاحظ أنه ما من قائد قبل الإسلام وضع خطة القتال بعد دراسة لظروف المعركة وأحوالها ، ولما كان المسلمون المحاربون دائماً أقل كثافة من أعدائهم ، فإنهم أعطوا لهذه الدراسة حقها ، فكانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بتقدير الموقف قبل خوض المعركة ، ليطمئنوا إلى أنهم لا يقدمون على خطر ، وأنهم يؤدون عملاً نسبة نجاحه مضمونة موفورة .

وأصبح فى فكر المدرسة العسكرية الإسلامية ومنهجها أن تقدير الموقف عمل رئيسى وهام ، ولقد افقنعت بهذا المنهج القيادات الواعية الفاهمة التى جاءت بعد الإسلام ، وأصبح تقدير الموقف فى فكرها العسكري دعامة أساسية ولهنة هامة فى وضع خطة القتال ، ولعل خير ما يذكرك فى هذا المجال ما جاء فى كتاب « تاريخ الحروب فى العالم » الذى وضعه « الفيلد مارشال لورد مونتجمرى » ، فقد ذكر المؤلف فى خلال حديثه عن نابليون — وهو رأس المدرسة العسكرية الفرنسية الحديثة وقائد لا يدانيه كثيرون ولا يتفوق عليه أحد — ذكر أن قدرة نابليون الإستراتيجية الفائقة المتميزة كانت ترجع

إلى أنه كان يضع خططه على أساس المعلومات التي يقدمها له أركان حربه برئاسة برتبيه وكونت دارو ، وأنه كانت تسبق كل حملة مرحلة من التنظيم والبحث الدقيق ، وأن الاستعداد الطويل والتدبير الحكم الذي يسبق حملاته كان شيئاً حيوياً في رأيه لنجاح المعركة .

وما زال تقدير الموقف يحتل مكان الصدارة في تفكير قادة الحروب الحديثة ، ولقد سجلت كتب التاريخ الحديث أحداث هذه الحروب ، وناقش واضعوها تقدير الموقف في كل معركة ، وسلطوا الأضواء عليه ، وكانت قيمة ومقدرة القائد تقدر أساساً على حسن تقديره للموقف ثم انتهائه إلى وضع الخطة ... والمتابع لتاريخ الحرب الإسلامية يدرك أن معارك الإسلام كلها قد قُدر الموقف بالنسبة لها قبل خوضها تقديرًا صائبًا سليماً ، أدى إلى وضع خطة محكمة ، قادت إلى النصر وحققته .

ونحن نقدم تقديراً للموقف العسكري الإسلامي في بدر ، على أساس أنها أول معركة عسكرية خاضها المسلمون ، كمثال ودليل على أن المدرسة العسكرية الإسلامية كانت تعالج شئون المعركة بفكر متميز وعقل مفتوح وإجراء مبتكر وأداء أمثل وأفضل .

ونرجو أن نحيط القارئ علماً بأننا في تقدير الموقف العسكري في بدر نستخدم الإصطلاحات العسكرية التي تستخدم في حروب اليوم ، ونقدم هذا التقدير للموقف في ضوء نظريات الحرب الحديثة وطبقاً لمفاهيم الفن العسكري المعاصر .

تقدير الموقف العسكرى

فى — بدر

الموقف العام

[١] بلغ رسول الله أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة ، حتى لم يبق بمكة لا قرشى ولا قوشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به فى تلك العير ، وقيل إن فى تلك العير خمسين ألف دينار ، وكان أبو سفيان هو قائد القافلة ، وكان معه سبعة وعشرون ، وقيل تسعة وثلاثون رجلاً ، منهم عمرو بن العاص ومخرمة ابن نوفل ... أبو سفيان رجل حذر داهية ويعتمد عليه ، وعمرو رجل مشهور بالدهاء ، ومخرمة كان سليط اللسان .

وقرر رسول الله اعتراض طريق القافلة ، ونخرج فى مائتين من المهاجرين إلى العشيرة ، واستخاف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وحمل اللواء - وكان أبيض اللون - حمزة بن عبد المطلب ، وكان معهم ثلاثون بغيراً يعقبونها ، إلا أن القافلة موت ، وبلغت الشام ، ولهذا استقر رأى الرسول على :

(١) أن يعترض أبا سفيان وقافلته عند العودة ، وقد قدر زمن الذهاب والعودة بثلاثة أشهر .

(٢) أن يبيت العيون لمراقبة الطريق ومتابعة أخبار القافلة والإفادة عنها عند اقترابها .

وعندما اقترب موعد العودة حسب تقدير الرسول عليه السلام - وكان

تقديره صادقاً فلم يخالف الواقع حسابه في شيء - بعث عليه السلام طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فمضيا حتى نزلا في الروحاء (على بعد ثلاثين ميلاً من المدينة) بمخباء رجل من جهينة يسمى كشد (أو كسد كما جاء في الإصابة) وأقاما عنده حتى لاحت العير فأمرعا إلى المدينة بيلقان الرسول .

وأرسل الرسول بسبس بن عمرو وعدي بن الزغباء ليجمعهما معلوماً عن القافلة ويراقبا عودتها ، فنزلا بدرأ ، حيث سمعا جاريتين من جواري العرب تتغاصمان ، وتطلب إحداها من الأخرى ديناً لها ، فقالت « إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لها ، ثم أقضيك الدين » ، وصدق على قولهما عروبي يدعى مجدي بن عمرو ، وأكد لهما قرب ورود العير ، فعاد المبعوثان بهذا الخبر إلى رسول الله .

[٢] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قدر أن يذهب أبو سفيان وقافلته إلى الشام ثم يعود ماراً ببدر في خلال ثلاثة أشهر ، وخشى عليه السلام أن ينجح أبو سفيان في الإفلات بالقافلة مرة أخرى ، فتضيع فرصة قد لا تعود ، ولهذا نذب المسلمين إلى الخروج ، فخرج معه من كان بعيده أو فرسه حاضراً ، وطلب إليه قوم كانوا يسكنون عوالي المدينة وأغلبهم من الخزرج ، أن ينتظر حتى يذهبوا ويحضروا رواحهم ليخرجوا معه ، فلم يقبل حرصاً على الوقت والفرصة ، وقال « لا يتبعنا إلا من كان بعيده حاضراً » ، ولم يكن عليه السلام يفكر في جمع أو حشد أو كثرة ، لأنه كان يريد العير فقط ، وهي في حراسة قليلة لا قوة لها ولا شوكة ، هذا فوق أنه عليه السلام لم يكن يفتي قتالا ، ولم يفكر فيه أصلاً ، وخرج معه عدد قليل أكثرهم من

الشباب ، وكان ضمن الخارجين غلمان لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم ، منهم عمير بن أبي وقاص ، وحارثة بن سراقة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأسيود بن حضير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، وآخرين لم يحزمهم رسول الله .

ولم يكن مع الخارجين سوى فرس^(١) للزبير بن العوام وللمقدار بن عمرو ، وسوى سبعين راحلة ، فكان الخارجون يتعاقبون الركوب ، وكان النبي يقناوب ركوب بعير مع عليّ بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد .

[٣] شعر أبو سفيان - وهو في طريق العودة - حين اقترب من الروحاء أن عيوناً تترصده ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، وبعث به إلى مكة يبلغ أهلها أن المسلمين قد اعترضوا طريق القافلة ، ويستصرخهم إلى مناصرة العير وإنقاذها ، ووصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذن بميرة ، وجذع أنفه ، وحول رحله ، ووقف عليه ، وشد قيضه من قبل ومن دبر ، ثم نادى أهلها واستنفرهم . « يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها .. فالغوث .. الغوث » ، وسمع أبو جهل صيحات ضمضم فتملسكه الغيظ ، وأشفق على ماله ومال قومه ، فأسرع إلى السكبة ، ووقف يصيح في قريش أن تخرج

(١) جاء في السيرة الحلبية أنه كان في الجيش خمسة أفراس فرسان لرسول الله وفرس لسكن من مرثد والزبير والمقدام ، ولكن اتفقت غالبية المراجع على أنه كان في الجيش فرسان فقط .

كلها لإنقاذ الأموال ، وقال « أياظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك » (يقصد العير التى استولى عليها عهد الله بن جحش وسريته) .

وكانت بين قريش وكنانة عداوات وثار ، وخشيت قريش الخروج فيقع بينهما وبين كنانة صدام يؤخر الالتحاق بأبى سفيان ، ولكن مالك بن جعشم أحد أشراف كنانة قطع على نفسه عهدا ألا يتعرض قومه لقريش أثناء تحرركها ، وقال لهم « أنا لكم جار من أن تأتيناكم كنانة من خلفكم بشيء تسكرهونه » .

خرجت قريش فى ألف رجل ، وأعان قويمهم ضعيفهم ، كل يحمل سلاحه ، ومعهم مائة فرس وسبعمئة بعير ، وقد تجهزوا للحرب .

[٤] فى هذه الأثناء كان أبو سفيان على رأس القافلة يغذ السير فى طريقه إلى مكة ، وكان رجلا حذرا فسبق العير يتنطس الأخبار ، فقابله مجدى بن عمرو فسأله « هل أحسست أحدا ؟ » ، فقال « ما رأيت أحدا أنكره ، إلا أننى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا الغل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا » ، فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعاد بعيرهما ، ففتقه فإذا فيه النوى ، فقال « هذه والله علائف يثرب » ، فأدرك أن الراكبين من رجال محمد ، وتأكّد أنه وصحبه سيعترضون طريقه ويضعون أيديهم على الأموال ، فعاد إلى عيره ، وغير طريقه واتجه إلى ساحل البحر ، وأسرع فى مسيره حتى بعد ما بينه وبين محمد .

ونجى أبو سفيان في أن ينجو بالقافلة ، فلما اطمأن إلى سلامته وسلامه من معه ، بعث إلى قريش وكانوا وقتها بالجحفة « إنكم إنما خرجتم تمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله تعالى فارجعوا » .

ورأى رآيه عدد غير قليل ، إلا أن أبا جهل غضب لهذه الدعوة ، وصاح في قومه « والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليه ثلاثاً ، سنحرق الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجهنا ، فلا يزالون يهابونا أبداً » .

وكان بنو زهرة من الخارجين ، فخاطبهم قائدهم الأخنس بن شريق وقال « يا بني زهرة ، قد نجي الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنوه وماله ، واجعلوا بى حميتها ، وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة إلا ما يقول هذا (يعنى أبا جهل) » ، واستجابت بنو زهرة ، وعادوا ، ولم يشتركوا في مسيرة قريش .

[٥] هكذا كان خروج قريش وظهورها في الميدان وتصميمها على البقاء في بدر ثلاثة أيام ، قد قلب ميزان القوى ، فالرسول خرج أساساً من أجل القافلة ، ولم يكن هدفه القتال ، وقريش كلها خرجت للقتال .

وسارت الأمور في طريق الصدام المسلح .

تقدير الموقف

الفرض من الخروج

مواجهة قوات قريش وصد عدوانها وحماية المسلمين

العوامل التي تؤثر على الفرض

١ - القوى المتضادة

- • قدرت قوة المسلمين بـ ٣٠٠٠ مقاتل تقريباً ، فيهم كثير ممن بلغوا الحلم منذ شهور ، وفيهم عدد من المهاجرين الذين كانوا مستضعفين في مكة وفي قلوبهم بقية من الرعب ممن كانوا سادتهم الذين تولوا تعذيبهم إثر إسلامهم ، كما أن فيهم عدد قليل التجربة والمهارة والدرية .
- • قدرت قوة قريش بـ ١٠٠٠٠ مقاتل تقريباً ، فيهم رجال مكة وأشرفها ، وهم رجال حرب مدربون على القتال .

٢ - السلاح

- • كان مع المسلمين فرسان إثنان في مواجهة مائة فرس مع قريش وكان لدى المسلمين سبعون بعيراً يقابلها سعمائة بعير لدى قريش .
- • لم يكن مع المسلمين من السلاح سوى ثمانية سيوف وست من الدروع وعدد قليل من الفبال .
- • كان جيش قريش مسلحاً بالدروع والسيوف والفبال وكل أدوات القتال ، ولم يكن بين الجيش فود واحد غير مسلح .

٣ - التحرك

• • كان ماء بدر هو مكان اللقاء المنتظر ، وهو ماء مشهور بين مكة والمدينة ، ومحط للقوافل الداهية إلى الشام ، بينه وبين المدينة ستين ومائة كيلومتراً ، وهو سهل رملي يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ، ومن الغرب كثبان رملية ، ومن الجنوب منحدر صخري منخفض ، وينساب في واديه جدول ماء ، يعبره من الشرق إلى الغرب ، وينقطع في أماكن كثيرة منه فيصبح آباراً ، يحيطها المسافرون بسدود فتصبح أحواضاً .

• • المسافة بين مكة وبدر تقدر بأربعة أمثال المسافة بين المدينة وبدر ومعنى هذا أنه كان أمام جيش المشركين خمسة عشر يوماً بالسير العنيف حتى يصل إلى الموقع ، وأمام جيش المسلمين أسبوع كامل ، ومعنى هذا أن قوة جيش مكة في التحرك هي أربعة أميال ، بينما تكون قوة المسلمين في التحرك هي ميل واحد ، لأن جيش المسلمين من المشاة وجيش قريش من الركبان .

٤ - القوى المعنوية

• • خرج المسلمون للجهاد في سبيل الله ووقفاً في وجه المعتدين ، وهم يحاربون بإيمان في سبيل أحد هدفين : الانتصار عظيم أو استشهاد كريم ، فإذا انتصروا فهو انتصار للإسلام ولإرساء لقواعده . . . وإذا ماتوا فازوا بالنصيب الأوفى وهو خير الدنيا وخير الآخرة .

• • قال المقداد بن عمرو للرسول نيابة عن المهاجرين « يا رسول الله لمض

لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى
اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت
وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا
إلى برك الغمام لجالدنا معك من دونه حتى تهلكه .

• • قال سعد بن معاذ باسم الأنصار « إمام لما أردت فنحن معك ،
فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ،
ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا
لصبر في الحرب صدق في اللقاء .

• • المشركون يحاربون من أجل دنياهم ، بنفوس تمتلئ حقدًا وفجوراً ،
يسعون إلى السيطرة والبغى والسلطان ، ويحرصون على حياتهم
ليعودوا إلى ما كانوا عليه يتمتعون بآلات دنيوية ، وهم يأملون أن
تنتهى المعركة سريعاً ليعودوا إلى سلطانهم وجاههم وحياتهم المساجنة
الخليعة ، وهم يحاربون من أجل الشهرة فتسمع بهم العرب وبمسيرهم
فلا يزالون يهابونهم .

طرق الحل المفتوحة

كان أمام المسلمين حلان لاثالث لهما وأحلاهما مر .

٩ — الانسحاب والعودة إلى المدينة

• • إذا استقر رأى على الأخذ بهذا الحل فيجب أن يتم الانسحاب بسرعة
قبل أن تقطع قريش خط الرجعة على الجيش الإسلامى فلا يستطيع
العودة ، هذا فوق أن الأخذ به قد يشجع قريشاً على الزحف إلى المدينة

للقضاء على المسلمين والغلبة منهم نهائياً .

- • وقد يشجع هذا الحل يهود المدينة على الانقضاض على المسلمين أملاً في استعادة مركزهم ومكانتهم ، ولو أدى الأمر إلى الاستعانة بقريش .
- • هذا بالإضافة إلى أن الانسحاب يؤدي إلى تدهور الروح المعنوية عند المسلمين ، لظهورهم بمظهر الضعف والخوف والجبن ، وخاصة أن الغرض الأساسي من خروجهم وهو القافلة ضائع وفات .

٢ - مواجهة جيش قريش

- • وفي هذا الحل خطورة ، فجيش المسلمين قليل العدد ، قليل العدة بينما أعداؤهم يتميزون بالكثرة في العدد والسلاح .
- • ولكن الأمل كان كبيراً في عون الله ونصرته ومؤازرته ، فقد قدر الله تبارك وتعالى هذا اللقاء على غير موعد ، كما يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ (الأنفال ٤٢) ، فما كان المسلمون ليحرصوا على هذا اللقاء لو أنهم علموا حال عدوهم ، وأدركوا الفارق الشاسع بينهم وبين هؤلاء الأعداء في العدد والعدة ، وأراد الله أن يتم اللقاء ليقضى أمراً سبق في علمه وقوعه وهو نصر المؤمنين ، فهذا النصر يبدأ بالإسلام عهداً جديداً .

- • ولقد اتجه الرسول بكل نفسه وروحه وقلبه إلى ربه ، وجعل ينشده ما وعده وبالغ في الدعاء والابتهال .. « اللهم هذه قريش أنت بخيلاتها

تحاول أن تكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصبة اليوم لا تعبد ، وخفق الرسول خفقة من نعام ، رأى خلالها نصر الله ، فقال لأبي بكر « أبشر أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنایا النقع » ، وقال لأصحابه « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٦٦) .. و ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال ١٢) .. و ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال : ١٧) .

- ● ولاحظ المسلمون أن الأمطار سقطت بشدة فوق أرض المعركة ، فتحوّلت الأرض التي يسير عليها المشركون إلى أوحال ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا عليها ، بينما أصابت أرض المسلمين أطراف السحاب بمطر خفيف ، فتلبدت الأرض تحتهم ، وسهات لهم السير والحركة ، وكان سقوط الأمطار مشجعاً للمسلمين على مواجهة أعداء يصعب تحرّكهم .

مواجهة قريش ودخول المعركة

(أ) انتعش المسلمون مكاناً يشرف على منطقة القتال بنى فيه عريش للرسول ، وأمن الحراس هذا المقر .

(ب) جرى ترتيب المقاتلين في صفوف ، وأمر الرسول أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون في مواقعهم ، وقال لهم « إذا اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » .
(ح) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم في القتال « أحد .. أحد .. » .

(د) يتولى الرسول تحريض المسلمين على القتال أثناءه ، ويدفعهم لمقاتلة العدو ، ويباغهم أن الجنة لمن أحسن البلاء ، ولن غمس يده في العدو حاسراً تنفيذاً للأمر الإلهي ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ . (الأنفال : ٦٥) .

(هـ) كان الإذن بالقتال هو كلمة « شدوا » يصدوها رسول الله بهيفته القائد العام للجيش الإسلامي .

(و) توجيه الجهد إلى سادات قريش وزعمائها بقصد استئصالهم جزاء وفاقاً لما عذبوهم بمكة ولما صدوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله .

(ز) عدم التعرض لبنى هاشم وبعض رجال من سادات قريش رغم اشتراكهم في المعركة ضد المسلمين تقديراً لموقفهم ومعاونتهم لهم منذ البعث إلى الهجرة وخلال فترة المقاطعة .

* * *

انتهى تقدير الموقف العسكري

ولنا ملاحظات رأينا ألا نجعلها توضيحاً لما جاء بهذا التقدير للموقف .

(١) أرجو ألا يتبادر إلى ذهن القارئ أن قيادة المسلمين في بدر أعدت تقدير الموقف كما أثبتناه ، ولـسكن مواده التي تضمنها جاءت في صورة حوار بين الرسول وأصحابه ، وقد رأينا أن نثبت هذا الحوار في الصيغة التي تضمنها التعدادات العسكرية الحديثة لتقدير الموقف .

(٢) سعد بن معاذ هو الذي أشار على رسول الله ببناء العريش قال « يا نبي الله ، نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فـلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تـلقى حربا متخلفوا عنك ، يمنحك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك » .

(٣) قد يقسمال القارئ كيف تجري المعركة مع هذا البون الشاسع في العدد والعدة ، وهما ركيزتا أية معركة ؟ ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن الله تبارك وتعالى أراد لهذه المعركة أن تكون على هذه الصورة ، لتكون تـأكيدا لإتـصار العقيدة بثبوتها على السـكثرة العددية بعقادها ، ولـيتبين للناس أن النصر للعقيدة القوية لا للسـلاح والعتاد ، وأن على أصحاب العقيدة أن يجاهدوا دون أمل في المساواة بين القوتين ، لأنهم يـلـكون قوة لها ثقلها وهي قوة الحق .

(٤) كان رسول الله يمر بين الصفوف يحرض المسلمين على الشهادات والقتال ، وكان يقول لهم « إني أحثكم على ما حثكم الله عليه » ... و ... « إني قد أصبحت بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه أحد إلا من ابغى به وجهه » ... و ... « إن الصبر في موطن البأس مما يُفرِّج الله به الهم » ... و ... « أبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته » .

وخلال القتال نزل رسول الله من عريشه إلى أصحابه يشد عزائمهم ويبشّرهم بنصر الله ويقول لهم « شدوا سيهزم الجمع ويولون الدبر ، من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أسر أسيراً فهو له » .

(٥) نفذت الخطة بالنسبة لسادة قريش ، فقد قتل أشراهم ، ومنهم أبو جهل وأمّية بن خلف وحنظلة بن أبي سفيان وعتبة وشيبة ابني ربيعة وزمعة ابن الأسود ونوفل بن خويلد وغيرهم .

(٦) قال رسول الله لأصحابه « عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فن لقي منكم أحداً من بني هاشم لا يقتله » ، ومن هؤلاء البختری بن هشام ، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، وكان أيضاً ممن نقضوا الصحيفة ، ومنهم العباس ابن عبد المطلب .

ينتهى تقدير الموقف العسكري بوضع خطة اللقاء مع العدو فوق أرض

المعركة

والخطة هي الأساس أو المنهاج الذى يخوض الجيش - أى جيش - عليه المعركة ... وعلى الخطة تتوقف إلى حد كبير نتيجة المعركة .

والخطة التى تحقق النصر هي التى توضع نتيجة دراسات صحيحة وسليمة وواعية لقوات الطرفين عدداً وعدة وتدريباً وخبرة ، والطبيعة أرض المعركة ، والظروف الجوية التى تسودها ، ولنوعية السلاح وملاحيته وقدراته وطرق استخدامه ، ولمعنويات المقاتلين ومدى اقتناعهم بالهدف الذى يسعون إليه والفرص الذى يقاتلون من أجله والآمال التى ينشدونها من وراء لقاء العدو .

ولم يحدث أبداً أن خاض جيش - أى جيش - غمار معركة - أية معركة - دون وضع خطة للمعركة ... والتاريخ الحربى حافل بالخطط الحربية التى وضعت منذ قامت الحرب حتى يومنا هذا ... بعضها حقق النصر .. وبعضها الآخر لم يفله ، والفرق بينهما هو سلامة الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة أو تلك .

والإسلام شأنه شأن أية مدرسة عسكرية اهتم اهتماماً بالغاً بالخطة ،

وتاريخه الحربى يؤكد هذه الحقيقة بل ويبرزها ... والانتصارات الحاسمة التى حفل بها تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية، كانت نتيجة مباشرة للبراعة العربية فى وضع خطط القتال ، ولا عجب فى ذلك فقد كان للقادة المسلمين قصب السبق فى هذا المضمار ، فما من خطة وضعت إلا وقد رُوعى فيها كل اعتبار ، وقدر لكل ظرف فيها قدره .

ولا شك فى أن وضع الخطة بعد دراسة وبحث وتمحيص يكون هو الخطوة الأولى نحو النصر ، تستقيمها خطوات أخرى هامة وضرورية ، فلا تكفى الخطة وحدها لإحراز النصر ، ما لم تتوفر مقومات تحقيق هذه الخطة وتنفيذها بالصورة التى هى عليها .

ولقد تنبه الإسلام إلى هذه الحقيقة الجوهرية الهامة ، ولهذا حرصت المدرسة العسكرية الإسلامية على توافر هذه المقومات التى يتحقق بها النصر .

فالخطة الجيدة لا يضعها القائد وحده ، فرأى واحد قد يخيب أو يخطئ ، ولكن رأى الجماعة يصيب دائماً ، ولهذا كان الإسلام حريصاً على أن توضع الخطة على أساس من الشورى ، أى عرض كافة الآراء ، وطرحها للمناقشة والبحث والدراسة ، واختيار أصلى هذه الآراء .

والخطة الجيدة ينفذها الجيش ... والجيش قادة وجند ، ولهذا يجب أن تقوم علاقات طيبة بين القادة والجند ، وأن يتبادل الطرفان الاحترام

والثقة والتقدير ... ولقد اهتم الإسلام اهتماما بالغاً بالصلة الوثيقة التي ربطت
 قلوب القادة وعواطفهم ومشاعرهم بقلوب الجند وعواطفهم ومشاعرهم .

والخطة الجيدة تعتمد أساساً على روح القتال عند التنفيذ ، فرجل مؤمن
 قوى شديد الإيمان يمكنه أن يواجه عدداً من الرجال ضعاف الإيمان مزعزعي
 العقيدة ، ويستطيع أن ينتصر عليهم ، ولقد أولى الإسلام هذا الجانب الهام
 الهام عنايته فعمل على رفع معنويات جنده إلى المستوى الذي يلائم المعركة
 ويتفق والقتال .

هذه هي المقومات التي يجب أن يكون لها المقام الأول عند تنفيذ الخطة ،
 ولقد حرص عليها رسول الله في كل مواقفه واهتم بها ، وعنه صلى الله عليه وسلم
 أخذها القادة المسلمون ، فأصبحت منهاجاً ووسيلة إلى تحقيق النصر .

١١ | جماعة القيادة

قام الإسلام على الشورى سبيلاً لنشر الدعوة وتثبيتها ، والتمسكين لها
 والتغلب على محاولات أعدائها ، ووقايتها من عوامل التعويق والتفكك
 والانحراف ، وذلك لتسير في وجهتها التي رسمتها لها عناية الله .

والشورى تعني الاهتمام برأي أصحاب الرأي .. وهذا يعني أن الإسلام
 حرص على روح الجماعة « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ..
 و « عليكم بالجماعة وإياكم والتفرقة » .. و « يد الله مع الجماعة » .
 وحرص الإسلام على ذلك راجع إلى الرغبة في تقويم النزعة الفردية ،

وإلى إشاعة عادة تبادل الرأى والتشاور فى الأمر والتناصح فى كل موطن يقبل التناصح .. أى أن الإسلام حرص على أن يستعرض شتى وجهات النظر ، ويمحص الأفكار والآراء ، وإن ذلك من شأنه أن يحقق للأمة الاستقرار ، ويمكن لها من الفوز والفلاح ، ويبعد عنها عوامل الانحراف والخسران .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة » .

وإذا كانت النصيحة والشورى وتبادل الرأى ضرورة بالنسبة لأوجه الحياة كلها ، فهى من أولى الضروريات فى شئون الحرب ، ومن أزمها ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى رسوله وهو المعصوم المؤبد بالوحى ، أن يشاور ويستمع إلى رأى غيره ، ويقبل النصيح ويستعين بأهل الخبرة والتجربة ، فقال وهو خير القائلين ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ .

واستمع رسول الله لأمر ربه ، وظل طوال حياته يشاور أصحابه ويستعين بخبراتهم وآرائهم .

ونهج الخلفاء من بعده عليه السلام ذات المنهج ، وظهرت فى الأمة الإسلامية فئة « أهل الحل والعقد » ، وهم موضع الثقة ، ومبعث الرأى السليم ، ومصدر النصيحة المفيدة ، بما استقبان من إخلاصهم ، ووضوح من صدقهم ، وظهر من إيمانهم .

وأصبح مبدأ الشورى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ركيزة من ركائز المجتمع الإسلامى ، ومظهراً من مظاهر ديمقراطيته ، وأصبح الرأى الأصلح موضع القبول والاستعسان .

في بدر لم يقرر رسول الله وحده القتال وإنما استشار الناس ، استشار المهاجرين ، واستشار الأنصار ، وبذلك وسعت دائرة المشورة حتى شملت السواد الأعظم ، وعندما خاض المسلمون غمار المعركة كان ذلك نتيجة اقتناع وقبول .

وفي بدر أيضاً نزل المسلمون أدنى ماء من بدر ، وكان بينهم رجل حكيم عليم بالمكان هو الحباب بن المنذر ، فسأل رسول الله « يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ؟ أمنزلاً أنزله الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ » فأجابه « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » ، فقال « يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فأني أعرف غزارة مائه وكثرته ، فننزله ، فنعمور ما عداه من القلب ثم نبني عليه حوضاً ، فنملؤه ماءً ، فنشرب ولا يشربوا » ، واقتنع رسول الله برأي الحباب وصحته ووجاهته ، فأخذ به وقال « لقد أشرت بالرأي » ونزل جبريل وقال « الرأي ما أشار به الحباب » ، وبهذه الاستجابة لرأي الحباب أعطى رسول الله لأصحابه المثل في أنه - وهو رسول الله - في حاجة إلى حسن المشورة ، وأنه لا يقطع رأياً دونهم ، ولا يتخذ قراراً إلا بهم .

وعندما سمع رسول الله بتحريك قريش إلى المدينة أملاً في نصر يعرضهم هزيمة بدر ، جمع أصحابه وجعلوا يتشاورون ويبحثون خطه اللقاء ، فعرض الرسول اتخاذ خطة دفاعية ، فيتحصن المسلمون بالمدينة ، فإن حاولت قريش اقتحامها كان المسلمون أقدر على صدمهم ودفعهم والغلب عليهم ، قال « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ،

وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها » ، وأيد عبد الله بن أبي الرأى وقال « لقد كُنّا يارسول الله نقاتل فيها ، ونجمل النساء والأطفال في هذه الصياصى ، ونجمل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالهنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمتهم النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسياننا في السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا » .

ووافق كثيرون على هذا الرأى ، ولكن ظهر الرأى الآخر الذى يدعو إلى اتخاذ خطة الهجوم ، ويقول بالخروج للملاقاة العدو خارج المدينة ، وكان بعض أصحاب هذا الرأى ممن فاتتهم واقعة بدر ، قال الرأى « أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرونا أنا جبننا عنهم وضعفنا ، فيكون ذلك جرأة منهم علينا ، والله لا نطيع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا » ، ووافق على الرأى المطروح حمزة بن عبد المطلب ، وقال مؤيداً هذا الرأى « والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة » ، وقال واحد من أصحاب هذا الرأى وهؤيدى « لى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لقريش ، وهام أولاء قد وطئوا سلعنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجوع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيجسونا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وأقرين لم يكلموا ، لئن فعلنا لآزددوا جرأة ولسنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا » .

رأيان معروضان مطروحان ، والامر شورى ، ورأى الأغلبية يسود ،
ويتقرر الخروج ، ولكن هل يرجع المسلمون عن قرارهم .. وكانت الشورى
في امتحان عصيب فماذا كان الموقف ؟ ، تعرض سعد بن معاذ وأسيد بن حضير
للناس الذين رأوا الخروج وقالوا لهم « استسكوهتم رسول الله صلى الله عليه
وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه » ، فتوجه الناس إلى رسول الله وقالوا
له « ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج فاصنع ما شئت .. »
المسلمون في هذا الموقف في مفترق الطرق .. هل تسود الشورى ويكون
الرأى للجماعة ؟ ، أم يكون الرأى لفرد واحد هو الرسول ؟ ، الذى يملك زمام
هذا الموقف هو رسول الله وحده ، وقد أصبح الأمر بين يديه ، ولكنه
عليه السلام قدوة للمسلمين ونموذج طيب لهم ومثل كامل ، فكيف يخرج
عن خط إسلامي رسمه القرآن ، وكيف يرفض الشورى وقد أمر بها الله ..
قال رسول الله للناس وكان قوله الفصل « قد دعوتكم إلى التعود فأبستم ،
وما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضمها حتى يحكم الله بينه وبين
أعدائه » .

وجمعت قريش الجوع ، وضمت إليها سائر القبائل غطفان وبنى مرة
وأشجع وسليم وأسد ، وانفقت مع يهود المدينة على التآمر على محمد
ومساعدتهم ، وتحرك عشرة آلاف تحت قيادة أبي سفيان إلى المدينة ، وأتى
ركب من خزاعة يخبر رسول الله بالأمر ، فندب عليه السلام الناس ، ودعاهم
وعرض عليهم الأمر ، وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم في أمورهم ، وسأل « هل
نبرز من المدينة أو نكون فيها » ، وعرض سلمان الفارسي رأيا قال
« يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خذقنا عليها » ،

وأشار بحفر خندق حول المدينة ، وأعجب القوم بالرأى ، وواقفوا عليه ، وبدأ - الجميع - بعد اختيار الموقع المناسب في الحفر ، وشاركهم رسول الله فعمل فيه معهم وحمل التراب على ظهره ، وعندما وصلت قريش والأحزاب فوجئت وفوجئوا بالخندق ، كأسلوب جديد من أساليب الدفاع ، لم يكن للعرب علم به ، وقد جاءت فسكرته من خلال الشورى .

هذه أمثلة من جماعية القيادة في عهد رسول الله

ومع بداية عهد أبي بكر ظهرت مشكلة منع الزكاة ، فبعد وفاة رسول الله ارتد بعض العرب عن الإسلام ، في حين بقى آخرون على إسلامهم ، ولكنهم أبوا أداء الزكاة لأبي بكر ، ورأى الخليفة أن يقف على رأى الناس في كيفية مواجهة هذه المشكلة ، فجمع كبار الصحابة يستشيرهم في قتال الذين منعوا الزكاة ، وعرضت آراء متعددة ، فالبعض يرى قتالهم ، والبعض يعارض ذلك ، فكان رأى عمر وطائفة معه من المسلمين ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وكان أبو بكر يرى ضرورة قتالهم ويشدد فى رأيه قائلاً « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، واعتراض عمر بشدة ، وقال فى حدة « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ، ولم يتردد أبو بكر فى الرد عليه فقال « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا

بحقها» ، وأتم الرواة حلقة النقاش فقالوا إن عمر قال « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

ثم كانت فتنة الردّة ، ولم يفرد أبو بكر بالرأى فى معالجة أمرها ، بل جمع أصحاب الرأى وتداول معهم ، فلما استقر رأى الجماعة على قتال المرتدين ، عرض اختيار القيادات التى ستتولى قيادة الألوية الأحد عشر التى أعدت للقتال ، واجتمع الرأى على أسماء القادة ، ولم يختلف أحد فى الإختيار ، فالقادة الذين اقترح أبو بكر أسماءهم كانوا خيرة المساهين وأكثرهم كفاءة وقدرة وشجاعة وصلابة ، كان فيهم خالد ، وعمر ، وعكرمة ، والعلاء ، وحذيفة بن محصن ، وعرفجة بن هرثمة ، وخالد بن سعيد ، ومعن بن حاجر ، والمهاجر بن أمية ، وشرحبيل بن حسنة ، وسويد بن مقرن .. خيرة رجالات الإسلام وأعظمهم جلدًا فى مواقع القتال ومواطن النزال .

وأى المثنى بن حارثة أبا بكر يعرض لإمداده بجيش من المسلمين يعاونه فى عملياته بالعراق ، وكانت الأبناء قبل هذا اللقاء قد ترامت إليه بأن المثنى سار بقواته شمالا فى البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب نهر دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته على الفرس وعمالمهم ، ولم يكن المثنى معروفا لدى الخليفة فسأل عنه قائلا « من هذا الذى تأتىنا أخبار وقائمه قبل معرفة نسبه ؟ » ، فأجابه قيس بن عاصم « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيمانى » ، وعرض المثنى الأمر على الخليفة ، وشرح له ظروف القتال فى العراق ، ووضع بين يديه صورة متكاملة للوضع الدينى والاجتماعى والسياسى للمجتمع الفارسى ،

واختتم فقال « أمّرنى على من قبلى من قومي أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى » ، فجمع أبو بكر أصحابه وعرض عليهم الموقف ، وطلب الرأى والمشورة ، فتداول القوم وتناقشوا ، وخلال المناقشة رأوا أن يستعينوا برأى رجل ليس بينهم ولكن له باع طويل وقدرة على البحث والرأى ، طلبوا أن يستدعى خالد من اليمامة حيث كان يقيم مع زوجته أم تميم وبنت مجاعة بعد غزوة عقرباء ، فاستدعاه أبو بكر على عجل ، فحضر ، وطلب رأيه فأيد رأى المثنى لسببين .. إذا توقفت الأعمال العسكرية ضد الزرس فسيشجعهم ذلك على التكبر فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها .. أما إذا استمرت الأعمال العسكرية فإن مانع له المثنى يكون طليعة فتح كبير ، وخاصة أن العرب المقيمين بالعراق سيكونون من عوامل النصر لبني جنسهم من عرب الجزيرة ... وتم الاتفاق على تأمير المثنى ، ثم توجيه خالد بعد ذلك إلى هناك ليتولى قيادة جيوش الفتح .

كان أبو بكر يأمل فى أن ينفشر الإسلام فيما وراء الحدود من شبه الجزيرة ، وبعد النجاح الذى لقيه المسلمون فى أرض فارس ، اتجه ببصره إلى بلاد الشام ، حيث تنفشر قبائل عربية جدير بها أن تعرض عليها الدعوة كما عرضت على العرب فى الجزيرة . . . وذات يوم دعا أبو بكر عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعهد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وعدداً من جلة المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم أنه يريد أن يستنفر المسلمين إلى الروم بالشام ، وقال « العرب بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم

بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين »
وطلب الرأي صريحاً واضحاً مخلصاً صادقاً ، فقال له عمر مؤيداً وجهة نظره
« والله ما استبقينا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وقد والله أردت
لقائك بهذا الرأي الذي ذكرت ، فاقضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته
الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد ، فسرب إليهم الخيل في إثر الخيل ،
وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقر
الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » ، ولكن عبد الرحمن بن عوف كان
له رأى آخر ، لا يعارض الفسكرة أساساً ، ولكنه يعارض أسلوب التنفيذ ،
قال موضعاً وجهة نظره « يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ،
حد حديد وركن شديد ، والله ما أرى أن تفحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولكن
تبعث الخيل فتغير في أداني أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ، ثم تبعثها
فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضروا بدموم وغنموا من
أداني أرضهم ، فقتلوا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن وإلى
أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم
بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » ، وسأل أبو بكر الناس بعد
حديث عبد الرحمن « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » ، وتكلم عثمان فقال « أرى
أنك ناصح لأهل هذا الدين شقيق عليهم ، فإن رأيت رأياً فيه لهم رشد وصلاح
وخير فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متهم عليهم » ، وصدق
الباقون على رأى عثمان ، وقالوا « ما رأيت من رأى فامضه ، فإننا سامعون
لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك

ولما جابتك » ، وانتهى الرأى إلى المواقفة على ترجيه الجيوش إلى بلاد الشام ، مع الاستعانة بأهل اليمن .

وعندما بلغ الموقف فى الشام حد الحرج وعدم الاطمئنان بإقامة المسلمين على طريق الروم ومخرجهم لا يقدرّون منهم على شيء ولا يقدر الروم منهم على شيء ، إذا خرج الروم ردّهم المسلمون ، وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يتراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم ويقضوا عليهم ، تولى أبو بكر الضيق والسأم ، وكان أشد الناس ضجراً وأكثرهم تفكيراً فى الموقف ، وجعل يشاور عمراً وعلياً وأولى الرأى بالمدينة ، ورأى أن مشكلة المسلمين فى الشام لا تنحصر فى العدد فهم لم ينتصروا يوماً بكثرة عددية وإنما انتصروا دائماً بالقيادة الواعية المؤمنة ، وانتهى إلى أن الموقف فى الشام يحتاج قيادة جديدة تقود وتسود ، وعرض على أصحابه الأمر ، وبدأ الجميع يدرسون أسماء القيادات التى تصلح .. أبو عبيدة محارب قادر ولكنه رقيق القلب ... عمرو بن العاص على دهائه هيب غير مقدم ... عكرمة مقدم ولكن لا يجيد التقدير للمواقف ... باقى القادة لم يخوضوا بعد المعارك وتولى قتلهم أمر الشام مغامرة ... وقفز إلى أذهان المجتمعين اسم خالد بن الوليد ، ولم يعترض أحد لإنتصاراته فى حروب الردّة ، وفتوحاته فى أرض العراق ، وانتهى الرأى إلى إسناد قيادة الجيوش الإسلامية فى الشام إليه ، وقال أبو بكر لأصحابه بعد موافقتهم « والله لأنسين الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وهكذا كانت حكومة أبي بكر حكومة شورى في منشئها وفي نزعها .

أما في عهد عمر فقد اتخذت الشورى صورة من القيادة الجماعية الواسعة ،
انتلاءم مع الفتوحات الإسلامية ، فقد كان عمر يشاور المسلمين في كل ما جل
ودق من أمورهم .

أراد عمر أن يبعث مدداً إلى العراق فكتب إلى عماله والقبائل يقول
« لاتدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه
إلى العجل .. العجل » ، واجتمعت له بضعة آلاف نزل بهم على ماء يقال له
صرار ، فمسكرو به ، ثم اسقشوا الناس في المسير إلى العراق ، فقالوا له « سر
وسر بنا معك » ، إذن فالرأى المطروح أن يخرج الخليفة بنفسه على رأس
الجيش .. قال لهم عمر « أعدوا واستعدوا فإنى سائر إلا أن يحىء رأى هو
أمنل من هذا » ، ودعا أصحاب المشورة والرأى فسألهم « احضرونى الرأى فإنى
حائر » ، وتناقش الحاضرون في حرية مطلقة ، كل يهدى رأيه في شجاعة
وعن اقتناع ، ثم أجمع ماؤهم على أن يبقى الخليفة بالمدينة ، ويبعث على رأى
الجيش رجلاً من أصحاب رسول الله « فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك
ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو حتى يحىء نصر الله » ،
وقال عبد الرحمن بن عوف مؤيداً هذا الرأى « أقم وابعث جنداً ، فقد
رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس
كهيئتك ، وإنك إن تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون
وآلا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً » ، وقهل عمر رأى الجماعة ، وقال « يحق
على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى وإنما كنت كرجل منكم

حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلاً ، وسأل عمر خاصته عن القائد الذي يوليه إمارة الجيش ، وأخذ هؤلاء يعرضون الأسماء ويفاقشون صلاحية أصحابها ، وخلال الاجتماع وصلت رسالة من سعد بن أبي وقاص يبلغ فيها عمر أنه قد جمع ألف فارس ذوى نجدة ورأى ، وعرض المجتمعون اسم سعد وقالوا « قد وجدت الرجل ! » ، فسألهم « من ؟ » قالوا « الأسد في برائه سعد بن أبي وقاص » ، ووافق عمر على الفور ، وبعث إلى سعد ، فقدم عليه من نجد .

كان جو العراق لا يتلاءم وصحة الجند المسلمين ، وقدمت وفود منهم على عمر من جلولاء وحلوان والموصل ، فقال لهم وقد لاحظ سوء صحتهم « والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها » (أى التي خرجتم بها) ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكانا أبدءوا فماغيروكم ؟ » ، قالوا « وخومة البلاد » ، وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إليه من المدائن حيث يقيم مع سعد « إن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاؤها وتغيرت ألوانها » ، وأزعج عمر ما أصبح عليه المسلمون في هذه المناطق ، وخشى ما يجره ذلك على المحاربين من ضعف ، فبعث إلى سعد « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان ، فابعث رائداً يرتاد لهم منزلاً برياً بحرياً ، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » ، فبعث سعد عهد الله بن المعتم من الموصل ، والقعقاع بن عمرو من جلولاء ، للبحث عن مكان صالح لمقام المسلمين ، كما وصفه أمير المؤمنين . . ولم ينته موقف عمر عند هذا الحد ، بل جمع أصحاب الرأي في المدينة ممن لهم علم بمواقع العراق ، وسألهم الرأي في أصلح الأماكن وأنسبها صحياً ، وتبادل الجميع الرأي ، ثم

اتفقوا على موقع الكوفة ، فلما تم بالكتابة باسم الموقع إلى سعد ، جاءه كتاب منه تبين فيه أنه اختار ذات الموقع ، قال سعد في كتابه « إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والقرات برية وبحريا ، ينبت الخلفاء والنصي ، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلمة » ، وطاب مقام الناس بالكوفة ، ورجع إليهم ما كانوا قد قدوه من قوتهم . . .

ومكذا سارت حكومة عمر على مبدأ الشورى ، شأنها في ذلك شأن مارسه الرسول عليه السلام ، وما تمسكت به حكومة أبى بكر .

وكما كان الحكم يستشيرون أصحابهم ، كذلك كان القادة ، فلم يستقل أحدهم برأى ، وإنما كانت أمور الممارك في يد الجماعة ، وكان رأى الجماعة هو النافذ ، تأكيذاً لمبدأ الشورى وإقراراً للجماعية القيادية .

ومعركة اليرموك تعطى الدليل والمثل . . فقد وصل خالد إلى مواقع الجيوش ووجدها مستقلة في عملها ، كل جيش يتلقى أوامره من أميره ، لا تعاون ولا تنسيق بين كافة الجيوش ، ورأى أن الوضع على هذه الصورة ضار وخطير ، فجمع قادة الجيوش وطرح عليهم فكرة توحيد القيادة (سبق أن أشرنا إلى ذلك بالتفصيل في موقع سابق من الكتاب) ، وناقش الجميع الفكرة من كافة جوانبها . مزايها أو العيوب ، صلاحيتها أو عدم الصلاحية ، وانتهى الرأى أخيراً إلى توحيد القيادة مع إسنادها إلى خالد مع بداية القتال ، وكان يوم اليرموك من أيام الله الخالدة ، خفس فيه الهائل ، وذل فيه المهتان ، وارتفعت فيه رايات الحق وألوية الله .

وما حدث في اليرموك حدث في مواقع أخرى ، ولكنه لم يحدث في موقعة الجسر ، فإذا كانت النتيجة ؟ كان أبو عبيدة قائد جيش المسلمين في مواجهة ذي الحجاب بهم جاذويه قائد جيش الفرس ، وكان جيش المسلمين في قس الناطف ، وأقبل بهم فبق بجيشه على الجانب الآخر من النهر ، وبعث يقول « إما أن تعبروا إلينا وندعوكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » ، وتطلب البت في هذا الطلب رأى أصحاب الرأي والمشورة ، وأشار الجميع بعدم العبور وأن يدع الفرس يعبرون ، ولكن أبا عبيدة أخذته العزة فصمم على أن يعبر هو ، وقال « لا يسكنوا أجراً على الموت منا ، بل نعبر إليهم » ، عارضه المثني وسليط ووجوه الناس ، قالوا له « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس منذ كانوا ، وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزهاء والعدة بما لم يلقها به أحد ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كربة » ، ولكن أبا عبيد ظل مصراً على رأيه ، ولم يستمع إلى رأى الجماعة ، وانفرد بالرأى وحده ، مخالفاً بذلك شريعة الله ، خارجاً عن سنة رسول الله ، منحرفاً عن الخط الذي رسمه الخلفاء ، فإذا كانت النتيجة ؟ أطاع المسلمون أوامره ، واجتازوا النهر ، فكانت الهزيمة المرة والضربة القاصمة للظفر ، إذ فقدوا بجانب أبي عبيد وسليط بن قيس الآلاف من خيرة أبطالهم ما بين قتيل أو غريق في الفرات .

وكانت هفوة تجنبها القادة بعد ذلك .

والذي نريد أن ننتهي إليه هو أن الإسلام قد أقر نظرية جماعية القيادة . وأن المدرسة العسكرية الإسلامية قد جعلت جماعية القيادة مبدأً ومنهجاً للقادة العسكريين جميعاً ، وكان هذا المنهج من عوامل التفاهم والترايط بين المسلمين في المعركة الواحدة ، فتحقق به النصر وتم به الظفر .

وجماعية القيادة كانت من أهم اتجاهات المدارس العسكرية التي جاءت بعد الإسلام ، فإن القيادات المختلفة اتفقت على إنشاء هيئة خاصة تسمى «هيئة الأركان حرب» تقدم للقائد المشورة والرأى والنصيحة ، وتسمى في بعض البلاد «مجلس الحرب» ، والهيئة والمجلس مسئولان مع القائد مسئولية مباشره في الإعداد للمعركة ودراسة كافة أمورها وبحث كل الظروف والوقوف على كافة البيانات ، وفي ضوء دراستها توضع خطة القتال .. والهيئة والمجلس يشبهان أهل الحل والعقد وأصحاب الرأى والمشورة في الإسلام .. اتفقت الأهداف والأعمال والواجبات وإن اختلفت المسميات .. فالمهمة واحدة . والهدف واحد والمسئولية واحدة .

[٢] علاقة القائد والجنـد

العلاقة التي تنشأ بين القائد وجنده عامل هام من عوامل المعركة وتؤثر في نتائجها تأثيراً مباشراً وفعّالاً .

ولقد أدركت القيادة الإسلامية ذلك فحرصت على أن تكون هذه العلاقة وثيقة قوية مدعمة راسخة لتتكون على مستوى المسئولية التي يتحملها المسلمون قادة كانوا أو جنوداً ، ولهذا كان من الضروري أن يرتبط القادة والجنود برباط قوى ، وأن تجمع بينهم ثقة مطلقة ، وأن تتحد مشاربهم وتقارب قلوبهم ، وتتفاعل مشاعرهم ، وأن يكون رائد هم الحب والخير للجميع

ومن أجل هذا الهدف اتخذ رسول الله — أول ما اتخذ من خطوات بعد استقراره بالمدينة — خطوة حاسمة في هذا الاتجاه جادة في هدفها صادقة

في جوهرها فدعا عليه السلام إلى القأخى بين المسلمين ، وكانت هذه الدعوة إبقاء على الصلالت ودعماً للأخوة الإسلامية وقبراً لأحقاد الماضي ، ومحافظة على بناء الدولة على وحدة من الدين والغاية والمهدف .

وفي ضوء الخط العام لسلوك الدولة بالنسبة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بالعلاقة بين القادة والجنسد ، ووضعت لذلك قواعدا التزم بها القادة وكذلك الجند ، فالقائد عليه أن يحافظ على جنده وألا يحملهم من الأمر ما هو فوق طاقتهم ، وأن يحرص على سلامتهم ، وألا يفرق بينهم في المعاملة ، وأن يكون لهم في كل تصرفاته مثلاً وقودة ، وألا يجعل بينهم وبينهم حاجزاً بل يتصل بهم ويتقرب إليهم ويسقيهم ، وأن يتصرف بحكمة في كل الأمور التي تمصل بهم ... وفي مقدمة هذا كله يجب أن يكون موضع الثقة ، فيؤمن به جنده ، ويلتزمون بقراراته ، وينفذون وراءه دون تردد وهم مطمئنون إلى حكمته وقدرته .

والجند ملزمون بالولاء لقائدهم ، فيسمعون له ويطيعون ، ويعملون وفق رأيه ، وينفذون أوامره لا يخالفونه ، ولا ينشقون عنه ، ويسمعون إلى أن يكونوا موضع ثقته .

والرسول الكريم هو أول من تولى قيادة المسلمين . . وقد جعل عليه السلام من علاقته بالجند دعامة العمل العسكري وجوهره ولبه ، ولهذا حرص صلى الله عليه وسلم على أن تكون علاقته بالجند كقائد ، متسمة بالود والحب

والاحترام والتقدير ، وقائمة على أساس من الثقة الكاملة . . هم يثقون به
وبرسالته وبقيادته وبمبادئه وبخطته وبتقديراته .. وهو عليه السلام يثق فيهم
ويطمئن إليهم ، وتتجاوب مشاعره مع مشاعرهم ، وترتبط عواطفه بهم .

كان الرسول شجاعاً فتمثل به جنده وملأوا الميدان بضروب الشجاعة .

وكان الرسول قوى الإرادة راسخ العقيدة وكذلك كان جنده يأخذون

عنه ويتعلمون منه .

وكان الرسول يعيش بين جنده كفرده منهم يشاركهم في السراء والضراء
فاستمال قلوبهم وقال محبتهم ، واكتملت بوجوده حياتهم .

وكان الرسول محارباً ممتازاً يخوض المعارك في قوة وعزم وإيمان ، فسار
جنده على دربه ونسجوا على منواله وخاضوا للمعارك وبطولائه في عقولهم
وقلوبهم وأفكارهم .

أثارت سرية عبد الله بن جحش أمرين تمثلت فيهما العلاقة بين الرسول
كقائد وبين جنده ، فهذه السرية كما سبق الإشارة إلى أحداثها قانت قافلة
ابن الحضرمي في شهر رجب وهو شهر حرم فيه القتال ، وقتلت واقد بن
عبد الله وأسرت عثمان بن عهذ الله والحكم بن كيسان وقبضت على البعير . .
أول الأمرين أن القتال وقع في شهر رجب ، واسقفلت قريش واليهود الحادث
في إثارة المشاعر ضد المسلمين ، وغضب المسلمون أنفسهم وعاش أفراد السرية
وقائدها في ضيق وألم ، والمسلمون عامة في محنة ، وكان رسول الله أكرمهم
إحساساً وألماً وضيقة ، حتى أنهت السماء المشكلة لصالح السرية والمسلمين . .

... والأمر الثاني أن قريشاً كانت قد أسرت سعد بن أبي وقاص وعقبة بن

غزوان ، فطلبت من الرسول فك أسيرها وقبول الفدية ، ولكن الرسول أبى أن يقبل الفدية حتى يقدم صاحباه ، واشترط وصولها إلى المدينة سالمين قبل إطلاق سراح أسيرى مكة ، وهدد بقتل أسيريه إذا أصاب رجله سوء ، وخضعت قريش . .

هذان التصرفان من جانب رسول الله يؤكدان أولاً تعاطفه الوجداني مع المسلمين ومشاركته إياهم في مواقف الألم وأوقات الحزن ، ويؤكدان ثانياً حرصه على سلامة رجاله وتمسكه بسلامتهم وعدم المساس بهم تحت أية ظروف .

موقف رسول الله دليل على أن الإسلام ربط بين المسلمين برباط الأخوة والحب ، وجعل الواحد منهم يعيش وكأنه الآخر ، ببادله المشاعر والأحاسيس ، ويقاسمه الألم والفرح ، ويعيش معه فترات الحزن وفترات الفرح .

في بدر أشار سعد بن معاذ أن يقيم المسلمون عريشاً لرسول الله يبقى به خلال القتال ، ووافق الرسول ، ولكنه أبى أن يبقى بعيداً عن المعركة ، وأصر على أن يشارك رجاله لقاء العدو ، وأن يكون معهم وبينهم ، فهذا هو شأن القائد ، وبين الجنود يكون موقعه ، ووجود رسول الله بين المقاتلين يمنحهم شعوراً بأنه يشاركهم أهوال المعركة وانفعالاتها ، ويسهم معهم في جهدهم وجهادهم ، ويدفع بهم إلى البذل الأمثل والعطاء الأفضل ، وترك الرسول العريش ونزل إلى ساحة القتال ، وشارك رجاله الموقف ، وظل معهم ويهمهم يحرضهم ويشجعهم ويثير فيهم الحماس والجرأة ، وشاهده الجنود فتعلقوا به وسارعوا إلى مرضاته ، ورأوه وهو يأخذ حفنة من الحصباء

ويستقبل بها قريشاً قائلاً « شأهت الوجوه » ، فاسقبشروا خيرأ ، فلما أصدر الأمر بالهجوم قائلاً « شدوا » ، شدوا وانتزعوا وهم القلة المؤمنة النصر من الكثرة الضالة .

إن الرسول كان يعلم مدى الأثر الذى يتركه وجوده فى أرض المعركة فى نفوس رجاله ، وكان يرى أن علاقة القائد بالجنود تقوى خلال القتال إذا رآوه بينهم ، ينازل العدو ويحرض عليه .

وعندما نادى منادى قريش يوم بدر « يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا » فظار رسول الله إلى رجاله واختار حمزة بن عبد المطلب وعلى وعبيدة بن الحارث ، لأنه كان مطمئناً إلى شجاعتهم وبطوانتهم ، فوضع فيهم ثقته ، وأدركوا هم سر اختيارهم فأرادوا أن يؤكدوا لرسول الله أنهم فعلا محل ثقته ، فأجادوا المبارزة ، فقتل حمزة شيبه بن ربيعة ، وقتل على الوليد بن عتبة ، وعجز عبيدة وهو يبارز عتبة بن ربيعة وأصيب فى ساقه ، فأجهز على حمزة على عتبة ، وحمل عبيدة إلى رسول الله فأفرشه قدمه الشريفة وبشره بالجنة .

وشارك الرسول جنده فى القتال المير فى أحد ، حتى أشيع أنه مات ، وهنا فقد المسلمون روح القتال ، لأنهم أصبحوا دون قيادة تحميمهم وتوجههم ، ولأنهم فقدوا القلب الحنون الذى شملهم بالحب والعطف والحنان ، والوجدان الواعى الذى ببادلهم المشاعر والأحاسيس ، فانتحوا جانباً يسكنون ، فرآهم أنس بن النضر فسألهم « وما يجلسكم ؟ » ، قالوا « قتل رسول الله » ، قال « وما تصنعون بالحياة من بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه » ، وهكذا

حدد لهم أنس طريق العمل فما الذى يقيمهم بعد قائدهم ؟ ولماذا يتمسكون بالحياة وعلاقتهم بقائدهم تمتد إلى ما بعد الحياة ؟

وأدرك المسلمون هذه الحقيقة وكان بينهم أبوبكر وعمر فقاموا واستقبلوا العدو وأبوا في القتال بلاء منقطع النظير . . . وخلال الاشتباك رأى كعب بن مالك رسول الله حيا وحوله عدد من المسلمين كانوا قد القوا حوله حين رأوه ، وقد أصيبت رباعيته وشج في وجهه وكلمت شفقه ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه في وجنته وسقط في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وكان من بين هؤلاء الذين التفوا حوله عليه السلام على وطلحة بن عبيد الله وأبو دجانة وأم عمارة الأنصارية . . . عندما رأى كعب رسول الله صاح في القوم مبشراً لإخوانه « يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله » ، وكان ابن قنمة قد أعلن بين قريش أنه قتل الرسول ، فأشرف أبو سفيان على الجبل ، وصاح بأعلى صوته مقسانلا « يا عمر ، أنشدك الله أقتلنا محمداً ؟ » ، فأجابه عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » .

وفي خلال حفر الخندق لم يعتمد رسول الله عن العمل وهو القائد ، بل شارك جنده الحفر ، ورغم أن حفر الخندق مهمة الجند إلا أنه عليه السلام أراد أن يقدم لجنده المثل ، وأن يشعرهم بالرباط القوى الذى يجمعهم به ويجمعهم بهم ، وأراد أن يؤكد لهم أن القائد قدوة ، وأن القيادة مشاركة في العمل والجهد والعطاء وفي تحمل المسؤولية ، وفي الأخذ بنصيب لا يقل عن نصيب الواحد منهم ، وأدرك المسلمون هذه المعاني فازداد تعلقهم برسول الله وحبه له وصبرهم معه وجلدهم على القتال ، وكانوا يستجيبون لما يأمر به استجابة تحمل أجمل وأرفع صور الولاء والثقة ...

بدأ الحفر وشارك فيه الرسول وأخذ يشجع المسلمين عليه ، ودعاهم إلى مضاعفة الجهد ، ولاحظ ما بالرجال من تعب وجوع فالزمن زمن عسرة .
والعام عام مجاعة فأخذ يردد عليهم قول ابن رواحة ...

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فأرحم الأنصار والمهاجرة

فأجابه الرجال جميعاً بقولهم ...

نحن الذين بايعنا محمداً
على الجهاد ما بقينا أبداً

وفي حديث للبراء بن عازب قال « لما كان يوم الأحزاب وخذق
صلى الله عليه وسلم رأيتُه ينقل التراب حتى وارى الفبار جلده » .

وسار جندي من المسلمين هو عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله
وقال « يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك
عنه ، فإن كنت فاعلا فمرفى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت
أنخرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وإني لأخشى أن تأمر به غيري
فيمقتله ، فلاتدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يعشى في الناس فأقتله ، فأقتل رجلاً
مؤمناً بكافر ، فأدخل النار » .

هذا جندي من المسلمين وهب نفسه للإسلام ولله ، تضطرب نفسه لأنه
سمع أن أباه سيقتل بأمر رسول الله . . تضطرب نفسه بعوامل البر بالأب .
وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سلامة المسلمين . . إنه لا يطلب

عفواً عن أبيه ولكن يطالب ألا يقتل بيد غير يده . . هو يريد أن يقتل أباه وأن يحمل رأسه بيده إلى قائده . . وهذا تبرز العاطفة الحقة السامية التي تربط الجندى بقائده . . النبي برجاله . . وتمتضح أبعادها حين قال له رسول الله « إنا لافقتله بل نتفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

لقد أقام رسول الله علاقته بجنده على أسس راسخة من الثقة المطلقة والحب والتقدير ، وعلى هذا النهج سار أبو بكر من بعده .

خرج أبو بكر يودع جيش أسامة فسار مع الجند على قدميه وأسامة راكب ، وغلب الحياء أسامة ، خليفة رسول الله وصاحبه وقائد المسلمين ومصاحب الأمر والنهي فيهم يسير على قدميه فأراد أن ينزل « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، فقال أبو بكر على مسمع من جميع أفراد الجيش « والله لا تنزل ، والله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة » ، القائد الأعلى لجيش المسلمين يسير على قدميه والجيش راكب . . أي مثل هذا يقدمه أبو بكر للجند ، إنه يحترم الجند ويحترم قائدهم الذي اعترض كثير من المسلمين على تعيينه لصغر سنه . . ترى ماذا يكون شعور أسامة وهو يرى هذا السلوك الكريم من أبي بكر ؟ وكيف تكون فطرة الجند إليه ؟ ثم كيف تكون نظرة الجند إلى أسامة وهم يرون القائد الأعلى يكرمه هذا الكريم على مسمع ورؤية من هؤلاء الذين يكبرونه سنًا ويسرون تحت قيادته ؟

كان أبو بكر حريصاً على حياة رجاله ، وكان يفضب أشد الفضب حين يعرف أن الأعداء قتلوا من جنده ، فحرصه على حياة المسامين كان يتساوى

مع حرصه على سلامته هو ، ولهذا أمر خالد بن الوليد « لا تظفروا بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونسكته به جهرة » .

وطالب عمر أكثر من مرة من أبي بكر أن يعزل خالد بن الوليد . . . قال له مرة « إن في سيف خالد رهقا وحق عليه أن يقيده » ، ولكن خالد كان موضع ثقة أبي بكر ، فأبى أن يعزله وقال لعمر « لا يا عمر ، ما كنت لأشيم سيفاً سأل الله على الكافرين » ، وكان أبو بكر يعرف أن خالد هو السيف الذي يضرب به أعداء الإسلام ، وهذا القول يسلط الضوء على ثقة القائد الأعلى بأحد رجاله ، ثقة لا تنزعزع لحادث ولا تهتز لرأى ولا تخضع لموقف ، ولسكنها ثقة مطلقة بلا حدود تبدو من قول أبي بكر « عقت النساء أن يلدن مثل خالد » ، وقوله « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ... واسمر بالليل في أصحابك » . . هذا التوجيه من أبي بكر يحمل معاني كبيرة ، فهو يريد أن تنمو العلاقات الطيبة بين قادة الجيوش والجند على مستوى العلاقات بين القيادة العامة والجند ، ولهذا فهو يدعو قائد الجيش إلى الترفق بالجند ، وإلى حسن الصحبة ، وإلى أن يقضى وقت فراغه معهم ، فإن ذلك يجعله قريباً من قلوبهم ، فيتملقون به ويرتبطون بقيادته ، وتزيد الصلة والثقة ، فإذا حان وقت الجند كانوا له الساعد والمضد .

وعلى طريق رسول الله عليه السلام سار عمر بن الخطاب حين ولى أمر المسلمين .

فمع بداية عهده بعث إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد أن وُلّاه قيادة الجيش الإسلامي في الشام بكتاب قال فيه « لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأناه ، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة » ، وفي هذا الكتاب إحساس بمسئولية القائد الأعلى تجاه جنده ، فهو المسئول الأول عن سلامتهم وأمنهم ، وهو ينقل بهذا الكتاب المسئولية كاملة إلى قائد الجيش ، وينير أمامه الطريق وبوضح له معاملة ويدعوه إلى المحافظة على الجند .

إن الخليفة يعلم أن الحرب نصر وهزيمة ، فإذا لحقت الهزيمة بالمسلمين في معركة فإن هذا لا يعنى النهاية ، ولسكن الهزيمة قد تساعد على نصر في المستقبل ، وإن الواجب أن يقف الناس بجانب الجيش إذا هزم ، وأن يقدروا ظروفه ، وأن يعينوه على إكمال المشوار ، وأن يشجعوه يأخذوا بأيديه ، ويخففوا من وقع الهزيمة ، ويدفعوه لمعركة يكون له فيها النصر ، وإن موقف عمر من هزيمة الجسر وبعاطفه مع الجنود دليل واضح على سلامة فكره ، وكان لموقفه هذا أعظم الأثر في ارتفاع روح القتال عندهم ، فأحرزوا في البويب نصراً أنساهم وأنسى المسلمين جميعاً هزيمة الجسر وما لحق بهم فيها من خسائر في الأرواح ، وكان موقف عمر مشجعاً ودافعاً لاستمرار الانتصارات الإسلامية فوق أرض فارس حتى تملكوها بعد أن وجد كسرى فارس قتيلاً في طاحونه ، وبعد أن قضى تماماً على كل قادتهم وعلى رأسهم رستم .

ولم يكن اهتمام الرسول وأبي بكر وعمر بالجند هو الأمر الظاهر في تاريخ

المدرسة العسكرية الإسلامية ، وإنما كانت هناك اهتمامات بالغة من جانب القادة على مختلف المستويات ، وكانت العلاقة بين القادة والجنود علاقة ود وحب واحترام وتقدير دعت إليها وحدة الهدف ووصايا الرسول وخلفائه من بعده ، فلم يكن هناك تباعد بين القادة والجنود ، وإنما كان هناك امتزاج روحى وعاطفى ، وانسجام فكري عقائدى ، ورابطة تقوم على الثقة والإيمان .

كان القادة يحرصون على سلامة الجنود .. لا يلقون بهم إلى تهلكة ، ولا يجبرونهم على أمر ولا يشددون في موقف ، ولا يتميزون عنهم في شيء ، يعيشون معهم ويقاثلون بجانبهم ويشاورونهم في الأمر ، لا فرق بين هذا وذاك إلا بمقدار الجهد والبذل والعطاء ، وعبر عن هذه العلاقة رجل من رجال المقوقس في قوله « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيقهم من وضعيهم ولا السيد من العبد » ، فلما سمع المقوقس هذا الوصف قال لأصحابه « والذي يخاف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد » ، وصفهم عمر في كتاب لسعد بن أبي وقاص فقال « الناس شريفهم ووضيعةهم في دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة » .

جاء رجلان من دهاقين الفرس هما مزدخ وفرناداذ إلى أبي عبيد ابن مسعود قائد الجيش الإسلامى في العراق ، وقدما له آنية فيها بعض الأطعمة

الفارسية ، وقال له « هذه كرامة أكرمناك بها ، وقرى لك » ، فسألها أبو عبيد « أأكرمتم الجند بمنزله وقرىتموهم ؟ » ، فأجاباه « لا لم يقيسنا لنا ونحن فاعلون » ، فاعتذر عن تناول الطعام ورده ، لأنه لا حاجة له فيما لا يسمعه ويسمع جنده ، وقال « لا حاجة لنا فيه » ، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم ، وأهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوها ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثلما يأكل أوساطهم » ، هكذا أبى أبو عبيد قائد المسلمين أن يكرمه أعداؤه بشيء لا يكرم به إخوانه الجنود ، فهم قد خرجوا معه معاهدين الله على البذل ، وليس المجال مجال تمييز أو مجال ألقاب ورناسات ، ولكنه مجال جهاد يتساوى فيه الجميع ، فهم كلهم أخوة على قدم المساواة ، لا فرق بينهم ولا تمييز لأحدهم ، بهذا نزلت آيات الكتاب الحكيم ، وبهذا قال الرسول الكريم ، فما يحجب عن الجند يحرم على القائد ، وما يستميجه القائد لنفسه يباح لجنده .. وهكذا كانت العلاقة بين القائد وجنده مظهرا من مظاهر الأخوة والزمالة والمشاركة .

ولعلنا نذكر في هذا المجال ما كان عليه الحجاج بن يوسف الثقفي من شدة وقسوة على جنده ، فقد كان يأخذهم بالشدة حتى من ولى منهم منصب القيادة ، وكان على حد قوله في رسالة إلى أحد قاداته « لاني أرى أن آخذ الولي بالولي والسمي بالسمي » وقد اشتهر بأنه أساء إلى كثير من رجاله ، وأنه كان شديدا حتى في موضع اللين ، عجبولا متسرعا مع قاداته ، جريئا على أقدار الرجال ، محبا لسفك الدماء ، فحاشا سبابا ويصف نفسه فيقول « أنا لجوج حسود حقود ذو قسوة » ، من أجل هذا كرهه جنوده ، وبدا هذا

واضحاً في ثوراتهم المتعددة ضده ، كثورة شبيب ، وثورة مطرف بن المغيرة ،
وثورة عبد الرحمن بن الأشعث .

والحجاجة في التاريخ الإسلامى كان صورة شاذة لم يكن له شبيهه ، نسى
أو تناسى منهاج القرآن ومنهاج الرسول ومنهاج الخلفاء ، فيما يجب أن تكون
عليه الصلة والعلاقة بين القادة والجنود .. إنه بسلوكة يعتبر نشازاً في تاريخ
المدرسة العسكرية الإسلامية ، رغم أنه كان صاحب فضل لا ينكر في اتساع
رقعة الدولة الإسلامية في عهد الحسك الأموى ، فقد تم خلال ولايته فتح
بلاد الختل ونيزك وخوارسان وبخارى وخوارزم وسمرقند ، ووصلت فتوحاته
إلى بلاد الهند والصين .

إن المدرسة العسكرية الإسلامية قد نهت الأجيال العسكرية التى جاءت
بعدها إلى أهمية خلق صلة قوية راسخة بين القائد وجنده .. فالقائد وحده
مهما بلغ من مراتب الفن العسكرى ، ومهما كانت قدراته وإمكانياته
لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يكسب ثقة رجاله ، وإذا لم يشعر رجاله بأن
مصالحهم وحياتهم مصونة بين يديه .. إذا كسب القائد ثقة رجاله وارتبط
بهم ، فإنه يمتلك رصيذا لا يقدر وقوة لا تقهر .

إن المدرسة العسكرية الإسلامية قد أقرت مبدأ هاماً وخطيراً في ذات
الوقت ، وقامت بوضعه موضع التجربة في حروبها المتعددة في مختلف عهودها ،
وأثبتت التجربة نجاحاً بعيد المدى ، وأصبحت العلاقة بين القادة والجنود هى
الأساس الذى تعتمد عليه المعركة ، فالجنودى الذى يخرج إلى الميدان وسلاحه

في يد ، وروح في اليد الأخرى يواجه الموت فلا يخافه ويبقى الأحوال فلا يخبث ، لأن قائده موضع ثقة وهو يؤمن به ويرى فيه المثل والقُدوة ... والقائد الذي وضع كل آماله في جنده يجمعه وإياهم هدف سام وغاية نبيلة وتحيط بهم جميعا زمالة في الدين وأخوة في الله يخوض المعركة معتمدا عليهم واثقا بهم متأكدا أنه بهم سيجتق النصر وسيكسب المعركة ، بفضل تعاون الجميع وتضامنهم ، وبفضل الملاقة الطيبة التي ألفت بين قلوبهم ، ووحدة أفعالهم ، وقاربت بين مشاعرهم ومشاربهم .

بهذا آمنت المدرسة العسكرية الإسلامية .

وبهذا أيضا آمنت من بعدها المدارس العسكرية الأخرى .

وفي سجلات الحروب التي قامت بعد الإسلام تثبت هذه الحقيقة ، فكل القيادات على مختلف مستوياتها كانت تقترب إلى الجند ، فيتخلق نوعا من الصداقة ، وتعيش بين صفوفهم تتحدث إليهم ، فتوجد نوعا من الإطمئنان البقسي يجذب الجند إلى قادتهم ، فيرتبطون بهم ، ويدرك القادة حينئذ أنهم أصبحوا قريبين إلى قلوب جنودهم فيسهل قيادهم .

هكذا فعل نابليون ... فقد حرص على أن تجمع بينه وبين جنده روابط قوية تقوم أساسا على الثقة المتبادلة .. ومن أعظم ما سجله له تاريخه الحربى الحافل أنه استطاع أن يغزو سهول لمبارديا بجيش من الحفاة العراقية ، وكان العامل الرئيسى فى نجاحه وإنتصاره هو علاقته بجنده .. خاطبهم عند مسيره بهم إلى إيطاليا فقال « إني أراكم محتاجون إلى الكثير مما تستحقون (٣٤ - المدرسة الإسلامية العسكرية)

وها أنذا على رأسكم ، أسير بكم إلى المواطن التي تكسبكم العزة والفخر والغنيمة » ، وخاطب يوماً أمته فقال متحدثاً عن جيشه « لا ريب في أنني أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال » ... وتاريخ نابليون يروي كيف ارتبط به الجندي الفرنسي ، وليس أدل على ذلك من أنه حين هرب من الأسر وعاد وحده إلى فرنسا خرج الجيش الفرنسي كله يرحب به ويخدم تحت لوائه وهو يهتف من أعماق قلبه « يحيا الإمبراطور » .

وهكذا فعل روميل ثعلب الصحراء وبطل فرق البانزر الألمانية ، فقد ظل يحارب قوات بريطانيا في الصحراء الغربية سنتين كامنتين معتمداً على فوقتين مدرعتين فقط ، دون أن تستطيع دولته إمداده بالمزيد ، ومرجع ذلك — مع كثرة انتصاراته التي بهرت العالم في حينه — هذه الرابطة القوية التي جمعت وجنوده ، كانوا يرون فيه قائداً لا يبارى ، وكان يرى فيهم جنداً عباقة ، كانوا يرون النصر في ركابه ، وكان يرى هزيمة عدوه في شجاعتهم ... كانوا يفخرون بقيادته لهم ، وكان يعتز بهم كجنده ، وبغاثير هذه الوشائج النفسية التي جمعت بينهم اندفعوا جميعاً لنصرة دولتهم ، لحققوا معجزات اعترفت بها كل دول العالم وكل رجالات الحرب ، وكل مؤرخي هذه الفترة من تاريخ العصر الحديث ، حتى أصبح وأصبحوا أسطورة في حرب الصحراء .

وهكذا فعل مونتيجمري قائد الجيش الثامن الذي قهر في العامين وما بعدها جيوش المحور .. كان مونتيجمري يؤمن بالجند وبأهميتهم ، ولهذا تقرب إليهم وعاش بينهم ، وأوجد صلة قوية بهم فأحبوه وتعلقوا به ، وكان ذلك

وراء انتصارهم في حرب الصحراء الغربية .. قال في مذكراته « إنني كنت أتحدث مع جنودى كلما أمكن ذلك » ، وقال أيضاً « إن المعارك تكسب أولاً وبصفة رئيسية في قلوب الرجال » ، وذكر أنه حينما وجد ثقة الجنود في قادتهم قد تلاشت نتيجة للهزائم المتوالية التي لحقت بهم ، سعى أول ماسعى لدى توليه قيادة الجيش الثامن إلى خلق نوع من الترابط والصلة النفسية بينه وبين جنده ، ونجح في مسعاه ، فتولدت الثقة من جديد ، وكان لها أثر بالغ في انتصاره في العلمين وما بعدها .

وعلى الجانب الآخر لوحظ خلال الحرب العالمية الأولى أن السيردوجلاس هيج كان لا يميل إلى لقاء جنده .. كان لا يتحدث إليهم ولا يقترب منهم ولا يستمع إليهم ، ولا تربطه بهم إلا الأوامر ، فبعدت الشقة بينه وبينهم ، وتقد البعد صلتهم به ، وكان منهم كثيرون لا يعرفونه ، وتداعت الصلة بينهم ، وفقدت الثقة فيه تماماً ، وأدرك أحد ضباط أركان حربه خطورة هذا الأسلوب فتحدث إليه ، وطلب أن يلتقى بالجنود ، وأن يقترب إليهم ، وأن يخلق جواً من التعارف والألفة بينه وبينهم ، ليعرفوه عن كثب وليعرفهم هو أيضاً ، فتمهذه المعرفة إلى تواجد جو من الثقة المتبادلة للمشاعر والأحاسيس .

ونحنم حديثنا في هذا الموضوع فنذكر ما قاله الدكتور لوك وهو يتحدث أولاً عن الشخصية « الشخصية هي المدى الذي يذهب إليه الفرد في تحويل كفاءته وضروب نشاطه إلى عادات وأعمال من شأنها التأثير بنجاح في الغير » .

ونذكر ما قاله ثانياً في وصف القائد الناجح « إن القائد الناجح هو الذي يفكر في جنده ويهتم بهم ويتعاطف معهم » .

إذن ألم تكن المدرسة العسكرية رائدة ؟

نعم لقد كانت

وستظل . . .

[٣] روح القتال

تأتى روح القتال فى مقدمة العوامل التى يترتب عليها نجاح الحرب وكسب المارك . . وروح القتال تشمل صفات الجند وأخلاقهم ، وحسن انتظامهم وشجاعتهم ، وإخلاصهم وقوة احتماهم ، وقدرة قادتهم وكفاءتهم ، وإيمانهم بأحقية الغرض الذى يحاربون من أجله .

وبما لاشك فيه أن روح القتال هى العامل الهام فى المعركة ، فالعدد والسلاح لا يقومان مقام الشجاعة والإقدام والرغبة فى إحراز النصر . . . وتوافر روح القتال هى التى تجعل الفرد يقدم على الحرب بعزيمة الرجال وقوة الأبطال .

وروح القتال تعنى الروح المعنوية .

ولقد ذكر الماريشال مونتيجموى فى كتابه « تاريخ الحروب » « إن أعظم عامل عن العوامل المؤدية إلى تحقيق النجاح هو روح المقاتل . . إنه لأمر هام وجوهري أن يفهم المرء أن المارك إنما ، تكسب أولا وقبل كل شىء فى قلوب الرجال » .

والإنسان يملك طاقة روحية لانفاد لها يستطيع أن يوجهها إلى نصرته الحق والدفاع عنه ، وهى دون شك أمضى من كل سلاح مادي ، ولهذا

فقد اهتم الإسلام بأن يسير الإعداد الروحي للمقاتلين جنباً إلى جنب مع الإعداد المادى .

ولقد جعل الإسلام من جهاد النفس وتسلحها بفضائل الأخلاق جهاداً أكبر ، وهو فى ذات الوقت أساس قوى لجهاد الأعداء بالسلاح ، وهو فوق هذا الضمان الأكيد لإحراز النصر فى أية معركة ، وفى هذا المعنى كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص « إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيمة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليكم من عدوكم ، وإما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنابهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ، ولا عدتنا كمعدتهم ، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة » .

والخلاصة فى رسالته يأمر جنده بتقوى الله ، لأنها القوة الروحية التى تعد أقوى وأمضى سلاح ضد العدو ، وأعظم مكيمة فى الحرب ، فهى دليل الإيمان بالله ، وبرهان الثقة بالنفس ، ولا يهزم جيش سلاحه الإيمان ودرعه الثقة ، والإيمان والثقة عماد الروح المعنوية ، وهما نقطة البداية فى روح القتال ، ولقد سعى الإسلام إلى أن يدعم فى نفوس رجاله فكرة الثبات على المبدأ أو الثبات على الحق ، فالمسلمون لم يخوضوا معركة مع أعدائهم إلا من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولم يلقوا فى ذلك المشقات وقامت فى طريقهم العقبات ، فلم يفقدوا إيمانهم بحقوقهم وبمبادئهم وبمثلهم ، ومن هنا نصرهم الله فى مواطن

كثيرة بفضل إيمانهم بأنهم على الحق « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وأشار تعالى إلى فضيلة الثبات على الحق في قوله ، وقوله الصدق « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » .

وبذات المدرسة العسكرية الإسلامية جهداً كبيراً لخلق الرجاء في الله عند المسلمين . . والرجاء يقارنه عمل متواصل شاق في سبيل ما يسعى إليه الإنسان ، ولهذا يكون الرجاء دافعاً إلى العمل الإيجابي ، فيه تحيا القلوب وتدرك قيمة النصر فتسعى إليه وتحققه .

والصبر سلاح يقسح به المجاهد المقاتل ، فهو أمضى سلاح ضد قوى البغي والعدوان ، وقد قيل إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ويقول الله تعالى في محكم آياته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وفي هذه الآية يوضح تبارك وتعالى للمسلمين أربعة مبادئ يجب أن يتحلى بها الجندي المسلم هي الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ، وهي من أجل وأطهر الصفات التي تقوم عليها روح القتال ، وفي ذلك يقول تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

في بدر استقبل الرسول القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشده ما وعده وأخذ يردد « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولاك . . اللهم فنصرك الذي وعدتني » ، وهذا الاتجاه إلى الله عرفه كل مسلم مقاتل حق المعرفة ، إذ آمن بأن هناك وعداً من الله تبارك وتعالى ، لنصرته ومؤازرته ، ولهذا كان يدخل المعركة معتمداً على الله وهو يردد في

إيمان مطلق بالله قول رسوله الكريم «والذى نفس محمد بيده لا يقاثلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» .

لقد كان كل مسلم يؤمن بأن لله إرادة في أن يرتفع العالم إلى السكال وأن تُنقذ الإنسانية المحطمة المنهارة وأن تسمو القيم الأخلاقية ، وكان الطريق إلى تحقيق هذا الهدف هو أن يسعى الجندى المسلم إلى إبلاغ رسالة الله ، فإن قبلها المبلّغين حفظوا أنفسهم وحياتهم ، وإن أبوا إلا أن يطفئوا نور الله ، فإن واجههم كجند الله وقوته أن يجاهدوا حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .. إذن فواجب الجهاد هنا مرتبط بإرادة الله ووثيق الصلة بها .. والقدرة على الجهاد في سبيل الله مرتبطة بالإيمان ووثيقة الصلة بالعقيدة .

في ضوء هذا المعنى استهان المسلمون بالموت في كل موقعة خاصوا غمارها ، بل كان الواحد منهم يحرض على الخروج ويسعى إليه أملاً في الشهادة ، ولم تسكن قلوبهم بمعجزة إياهم عن مواجهة قوى أكبر وأخطر ، لأنهم كانوا يملكون قوة لا تقهر هي قوة الإيمان .

بهذه القوة حمل المسلم عبء الدعوة إلى دين الله ، وواجه قوى ذات شأن ، وصبر في مواجهتها ، وأصر على أن يقطع الطريق إلى نهايته ، وساد الإسلام في عهد رسول الله الجزيرة ، وآمنت به كافة القبائل بعد معارك مريرة ثبت فيها الجندى المسلم بوحى من عقيدته ، والتصاقه القلبي والعقلي بربه ، وارتسكازاً على قوة الإيمان .

وبهذه القوة مع بداية عهد أبى بكر حمل المسلم عبء الدفاع عن الدين ضد مانعى الزكاة والمرتدين ومدعى النبوة ، ووقف شامخاً بإيمانه وصلابته في

خضم الأحداث حتى طواها ، وأعاد الهدوء والأمان والعقيدة والإيمان إلى الجزيرة كلها في كافة مواقعها وقبائلها .

وبهذه القوة وعلى إمتداد عهدي أبي بكر وعمر حمل المسلم عبء إبلاغ الرسالة ومواجهة المعارضين خارج الجزيرة ، مع اتساع رقعة أراضيهم ، ومع ما كانوا عليه من تطور لم تشهده الجزيرة ولم يكن للعرب منه نصيب ، والتقى في كافة البقاع أبناء البادية والخيـام بأبناء المدن والقصور في معركة فاصلة بين خير يراد وباطل يستباح ، وبفضل قوة إيمان أهل البادية سطعت أنوار الإسلام في تلك الربوع ، تنشر الحق والعدل والاخاء والمساواة تحت شعار « الله أكبر ... لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

بهذه القوة كان خالد يفتصر باسمه وكان عدوه يخشاه قبل أن يلقاه ..
بهذه القوة لمع نجم خالد كقائد عسكري لا يبارى ، وقد اندفع إلى بلاد العراق يطلا أرضها ويثـل عرشها ، وينتقل من نصر إلى نصر ، لا يهاب عدوه ، سيفه في يده ، وإيمانه في قلبه ، وثقة رجاله تحيط به ، وأمل المسلمين ينير له طريقه ...
في أليس مثلاً واجهه القائد الفارس جابان وهو من أخطر قادة الفرس بجيش كثيف ، فاستعرض خالد بحاسة القائد الملهم مشاعر جنده ، وأدرك أنهم مصرون على القتال في جلد وبأس ، يحدوهم الأمل ويدفعهم الرجاء ، فاتجه - وقد أخذ عليه ذلك شعوره وإحساسه - إلى ربه يستنصره ويمده ... قال « اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم » ، وخلال القتال تداعت قوة الفرس وانهارت ، ولم يملكوا قدرة المواجهة ، وتحطمت صفوفهم فوثأ الأديار أملا في النجاة ،

فنادى خالد رجاله « الأسر ... الأسر ... لا تقتلوا إلا من امتنع » ووقع في أيديهم أمرى كثيرون ، فصرّب خالد أعناقهم وجرى النهر بدمائهم .

إن خالداً الذى حقق أعظم الانتصارات فى تاريخ الإسلام ، وارتبط اسمه بكل معاركه ، تلقى أمر عزله وهو فى قمة مجده بروح إسلامية تعبر عن قوة الإيمان التى تتماسكه .. تلقى الأمر ومعركة اليرموك على أشدها فأخفاه حتى كان النصر . ثم دعا أبا عبيدة بن الجراح وسلمه القيادة ، وقال لحامل البريد الذى جاء إليه بأمر العزل « بلغ أمير المؤمنين أن من حقه أن يعزلنى عن القيادة ، ولكنى لا يملك أن يجردنى من سيفى ، فسأظل حاملاً هذا السيف فى خدمة أمتى » ، وعاش خالد جندياً بسيطاً تحت إمرة أبى عبيدة ، يتلقى منه الأوامر وينفذها ، وحاول البعض أن يدفع خالد إلى الاعتراض ، ولكن الاعتراض على رأى الحاكم أو والى خروج عن طاعة الله ومخالفة لأوامره ، والخروج والخلافة يمسان الإيمان ، وإيمان خالد أكبر من أن يواجه الخليفة فى حق يمسكه ، أو من أن يخرج عن طاعته فى وقت يواجه فيه الجند المسلم أعداءهم .. وبقي خالد جندياً يؤمر فيطيع بوحى من قوة إيمانه بعظمة الإسلام الذى يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص أو المواقف حساب ، ولا يعرف فيها الغل ولا الضغينة ، فالأشخاص فانون والأشياء زائلة والأحداث منقضية ، أما دين الله فخالد باقى لا يزول ، وهذا هو قوة الإيمان وذروته .

وبمراجعة معارك الإسلام ندرك أن قوة الإيمان - وهى روح القتال - سيطرت على أحداث هذه المعارك وكانت الدعامة الأولى فى تحقيق النصر .

ففي موقعة البويب تولى مهران الهمداني قيادة جيش الفرس وكان قائداً طموحاً ، فتقدم بقواته التي بلغت إثني عشر ألفاً ، وواجه المثنى في موقع يقال له بسوس قرب السكوفة ، وسمح له المثنى فعبر النهر الفرات واستعد الجانبان .. وكان المسلمون ما زالوا يعيشون ذكرى هزيمتهم في الجسر ، وكان المثنى يعلم ذلك ، فأخذ يمر بين الصفوف ويقول لهم « إني لأرجو ألا تنقوى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم شيء لنفسى وهو يسرنى لعامتكم » ، وأخذ ينشط الهمم ويقوى العزائم ويحرض على القتال ويدكرهم بالحروب والوقائع الماضية والفزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، ويضع أمامهم ما وعد الله به الشهداء من ثواب في دار النعيم ، وحدد المثنى ساعة الصفر وقال « إني مكبر ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة » ، ولسكن ميدان القتال هو ميدان المفاجآت ، فقبل أن تحين لحظة الهجوم العربي فوجى العرب بهجوم للفرس ، فاختمت لشدة المفاجأة وقسوة الهجوم صفوف المسلمين ، ولسكن المثنى القائد الواعى اليقظ تنبيه للأمر ، فبعث إلى بنى عجل وقد رأى خللاً في جبهتهم قائلاً « إن الأمير يقرئكم السلام ، ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » ، فاستجاب بنو عجل وشدوا مع باقي المسلمين ، ودار القتال عنيفاً قاسياً شديداً ، والمسلمون بقوة الإيمان راسعون كالطود ثابتون كالجبال ، لا يبالون بالموت ، بل هاجوا وثبتوا بكل العزم والجرأة والاستبسال والصمود ، وكان أكثر جهداً وأعظمهم بلاء هؤلاء الذين فروا يوم الجسر ، وكأنهم كانوا يكفرون بجهد اليوم عن خطأ أمس ... وانتصر المسلمون في البويب انتصاراً أنسام هزيمة الجسر ، وثأروا لقتلهم فقتلوا من الفرس عشرة آلاف .

وعندما تولى سعد بن أبي وقاص قيادة الجيش الإسلامي في العراق ، وجه كل عنايته إلى روح القتال ، فكان يستعين بجماعة من أولى الرأى ، كالمغيرة وعاصم بن عمرو وطليحة وعمرو بن معدى كرب ، وجماعة من الشعراء مثل الشماخ والحطيئة وعبد بن الطيب وقال لهؤلاء وهؤلاء . « انطلقوا فتوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فأنتم من العرب بالمسكان الذي أنتم به ... أنتم شعراء العرب وخطباءهم وذو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم ساداتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرصوهم على القتال » ، وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويثيرون المشاعر والعواطف ، ويؤكدون الرغبة في النصر أو الشهادة ، قال مثلاً الهذيل الأسدي « يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربدوا تربد النور ، وأدّرعوا العجاج ، وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار ، فإذا كَلَّت السيوف فأرسلوا عليها الجفادل ، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » ، وكمل آخر قال عاصم بن عمرو « يا معشر العرب ، لمنكم أعيان العرب ، وقد صدمتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً » ، وأمر سعد أن تقرأ آيات الجهاد في كل المواقع .

بهذه الروح خاض المسلمون موقعة القادسية وبهذه التهيئة الروحية انتصر المسلمون .

برزت في تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية أسماء قيادات تميزت بروح

القتال ، وكانت لها مواقف وأحداث ، ونحن تقدم هنا موقفاً لأحدهم كمثل صادق حتى ... دخل طليحة بن خويلد معسكراً للأعداء وحده ، وقتل إثنين من فرسانه وساق جواديهما وغادر المعسكر ، فلمحه جنود العدو ، وخرجوا وراءه ، فتصدى لهم وقتل منهم إثنين وأسر الثالث ، فارتد الباقيون ، وترك لأسيره يحكي لنا أحداث هذه المعامرة .. قال أسيره « باشرت الحروب منذ أنا غلام وسمعت بالأبطال فلم أسمع بمثل هذا ... إن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوتات ، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف ، ثم الثاني وهو نظيره ، ثم أدركته أنا ، وخلفت من بعدى من يعدلنى ، وأنا الشائر بالقتيلين ، فرأيت الموت ، واستؤسرت » .

لم تكن روح القتال متوفرة لدى المسلمين الأوائل فقط ، وإنما توارثتها الأجيال المسلمة جيلاً بعد جيل ، وبقيت روح القتال سائدة في جميع المعارك ومسيطرة على أحداثها .

فطارق بن زياد يخوض ضد أهل الأندلس معركة كبيرة وخطيرة في وادى بكّة ... كان جيش عدوه ستة أضعاف جيشه ، هكذا قال ابن بول وهو يصف جيش رذريق « إن جيش رذريق ستة أضعاف جيش المسلمين » ، وأرسل رذريق من يأتيه بخبر عن المسلمين فجاءه قائلاً « شهدت معسكر المسلمين ... لقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ماتحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصُفُّوا في السهل موطّنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب » ، واستمر القتال

بين الطرفين ثمانية أيام ، انتصر بعدها المسلمون إنتصاراً رائعاً ، فقد حاربوا بكل إيمان عميق وإخلاص مطلق وعتيدة راسخة وأمل كبير في الله ورغبة أكيدة في النصر . . . وكانت كلمات طارق أثرها القوي في إثارة المعنويات « لقد استقبلكم عدوكم بجيش كبير وأسلحة وقواته موفورة ، وأنتم لا ملجأ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه لكم من أيدي عدوكم . . . إني عند ملقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم وذريق قتاله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكتم بعده فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتم قبل وصولى إليه فاخلفوني في عزيمة هذه واحملوا بأنفسكم عليه » ، ووصف التماسانى في « نفع الطيب » وقع هذه الكلمات فقال « . . . انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح النصر عليهم » .

وكان لسيف الدولة دور كبير ضد الروم ، وكانت روح القتال عنده وعند رجاله استمراراً لروح القتال عند المسلمين الأوائل ، ووصف الحافظ الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » شجاعة جند سيف الدولة فقال « وأخذت عليه الروم الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة ، وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ، ودهدوها الصخور في المضائق على الناس ، والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ، ولا منفذ لسيف الدولة ، وكان معه أربعمئة أسير من وجوه الروم ، فضرب أعناقهم وعقر جماهم ، وظل يقاتل في نفر يسير قتال الموت حتى نجا » .

ووصف الثعالبي روح القتال في جيشه فقال « سار سيف الدولة لبناء قلعة عظيمه الشأن ، فجمع ملك الروم عظماء أهل مملكته وجهمهم بالهيايب

الأعظم وعليهم فردوس المستق في عدد لا يحصى ، حتى أحاطوا بمعسكر سيف الدولة ، وانهبت الحرب واشتد الخطب وساعت ظنون المسلمين ، ثم أنزل الله نصره ، فحمل سيف الدولة طالبا للمستق ، فولى هارباً ، وأسر صهره وابن ابنته ، وقتل خلق كثير من الروم « . . . ووصف المتنبى هذا الموقف فقال ...

سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي

ولقد سيطرت روح القتال الإسلامية بكل مقوماتها على المسلمين الذين واجهوا الحملات الصليبية على بلدان المشرق العربي ومصر ، فهزموهم شر هزيمة ، وأسروا ملكهم في مصر ، وطردوهم من البلاد التي كانوا قد وضعوا أيديهم عليها . . . والذين واجهوا حملات المغول والتتار فهزموهم هزيمة منكرة وأنقذوا ملك المسلمين وأرضهم وردوهم إلى خارج حدود الدولة الإسلامية .

إن المسلمين في كل عهودهم كانوا يلقون أعداءهم بقوة وعزم وتصميم وإيمان وعقيدة ووعى وشجاعة .. وهذه هي مقومات روح القتال .

وعلى الجانب الآخر لم تسكن الجيوش التي واجهت المسلمين على ذات المستوى ، فقد كانت تفتقد الدوافع النفسية والقوى المعنوية وروح القتال . . . افتقدوا هذا كله فخسروا المعارك ووصفهم خالد بن الوليد فقال « إنما أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب » .

[٤] — الالتزام بالخطوة

كان المقاتلون من المسلمين على مختلف مستوياتهم يلتزمون بالخطوة التي وضعها القائد الأعلى أو قائد الجيش، وكانوا يحرضون على تنفيذها دون تغيير أو تبديل فهذا من حق القيادة وحدها .

ولاشك في أن الالتزام بالخطوة يجعل الأهداف واضحة والواجبات محددة وخط التنفيذ معروف ، فيفهم كل فرد واجباته ومسئوليته وفي حدود الواجب والمسئولية يكون تصرفه .

في بدر خرج وجهاء قريش وزعمائها على رأس الخارجين يحرضون على قتال المسلمين وفي مقدمتهم أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ، وهما من أشد المشركين على المسلمين ، وكانت خطة المسلمين تلزمهم بأن يوجهوا همهم الأول بل الأكبر إلى رموس الكفر جزاء وفاقاً لما عذبوهم بمكة ولما صدوهم عن المسجد الحرام ولما أثاروا عليهم الناس والقبائل . . . والتزم المسلمون بهذا الخط ورأى بلال أمية بن خلف فصاح به « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » ، وقتله ، وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام . . . وقتل كثيرون من زعماء قريش .

ولعل هزيمة المسلمين في أحد ترجع أساساً إلى عدم التزام الرماة بالخطوة التي وضعها رسول الله ، وقد كانت أوامره عليه السلام واضحة « الزموا مكانكم لا تبرحوا مفه » ، وكان واجب الرماة محدداً يتركز في حماية ظهر المسلمين وعدم مغادرة الموقع نهائياً تحت أية ظروف وعدم الاشتراك في القتال في حالتي النصر والهزيمة « إن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم

فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا » ، وكانت مهمتهم الرئيسية كما حددتها الخطة هي إبعاد الخيل بالنبل عن أرض المعركة برشقها بالنبل « إنما عليكم أن ترشقوا خيالهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقبل على النبل » . . ورغم هذا الوضوح السكامل فإن الرماة لم يلتزموا بالخطة ، وخرجوا في واجباتهم عن الحد المقرر لها ، فعندما شاهدوا ثلاثة آلاف من فرسان قريش تتمزق أمام هجمات المسلمين قال بعضهم وقد استخفهم الفرح والطمع حين رأى المغانم التي خافتها قريش تزحم الجبل « لم تقيمون هاهنا في غير شيء ، وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغتموا مع الغانمين » ، وتنبيه أحدهم إلى خطورة هذه الدعوة فقال محذراً ومنبها « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم » ، ولم يستمعوا إليه وقالوا « لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » ، وترك الرماة مواقعهم إلا نفرأ دون العشرة ، ولمح خالد خلو الجبل ، وهو موقع استراتيجي هام ، فسكر ومعه عكرمة بن أبي جهل بالخيل ، وحمل على القلة الباقية من الرماة ، وقتلهم ، وتحجوات نتيجة المعركة إلى جانب قريش ، وقد كانت ملء أيدي المسلمين .

وفي الخندق اقتحم عمرو بن عبد ود الخندق ، ودعا الناس للمبارزة ، فتهيب كثيرون لقائه ، ولم يخرج إليه أحد ، فصاح فيهم قائلا « أين جناتكم التي تزعمون أن من قتل منكم يدخلها أفلا تبرزون لي رجلا ؟ » ، فقام إليه على ، ولكن الرسول منعه خوفاً عليه وقال « اجلس إنه عمرو » ، فأصر على وقال « وأنا على » ، فأدناه الرسول وقبله وعمه بهامته وخرج معه خطوات كالمدح له القلق عليه ، ثم دعا له وقال للقوم « الآن برز الإسلام كله للشرك

كله» ، ثم ناشد ربه « اللهم أعنه عليه . . اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » ، فلما التقى الإثنين قال عمرو « يا ابن أخى ، من أعمامك من هو أشد منك ، فإنى أكره أن أرى دماً ، وإن أباك كان صديقاً لى ، والله ما أحب أن أفقتلك » ، وكان هذا التحذير دعوة لعلى ليتجنب المبارزة ، ولكنه خرج أصلاً من صفوف المسلمين ليحقق هدفه وؤدى واجباً ، فكان لابد من أن يلتزم بهذا الخط ، ولهذا قال لعمرو « ولكنى والله أحب أن أفقتلك » . . وقتله .

وكانت خطة الرسول فى فتح مكة تقوم على أساس دخولها دون قتال . . ووضع رسول الله خطة الغزو ، فقسم جيشه إلى فرق يقودها رجال من المسلمين الأشداء ، وكان على جماعة الأنصار سعد بن عباد ، وسمع بعض المسلمين سعدا يقول وهو يقترب من مكة « اليوم يوم الملحمة . . اليوم تستحل الحرمة » ، وفى قوله هذا حرج عن الخط وعدم التزام بالخط ، وكان لابد من علاج سريع خوفاً من أن يعطو الأمر إلى شىء يكرهه رسول الله ، ونقل عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله قول سعد وقالوا « يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة » ، فأمر رسول الله بأن تنزع منه الراية ، وأن يتولى ابنه قيس المهمة بدلاً منه وقال « بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه السكبة . . اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » .

وعندما تلقى خالد أوامر أبى بكر وهو فى العراق بالتوجه إلى اليرموك ، رأى أن الطريق الذى يسلكه لا يصل به مباشرة إلى مواقع المسلمين ، (٣٥ - المدرسة الإسلامية العسكرية)

ولما يقوده إلى أماكن في يد الروم مما يضطره إلى قتالهم ، وهو بذلك يخرج عن الخط المقرر ، ويبعد عن الهدف المحدد ، مهمته أصلاً أن يصل بجيشه سليماً غير مجهد إلى مواقع المسلمين ، وأن يسهم معهم في قتال الروم ، وخالد قائد يعرف أن المهمة يجب أن تنحصر في تنفيذ الأوامر وتحقيق الهدف دون أن يعترض التنفيذ ما يخل بالهدف ، ولهذا دعا حذاق الأدلاء وسألمهم « كيف لي بطريق أخرج منه من وراء جموع الروم ، فإنني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . . والتزام خالد بالأوامر والتعليمات وحرصه على الهدف المحدد له يعنى في حروب اليوم « المحافظة على الهدف » ، وهو من المبادئ التي تحرص عليها القيادات العسكرية الحديثة .

وفي أواخر أيام أبي بكر طلب منه المثنى أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، ودعا أبو بكر عمر وأوصاه في أمر العراق « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إني لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبجن حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن فتح الله على أسراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل وولادة أسره وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » . . أبو بكر قبل وواته رسم للخليفة المنتظر الخط العريض لسياسته في العراق ، والتزم عمر بهذا الخط ، فما أن تولى الخلافة حتى ندب الناس إلى العراق « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك » . . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدهم الله في السكك أن يورثكموها ، فإنه قال : ليظهره على الدين كله ، والله مظهر دينه وممزر ناصره ومول أهله وموارث الأمم »

كانت الخطة العامة لمرض الإسلام على غير المسلمين تقوم على أسس ثلاث تبدأ بعرض الإسلام كدين ومبادئ ، فإن استجاب الناس وآمنوا أصبح لهم ما المسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن رفضوا دفعوا الجزية وعاشوا مع المسلمين لا يمسون بسوء ، وإن أبوا لم يعد سوى القتال ... هذه هي الخطة العامة التزم بها المسلمون ولم يخرجوا عنها أبدا في كافة مراحل حياتهم .

كتب خالد إلى هرمل يدعوهم إلى واحدة من ثلاث « أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة . وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وأرسل عمرو بن العاص إلى القوقس « ليس بيني وبينكم إلا إحدى خصال : فإما دخلتم في الإسلام فكنتم إخوانا وكان لكم مالنا ، وإما أبيتم فأعطيتم الجزية ، وإما جالدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وبعث سعد بن أبي وقاص وفدا يضم النعمان بن مقرن وفرات بن حيان والأشعث بن قيس وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمغني بن حارثة إلى يزدجرد ، وتحدث إليه المغيرة فقال « اختر إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » .

وفي عهد عمر ازدادت رقعة العمليات العسكرية الإسلامية ، وكان عمر مقيما في المدينة عاصمة الدولة ومقر القيادة العليا للجيش ، وكانت قيادات جيوشه قد بعدت عنه كثيراً ، وكان يخشى أن يتورط قادته في عمليات خاسرة تضر بصالح الإسلام والمسلمين ، لهذا طلب من قادة جيوشه أن

يكتبوا له دائماً في كل موقف ، حتى يكون في الصورة معهم وكأنه يمشي معهم في مواقعهم .. كتب بهذا المعنى إلى سعد بن أبي وقاص فقال « اكتب إلى جميع أحوالك وتفاصيلها .. كيف تنزلون .. وأين يكون منكم عدوك ... واجعلني بكتبك إلى كأنني أنظر إليكم واجعلني من أمركم على الجلية » ..

وكان عمر وهو في مقر القيادة بالمدينة يرسم الخطط في ضوء ما يبلغه من معلومات ، ويبعث بها إلى العراق ، فيلتزم بها السكافة ، ومن أمثلة ذلك « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة ، فتكون مسالكك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحبور والمدر » .

ومن أمثلة ذلك « إذا كمال يوم كذا ، فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القواديس ، وشرق بالناس وغرب بهم » .

ومن أمثلة ذلك « إن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إ شاء الله ، وإنه قد ألقى في روعي أنفسكم ستهزمونهم فلا تشكن في ذلك » .

ومن أمثلة ذلك « سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في إثني عشر ألفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك ، وعلى ميمنته مسعود بن مالك ، واجعل على الساقة عمرو بن مرة الجهني » .

ولم يقتصر توجيه عمر على سعد وحده ، وإنما شمل كل قادته .. كتب إلى الحارث بن يزيد العامري في شأن أهل هيت « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخذق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من أرى » ... وكتب إلى عقبة بن غزوان « إني قد استعمايتك على أرض الهند ، وهى حومة من حومة العدو ، أدع إلى الله فن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية وإلا فالسيف » . وكتب إلى أبى موسى الأشعري « مر بأهل البصرة إلى ماه ، والأمير النعمان بن مقرن » .

كان عمر يضع لقادته الخطط ويبلغهم بها ، وكان القادة على مختلف مستوياتهم يرتبطون بهذه الخطط ، ويعملون فى حدودها ، ويلتزمون بالخط الذى رسمه لهم .

ولما حان الوقت الذى خرج فيه المسلمون عن الخط العام للإسلام ولم يلتزموا به ، اختلفت بهم الطرق وانقسموا على أنفسهم ، وقامت الخلافات وظهرت الطوائف والشيعة ، واندلعت نيران الحروب بينهم وهان أمرهم ، وتجرات على الدولة الإسلامية دول ما كانت لتتجرأ لولا ما وجدتها عليه من فوضى وانقسام وتنازع .

* * *

ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن الخطة ذاتها

ونحن نعرض مجموعة من المخططات العسكرية الإسلامية ، ولعل القارئ الكريم من خلال الاطلاع على هذه المخططات ، مع استرجاع للدراسات التى

شملت صفحات سابقة من الكتاب ، يقف على حقيقة تاريخية ذات شأن ، وهى أن العسكريين الإسلاميين كانوا يضعون خطط القتال على أسس سليمة وقواعد صحيحة ، وبمهارة وعلم وحسن إدراك وفهم ، وأن الخطط كانت تتلاءم مع الموقف وتتفق مع الظروف وتناسب مع طبيعة العدو .

فى عهد رسول الله كان عليه السلام يتولى قيادة الجيش الإسلامى ، وكانت العمليات الحربية كلها عمليات محلية أى قاصرة على داخل الجزيرة ، ولهذا كان رسول الله هو المسئول عن وضع الخطط .

فى بدر كانت خطة المسلمين أن يقتربوا قدر الإمكان من ماء بدر - حسب ما أشار به الحباب بن النضر - ويضعوا أيديهم على الماء فيستغلوه لصالحهم وخدمة أغراضهم ، ويمنعوه فى ذات الوقت عن عدوهم ، فإذا حاول الوصول إلى مواقع الماء تعرضوا له ومنعوه وقتلوه ، وقد أصر الأسود ابن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلاً شرساً سىء الخلق - على أن يشرب من الماء وقال « والله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته أو لأموتن دونه » ، فلما خرج فى اتجاه الماء تعرض له حمزة ، وضربه فأطن قدمه بنصف ساقه ، فوقع على ظهره ، ثم حبا إلى موقع الماء حتى اقتحمه ، فقتله حمزة .

ويتلاحظ أن الماء كان العامل الرئيسى الذى تحكم فى خطة القتال فى بدر ، والمركة تدور فى أرض صحراوية لا ماء فيها إلا فى مناطق محددة ، والماء فى مثل هذا الموقع وهذه الظروف هام وجوهري ، يغتسل به المقاتل ، ويشرب منه ويستقى خيله وإبله وهى أسلحة القتال التى يرتكن عليها فى التحرك والقتال ، ومنع الماء عن العدو يسبب له مشاكل كثيرة ، ومتاعب متعددة .

تخلق عنده اضطراباً نفسياً . . والحرص على الماء كان له دور في حرب الحيرة ، فقد سبق هرمز خالد بن الوليد إلى موقع الماء هناك لينزل خالد بجنده على غير ماء ، فقال خالد لرجاله « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فاعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » ، وحتى يكون الماء في أيدي جنده فقد استمدوا من إيمانهم قوة ومن يقينهم عدة ومن أرواحهم أسلحة وجالدوا عدوهم على الماء ، حتى انتزعوه .

وفي أحد كان وضع الرماة جزءاً من الخطة ، فقد قامت الخطة أساساً على الاستفادة من طبيعة الأرض ، فالجبل وهو جزء من أرض المعركة يشكل مانعاً يمنع المسلمين من عدوهم ، فلا يهاجمهم من الخلف ، هذا فوق أنه مرتفع يشرف على أرض المعركة ، ومن يسيطر عليه يتحكم فيها ويسقطيع أن يستخدم سلاحه - وهو لدى المسلمين النبل والرمح - بحرية وقدره وفاعلية

وقامت خطة الدفاع في موقعة الأحزاب على أساس تحطيم صيغة التحالف القائم ضد المسلمين ، ولعب نعيم بن مسعود دوراً رائعاً في هذه الموقعة ، وإليه يرجع فضل تحطيم صيغة التحالف ، فقد أتى رسول الله وقال « يا رسول الله ، إني قد أسأمت ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمرني بما شئت » له « نما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من من بقائك معنا ، فاخرج فإن الحرب خدعة » ، وأتى نعيم بن قريظة وقال لهم « إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبنائكم

ونسأؤكم ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخالوا بينكم وبين الرجل ، فلا طاقة لـكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم » ... ثم أتى قريشا وغطفان وقال لهم « تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرصيك أن تأخذ من قريش وغطفان رجالا وسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، ثم نسكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم » ... وطلبت قريش وغطفان من بنى قريظة أن يعدوا أنفسهم للقتال غدا - وكان يوم السبت - فاحتجوا بذلك ، ثم طلبوا الرهن « لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإننا نخشى إن ضررستم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشعروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به » .

واختلفت كلمة الأحزاب وانعدمت الثقة وافترقوا ونجحت الخطة .

وفي غزوة الفتح وضع رسول الله خطته على أساسين هما دخول مكة من جميع جهاتها ثم دخولها دون قتال ، فقسم عليه السلام جيشه إلى أربعة أقسام ، وحدد لكل قسم واجبه ومسئوليته ، فجعل الزبير على الجناح الأيسر وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وخالد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخلها من أسفلها ، وسعد بن عباد على أهل المدينة (الأنصار) ويدخلها من الغرب ، وأبا عبيدة على المهاجرين ويدخلها في حذاء جبل همد ... وبذلك تمحقق الأساس الأول من الخطة ، أما الأساس الثاني فقد تم بعزل سعد بن عباد .

وتمت الخطة فعلا كما أرادها الرسول إلا في جبهة خالد ، إذ تعرض له عدد من قریش فيهم سهيل وعكرمة وصفوان ، ودار قتال قصير فر على أثره الثلاثة ، وتسأل رسول الله « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » ، فقال المهاجرون « نظن أن خالدا قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل ، وما كان يارسول الله ليصيبك ولا ليخالف أمرك » ، وسأله الرسول « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ » ، فقال « هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل وقد كففت يدي ما استطعت » ، فقال الرسول « قضاء الله خير » .

ومع بداية عهد أبي بكر قامت الفتنة في الجزيرة العربية ، وكان لابد من مواجهتها والضرب على أيدي القائمين بها ، وإعادة الأمور إلى نصابها ، وأحس الناس جميعا بالمسؤولية التي ألقتها المقادير على عاتقهم بعد وفاة الرسول ، فاجتمعوا وراء أبي بكر لمواجهة الفتنة ، واستقر الرأي على قتال ما نعى الزكاة من عبس وذبيان وبنى كنانة وغطفان وفزارة ، وعلى مدعى النبوة طليحة ابن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة الحنفي ، وعالج أبو بكر الموقف على مرحلتين ، فبدأ بقتال ما نعى الزكاة وهزمهم في ذي القصة ، ثم ابتدأت المرحلة الأكثر حرجا وهي مرحلة قتال المرتدين ، وأعد أبو بكر أحد عشر لواء وحدد لكل لواء مهمته ، ووضع خطة تعاون هذه الألوية (سبق الإشارة إلى هذه الألوية وأهدافها وقيادتها) ، وترك أبو بكر لقادة الألوية حرية التصرف العسكري في ضوء الظروف والاعتبارات ، وبذلك أعطاهم الصلاحية السكاملة للعمل وتحقيق الأهداف ... ولقد حققت كافة الألوية مهمتها ، ولا تتسع صفحات الكتاب للحديث عن عمل كل لواء ، ولهذا فنحن نعرض

للأعمال اللواء الأول الذى تولى قيادته خالد بن الوليد ، لنؤكد على حقيقة هامة، وهى الالتزام السكامل وحسن التخطيط والتنفيذ طبقا للهدف الاستراتيجى للدولة الإسلامية فى حينه .

كان اللواء الذى عقده أبو بكر لخالد هو أئمنع الأئوبة وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار ، قال أبو بكر « ياخالد ، عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواء والجهاد فى سبيله فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار » .

تحدثت مهمة خالد بقتال طليجة بن خويلد ، فإذا فرغ منه قاتل مالك ابن فؤيرة ، وكان بنو أسد (قوم طليجة) وبنو تميم (قوم مالك) هم أقرب المرتدين إلى المدينة وأشدهم وأقواهم ، ولهذا اختير خالد لمواجهةهم ، ولا عجب لخالد بطل الإسلام وسيفه ، حليف الحروب وصنديدها ، بطل المعارك وفارسها .

نزل طليجة مع رجاله على ماء يسمى الغمر ، والتقى الجيشان فى ساحة المعركة وجها لوجه ، وأراد عدى بن حاتم أن يجعل قومه فى المقدمة وقال « يا أبا سليمان ، اجعل قومي مقدمة أصحابك » ، ورأى خالد أن يجعل فى المقدمة المهاجرين والأنصار ، لأنهم قوم صبر وثبات ولهم سوابق ، وهو عالم بأحوال الرجال وشأن الجند فى حومة الوغى ومنزلة أهل العقائد والإيمان فى الإقدام والحرص على الموت فى سبيل الله ، فقال لعدى « يا أبا طريف ، إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك ، فإذا لحقهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا ، ولسكن دعى أقدم قوما صبرا لهم سوابق وثبات وهم من قومك » .

وجمع خالد القوم وتدارس معهم الموقف ، ودفع بلواء الجيش إلى زيد
ابن الخطاب ، وبلواء الأنصار لثابت بن قيس ، وفوجي المسلمين بطليحة
يحمل عليهم بكتيبة خاصة قوامها أربعون غلاماً جليداً ، فانكشف المسلمون
واختلطت صفوفهم ، فصاح خالد « يامعشر الأنصار ، الله ، الله » ،
وتقدم بفروسه إلى المقدمة ، يضرب بسيفه ، وروى الكلبي أنه لم يرجع من
هجمته إلا بعد أن قضى على الأربعين الذين كانوا في الكتيبة ، وقال إنه
قاتل يومها بسيفين حتى قطعهما . . . واتسع نطاق القتال بين جند الإسلام
وجند طليحة ، انتصر المسلمون وانكشف عن طليحة شيطانه ، وسقطت رايته
ووطأتها الإبل والخيل والرجال ، فلما رأى ما حلّ برجاله من القتل والأسر ،
وثب على فرسه وحمل وراءه امرأته النوار ، وقال لأصحابه « من استطاع أن
يفعل هكذا فليفعل » ، وهرب بها إلى الشام .

وبدأت الجولة الثانية ضد مالك . . وتردد رجال من لوائه أن يسيروا معه
فقال لهم « هذا مالك بن نويرة بجيالننا ، وأنا قاصد له بمن معي من المهاجرين
والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » ، وسار إلى البطاح ، وتخلف
الأنصار ولسكنهم تشاوروا في الأمر وقرروا اللحاق به ، وكانت انتصاراته
على طليحة قد بلغت مالك ، فأمر رجاله بالتفرق وقال لهم « يا بني يربوع ،
إننا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فوجدت أن
الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة
قوم قد صنع لهم تفرقوا إلى دياركم وأدخلوا في هذا الأمر » ، ولم يجد
خالد أحداً بالبطاح ، وألقى جنده القبض على نفر من بني يربوع منهم مالك ،
فأمر خالد بقتله .

وأمد أبو بكر خالدًا بمدد، وأمره بالسير إلى حيث مسيلة الكذاب باليامة
وكان مسيلة رجلاً صاحب ذكاء وفيه خبث ومكر ودهاء واقتدار على
الاحتيال، واستطاع أن يجمع أربعين ألفاً من رجاله بعقرباء في طرف اليامة،
ووضع خالد خطته على أساس استعمال الحرب الباردة أولاً ثم السيف، فبعث
زباد بن لبيد بن بياضة الأنصاري — وكان صديقاً لحكم بن طفيل سيد
أهل اليامة وحليف مسيلة — لعله ينجح في كسبه إلى صفه وقال له « لو ألقيت
إلى محكم شيئاً تكسره به » ، فكتب إليه بعض أبيات من الشعر قال
له فيها ...

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| يا محكم بن طفيل قد أتيج لكم | لله در أبيكم حية الوادي |
| يا محكم بن طفيل إنكم نفر | كالشاة أسلمها الراعي لآساد |
| ما في مسيلة الكذاب من عوض | من دار قوم وإخوان وأولاد |
| فا كف حنيفة يوماً قبل نائمة | تنعى فوارس شاج شجوها باد |
| لاتأمعوا خالداً بالبرد معتجراً | تحت العجاجة مثل الأغصف العادي |
| ويل اليامة ويلا لافراق له | إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادي |
| والله لانتثنى عنكم أعنتها | حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد |

ورفض محكم الدعوة واندفع يحرص الناس على قتال المسلمين « يامعشر
أهل اليامة ، إنكم تلقون قوماً يهزلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسهم
دون صاحبكم ، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف ،
فكانوا كالنعام الشاردة » .

ولم ييأس خالد فلجأ إلى عمير بن صالح اليشكري - وكان قد أسلم وكنم إسلامه على قومه - وكان قوى العقيدة راسخ الإيمان ، وقال له « تقدم إلى قومك فأكسرهم » ، فأنام ولم يكونوا علموا بإسلامه ، وقال « يامعشر أهل اليمامة ، أظلمكم خالد في المهاجرين والأنصار ، تركت القوم يقتابعون إلى فتح اليمامة ، وقد قضوا وطراً من أسد وغطفان وعليها هوازن ، وأنتم في أكفهم ، وقولهم لا قوة إلا بالله ، إنى رأيت قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر ، وإن غلبتموهم بالمعدد غلبوكم بالمدد ، ولستم والقوم سواء ، الإسلام مقبل ، والشرك مدبر ، وصاحبهم نبي وصاحبكم كذاب ، ومعهم السرور ومعكم الغرور ، فالآن والسيوف في غمده والنبل في جفيره (جمعة من الجلد أو الخشب) قبل أن يسيل السيوف ويرى بالنبل ، سرت إليكم مع القوم عشراً فأكسرهم »

ودفع خالد ثمامة بن أثال الحنفي ليؤدي ذات الدور مع قومه ، فسار إليهم ودعاهم إلى الاستسلام ، قال لهم « إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لاني بعدد ، لاني مرسل معه . . لقد بعث (يقصد أبا بكر) رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له « سيف الله » معه سيوف كثيرة ، فانظروا في أمركم » .

وبدأت مرحلة القتال ، فقسّم خالد جيشه إلى ميمنة عليها أبو حذيفة عتبة ابن ربيعة ، وميسرة عليها شجاع بن وهب ، وجماعة الأنصار عليهم ثابت بن قيس ، وجماعة المهاجرين وعليهم زيد بن الخطاب ، وجعل البراء بن مالك على الخيل . . وبدأ القتال واشتد ، وحى الوطيس ووقع القتلى من الجانبين ، واختلط الناس ولم يعرف الفرار من السكرار ، وشن خالد حملة عنيفة وحمل

معه المسلمون ، فجميع رجال مسيحية في حديقة له فهاجمهم المسلمون ، وقتلهم حتى سميت الحديقة من كثرة القتلى بحديقة الموت ، وانفرط عنه الرجال وانحلت عزائمهم ، ووهنوا أمام المسلمين فنفر قوا .

قلنا إن أبا بكر كان يطلق يد القادة في وضع الخطط وتنظيم الجيش ، ولم يتدخل أبداً في شئون المعارك ، ولم يفرض على أحد من قادته خطة معينة أو وأياً محدداً ؛ وإنما كان ينصح ويدعم العون ويدعو بالتوفيق ، وأمله اتخذ هذا الأسلوب لأن جيوش الشام لم تكن قد بدأت معاركها ، ولأن جبهة العراق يتولّاها خالد وهو محارب له منزلته ومكانته وفكره العسكري وقدرته على القيادة وشجاعته في المواجهة .

أمر أبو بكر خالدا بأن ينضم إلى قوات الشام ، وفي اليرموك تدارس الموقف ، ورأى الروم قوة واحدة وجبهة صلبة وقيادة واحدة ، بينما كان المسلمون بأربعة جيوش بأربعة قيادات ، كل قيادة تتصرف طبقاً لما تراه دون تعاون بين الجيوش كلها ، فوضع خطة عمل تقوم على أسس ثلاثة ...

• تعاون جميع الألوية في جبهة واحدة .

• توحيد القيادة في شخص واحد يأتمر بأمره الجميع .

• تكون المبادأة للمسلمين .

وكان النصر العظيم في اليرموك فاتحة لا انتصارات أخرى في بلاد الشام .

ومات أبو بكر وخلفه عمر ، وفي عهده اتسعت رقعة الدولة وازدادت

الفتوحات وكثرت الممارك وتمددت ميادين القتال . وبقيت خطوات المعركة كما حدثتها المدرسة العسكرية الإسلامية . . تقدير للموقف تقدمه خطة مدروسة محكمة تحدد الأهداف وتنظم المسؤوليات والواجبات .

وانتهج عمر سياسة جديدة ، فكان - كما سبق الإشارة - يشترك في توجيه الجيوش ووضع الخطة العامة ، وظلت حرية الحركة مكفولة للقيادات المباشرة ، تتلقى الاستراتيجية العامة من المدينة وتقوم هي بالتنفيذ .

مع بداية عهد عمر عزل خالد من قيادة جيوش المسلمين ونولى مسئوليتها أبو عبيدة بن الجراح ، وكلف باستكمال العمليات الحربية ضد الروم ، وكان عليه أولاً أن يبدأ بالتقدم إلى دمشق ، وجاءته الخطوط الرئيسية للخططة من المدينة معتمدة وكانت تتضمن . . .

- القوات الرئيسية تقوم بالهجوم على دمشق .
- بعض قوات الفرسان تقوم بهجوم ثانوى على لخل .

و

- فى حالة نجاح المهاجمين تتقدم القوات كلها إلى حمص .

ولعل خطة عبور نهر دجلة إلى المدائن كانت أعظم الخطط التى وضعت فى تاريخ الحروب ، فقد شكل سعد كتيبتين كلفتا بالعبور ، وحدد لكل كتيبة هدفاً محدداً وواجباً مرسوماً ، وكان هذا التشكيل بداية لاستراتيجية عسكرية جديدة فى تاريخ الحرب ، فأحدى الكتيبتين هى كتيبة الأموال ،

وهي تشبه في حروب اليوم تشكيلات فرق الصاعقة ، وكانت مهمتها أن تعبر النهر ثم تهد على الشاطئ الآخر مكاناً آمناً تصل إليه بقية الجيش ، والكتيبة الثمانية كانت السكتيبة الخرساء ، وكانت مهمتها معاونة كتيبة الأهوال . . السكتيبة الأولى تولّى قيادتها عاصم بن عمرو ، أما الأخرى فتولاها القعقاس ابن عمرو ، وكانت خطة العمليات كالآتي ...

— تمتاز كتيبة الأهوال بالنهر وتستولى على منطقة آمنة وتحميها وتؤمنها (أى تقوم بعملية إقامة رأس جسر على الشاطئ الآخر للنهر) .

— تتقدم السكتيبة الخرساء للمعاونة وللحماية خلال إقامة رأس الجسر .

-- تتحرك كافة القوات للعبور إلى الجانب الآخر من النهر .

وبرز عمرو بن العاص كقائد مشهود له بالكفاءة والقدرة والمعرفة الكاملة بقنون القتال ، وكانت عملياته في فلسطين ومصر عمليات تاريخية ناجحة ، وكانت خططه على أعلى مستوى .. دراسة ومعرفة وإدراكاً وتخطيطاً ، مثلاً وضع خطة القتال في أجنادين بأسلوب حربي متجدد ، يطلق عليه في الحرب الحديثة « اقتصاد القوى » أو « ادخار القوى » بمعنى توجيه القوة الرئيسية إلى الهدف الرئيسى مع توجيه بعض القوى الثانوية إلى أغراض ثانوية ، بقصد توجيه نظر العدو عن مكان الضربة الرئيسية ، ولنراجع معاً خطة عمرو لنرى كيف طبق مبدأ ادخار القوى ...

• مواجهة قوات أرطهون في إيلياء ، وتولى هذه المهمة قوة بقيادة علقمة بن حكيم ومعه مسروق العبكي .

• مواجهة قوات أرطابون في الرملة ، وتولى هذه المهمة قوة بقيادة أبو أيوب المالكى .

• مهاجمة أرطابون في أجنادين بالقوة الرئيسية وبقيادة عمرو .

وخطه عمرو في أم دنين تؤكد عبقرية ونبوغه ، فأم دنين قرية شمال حصن بابلون ، والاستيلاء عليها يسهل عمالية الاستيلاء على الحصن ، وأدرك الروم خطورة سقوط أم دنين ، فبعثوا بقوات هائلة كثيفة إلى بابلون وأم دنين وتهيأوا للقتال . . . وقدر عمرو الموقف وبحته مع رجاله ، وبث العيون تأنيه بالأخبار ، وانتهى إلى وضع خطته وكانت تتضمن ...

• حصار أم دنين والاستيلاء على السفن الراسية في المرفأ .

• عدم التورط في قتال غير مضمون النتيجة .

• استعمال أمير المؤمنين لإرسال المدد المطلوب .

ونفذت الخطة ، وحوصرت أم دنين ومنع عنها الزاد والميرة ، ودار قتال شديد بين المحاصرين والمسلمين ، ووصل المدد خلال الحصار ، فهاجم عمرو الحصن وقتل كثير من الروم وفر الباقون إلى بابلون ، ووضع عمرو يده على السفن الراسية على النيل .

وضعت بعض خطط المسلمين في بعض المعارك على أساس استخدام مبدأ الحصار أو التطويق ، فكثير من الأعداء كانوا يسكنون مناطق محصنة يصعب دخولها أو فتحها عنوة ، ولهذا اتبع نظام الحصار أو التطويق ، ونجح نجاحاً كبيراً ، وهو في فن الحرب من أسهل وأسرع الوسائل للقضاء على

العدو ، بل هو من الوسائل الفعّالة ، فالقوات التي تُحاصر تظل حبيسة لا تملك القدرة على الحركة ، وتنقطع اتصالاتها بالخارج ، ولا تجد وسيلة للإمداد بكل متطلباته ، وتكون كمنقلب في حجر ، وبطول مدة الحصار تفتر العزيمة وتنهار المعنويات ، وتصبح القدرة على الصمود واهية ضعيفة .

إذن أصبح الحصار في العهد الإسلامي وسيلة لتقهر العدو ، وقامت خطط كثيرة اعتماداً على الحصار ، كما حدث في خيبر بعد أحد ، وفي قريظة بعد الخندق ، وفي الطائف ، وبابلين ، وطارابلس ، ودمشق ، وفي مناطق أخرى كثيرة في مختلف ساحات القتال ، ونحن نذكر فيما يلي مثاليين للحصار الأول حصار الطائف على عهد رسول الله ، والثاني حصار دمشق على عهد عمر بن الخطاب .

• كانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تُغلق عليها ، وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار ، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون ... كان يسكنها بنو ثقيف ، وهؤلاء كان رسول الله قد أجأ إليهم قبل الهجرة ينشد عندهم الأمان والعون ، فسعروا منه وأساءوا إليه ... حدث قبل المسير إلى الطائف أن وقع صدام مساح في حنين مع قوات مالك بن عوف ، فلما انهزموا فرّوا إلى الطائف يحتمون بها ، فأمر الرسول بمحاصرة ثقيف هناك ، لأنه كان من المتعذر اقتحام الحصون لمناعتها وقوتها ، وتم الحصار وقال أحد الأعراب يهف للرسول حصار الطائف « إنما ثقيف في حصنها كالمنقلب في حجره لاسبيل إلى إخراجها إلا بطول المسكث » .

وكانت ثقيف قد أخذت أهبيتها لحصار طويل ، فأجمعوا أمرهم على الدفاع

بكل قواهم وعلى إحباط كل محاولة للوصول إليهم ، وزودوا حصونهم بكل ما استطاعوا من مؤن وذخيرة . . وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون ، فكانوا يمتطرون المسلمين بالسهم ، فقتل عدد منهم وجرح عدد آخر ، فأمر رسول الله ﷺ بالابتعاد عن مرمى السهم ، واستعان عليه السلام بقوم من بنى دوس لهم علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق واستخدموا الدبابات ، وزحفوا بها إلى الجدار ، ولكن أهل الطائف قاوموا وصدّوا هجمات المسلمين ، وأمر رسول الله ﷺ من نادى عبيد ثقيف « من خرج إلينا فهو حر » ، فقتل عدد من العبيد وأعتقهم رسول الله ﷺ ، ومنهم عرف أن القوم تزوّدوا بزيادة سنة ، وأنهم عازمون على البقاء حتى إذا نفذ زادهم حاربوا دفاعاً عن أنفسهم حتى لا يبقى منهم رجل ، ورأى الرسول أن الحصار قد فقد قيمته ، وأن الأشهر الحرم قد قرب أوانها ، وأوشك ذو القعدة فآثر رسول الله ﷺ العودة .

● وكانت دمشق مدينة ذات أسوار منيعة . . كانت مثلاً في قوة التحصن والمنعة ، بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت أبنيتها إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار ، في سمك يزيد على ثلاثة ، وكانت حصونها رفيعة الذرى كثيرة الشرفات ، يحتمى بها الرماة بالسهم والمجانيق ، وزادها هرقل تحصيناً ، وكانت بالأسوار أبواب منيعة يحكم إغلاقها فلا تسمح لدخول إليها أو خارج منها ، وأحيطت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار ، وتحصيه مياه نهر بردى .

هكذا كانت دمشق كما وجدها المسلمون المتقدمون إليها تحت إمرة

أبى عبيدة بن الجراح ، قلعة ذات أبراج . . . وفكر أبو عبيدة ، وقرر أن يحاصر المدينة وأن يمنع أية قوات معاونة من الوصول إليها ، وقضت خطة الحصار بأن ينحصر لكل قائد على رأس جماعة من المقاتلين باب من أبواب الحصن يرقبه ويهاجمه إذا سنحت له الفرصة ، فكان أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمر و على باب توما ، و شرحبيل على باب الفرائس ، و يزيد بن سفيان على باب كيسان ، و خالد على الباب الشرقى ، و نصب المسلمون المجانيق حول المدينة من كل اتجاه .

ولتنفيذ الشطر الثانى من الخطة تحركت قوة بقيادة ذى الكلاع الجبرى إلى منطقة بين دمشق وحصص ، وقوة أخرى بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العبسى إلى منطقة بين دمشق وفلسطين ، و كان واجب القوتين منع أية قوات معادية من التقدم إلى دمشق من حلب أو من فلسطين . . . و طال الحصار ، و علم خالد أن بطريق المدينة وُلد له ولد وأنه أولم للناس ، فأكل الجند و شربوا و تراخوا من المراقبة و تركوا مواقعهم و غفلوا ، فأعدّ حبالا على هيئة سلام ، و قال لجنده « إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا » ، و تقدم معه القعقاع بن عمرو و مذعور بن عدى و عبروا الخندق ، ثم ثبتوا أوهاق حبالهم فى الأسوار و تسلقوها ، ثم ثبتوا الحبال فى الشرف التى تلى داخل المدينة ، و ألقوها ، و انحدروا و من معه ، و نزلوا إلى الباب و قتلوا الحراس ، و فتحوه على مصراعيه ، و كبر خالد و سمع رجاله فعبروا الماء و تسلقوا الحبال ، و اندفع بعضهم من باب الحصن و استسلمت المدينة .

وأخيراً

فهذه صور للخطط الحربية التي وضعها المسلمون خلال عملياتهم ، ونحن نذكر هذه الصور على سبيل التذليل على ما نذهب إليه من البحث ، ونحن لا نستطيع أن نعرض لـ شكل الخطط ، ولكن الذي يهمنا هو أن الخطة الحربية عند المسلمين كانت تُعد بعد دراسة عميقة ، وفهم لكافة الأوضاع ووعي بكل الظروف ، وأنه على طول التاريخ العسكري الإسلامي لم توضع خطة بصفة عامة عاجلة أو بطريقة إرتجالية مما يؤكد عبقرية المسلمين العسكرية وتميزهم في هذا الفن .

عندما بدأ الإسلام يخطو على طريق الحياة ، وأصبح قوة تملك الصد
والردع ، وغدت جيوشه قادرة على الحركة السريعة داخل الجزيرة وخارجها ،
تحدد موقف الناس منه في ثلاثة مواقف ...

• بعضهم قبل الإسلام كدين ، وآمن بالرسول والرسالة ،
واعتنق الإسلام وأصبح مسلماً مؤمناً صحيح الإسلام صادق
الإيمان ، وعاش في ضوء القرآن وتعاليمه .

• بعضهم بقي على دينه وعبادته ، على أن يدفع الجزية المقررة
مقابل حمايته والدفاع عنه ، طالما أن المسلمين قادرون على
فرض الحماية ، فإذا عجزوا أسقطت ورُدَّت .

• بعضهم رفض الإسلام كدين ، وأبى دفع الجزية ، وشهر
سيفه في وجه المسلمين ووقع القتال .

هذه المواقف الثلاثة كانت نبع تعليقات رسول الله صلى الله عليه وسلم في
شأن الدعوة للإسلام ، والتي حددها في : قبول الإسلام ، أو قبول الجزية ،
أو الحرب ، والتزم المسلمون بهذه التعليمات وأصبحت منهجاً وأسلوباً لعرض
الإسلام والدعوة إليه .

وقامت الحروب في داخل الجزيرة وخارجها ، وكانت الغاية منها
إعلاء كلمة الله وحماية الدين وتوفير المناخ الملائم للدعوة إليه .

ولقد أيد الله المسلمين بنصره فانتصروا ، وارتفع لواء الإسلام في مختلف
البقاع في الجزيرة والعراق والشام وشمال أفريقيا ، ومناطق متعددة في أفريقيا
وآسيا وأوربا .

وكان في أعقاب كل معركة تواجه المسلمون بعض مشكلات ترتبط
بالحرب ، وتسكون نتيجة مباشرة لها ، وتصدى المسلمون لها ، ووضعوا
الخطط الرئيسية لعلاج كل مشكلة .

[١] وكانت أول مشكلة تواجه المسلمين هي مشكلة الأسرى

والأسير هو من وقع في قبضة الأعداء من الرجال ، والسبية من وقع في
يدهم من النساء والأطفال .

وكان للعرب في جاهليتهم أساليب مختلفة في معاملة الأسرى .

وكان المتبع أن يعامل الأسير معاملة سيئة فيها إهتان وإذلال ، فسكان
يصعد بالأغلال والقيود ، فلا يملك القدرة على الحركة ولا يستطيع التنقل . .

قاظ الشربة^(١) في قيد وسلسلة صوت الحديد يُغنيه إذا قاما

وكان بمض العرب يسخرون الأسرى عبيداً ويستخدمونهم خدماً . . .

ولقد شريت الخمر بالعبيد الصحيح وبالأسير

وكانوا أحياناً يحزون نواصيهم تشهراً بهم وتوكيداً للمذلة ، وكان

الأسير يخير بين جز الناصية والغلبة ، وبين الأسر ، فإن احتار جز الناصية
جزها ، وجعل شعره في كفانته وخلي سبيله .

(١) أقام وقت القبط - الشربة موضع ومكان .

وكانوا يحرسون على جز ناصية الشريف الذى يقع فى الأسر ذلة له
واعترازاً بالعفو عنه بعد المقدرة ...

جززنا نواصى فرسانهم وكانوا يظنون أن لن تجزا^(١)

وكان بعض العرب يقتلون أسراهم ويضربون أعناقهم ، ولكن كان
هناك إجماع على عدم قتل الأسرى ، وكان كثيرون يستقبحون ذلك ، فقد
قال ابن جفنة لعامر بن مالك « ماقتلنا أسيراً قط » .

وكثيرون كانوا يفلدون أسراهم ، وروى أن هوزة بن الحنفى دفع فداء
لنفسه ثلثمائة بعير ، وقيل أيضاً أن الأشعث بن قيس السكندى وقع أسيراً
فقادى نفسه بألفى بعير وألف من الهدايا . . . قال الشاعر فى ذلك ...

فكان فداؤه ألقى بعير وألفاً من طريقات وتلد

وأطلق لبيد أمراه دون فداء...

وعانٍ فكسكناه بغير سواة فأصبح يمشى فى الحلة جاذلاً^(٢)

وكان بعض العرب يمنون على الأسرى ويطلقونهم ، وكان إطلاق
الأسير مدعاة للفخر والمدح ، قالت الخنساء وهى ترى أخاها صخراً :

ورب نعمى منك أنعمتها على عتاة غلق فى الإسار

أما السبايا ، فكان العرب يستولدونهن ، وكان البعض يعقهن ويتخذهن

(١) ديوان الخنساء .

(٢) ديوان لبيد .

زوجات ، وكثير من سادات العرب أبناء سهايا ، كدريد بن الصمة ، فإن ربحانة بذت معديكوب أسرها الصمة بن عبد الله وتزوجها فأنجبت دريدا وإخوته .

وكان السبي عارا ما بعده عار ، حتى أن السبية الحرة كانت تنزع نفسها حتى لا يستذلها الإِسار .

هذا ما كان من شأن الأسرى في الجاهلية .

ولقد قامت هذه المشكلة - أول ما قامت في الإسلام - على أثر بعث سرية عبد الله بن جحش ، ففي هذه السرية وقع اثنان من المسلمين هما سعد بن أبي وقاص وعقبة بن غزوان في يد قريش ، وفي ذات الوقت أسر المسلمون لثنتين من قريش كانا مع قافلة العلاء بن الحضرمي أحدهما حر والآخر مولى هما عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان . . . كان هناك توازن في عدد الأسرى ، وطلبت قريش فك أسيريهما ، وعرضت أن تدفع في مقابل ذلك ماشاء الرسول من الفداء ، ولكن الرسول أبى فداء الأسيرين حتى يقدم صاحباه من أسر قريش ، واشترط عليه السلام أن يصلا أولا إلى المدينة قبل إطلاق سراح أسيرى مكة ، وهدد بقتل الأسيرين إذا أقبلت قريش على قتل سعد وعقبة ، ووافقت قريش فاطلقت سراحهما واستلمت أسيريهما .

كان إذن تبادل الأسرى هو أول خطوة تجاه هذه المشكلة

ولكن المشكلة عولجت في بدر بطريقة أخرى .

ففي هذه الغزوة وقع في أيدي المسلمين سبعون من قريش ، كان من بينهم

لإثنان أمر رسول الله بقتلهما هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط .. كانا أذى وشرّاً على المسلمين وقت مقامهم في مكة ، وعندما عرض أمرها على رسول الله لم يكن عليه السلام قد استقر على رأى أو نظام بالنسبة للأسرى ، فأمر بقتل النضر عند الأثيل ، وقيل إن رسول الله نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها فقال « محمد والله قاتلى .. لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت » ، والتفت إلى مصعب بن عمير وقال « كلم صاحبك أن يجعاني كرجل من أصحابه فهو والله قاتلى إن لم تفعل » ، فقال له مصعب « إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه وكنت تعذب أصحابه » ، فقال النضر « لو أسرتك قريش ماقتلعتك أبداً وأنا حي » ، فقال مصعب « والله إنى لا أراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك » وقتله على بن أبي طالب ضرباً بالسيف .

ثم أمر الرسول بقتل عقبة فصاح « فن للصبيّة يا محمد ؟ » ، فقال الرسول « النار » ، وقتله على بن أبي طالب ، وقيل في بعض الروايات قتله عاصم بن ثابت ، وقال رسول الله للمسلمين « أتدرون ما صنع هذا بي ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران (ستخرجان) .. وجاء مرّة بسلاشة فألقاها على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فمسلمته عن رأسي » ، وحاول المقداد بن عمرو إنقاذه فقال « النضر أسيرى » ، فقال الرسول « اضرب عنقه ، واللهم أغن المقداد من فضلك » ، فلما قُتل أمر به رسول الله فصلب ، وكان أول مصلوب في الإسلام .

وصل رسول الله للمدينة قبل وصول الأسرى بيوم ، فلما أقبلوا فرقهم بين أصحابه وقال لهم « استوصوا بهم خيراً » ، فأكرمهم المسلمون حتى أنهم كانوا

يؤثرونهم على أنفسهم بطيبات الطعام ، قال في ذلك أبو عزيز بن عمير « كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ، ما نقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا ففحنى بها فاستحى ، فأردها على أحدهم ، فيردها على ما يمسها . »

وبدأ رسول الله يفكر في أمرهم .. ماذا يفعل ؟ .. هل يقتلهم ؟ .. هل يطلقهم ؟ .. هل يأمر بفدائهم ؟ .

إذا أطلقهم ففهم أشداء أقوياء يخشى صولتهم عند الحرب .

وإذا قتلهم أثار قومهم فيزدادون كرها للإسلام وعداوة للمسلمين .

وإذا افتداهم تمتلئ نفوسهم حقدًا فيكونون حربًا عليه .

لم يشأ الرسول أن يفرد وحده بالرأى في مواجهة هذه المشكلة ، ورأى كما هي عادته أن يرجع إلى أصحابه يستشيرهم ويقف على رأيهم .

وفي ذات الوقت كان الأسرى يفكرون في أنفسهم .. كانوا حبا منهم في الحياة وتعلقًا بها يأملون أن يتقبل منهم الفداء وإن كان عظيمًا ، وقال بعضهم « لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفًا ولا نعلم أحداً آثر عند محمد منه » ، وبعثوا إليه وقالوا « يا أبا بكر إن فيما الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب ، كَلِّمْ صاحبك مِنّا علينا أو يفادينا » فوعدهم خيرًا .. وخافوا أن يفسد عمر وساطة أبي بكر ، فبعثوا

لأبيه وحدثوه بما حدثوا به أبا بكر فلم يسمع منهم وتركهم .

وكان سعد بن معاذ قد رفض أساساً فكرة الأسر ، وأغضبه مشهد المسلمين وهم يقرءون الأسرى في الجبال دون أن يقتلوه ، وكره منهم ذلك ، ورأى رسول الله من سعد الكراهية لما يصنعون فقال « كأنك تكره ماذا يصنع الناس ؟ » فقال « أجل والله لى أول وقعة أوقعها الله بالمشركين ، وكان الإنحاز في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال » .

وعرف رسول الله رأى سعد فخبره في داخله .

ثم استدعى أبا بكر وعمر وآخرين وسألهم الرأى « ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ » .

قال أبو بكر

« يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان ، وأبعدهم منك قريب ، فامسك عليهم من الله عليك ، أو فادهم يستنقذهم الله بك من الفار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين ، فاعل الله أن يقبل بقلوبهم » .

وقال عمر

« يا رسول الله ، هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، لمضرب رقابهم ، هم رموس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطئ الله بهم الإسلام ، ويذل بهم أهل الشرك » .

وقال عبد الله بن رواحة

« يا رسول الله أنظر وادياً كثيراً الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً » .

وانقسم الناس .. البعض أخذ برأى أبى بكر .. والبعض أخذ برأى عمر ... والبعض أخذ برأى عهد الله ، وحاول أبو بكر أن يستعطف الرسول ويذكروه القرابة والرحم .

وأخيراً أعلن الرسول رأيه

« إن الله يملئ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة .. أنتم عالة فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

إذن كان الرأى هو الفداء

وعاتب الله رسوله لأنه قبل الفداء وآثره على الإثخان في قتل العدو ... قال سبحانه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٧/٦٩) .

وقال الرواة إن رسول الله بسكى ، وبكى معه أبو بكر ، وبكى معهم القائلون بالفداء ، وقالوا إن رسول الله تمنى لو أنه أخذ برأى عمر في قتل الأسارى .

والآية الكريمة تضمنت عتاباً للرسول ولأصحابه ، لأنهم قبلوا فدية الأسرى ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك وهم مازالوا في أول الطريق ،

وليست لديهم القوة التي يفرضون بها رأيهم ، أو يحمون بها دينهم ، أو يكفلون بها وجودهم وحياتهم ، بينما العدو قوى شرس معانده مكابر ، وهو دائم التعدي عليهم والتفكيك بهم ، عندئذ بهم وأخرجهم من ديارهم ، ثم حاربهم بأمل أن يقضى عليهم ، ولهذا فكان الواجب - وقد هزموه في أول لقاء مسلح - أن يقتلوا أسراهم ، فيضعف ، وتتراخي يده عنهم .

انتهى رأى الرسول إلى الفداء ، وجعل المال بتدرج من ألف درهم إلى أربعة آلاف ، وكان كل أسير يدفع على قدر يساره .

ولما علمت قريش بما انتهى إليه رأى الرسول قالت « لا تعجلوا في فداء أسراكم » ، وكانت ترى أن عدم الإصرار قد يخفف من تشدد الرسول ، ولما كان مضي وقت طويل وهي صابرة على محنتها ، ثم لم تجد بداً من أن تبعث في الفداء ، فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو ، وهو خطيب هاجم رسول الله بلسانه ، فطلب عمر أن يسمح له الرسول فينزعه فنيقته ليداع لسانه فلا يقوم في الناس خطيباً يهاجم النبي ويسبه « يا رسول الله دعني أنزع نثيتي سهيل بن عمرو فيداع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً » ، فرفض الرسول وقال « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً » ، ولقد ظل سهيل على عدائه لرسول الله حتى فتح مكة فأسلم .

اشترط رسول الله في الفداء من قدر عليه اقتدى به ، أما من لم يقدر وكان يعرف القراءة والكتابة فقد رأى الرسول أن يفك أسرهم إذا علم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة لينهض بهم ، وكان زيد بن ثابت أحد هؤلاء الذين تعلموا في هذا الفداء ، وزيد هو الذي كتب الوحي للنبي ،

وأمره النبي أن يتعلم العبرانية فتعلمها في سبعة عشر يوما ، وكتب زيد مصحف حفصة في عهد أبي بكر ، ثم المصاحف الأخرى في عهد عثمان .

أما الأسرى الفقراء الذين لا مال لهم فقد منّ الرسول عليهم ، وأطلق سراحهم دون فداء .

ومن الأسرى الذين أطلق سراحهم دون فداء أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله (صهره) وزوج ابنته زينب ، وكان من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، فقد بعثت زينب تفتديه بمال وبقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بُني بها ، فلما رآها الرسول رقق لها وطلب من المسلمين « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا » ، فقالوا له « نعم يا رسول الله » ، وردّوا عليها الذي لها ، وأطلقوا سراحه ، وأخذ النبي عليه أن يتخلّى سبيل زينب فوعده .

وكان العباس عم الرسول ضمن الأسرى ، فأراد أن يمنّ الرسول عليه فيطلقه دون فداء ، ولكن الرسول أبى إلا أن يدفع فديته وفدية نفر من أهله وحلفائه ، وروى أن العباس قال للرسول « إنى كنت مسلما قبل ذلك ، وإنما استكروهنى » ، فقال له الرسول « الله أعلم بشأنك » ، إن يك ما تدعى حقا فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفك عقبة بن عمرو » ، فقال « ما ذاك عندي يا رسول الله » ، فقال الرسول « فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل ؟ » ، وافتدى العباس نفسه بسبعين أوقية من الذهب ، وافتدى ابنى أخويه عقيل ونوفل بسبعين .

إذن تقرر في بدر مبدءاً افتداء الأسرى

ولكن هذا المبدأ تغير حين حارب الرسول اليهود

فكان له مع أسراهم رأى آخر وموقف مختلف

بعد أن استسلم يهود بنى قينقاع استشار الرسول أصحابه في أمرهم ، واستقر رأى على قتلهم جميعاً ، وتقدم عبد الله بن أبى بن سلول برجاء إلى الرسول أن يعفو عنهم « يا محمد أحسن في موالى » ، ثم عاد فقال « أربعمائة حامر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر » ، وانضم إليه في الرجاء عقادة بن الصامت ، فاستجاب إليهما الرسول ، ولكن بشرط أن يخرجوا من المدينة جزاء لهم على صنيعهم ، فتركوها إلى أذرعات على حدود الشام .

وخرج يهود بنى النضير كما خرج يهود قينقاع ، وقد ترك كل منهم ما تحت يديه من الحلقة ، أى السلاح والعتاد .

أما يهود خيبر فبعد استسلامهم وافق رسول الله على بقائهم يقومون على خدمة الحدائق والمزارع والنخيل التى كانت فى حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة ، واحتفظ رسول الله لنفسه بحق إجلائهم حين يريد .

واستسلم يهود فدك فأبقاهم الرسول وصالحهم على نصف أموالهم .

أما يهود بنى قريظة فقد تغير الوضع بالنسبة لهم ، فبعد استسلامهم عرضوا أن يلحقوا باليهود الآخرين في أذرعات ، وتحدثوا إلى الأوس في هذا الشأن « ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم » ، (يقصدون مسعى عبد الله بن سلول بشأن يهود بنى قريظة) ، وتحدث بعض من الأوس إلى الرسول في شأنهم « يا نبي الله ، ألا نقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج » ، فقال لهم « يا معشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلا منكم ؟ » ، قالوا « بلى » ، قال « فتولوا لهم فليختاروا من شاءوا » ، واختار اليهود سعد بن معاذ ، وكان في المسجد في خيمة يداوى فيها الجرحى من الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه ، وكان قد أصيب بسهم يوم الخندق ، فأتاه قومه ، فحملوه ، وأقبلوا به إلى رسول الله وهم يقولون له « يا أبا عمرو أحسن في مواليك » ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاء ذلك لتحسن فيهم ، فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه » ، فقال « لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم » ، فتشامم كثيرون ، وقالوا « واقوماه » ، فلما انتهوا إلى رسول الله قال له « أحكم فيهم ياسعد » ، فقال « الله ورسوله أحق بالحكم » ، فقال الرسول « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » ، وسأل سعد الجميع « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت » ، فأجابوه « نعم » ، فقال « فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتنفم الأموال وتُسبي الذراري والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » ، فقال له رسول الله « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سموات) » ، وأمر الرسول أن يُجمع ما في حصونهم من الحلقة والسلاح ، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة

(٣٧ - المدرسة الإسلامية العسكرية)

دارع وألفى رمح وخمسمائة ترس وماشية ، كما أمر بأن تسكون النساء والذرية في دار ابنة الحرث النجارية ، ثم خندق رسول الله في سوق المدينة خنادق ، وأمر بهم فضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم في الخندق ، ورد عليها التراب ، وعند قتالهم صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحا ، وكان في مقدمة القتلى زعيمهم حيي ابن أخطب .

واختلفت الصورة بالنسبة للأمري مرة أخرى .

فبعد أن تم نصر الله ودخل المسلمون مكة أصبح كل من في مكة من قريش أسيراً ، وانتظر القوم ما يفعل بهم رسول الله بعد أن أصبح الأمر كله في يده ... دعا الرسول عثمان بن طلحة ففتح السكبة ووقف على بابها ، وتسكاثر الناس في المسجد يرقبون أمره فيهم ، وسألهم « يا معشر قريش ماترون أنى فاعل بكم ؟ » ، قالوا « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » ، قال « فاذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ونزل هذا العفو الكريم برداً وسلاماً على تلك القلوب القاسية التي طالما اضطربت بالعداوة لهذه النفس الخيرة ، وطالما أعمها الحقد عن مجاورة هذا القلب الرحيم ...

وأمر رسول الله بقتل تسعة ، وأهدر دمه ، وأباح قتالهم ، ولو تعلقوا بأسفار السكبة ، وهؤلاء كادوا كيداً شديداً للإسلام منهم عبد الله بن أبي سرح وكان قد أسلم قبل الفتح ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ، وزعم أنه لا يكتب ما يملئ عليه ويغير فيه ويبدل ، وقال « إن محمداً لا يعلم ما يقول » ، فلما انكشفت خيائنه ارتد وهرب إلى مكة ، وقال « إن كان محمد نبياً يوحى

إليه فأنا نبي بوحى إلى » ، وقال لقريش « إلى كذبت أصرف محمداً كيف شئت ، كان يعلو على عزيز حكيم فأقول عليهم حكيم ... » ، فلما كان يوم الفتح لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه في الرضاعة وقال « يا أخى ، استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى » ، وألح عثمان على الرسول وأسلم وبايع الرسول بمر الظهران ... ومنهم عبد العزى بن أخطل وهو شاعر هجى رسول الله ثم أسلم ، ثم عاد وارتد ، وبعد أن دخل رسول الله مكة تعلق بأستار الكعبة ، فقال الرسول « اقتلوه فإن الكعبة لا تعيد عاصياً ولا تمنع من إقامة حد واجب » ، ... ومنهم هبار بن الأسود الذى أسلم « يا محمد أنا جئت مقراً بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، فقال له الرسول « يا هبار عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هدأك إلى الإسلام والإسلام يجب ما قبله » ... ومنهم عكرمة بن أبى جهل وكان هو وأبوه أشد الناس أذية للرسول وأشد الناس على المسلمين ، وفر إلى اليمن فلحققت به امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسامت وقالت له « يا ابن عم ، جئتك من عند أوصلى الناس وأبر الناس وخير الناس ، لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك » ، فعاد معها وسأل رسول الله « يا محمد ، هذه أخبرتنى أنك أمنتنى » ، فقال « صدقت ، إنك آمن » ، فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك عبده ورسوله » .

كان إذن موقف الرسول من أمرى قريش هو العفو العام عنهم .

ويمكن أن نوجز موقف الرسول من الأمرى على الوجه التالى ...

● العفو افضل سابق أو الحكمة تقتضيها مصلحة المسلمين .

- الإفتداء بالمال كل حسب قدرته .
- الإجماع من المدينة تخلصاً من القوى المضادة .
- القتل .

على هذا المنهج سار الخلفاء ، أما في العمود التي تلت عهد الراشدين ، فقد تطور الأمر بالنسبة لتطور نظم الدولة ، فقد وقعت الفتنة بين المسلمين وحارب بعضهم بعضاً ، وكان القتل هو الأمر الشائع والأسلوب الذائع حتى شمل أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأكثرم جهاداً إلى جانبه وأعظمهم إيماناً بالله وأصدقهم إخلاصاً للإسلام .

* * *

[٢] فرض الإسلام ضريبة يدفعها أهل الذمة في مقابل قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم من أى عدوان يتعرضون له ، ولإظهارهم بمظهر الخاضع للإسلام ، وكانت هذه الضريبة تسمى الجزية .

فرضت الجزية على أهل الذمة يؤدونها للمسلمين ، وسميت جزية لأنها إما من الجزاء في مقابل الذنب الذى ارتكبهوه بإفساد عقيدتهم ، وإما من المجازاة في مقابل حفظ نفوسهم وصيانتهم من القتل .

وتستط الجزية بالإسلام .

قال المساوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من أخذ الذمة

من أهل الكتاب ليقروا بها في دار الإسلام ، وبلتزم لهم ببذلها بمقتضى :
أحدهما الكف عنهم ، والثاني الحماية لهم ، ليسكونوا بالكف آمنين والحماية
محروسين .

وقال تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩)
ويفسر الأستاذ عبد الكريم الخطيب هذه الآية في « التفسير القرآن للقرآن »
فيقول إن الله أمر بقتال المشركين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر بما فاشوا
بالضلال ، وكذلك أمر بقتال اليهود الذين لا يؤمنون دين الحق وأفسدوا دينهم
مما حرموا من كتاب الله الذي في أيديهم ، وكذلك أمر بقتال الكافرين الذين
لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر .. إذن فواجب المسلمين أن يعرضوا على هؤلاء
دعوة الحق ، فإن استجابوا وآمنوا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ،
وإن أبوا كان من الضروري قتالهم حتى يستسلموا ، فإذا سامت لهم أنفسهم
لا تسلم لهم أموالهم ، وعليهم أن يؤدوا الجزية صاغرين مقهورين .

ولم تفرض الجزية على عبدة الأوثان من العرب ولا على المرتدين ،
فهؤلاء كان عليهم أن يختاروا الإسلام أو السيف يتلوه القتل ،
والهدف من ذلك هو توحيد الأمة العربية والقضاء على الوثنية بها
نهائياً ، ولهذا لم يشملهم التشريع ولم يطبق عليهم ، وفي ذلك قال الإمام

الشافعى « إنها (يقصد الجزية) تؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجمًا ، ولا تؤخذ من أهل الأوثان لثبوتها فى أهل الكتاب » ، وعند أبى حنيفة تؤخذ الجزية من أهل الكتاب مطلقًا ، ومن مشركى العجم والجوس لا من مشركى العرب ، وقال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة وتجب على الرجال دون النساء والصبيان » .

وذكر الأستاذ محمد عزة دروزة فى « الدستور القرآنى فى شئون الحياة » أنه ليس ما يمنع أخذ الجزية من غير أهل الكتاب إذا رأى السلطان الإسلامى ذلك متفقًا مع مصلحة المسلمين وأمنهم .. وأنه ليس ما يمنع أن يقبل السلطان الإسلامى خضوع عدو باغ واستسلامه ورضاه بالجزية دون قتال ، وذكر أن النبى وخلفاءه قد صالحوا بعض الأعداء على الجزية من دون قتال والجزية ليست إسلامية الأصل والمنبت وإنما هى قديمة .

فرضها اليونان على سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد .

وفرضها الرومان على أهالى البلاد التى خضعت لحكمهم ، وكانت تختلف باختلاف الأقاليم ، وكانت تنقل كاهل الناس .

وفرضها البيزنطيون على جميع الأهالى ، ولم يكن لها فى عهدهم نظام ثابت ، فكان مقدارها تتناوله الزيادة والنقصان تبعًا لظروف الدولة وأحوال البلاد ، وكانت تفرض جملة على القرية ويقسمها السكان فيما بينهم .

وكانت الجزية موردًا هامًا من موارد الدولة الفارسية ، ووضع لها كسرى أنو شروان القواعد والنظم ، وجعلها تتناسب مع الغنى والفقر .

كان أول تطبيق للجزية في الإسلام في تباء ، فقد سار رسول الله إليهم وكان قد بلغهم ما فعل الرسول بأهل خيبر وفدك ووادي القرى ، فصالحوه عليه السلام على الجزية ، وأقاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم ، وجاء في الصحيح أن الجزية فرضت فيها على أهلها .

وعندما قُرت الجزية في الإسلام لم يكن لها في عهد رسول الله نظام خاص أو قواعد ثابتة ، ولم تكن معينة الجنس والمقدار ، وكان مقدارها حسب الظروف وطبقات الناس وقدراتهم ، وكان تقدير ذلك متروكا لأولى الأمر .

أخذت الجزية في بعض الأحيان ذهاباً كجزية الين ، وكانت في الأحيان الأخرى تؤخذ من الحلل والثياب والشيء والبقر والإبل والأخشاب كجزية نجران ، وكانت توضع على القرية تارة ، وعلى الرءوس تارة أخرى ، وكانت تنقص أو تزيد حسب حاجة المسلمين وحالة من تؤخذ منهم ، ولم تفرض الجزية على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضت على القادرين .

وكان عهد أبي بكر مماثلاً لعهد رسول الله ، ولم يحدث فيه تغيير ، سوى أن الجزية كانت تؤخذ غالباً نقداً ، وذلك راجع إلى أن البلاد المفتوحة في عهده كانت تتعامل بالعملة النقدية .

جاء في الصلح الذي عقده خالد بن الوليد مع أهل الحيرة « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمر بن عدى وعمر بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وجيري بن أكمال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به ، عاهدتهم على تسعين ومائتي ألف درهم تقبل في كل سنة ، جزاء

عن أيديهم في الدنيا ، رهبا نهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة ، فإن لم يمنعمهم ، فلا شئ عليهم حتى يمنعمهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة .

وفي بابليون صالح عمرو بن العاص قيرس ، وتضمن الصلح أن يدفع الجزية من دخل في العقد ، وقدرت بدينارين على كل رجل ، إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير والنساء ، وبلغت الجزية لثني عشر ألف ألف دينار على حد ما جاء في تاريخ أبي صالح الأرمني .

أما في عهد عمر ، فقد اقتضت ظروف الدولة إذ ذاك أن تنظم الجزية وأن ترتب ، وأن تحدد مقاديرها في ضوء أحوال الدولة الحاكمة وظروف الشعوب المفتوحة ، وأحوال الدولة تعنى كثرة الفتوحات واتساع الرقعة بفتح الشام والعراق ومصر ، وما نتج عن ذلك من كثرة مشاريع الدولة ومصالحها وتعدد مرافقها مما يتطلب زيادة في الدخل .

حدد عمر وقت أداء الجزية بما يتفق وصالح الدافعين ، ولهذا اختلف ميعاد الدفع باختلاف الجهات والأقطار ، وهذا تطور واختلاف عما كان يحدث أيام الرسول وفي عهد أبي بكر ، فقد كانت الجزية تدفع مقدما ، فقد جاء صاحب أيلة إلى رسول الله ودفع له الجزية مقدما ، وذكر في نص معاهدة الصلح « أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرج فأعطوه الجزية » ، أما في عهد عمر فكانت تدفع في نهاية العام حين يأتي وقت الحصاد .

وحدد عمر الأشخاص الذين يجب عليهم الجزية ، فأوجبها على الذكر

البالغ الصحيح الجسم والعقل بشرط أن يكون له مال يدفع منه .

وأعفى عمر النساء والأطفال والشيخوخ ، لأن هؤلاء لا يشتركون في قتال ولا يخرجون للحرب ، وكذلك أعفى المرضى إلا إذا كانوا أغنياء ، وأعفى الفقراء والمساكين والأرقاء والضعفاء ، ولم يطالب بها الرهبان إذا كانوا في عزلة عن الناس ، وأما إذا اختلطوا بهم فيؤخذ منهم .. وأعفى أيضاً الرقيق والمجانين والمعدمين .

والإسلام بإقراره نظام الجزية قد :

- (١) أوجب لدافعيها من الحقوق ما أوجب للمسلمين .
- (٢) أسقط عن دافعيها واجب حمل السلاح ، وجعل في عنق الدولة واجب الدفاع عنهم والمقاتلة في سبيل أرضهم وذرائعهم .
- (٣) أباح لدافعيها التمتع بما هو حلال عندهم ، وإن كان هذا الحلال حراماً عند المسلمين ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك .
- (٤) مكّن دافعيها من الشعور والإحساس بوجودهم العقائدي ، وأباح لهم أن يقيموا بيعهم وكنفائسهم ، وأن يقيموا شعائهم دون رقيب أو معارضة .
- (٥) أسقط حق الأداء إذا تعذر الدفاع عن دافعيها .

وهذه القواعد كلها تؤكد عدالة الإسلام وبرّه .

فالجزية لم تقرر لترهق الناس ، ولم تحدد بما هو فوق طاقتهم ، وأعفى منها

من لا يستطيع ولا يملك ، كما أعفيت منها فئات عديدة كالشيخ والطفل والمرأة والمريض ورجال الدين المتفرغين للعبادة .

والجزية فرضت في الإسلام لفرض شريف نبيل ، ولم تكن أبداً للاستغلال ، وكان الخليفة هو الذي يتولى أمرها ، يقسمها ويقوم بإدارة نواحي الصرف منها ، فكانت في أيد أمينة تعرف حق الله وحق الناس .

والإسلام كان أكثر رحمة في فرض الجزية من الأمم الأخرى التي فرضتها فاشققت في جمعها وفي تقديرها .

[٣] لم يعرف المسلمون الغنائم إلا بعد هجرتهم إلى المدينة ، لأن فترة البقاء في مكة كانت فترة دعوة وإرشاد إلى الدين الجديد بالسكامة الطيبة والموعظة الحسنة .

ولما قامت الحرب بين المسلمين وقريش ، وبينهم وبين اليهود ، ثم بينهم وبين القوى الأخرى ، وضع المسلمون أيديهم على غنائم كثيرة وأموال وفيرة أصبحت قوة للمسلمين وعدة لهم .

الفيء

هو كل مال وصل من المشركين إلى المسلمين عفواً من غير قتال ، أي كل ما يقره الله من غنائم ومكاسب بدون حرب ، وقد حدد القرآن الكريم أوجه صرف هذا المال في قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

وَلَسَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَنَّ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦ - ١٠﴾

وتضع هذه الآيات القواعد العامة لتنظيم النبي ^(١) كالتالي ...

— ليس لأحد من المفاتلين حق فيه باعتبارهم مقاتلين ، لأنهم لم يتحملوا مشقة في الحصول عليه ، ولم يسرعوا على ظهور الخيل والإبل لاستغلاله من أيدي الكفار بالحرب والقتال ، ولسكنه مال خالص لله ولرسوله يضعه الرسول حيث يشاء ، وحكم ذلك على أموال يهود بني النضير فإن المسلمين لم يسيروا إليها خيلاً ولا إبلاً ، ولم يقاتلوا عليها ، لأن القوم كانوا قريبين منهم فلم يبذلوا

(١) الأصل في النبي هو الرجوع إلى الشيء المنة وكه يقول تعالى « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » البقرة : ٢٢٦ .

جهداً للوصول إليهم ، ولأن القوم استسلموا دون قتال ولم توضع الأيدي على هذه الأموال بقوة السلاح .

— يتولى رسول الله بنفسه قبض النفي والتصرف فيه ، والرسول كان في عهده يمثل الدولة ، فكان الإسلام قد جعل الدولة صاحبة الحق في قبضه والتصرف فيه ، والنفي على هذا النحو يكون جزءاً من الميزانية العامة للدولة .

-- يُحجب جزء من النفي لرسوله ولذوى القربى ، ويعود الباقي إلى الطبقات الفقيرة المعوزة ، وهي تتمثل في ... فقراء المهاجرين الذين أخرجتهم قريش من ديارهم بمكة ، وفرّوا بدینهم وإيمانهم إلى المدينة ، يرجون أن يمنّ الله عليهم بنعمة في الدنيا وأن يرضى عنهم في الآخرة ، ويكون هذا المال مواساة لهم في غربتهم ، وتخفيفاً للعبء عن الأنصار الذين يتقاسمون المهاجرين أموالهم وديارهم ... وفقراء الأنصار الذين آووا المهاجرين وأعانوهم وآثروهم على أنفسهم على ما بهم من خصاصة ورقة حال ... وفقراء آخرين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار وانضموا إلى المسلمين واتبعوهم بإحسان .

ولابد لنا أن نوضح أن ما في يد الكافرين من أموال هي في حقيقتها أموال المسلمين ، وهم أولى بها ، وأعرف بحق الله والعباد فيها ، فإذا أخذها المسلمون فكانها فاءت إليهم ، أي عادت إلى أهلها دون قتال أو حرب .

وبعد وفاة الرسول عليه السلام رُدَّ نصيبه من النفي إلى بيت المال .

الأنفال

هى كل مال وقع فى يد المسلمين فى بدر ، وقد جاء نتيجة قتال اختفت وراءه يد الله ، فكأنها جاءت على غير تقدير منهم ، حيث كانوا قلة فى وجه العدو الذى واجههم بجيش كثيف ، وكان النصر أصلاً للعدو ، إلا أن الله هباً لجنده النصر ، فكانت يد الله هى التى ردت عنهم العدو وأظفرتهم بما خلقته قريش من ورائها من عتاد ومتاع ، ولقد سماها الله أنفالا ، ليذكر المسلمين بما كان لله عليهم من فضل ، وهى طبقاً لتشريع الله سبحانه وتعالى لله ولرسوله ، يقبضها الرسول ويتصرف فيها فى حدود أوامر الله وتعليماته .

ولقد اعتبر كل ما وضع المسلمون أيديهم عليه فى خيبر أنفالا ، لأن اليهود استسلموا دون قتال ، فقد سار الرسول وجنده إليهم بعد صلح الحديبية ، فلما استشعروا الهزيمة والهلاك استسلموا صاغرين ، وكانت السماء وراء هذا النصر ، ولم يكن للمسلمين جهد فى قتال أو بلاء ظاهرين .

واختلفت الآراء بالنسبة للأنفال بعد غزوة بدر .

- فمن قائل إنها لمن جمعها وحازها بيده .
- ومن قائل إنها لمن قاتل والتجهم بالعدو .
- ومن قائل إنها لمن شهد القتال قاتل أو لم يقاتل .
- ومن قائل إنها للجماعة الإسلامية التى تضمها المدينة .

اختلفت الآراء وتوزعت مشاعر المسلمين وعواطفهم فى مواجهة هذه

المكاسب التي هلت عليهم لأول مرة ، ولو ترك الأمر لهم يقضون فيه برأيهم ،
لما وصلوا إلى حل يحسم الموقف ويجمع الآراء ويوحد الأفكار

ومما لا شك فيه أن المسلمين كانوا بعد بدر على أول الطريق يدعون
بناءهم ويستكملون كياناتهم ، واختلاف رأيهم على أمر ما كبير أو صغر هو
صدع للبناء ، معرض لأن يزداد مع الأيام عمقا واتساعا .

ولهذا كان لابد من أن تجيء كلمة الفصل من السماء ، واقتضت إرادة
الله وحكمة الحكيم العليم ، أن تكون كلمة الله هي القضاء الفصل فيما اختلف
فيه المسلمون ، حتى يظلوا جفداً خالصاً لدين الله يجاهدون في سبيله دون
التفات إلى مغنم أو مكسب أو ربح ، ونزل قول الله تبارك وتعالى
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
(الأنفال ١) .

بهذا القول الحكيم كان رسول الله يتصرف في الأنفال كما يتراءى له ،
يضعها حيث يرى ويشاء ، وبهذا التوجيه الرباني الكريم عاد المسلمون إلى
ما كانوا عليه من اتفاق الكلمة ووحدة الرأي ، إخوانا مجاهدين في سبيل
الله لا يبتغون إلا رضا الله ورضوانه ، وأنشأوا ما كان قد ثار بينهم من
خلاف ... قال عبادة بن الصامت عن الأنفال « فبينما أصحاب بدر نزلت
حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ،
فجعلناه إلى رسوله ، فقسّمه الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء
(على السواء) » .

الغنائم

هى كل ما ناله المسلمون نتيجة للحرب والقتال عن بلاء وعمل ظاهرين .

وأول غنيمة ظهر بها المسلمون هى غير عمرو بن الحضرمي ، وضع
عبدالله بن جحش يده عليها ، وقد ذكر بعض آل عهد الله أنه قال لأصحابه
« إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الخمس - وذلك قبل أن يفرض الله تعالى
الخمس من الغنائم - فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير ، وقسم
سائرهما على أصحابه » ، وقال ابن إسحق « فلما قدموا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير
والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما فوج الله تبارك وتعالى عن
المسلمين ما كانوا فيه من الشَّقَقِ ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم
العير » .

ونزل في الغنائم قول الله تبارك وتعالى « وَاعْتَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (الأنفال : ٤١)

ولقد أوضحت هذه الآيات أن الغنائم التي يغنمها المسلمون المجاهدون
بسيوفهم في القتال هى ثمرة من ثمرات جهادهم ، لهم فيها حق معلوم ، ولو كان
القتال لحسابهم فقط لسكانت هذه الغنائم كلها لهم ، ولكنهم كانوا يقاتلون

لحساب الإسلام ولإعلاء كلمة الله ، ولهذا وجب أن يكون لله حق في هذه الغنائم .

وفي ضوء هذه الآيات التي جاءت بحكم الله في الغنائم كانت الغنائم ، كالآتي ...

— تُخس لله وللرسول يقسم إلى خمسة أقسام ... قسم لله وما كان لله فهو لرسول الله ، وقسم لذوي القربى من رسول الله من بنى عبد المطلب وبنى هاشم ، وثلاثة أقسام للفقراء والمساكين وابن السبيل .

— أربعة أخماس للمجاهدين الذين قاتلوا على تلك الغنائم ، تقسم بينهم بالسوية .. لكل مقاتل سهم ، وفي التسوية بين المجاهدين احتفاء بالجهاد من حيث هو جهاد ، وتكريم للمجاهدين من حيث هم على نية الجهاد .. فهم جميعاً على درجة واحدة مع تلك النيات التي انعقدت منهم على الجهاد ، ومع هذا الموقف الذي واجهوا فيه الاستشهاد في سبيل الله .

وغضب بعض المسلمين من هذه التسوية التي جعلت للقوى ما للضعيف من نصيب ، فالمجاهدون يتميزون وقت القتال ، فهذا مجاهد قوى ذو بأس وشدة ، وهذا مجاهد ضعيف لا يملك أن يعطى أكثر مما أعطى وهو قليل ، فكيف يسوّى بين الإثنين في الغنيمة ، وقال سعد بن أبي وقاص للرسول « يا رسول الله ، أتعطى فارس القوم الذي يغيظهم مثل ما تعطى الضعيف ؟ » ، فقال له « مكثت أمك ابن أم سعد وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

ورأى رسول الله بعد أن ازداد التحام المسلمين بالمشركين ، أن يجعل
للفارس سهمين سهم له وسهم لفارسه ، وذلك حتى يحث المسلمين على اقتناء
الخيول وإعدادها للقتال ، لتسكون عاملاً في الجهاد ، فهي مصدر رهبة ومثار
فزع ورعب للعدو .

وظل خمس الرسول - وهو خمس الله أصلاً - قائماً طوال حياته ، فلما
توفي ضمَّ إلى بيت المال .

واعتبر أبو بكر بعد توليه الخلافة أن خمس ذوى القربى ميراثاً ، وحرَّمه
عليهم عملاً بقول رسول الله « نحن معاشر الأنبياء لانورث . . ما تركناه
صدقة » ، وأخذ بهذا الرأي من بعده عمر وعثمان ، وأقره أيضاً عليّ ، رغم
أنه كان يراه حقاً لذوى القربى بعد الرسول كما كان حقاً في حياته .

في عهد أبي بكر كثرت الغنائم باتساع نطاق القتال في ساحات
العراق والشام .

ولما تولى عمر الخلافة وواصل الفتوحات في العراق والشام وأفريقيا ،
غنم المسلمون أضعاف ما غنموه في عهد الرسول وعهد أبي بكر ، ومثال ذلك
أن الغنائم التي وضع المسلمون يدهم عليها بعد انتصارهم في نهاوند ، فاقت كل
ماتوقه المسلمون ، وبلغ نصيب الفارس ستة آلاف والراجل ألفين ، وكان
ضمن الغنائم سَفَطان مملوءان جوهراً ثميناً ، جمعها المسلمون لعمر خاصة ،
وجعل السائب بن الأقرع - الذي عيّنه عمر على الأقباض - خمس الغنائم
إلى عمر ، وقال السائب « فأخبرته خبر السفطين فقال : أدخلهما بيت المال
حتى ننظر في شأنهما » ، وأمره عمر أن يلحق بجنده ، وفي اليوم التالي بعث
(٣٨ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

في إثره من استدعاه وقال له « ويحك ! والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها ، فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتملان ناراً ، يقولون : لنسكوبنك بهما ، فأقول لاني سأقسمهما بين المسلمين ، فخذهما عني لا أبالك ، وألحق بهما فبعهما في أعطية المساكين وأرزاقهم » ، فأخذهما السائب فابتاعهما منه عمرو بن حُرَيْث الخزومي بألف ألف ، ثم باعهما في أرض الأعاجم بأربعة آلاف ألف ، وقال عنه السائب « فما زال أكثر أهل السكوفة مالا بعد » .

المتاع

هو كل ماعدا الأرض والرقاب من حيوان وملابس ومعادن وأدان وسلاح ، وهو نصيب المقاتلين الغانمين ، ولا يجوز لغيرهم أن يأخذوا شيئاً منه إلا إذا دفعوا ثمنه كاملاً ، ويقسم طبقاً لتعاليم القرآن ، وظل رسول الله يأخذ نصيبه حتى توفي فضم إلى بيت المال .

الرقاب

يقصد بها الأسرى ولقد تناولنا موضوع الأسرى بالتفصيل .

النفيل

هو ما جاء زائداً عن المطلوب ، وخصص لبعض المقاتلين زيادة على نصيبهم من الفنمية ، تشجيعاً لهم وتقديراً لبطولاتهم وتحريضاً لهم على المثابرة والقتال ، وكان يصرف وقت القتال فقط ، أما في وقت السلم فلم يكن

له مجال .. اجتمع بنو بجيلة لدى الخليفة عمر ، فقال جرير بن عبد الله البجلي ..
« أخرج حتى تلحق بالثني » ، فقال جرير « بل الشام فإن أسلافنا بها » ، فقال
عمر « بل العراق فإن الشام في كفاية » ، ولم يزل عمر يبنى بجيلة وهم يأبون
التحرك إلى العراق حتى جعل لهم الربع من خمس ما يمن الله على المسلمين ،
يضاف إلى نصيبهم ، فوضوا .

السلب

هو ثياب المقتول وسلاحه الذي معه ، ودابته التي يركبها بسرجهما
وآلاتها ، وكان للمسلم حق سلب من يقتله « من قتل قتيلا فله سلبه » ، ولقد
سمع سعد بن أبي وقاص لهلal بن علقمة سلب رستم قال له « جرّده إلا
ماشئت » ، فلم يدع هلal على التقتيل شيئا إلا أخذه ، فبلغ ذلك سبعين ألفا ،
ولولا أن قلنسوته سقطت في النهر لضاعف ذلك حظ هلal .

الرضخ

هو نصيب من لا نصيب له في الغنائم ، كالأطفال والنساء إذا باشروا
القتال أو قدموا معاونة فعالة أو مساعدة مجدية مفيدة خلال القتال ، كعلاج
المرضى وتقديم الماء وإعداد الطعام ومناولة السهام . . غنم المسلمون
غنائم كثيرة من مال ومتاع بعد انتصارهم في البويب ، فبعث المثنى إلى
النساء والأطفال بنصيبهم ، حملة عمرو بن عبد المسيح إلى مكان تجمعهم
في القوادس .

الأرض

هى أرض الأعداء التى يضع المسلمون أيديهم عليهم .

وكانت أرض بنى قريظة وبنى النضير هى أول أرض استولى عليها المسلمون ، ولقد قسمها رسول الله بين الفاتحين « قال صاحب الإمتاع » « فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ، بعث ثابت بن قيس فدعا الأنصار كلها ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين ولمنزألهم إياهم فى منازلهم وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال : إن أحببتهم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دياركم . . . فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . . . ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

وعندما صالح الرسول يهود خيبر وفدك ، رأى أن يترك الأرض لهم يزرعونها ويدفعون نصف أموالها ، وكانت حكمته عليه السلام أن الأرض فى حاجة إلى الأيدي العاملة للعناية بها وزراعتها ، ولم يكن من اليسير أن يزرعها المسلمون ورسول الله فى حاجة إلى سواعدهم للحرب .

ولقد اختلفت الآراء بالنسبة للأرض ... رأى قال بضرورة بقائها فى

أيدى أهلها على أن يؤدوا ضريبة الخراج ، ويكون هذا الخراج فيئاً للمسلمين على مر الأيام ينتفعون به ، ورأى قال بتوزيعها على المقانين .

وانضم عمر إلى الرأي الأول ، فلما ولى الخلافة أخذ بمضمونه ، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص فقال « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوكم أن تقسم الأرض بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجاب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر (أى من حارب) لم يكن لمن بعدهم شيء » .

ولم يسترح الناس لرأى عمر فقالوا « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا؟ » ، فلم يزد على أن قال « هذا رأيي » ، فقالوا له وقد رأوا تصاليه وتمسكه برأيه « فاستشر » ، فجمع الأولين من المهاجرين ، وطرح عليهم المشكلة فاختلفت الآراء ... ذهب عبدالرحمن بن عوف إلى ضرورة تقسيم الأرض بين الفاتحين لأن هذا حقهم « ما الأرض والعلاج إلا ما أفاء الله عليهم » ، وذهب عثمان وعليّ وطلحة مذهب عمر .

واتخذ عمر خطوة أكبر ، فدعا مجلساً يضم عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وقال لهم « إني لم أزعجكم إلا لتشركوا في أمانتي فيما حلت من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقررّون بالحق ، خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تقهروا هذا

الذى هو هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق » ، قالوا « قل نسمع يا أمير المؤمنين » ، قال « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً ! لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيتُ ، لكننى رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوهم ، فقسمتُ ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجتُ الخمس فوجَّهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوها ، وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية ولن يأتى بعدهم ، أرايتم هذه الثغور لابدَّ لها من رجال يلزمونها ... أرايتم هذه المدن العظام لابدَّ لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابدَّ من إدارار العطاء عليهم ، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسمت الأرضون والعلاج ؟ » .

كان هذا هو رأى الخليفة ، قاله فى صراحة وبوضوح ، وتشاور الناس ، وانتهاوا إلى أن رأى الخليفة يتفق مع مصلحة الدولة ، ويتناسب مع وضعها وظروفها ، فوافقوا عليه بالإجماع ، وقالوا له « الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجبرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم » ، فسألهم عمر « قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلاج ما يحتملون ؟ » ، فقال القوم إن خير من يقع عليه الاختيار هو عثمان بن حنيف « تبعته إلى أهم ذلك ، فإن له بصراً وعقلاً وتجربة » ، فولاه عمر أرض السواد .

ولقد امتدح أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم مؤلف كتاب « الخراج » رأى عمر فقال « توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الحيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك ، وقسمته بين المسلمين ، عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل السكقر إلى مدنها إذا خلت من المقاومة » .

وقيل إن جباية الكوفة وحدها قبل عام من مقتل عمر مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وبلغ خراج العراق في عهده ثمانية عشر مليوناً من الدراهم كل عام .

وكان الولاة يجمعون الخراج ، ويدفعون منه أرزاق الجنود ، وما يحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح ، ويرسلون الباقي إلى بيت المال .

وكان عمرو بن العاص ينفق من خراج مصر ما يحتاج إلى إنفاقه في حفر خابجانها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جرائرها ، ثم يبعث ما يتبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين .



هذه هي بعض المشكلات التي كانت تظهر بعد المارك ، ولقد عالجها

المسلمون اعتماداً على القرآن الكريم وما نصت عليه آياته المحكمات ، ثم اعتماداً على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعتماداً على اجتهاد أهل الرأي .

وبهذه المعالجة تكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد وضعت حلولاً لمواجهة أية مشكلة تنجم عن الحرب ، بروح الحق والعدل ومصلحة الأمة الإسلامية والإسلام .

للحرب مبادئ

وهذه المبادئ تمهد الطريق إلى النصر .

والقائد الذي يلم بها ويفهمها ، ويضع خططه على أساسها ، ويطبقها في معاركه ، ويلتزم بها في مراحل الاستعداد والقتال ، يضمن إلى حد ما النصر ، ما لم يتدخل عامل آخر يغير موازين المعركة إلى غير صالحه .

ولقد استقرت آراء كثير من العسكريين ، على أن هذه المبادئ تؤدي إلى الغرض من الحروب ، وتحقق الهدف ، أي أنها وسائل تمكن من الحصول على نتائج معينة .

واتفقت كافة الآراء على أن مبادئ الحرب لا تخرج عن الحشد وادخار القوى والمباغلة والتعرض وخفة الحركة والسلامة والتعاون والمطاردة .

واختلف العسكريون في تحديد المبادئ من وجهة نظرهم ، فكلادوزفنز مثلاً جعل التعاون واحداً من هذه المبادئ ، وأغفل النظر عن المطاردة التي اعتبرها هندرسن في مقدمة هذه المبادئ .

واهتم العسكريون في مختلف المدارس العسكرية بدراسة المبادئ وتحديداتها وتوضيح أهميتها ، حتى أن نابليون قال مرة « إذا وجدت الوقت الكافي لدى فسوف أضع كتاباً أوضح فيه مبادئ الحرب بطريقة سهلة بسيطة لتسكون في

متناول أى جندى »

وفي مقدمة هؤلاء الذين اهتموا بدراسة وتحديد مبادئ الحرب كلاوزفيتز وهندرسن وجوميني وفولير وفوش... والمهم الذى يثير الاهتمام أن موضوع مبادئ الحرب كان موضع الدراسة والبحث خلال فترة قريبة ، لا تمحداً ببدأ إلى العصر الإسلامى ، وبما يثير الانتباه أن هذه المبادئ عرفت فى ظل المدرسة العسكرية الإسلامية وطبقت بمهارة وكفاءة ومقدرة ، ارتفعت إلى مستوى التجربة المفيدة والدروس النافع لسكافة العسكريين الذين جاءوا فى عهود ما بعد الإسلام ، فلما انشغلوا بها نسجوا إلى أنفسهم فضل اكتشافها والإعلان عنها وتطبيقها .

ومع الأسف الشديد ، فإن المؤرخين الذين أرخوا تاريخ الحروب الإسلامية أرخوا كحداث ، ولم ينظروا إليه كفن ، ولم يعرضوه كدراسة ، ولو فعلوا ذلك لقدّموا للكتاب الذين تخصصوا فى الدراسات العسكرية نبعا لا يحف وفكراً لا ينجو .

وهناك حقيقة ثان لا بد من أن تكونا واضحتين أمام القارىء ...

الأولى ... إن تطبيق مبادئ الحرب فى الحروب الإسلامية تم بمعرفة قادة نشأوا فى البادية ، لم ينتظموا فى كليات أو أكاديميات عسكرية ، ولم يقرأوا كتباً أرخت للحروب التى سبقت عهدهم ، ولم يختلطوا عسكرياً بالأمم التى كانت فى زمانهم ، ولكنهم توصّلوا إلى هذه المبادئ بفكر ناضج وإحساس صادق وتفهم كامل وإدراك واعٍ وقدرة فائقة ، بالإضافة إلى ما كانوا يتسمون به من صفات المحارب .

الثانية .. إن القواعد العسكرية اختلفت فيما بينها على تحديد المبادئ ،
وذهبت كل منها مذهباً ، وتمسكت ببعض منها دون الآخر .

فكلاوزفيتز مثلاً حدد مبادئ الحرب بأربع فقط هي : التعرض ،
والحشد ، وخفة الحركة ، والمناورة ، ورأى أن التعاون يدعم
هذه المبادئ .

وهندرسن : جعلها اثنتين : المفاجأة ، والمطاردة .

وجوميني : قال إنها خمس .. حرية الحركة ، وخفة الحركة ، وحشد
القوى ، والعرض والمباغمة .

وفوش : رأى أنها لا تخرج عن ادخار القوى ، وحرية العمل ، وتوزيع
القوات ، والسلامة .

وفوللير : كان أكثر هؤلاء تعريقاً للمبادئ ، فحدد لها في الحشد
والمباغمة ، وادخار القوى ، وخفة الحركة ، والتعرض ،
والسلامة .

أما الإسلام فقد توصل إلى كافة هذه المبادئ ، وطبقها بالكامل في
حروبه ، ونفذها بجسارة وقدرة ، مما يعد نقطة إشراق في تاريخه العسكري ،
وبذلك تكون المدرسة العسكرية الإسلامية أقدم المدارس تحديداً لمبادئ
الحرب وإدراكاً لأهميتها ، وتطبيقاً لها في كل معاركها منذ أذن المسلمين
بالتقاتل .

ونحن لا نريد أن ندعى كذباً أن الإسلام هو الذي أوجد هذه المبادئ
أو قررها أو وضع يده عليها ، فإن حروباً كثيرة قامت قبل الإسلام وقد

تكون بعض هذه المبادئ، قد روعيت في هذه الحروب ، ولكن ليس بالأسلوب الذى استخدمت به في حروب الإسلام ، لأن ما من معركة إسلامية إلا وكانت مبادئ الحرب منهاجها وأساسها كما سنوضح فيما بعد .

[١] الحشد

وهو يعنى جمع أكبر قوة ممكنة في مواجهة العدو .

وهو في مفهوم الإسلام « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

وإذا عدنا بالذاكرة إلى حروب الإسلام ، فإننا نجد أن هذا المبدأ لم يطبق أصلاً في غزوة بدر ، وذلك لأن المسلمين لم تتوفر لديهم عند الخروج نية القتال ، ولأنهم أجبروا على المواجهة ، فقد كان همهم الأول هو الاستيلاء على قافلة أبي سفيان ، وكما سبق القول في موضع سابق كانت هذه القافلة في حراسة ضعيفة لا ترقى إلى مستوى القتال ، وكان الرسول الكريم وقت خروجه يخشى أن تقلت القافلة في عودتها كما أفلقت في ذهابها فيضيع على المسلمين بعض التعويض الذى كانوا يأملونه عن أموالهم وديارهم التى فقدوها عند هجرتهم إلى المدينة ، ومن هنا كانت دعوة الرسول « لا يبق معنا إلا من كان ظهره حاضراً » حتى إن رجالاً كانت ظهورهم في عوالى المدينة ، فطلبوا منه عليه السلام أن ينتظر حتى يرافقه ، فأبى ، لأنه لم يكن عازماً على المواجهة متأهباً للقتال .

وقد بذلت محاولات لإيجاد توازن بين قوى المسلمين وقوى أعدائهم ، ولكن ظل التفوق العددي في جميع غزوات الرسول للعدو ، وكان التفوق

المعنوى يعوض المسلمين هذا النقص ، ودليل ذلك أنهم انصرفوا في معاركهم كلها ، اللهم إلا في غزوة أحد ، التي تحولت فيها كفة المعركة نتيجة عامل مفاجئ هو مخالفة فئة من المسلمين هم الرماة أوامر الرسول ، ولو ثبتت هذه الفئة في مواقعها طبقاً للتعليمات والخطط لظل النصر في جانب المسلمين .

ولإن هذا لايعنى أن القيادة في عهد الرسول أهملت مبدأ الحشد، ولكنها كانت تطبقه في حدود إمكانيات المسلمين وعددهم ، فالإسلام كان في بدايته يخطو خطواته الأولى على الطريق ، والمسلمون كانوا يتزايدون ببطء ، والجيش الإسلامي كان يضم كل مسلم صحيح الإسلام قادر على حمل السلاح ، والقيادة الإسلامية كانت ترفض انضمام غير المسلم إلى صفوف مقاتليها ، كما كانت تمنع صفار السن وضعاف الإيمان من أن يكونوا مقاتلين .

ومع هذا فإن الجيش الإسلامي بلغ في آخر غزوة قام بها الرسول في العام التاسع الهجري وهي غزوة تبوك أكثر من ثلاثين ألفاً من المقاتلين منهم عشرة آلاف من الخيل ، وهو عدد كثيف بالنسبة للسك الذي كان عليه المسلمون خلال فترة قصيرة .

ولقد بدأ مبدأ الحشد يقال اهتماماً بالغاً من القيادات التي خافت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوبكر حين أراد أن يحارب المرتدين ومافى الزكاة حشد لهم أحد عشر لواءً ، وعندما أدرك حرج موقف جيوشه التي تواجه الروم في اليرموك لعدم تناسبها كما مع عدد العدو سير خالد بن الوليد من العراق دعمًا وقوة .

وكان هذا هو شأن عمر حين أُنقِيت على عاتقه مسئولية الدولة ، فقد حرص على أن يمدّ جيوش المسلمين في العراق بصفة مستمرة ، كما حرص على أن يمد عمرو بن العاص في مصر بقوات عاونت كثيراً في تسهيل مهمته . . . وكان يقول بنفسه لإعداد الإمدادات وحث الناس والإشراف على تجهيز الجيوش وتحركها . . . خاطب الناس في المسجد في أمر الخروج إلى العراق ، فقال لهم « أيها الناس ، إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على الفجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها » .

ولإيماناً منه بمبدأ الجشد كان يفرى الناس بالخروج ، وقد عرض على بنى بجيلة الربع من خمس ما بقيء الله على المسلمين إضافة إلى نصيبهم من النوى . . . حدث داوود بن أبي هند قال « أخبرني الشعبي أن عمر وجه جرير بن عبيد الله إلى السكوفة بعد قتل أبي عبيد — أول من وجه — وقال : هل لك في العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس » .

ولعمرو خطوتان جديرتان بالذكر في هذا المجال ... أولاها ... أنه سمح للمثنى بن حارثة خلال قتاله في العراق أن يضم إلى قواته بعضاً من نصارى العرب المقيمين هناك ، كنصارى تغلب ونصارى بنى النمر ، فقاتلوا بجانب المسلمين في شجاعة واستمسال ، حتى إن مهران الهمداني قائد الفرس لقي مصرعه على يد واحد من نصارى تغلب ... وثانيهما ... أنه سمح للمسلمين الذين كان تيار الردّة قد جرفهم بعيد وفاة الرسول ثم عادوا إلى الإسلام ، بالمشاركة في القتال ، أملا في أن يزيد حجم الجيش الإسلامي في مواجهة عدوله تفوق بشري كبير ، وكان أبو بكر قد

رفض بإصرار السماح لهم بالمشاركة في القتال ، ولسكن عمر أراد أن يكسب بهم قوة ، وأن يمنحهم شرف القتال ، وأن يعطيهم فرصة التكفير عن خطأ وقعوا فيه .

الذي أريد أن أنتهى إليه هو أن المسلمين اهتموا بالحشد اهتماماً يتفق مع إمكانياتهم وقدراتهم ، وأنهم حرصوا على أن يكون الحشد متناسباً مع حجم العدو وحجم المعركة ، ولسكنهم مع هذا الإهتمام والحرص كانوا يخوضون المعركة معتمدين أساساً على معنوياتهم ، بغض النظر عن حجم عدوهم وكثافة جنده وكثرة عدده ، في ضوء قوله تبارك وتعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . »

لقد حشدت القيادات الإسلامية حشوداً ضخمة لمواجهة الغارات المتعددة التي تعرضت لها البلاد الإسلامية والأماكن المقدسة ، واستطاعت هذه الحشود أن توقف تيار المغول والقتار في عين جالوت ، وأن تقهر الصليبيين في حطين والمنصورة .

[٢] إدخار القوى

إن أهم العوامل التي تسيطر على القائد خلال المعركة — على حد قول كلاوزفيتز — هو حشد مجموع قواته على ألا ينفصل عنها سوى ما تتطلبه الحاجة القصوى ، ولقد عرفت المدرسة العسكرية الفرنسية — التي يجيء نابليون على رأسها — إدخار القوى بأنه حشد أعظم قوة تجاه الغرض الأساسي مع تخصيص القوات الأقل للعمليات الثانوية .

وهذا يعنى حشد كل القوى الممكن إعدادها واشتركها فى القتال بإزاء الغرض الرئيسى الذى تسكون فيه هزيمة العدو ، مع تجنب اسقبعاد أية قوات إلا ما تتطلبه الحاجة القصوى كما قال كلاوزفيتز ، فالقائد قد يجد نفسه مضطراً إلى توجيه قوة من جيشه المحتشد تحت قيادته إلى غرض يهدف به إلى شغل قوة من العدو مجتمعة فى مكان بعيد أو قريب من المعركة ومنعها من المشاركة فيها ، أو يهدف به إلى توجيه نظر العدو إلى حيث لا يكون الهجوم الرئيسى أو الضربة القاصمة ، أو يهدف به إلى أن تسكون هذه القوة المنفصلة قوة وقائية تستر القوات الرئيسية وتحميها وتؤديها فى اللحظة الحاسمة .

هذا المبدأ تلميه ظروف العدو وخطته وطبيعة المعركة ، وقد كان له نصيب كبير من اهتمامات المدرسة العسكرية الإسلامية .

فى أحد جعل الرسول جماعة من المسلمين على رأسها الزبير بن العوام وقال له « استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه » . . كما كلف جماعة من الرماة عليهم عهد الله بن جبير بأن يتخذوا مواقعهم على الجبل ليجموا ظهر قواته . . وعزل هاتين القوتين عن الجيش لا يؤثر على قوة الهجوم بقدر ما تنقده ، لأنها تشغل بعض قوات العدو عن المعركة الرئيسية .

وعند فتح مكة أراد رسول الله أن يخفى عن قريش تحركه إليهم ، فأعد سرية من ثمانية أفراد عليهم أبو قتادة بن ربعى ، وأمره بالسير فى اتجاه مكان يقال له بطن أضم ، ليوجه الأنظار بعيداً عن الهدف الرئيسى للهجوم .

وفي خلال الهجوم على دمشق وضع أبو عبيدة بن الجراح خطته على أساس أن يكون هناك هجوم عام شامل تقوم به قواته مباشرة على دمشق ، ولكنه في ذات الوقت كان يدرك أن للعدو قوات في فحل ، وخشى أن تتحرك هذه القوات لتعاون قوات دمشق ، فأمر بعض رجاله بقيادة أبي الأعور السلمي بمواجهة القوات في فحل ، ومنعها من مغادرة مواقعها ، وأدت هذه القوة واجبتها بكفاءة وأمانة حتى تم دخول دمشق .

وخلال حصار دمشق أسر أبو عبيدة قوة بقيادة ذى الكلاع الحميري بالمناورة في المنطقة ما بين دمشق وحصص ، وأمر قوة أخرى بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العبسي بالمناورة في المنطقة ما بين دمشق وفلسطين ، خوفاً من أن يحرك هرقل أية قوات من هذه المناطق إلى دمشق . ولما انتهت مهمة الجيش بدخول دمشق ، تحركت كل القوة الإسلامية بقيادة أبي عبيدة يعاونه خالد بن الوليد إلى فحل وحصص ، وتم لها احتلال الموقعين .

وحين صدرت الأوامر إلى عمرو بن العاص باحتلال أجنادين ، لاحظ — وهو رجل حرب له خبرته وكفاءته وقدرته — أن أوطبون قد وضع قوات له في إيلياء والرملة ، وكانت هذه القوات شوكة في جانب جيشه ، وكان لا بد له من أن يتصرف في حدود القوة التي يقودها ليحقق الهدف الذي كلف به . فصل عمرو قوتين صغيرتين من جيشه ، وكلّف الأولى بقيادة علقمة بن حكيم بمواجهة قوة إيلياء ، وكلّف الثانية بقيادة أبي أوب المالكى بمواجهة قوة الرملة ، وأمر القوتين بمنع أى تحرك لقوات الروم في اتجاه أجنادين ، وبذلك تفرغت القوة الرئيسية — وهى تمثل الجانب الأقوى — (٣٩ - المدرسة العسكرية الإسلامية)

للمعالمية الرئيسية ، ونجحت في مهمتها ، وهزم أرطهون ، وهال للفصر عمرو بن الخطاب وقال « غلبه عمرو ... لله عمرو » .

وفي موقعة هاليوبوليس فصل عمرو كتيبتين ، وحدد لهما هدفا ، هو مهاجمة جيش الروم عند اشتداد القتال فقط ، وتقدم هو بالقوة الرئيسية لمواجهة الروم في الموضع الذي يسمى اليوم « العباسية » ، فلما اشتد القتال وحى وطيسه وعلا غبار المعركة ، خرجت القوتان من مواقعها وشاركتا في القتال .

وبينا المثنى يطارد أعداءه في اتجاه المدائن ، أمر قسما من جيشه عليه أخوه المعنى بمهاجمة حصن المرأة ، بينما استمر الجيش الرئيسى في مهمته .

وأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص خلال القتال مع الفرس أن يبعث بأجزاء من قوته إلى أهداف ثانوية ، بشرط ألا تؤثر في قوة الجيش من ناحية ، وألا تعطل الهدف الأكبر من جهة أخرى ، وحقت هذه القوى أغراضها ، وسهلت مهمة الجيش الرئيسى . . فمثلا تحرك عبد الله بن المعتم إلى تسكريت ، وربعى بن الأفسكل إلى الحصنين ، وعمرو بن مالك إلى هيت ، وضرار بن الخطاب إلى ماسبذان ، وهاشم بن عتبة إلى جلولاء ، وجوير بن عبد الله إلى قرمسين . . وهذه كلها أهداف ثانوية لم يؤثر الانشغال بها عن الهدف الرئيسى ، بل مهدت الطريق أمام المسلمين وهم يخوضون المعركة الكبرى التى سميت فى التاريخ باسم « فتح الفتوح » ، التى قضت نهائيا على الدولة الساسانية فقامت على أنقاضها دولة الإسلام .

[٣] المباغطة

وتسمى فى حروب اليوم المماجة .

وهى معنى الظهور أمام العدو فى وقت لا يقدره وبصورة لا يتوقعها ، وبأسلوب يجعله .

وهى بهذا المعنى تؤدى إلى ارتباك خطير فى فكر العدو وتخطئه ، فوق أنها تثير الرعب بين الجنود ، فيفقدون اتزانهم وتهتز أعصابهم ، ويصبحون غير قادرين على المواجهة والقتال ، وهنا تحمل بهم الهزيمة .

والقائد الماهر الذكى هو الذى يجتهد فى أن يضع خصمه فى الموضع الذى يصبح فيه أسلوب الإرادة مقيد التفكير لاحتول له ولا قوة ، ضعيفاً لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل ، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه وحمايتها .

والمباغطة قد تكون عديدة ، أى أن يواجه العدو بقوات كبيرة كثيفة لم تكن فى حسبانها . . . وقد تكون فى وقت لا يتوقعه العدو . . . وقد تكون فى جبهة لا يقدر العدو أهميتها فتكون هى مقبرته . . . وقد تكون باستخدام سلاح جديد يجعله العدو .

وتتم المباغطة إذا تحققت لها سهولة الحركة ومربتها ومرعتها .

وكان للمباغطة دور وأى دور فى الممارك الإسلامية . . ومن أول مظاهرها روح القتال التى انصف بها الجند المسلمون الذين قاتلوا فى بدر ، فقد توهمت قريش أن ظهور أشرفها أمام رجال محمد — وقد

كانوا في مكة عبيداً لهم وعانوا العذاب المرير على أيديهم قبل هجرتهم —
سيملاً قلوبهم رعباً وفزعاً وخوفاً فيحجمون عن القتال . . . ولسكن حين
بأشر المسلمون القتال ، فوجئت قريش بهؤلاء يحاربون بكل قوة وشجاعة
وبأس ، حتى كان انتصار المسلمين في بدر معجزة فريدة في تاريخ الحروب ...
وكانت هذه المفاجأة ذات وقع أليم على قريش ، فقد رجالها — وهم رجال
لهم قدرهم ومكانتهم — رشدتهم ، حتى إن الواحد منهم كان لا يعي نفسه
أمراً ولا يرى مخرجاً ولا يجد طريقاً للإنجاة ، والمسلمون من ورائهم يضربون
بالسيف ، ويقطعون الرؤوس ، وينازلون الأشراف فيقتلونهم . . . ولقد
امتد أثر هذه المفاجأة إلى داخل مكة ، حيث كان أبو لهب ، فلما سمع
بما حدث ، وبمصرع رجالات قريش ، أصابته حمية من كثرة السكدة والهم
فمات ، ولم يكن قد جف على قتلى بدر تراب القليب .

وكانت صورة أخرى للمهاجمة في الخندق .

فقد اجتمعت الأحزاب لتحارب الرسول وتستأصل دينه ، وكلمهم
أمل ورجاء في أن يكون تحركهم الضربة الواثقة والطعنة القاضية ،
فكيف لحمد ورجاله أن يواجهوا هذه الآلاف العشرة التي جمعت بينها
الرغبة في القضاء عليه والتخلص منه . . . تحركت القوة بقيادة أبي سفيان إلى
المدينة ، وهناك كانت المفاجأة . . . أقام المسلمون حول المدينة نوعاً جديداً
من وسائل الدفاع كانت قريش وحلفاؤها يجهلون . . . كان هناك الخندق
الذي أشار بحفره سلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله « سلمان منا
أهل البيت » . . .

وذَهَلت قريش . . وأخذت تنسكر في هذا الأسلوب الجديد . . كيف
يحتازونه ؟ وكيف يصلون إلى المسلمين ؟ وكيف يحققون هدفهم من التحرك ؟
وضاعت الإجابات مع الرياح الشديدة التي ثارت وهبت ، ومع العواصف
الرملية التي اجتاحت المنطقة . .

ونجحت المباغنة في تحقيق هدف رسول الله بأن يكون دخول مكة
دون قتال ، فقد سار إليها دون أن تعلم قريش بمسيره ، حتى بلغ رءوس الجبال
حول مكة ، وكان من أثر المباغنة أن أدرك أبو سفيان أنه لا قبل لمكة
بالجيش ، فقال لقومه « هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به » ، ودخل
المسلمون مكة دون قتال ، نتيجة مباشرة لعنصر المباغنة ، الذي أفقد قريش
كل قدرة على الاستعداد والمواجهة ، فاستسلمت ووقفت في خضوع لم تعوده
تنظر حكم رسول الله فيها ، وهم يقولون له في انكسار « أخ كريم
وابن أخ كريم » .

قلنا إن المباغنة تعتمد على الحركة ... سهولة وسريّة وسرعة .

وكانت الحركة بمقوماتها الثلاث أساس عمليات كثيرة في عهد
الرسول ، كما حدث في غزوة بني المصطلق ، حيث فوجيء القوم بظهور
الرسول أمامهم ففروا ، وكما حدث في غزو خيبر ، إذ كانت سرعة
المسلمين في التحرك سبباً في الوصول إلى المدينة في ثلاثة أيام ، ففوجيء
الفاط بهم فهربوا وهم يتصايحون « هذا محمد والجيش معه »

هذه أمثلة من المباغنة على عهد رسول الله ... وأمثلة المباغنة في
الحروب الإسلامية كثيرة . بكافة أنواع المباغنة ، ولقد اهتم القادة

المسلمون في كل القطاعات والأزمنة بتحقيق المفاجأة في معاركهم ، لها لها من آثار نفسية ومعنوية على الجيش المعادي .

ونود أن نشير إلى أن المسلمين قد تعرضوا خلال غزوة حنين إلى مباغطة لم تكن لهم على بال ، وكان تأثيرها رغم كثافة عددهم قوياً وعنيفاً ، حتى اختلط أمرهم وفروا من المعركة - كل يطلب النجاة - حين هاجتهم قوات هوازن وهم ينحدرون من مضيق حنين في واد من أودية تهامة ، وكان الهجوم مباغتاً في توقيعه ، مما أدى إلى اختلال صفوف المسلمين ، وعمت الفوضى ، ولولا شجاعة رسول الله لتغير الموقف تماماً ، ولتلقى المسلمون هزيمة منكرة . . لقد صمد رسول الله وثبت في موقعه ، وأخذ ينادى على المهاجرين والأنصار ويدعوهم إلى نصرته الله ، فاستجاب الناس وعادوا إلى المعركة ، وقاوموا وصمدوا وكان النصر لهم .

وتعرض المسلمون للمباغطة في معارك كثيرة ولكنهم تمكنوا من أن يتغلبوا على آثارها فور وقوعها فهجته المقومات القتالية التي كان يتميز بها الجند المسلمون .

[٤] التعرض

وهو يعنى الهجوم ، ويقولون إنه خير وسائل الدفاع ، فهو يعطى المهاجم فرصة السيطرة ، وحرية العمل ، ويمنحه روحاً عالية ، ومعنويات مرتفعة ، وإحساساً بالقوة والقدرة .

وهو لا يؤدي في كل الظروف إلى النصر ، ولكن الانتفاع بآثار بقود إلى النصر ، فالهدف الأساسي منه هو كسر شوكة العدو ، وإضعاف قدرته على المقاومة ، وتحطيم روحه المعنوية .

والتعرض عمل عقلى ومعنوى ومادى ، فالرغبة فى النصر تمثل القوة الثابتة ، والمقدرة على التنفيذ هى العمل الحاسم ، وهو لا يكون مجدياً إلا إذا استكمل مقوماته العقلية والمادية والمعنوية .

والتعرض يقوم أساساً على استخدام كل ما يمكن لإعداده من سلاح وقوة بشرية ، وهويتوقف على خفة الحركة وقوة العزيمة ، وإمكانية المواجهة والتحمل .

ولم تنب أهمية التعرض وخطورته على القائمين على شئون الحرب الإسلامية ، وفى عهد رسول الله كان المسلمون فى غالبية غزواتهم هم المهاجمون .. فى بدر .. فى أحد .. فى مؤتة .. فى الفتح .. فى حنين .. فى الطائف .. فى تبوك .

وفى عهد أبى بكر هاجم المسلمون المرتدين ومانئى الزكاة .

وفى عهد عمر انتقلت حركة الجيوش الإسلامية إلى خارج الجزيرة ، وكانت معارك الإسلام فوق أرض أعدائهم .

فى الشام حيث تقدموا بعد اليرموك من موقع إلى آخر . . من اليرموك إلى دمشق .. إلى نخل .. إلى حمص .. إلى باقى أنحاء البلاد .

فى العراق حيث اجتاحت الأرض بمن عليها فى مواقع متعددة ، بدأها خالد فى السكاظم (كاظمة) ، حيث تحقق أول انتصار على الفرس ، وأنهاها سعد بن أبى وقاص فى المدائن حيث قضى على دولتهم .

فى مصر وشمال أفريقيا حيث انتصر عمرو فى الفرما ، ثم توالى انتصاراته

حتى دخل المسلمون بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد الأندلس .
 في آسيا حيث وصلت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الهند والسند والصين .
 وإذا شئنا أن نقدم أمثلة للتعرض الإسلامي فإن هذا يعني أن نفشر
 تاريخ الحرب الإسلامية كلها ، وإفنا لنرجو أن نوضح ، أننا حين نقول
 إن الإسلام اعتمد في عملياته على مبدأ التعرض ، لا نعني أن الإسلام كان
 معتديا ، فالتعرض الإسلامي كان نوعاً من الدفاع ، واتخاذ مبدأ التعرض كان
 لمواجهة قوات تستعد وتهاجم وتتجهز للتحرك ضد المسلمين ، فواجهتها
 والبدء بالهجوم يقلب أفكار القادة ، ويزعزع الثقة ، ويضعف المعنويات .

[٥] خفة الحركة

وهي تعني القدرة على الحركة والمناورة والانتقال السريع .
 ولعبت خفة الحركة دوراً أساسياً في الحرب الإسلامية ، فالمسلمون في
 الأصل عرب سكنوا الصحراء وأقاموا بالبادية ، كانت حياتهم تحركاً دائماً
 يعتمد على الخفة والسرعة والمناورة واللياقة وحسن الإعداد النفسى .

كان رسول الله إذا بلغه نبأ تجمع يستهدف ضرراً بالمسلمين أو تحركاً
 ضدهم ، أسرع إلى مواقع التجمع ليواجهه ، قبل أن يستفحل أمره ، كما حدث
 في غزواته عليه السلام ضد بني لحيان ، وبني محارب ، وإلى بواط ، والعشيرة ،
 وسفوان .

وكان عليه السلام يسرع بإرسال مرابيه ، إذا أحس بخطر يهدد مواقفه
 في مكان ما ، كما حدث في سراياه إلى بني أسد ، وذى القعدة ، وبني سليم ،

وبنى كلب ، وغيرهم .

وكافة الفارات التي قام بها المسلمون في العراق فيما بين سوق الخفافس ، والأنبار ، وبادوريا ، وقطربل ، وسوق بغداد ، وتكريت ، حققت نجاحاً كبيراً ، لأنها اعتمدت أساساً على خفة الحركة .

ويعد تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك ، نموذجاً لخفة الحركة ، فقد سار بقواته في بادية لاماء فيها ، وقطع المسافة في فترة وجيزة هي خمسة أيام ، وهي مسافة تقطعها السيارة الآن في عشرين ساعة مع فترات استراحة (يبلغ طولها ثمانمائة وستين كيلو) .

واعتمد عمرو بن العاص حين تعذر عليه فتح حصن بابلين على خفة الحركة في التقدم تجاه الفيوم ، حيث ناور كتيبة يقودها حنا وقضى عليها . . وقد أذهل هذا التحرك الروم ، فلم يكن يخطر ببالهم أن يتحرك عمرو من بابلين إلى الفيوم بهذه السرعة ، ثم يعود مرة أخرى إلى بابلين ، بعد أن يكون المدد قد وصل إليه .

ويعطى احتلال صبراته مثلاً حياً لخفة الحركة ، فعندما انتهى عمرو من احتلال طرابلس ، أمر قواته بالتقدم على الفور إلى صبراته ، وتحركت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ليلاً ، وأصبح الصبح وهو يدخل المدينة ، وأهلها مشغولون بإخراج حيواناتهم للمرعى ، واحتل عبد الله المدينة دون قتال ، وروى ابن الحكم « كان من بصيرة متحصنين ، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم ، أمنوا ، فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس ، جرد خيلاً كثيفاً من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة صبرة ، وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، ولم ينج منهم أحد ، واحتوى عمرو على ما فيها » .

واعبت خفة الحركة دوراً كبيراً في حروب الحيرة ، فقد سد الفرس شهر
الفرات ، وفجروا مياهاه في أنهار فرعية ، فوقفت السفن التي تحمل جيش
المسلمين ، وجنحت بمن فوقها من الجند والعتاد ، وفقد المسلمون القدرة على
التصرف ، إلا أن خالداً لم يشأ أن تفلت الفرصة من يده ، فأسرع مع كتيبة
من الخيل بأقصى سرعة إلى حيث ابن المرزبان الذي سد النهر ، فوجده
ورجاله وخيله يغطون في نوم الأمان والغرور ، فهاجمهم وأتى على آخر رجل
فيهم ، وسد الأنهار الفرعية ، فجرى الماء في الفرات ، وسارت السفن بأحمالها .

[٦] السلامة

من أهم واجبات سلامة قواته ، وحماية خطوط مواصلاتها ، واتخاذ
الحيطة اللازمة حتى لا تباغت .

وكانت حماية وسلامة القوات الإسلامية المقاتلة في مكان الصدارة
في تفكير القيادات العسكرية الإسلامية على مختلف مستوياتها منذ
عهد رسول الله .

والأصل في الحرب الإسلامية هو السلامة والحماية ... أى سلامة
الدعوة وحماية المؤمنين بها الداخلين في الإسلام ، فبعد سنين طويلة من
الصبر على الأذى والعدوان ، قورت السماء أن تحمى كل مؤمن اختار
الإسلام ديناً ، ولهذا فرضت الحرب في الإسلام حماية له وسلامة لأهله .

وعندما استعدت قريش للهجوم على المدينة في غزوة أحد ، بعث
العباس عم الرسول بكتاب إليه ينبئته بالتحرك ، فلما تسلم الرسول الكتاب ،
دفع به إلى أبي بن كعب ليقراه ، فلما عرف ما به طلب منه أن يكتب أسراً

السكراب ، ثم تصرف عليه السلام بسرعة ، فأمر بإعداد حراسة شديدة على المدينة خلال الليل ، وأرسل جماعة استطلاع تكشف له الأمر وتمده بالمعلومات .

وفي خلال الغزوة أرادت كتيبة من يهود حلفاء عبد الله بن أبي أن تسهم في حرب قريش فرفض الرسول قائلًا « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا » ، ورفض رسول الله أن يسمح لغير المسلمين بالإسهام في الحرب حرصاً منه على سلامة قواته .

وعندما أرسل رسول الله لواء يقوده أبو سلمة بن عبد الأسد لمحاربة طليحة وسلمة ابني خويلد ، أمره بالسير ليلاً والاختفاء نهاراً ، وأن يسلك طرقاً غير مطروقة .

وفي غزوة ذات الرقاع خشي الرسول أن يهاجمه بنو غطفان ، فقال لقومه « من يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ » ، وتقدم عمار بن ياسر وعبادة بن بشر ، فتناوبا معاً الحراسة .

وفكرة الخندق تقوم أساساً على مبدأ السلامة ، فقد تجمعت قريش وحلفاؤها في أعداد ضخمة تشكل خطراً على المسلمين ، الذين كانوا حتى هذه المعركة قلّة لا يستطيع أن تواجه هذه الجوع ، ومن هنا برزت فكرة الخندق كأسلوب جديد للدفاع ، وحققت الفكرة هدفها .

ومنع عمرو بن العاص قواته على أثر انتصاره في عملياته ضد قضاة من مطاردة الفارين ، خوفاً من أن يعودوا أدراجهم بقوات أكثر وأضخم ، فيصعب صدّهم وهم يشنون هجوماً مضاداً ، وخاصة أنهم يحاربون فوق أرضهم . . كما أنه منع رجاله من إيقاد النار ، فأفسد ذلك عمر بن الخطاب ، وطلب من أبي بكر أن يحدّثه في ذلك ، فأغلظ عمرو له وقال « لا يوقد

أحد نارا إلا قذفته فيها » ، ولما عادوا شكوه إلى رسول الله ، فقال عمرو موضحاً وجهة نظره « لقد خذت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وكانت سلامة الأراضي التي أصبحت في حوزة المسلمين في فلسطين وبلاد الشام هي الدافع الأساسي لفتح مصر ، حيث تجمع قوات كثيرة تابعة للروم تشكل خطراً جسيماً على القوات الإسلامية في شرقها .

وتصرف عمرو بعد احتلاله الفرما وهو في طريقه إلى مصر ، يؤكد حرصه الشديد على سلامة قواته ، فقد هدم أسوارها ودك حصونها ، حتى لا يستفيد منها الروم إذا عادوا إليها ، ووضعوا أيديهم عليها ، كما أمر بحرق السفن الراسية في المرفأ القريب منها ، حتى لا يستغلها العدو ضده .

وعندما أصيب المثني بن حارثة إصابة الموت ، دعا أخاه وزوجه ، وحملهما رسالة إلى سعد بن أبي وقاص ، وطلب منه فيها أن يلزم العرب مراكمهم على حدود الصحراء ، وألا يقاتلوا أعداءهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فالبادية تحمي ظهورهم ، والفرس لا يستطيعون التوغل فيها ، كما أن البادية تمثل نقطة انطلاق إلى داخل العراق . . . هذه النصيحة تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى حماية القوات العربية وسلامتها .

[٧] التعاون

أي توحيد العمل والتضامن من أجل الوصول إلى الهدف .

ولقد حرص الإسلام على أن يكون التعاون متكاملًا لأجل خير الإنسان ورقى البشرية . .

وإذا كان التعاون ضروريًا من أجل حياة أفضل فإنه في مجال الحرب ضرورة حقيقية .

والتعاون يأتي في صورتين . . . في إبداء الرأي أو في التعاون العملي .

ورسول الله كان يسعى دائماً إلى الوقوف على رأى أصحابه ، وهؤلاء كانوا لا يحجبون رأياً ، بل كانوا يقدمون الرأى والنصح والمشورة ، متى تطلبت الظروف ذلك ، وكانت الآراء والأفكار تفتش بروح الأخوة الإسلامية ، بعيداً عن الاتجاهات الشخصية ، أو الزيف ، معتمدة على صدق الدوايا ، وصحيح الإسلام ، وسلامة القلب .

في بدر عرض الرسول الموقف على الناس وطلب رأيهم فتحدث المهاجرون بحويتهم ، وتناول الأنصار الموقف بصراحة ، وانتهى الأمر إلى اتفاق على كلمة وخطة .

وكذلك كان الموقف في أحد فقد قال البعض بالبقاء واتخاذ خطة الدفاع ، وقال البعض بالخروج واتخاذ خطة الهجوم ، وتغلبت الفكرة الثانية واستجاب لها الرسول ، وخرج المسلمون جميعاً القائلون بالدفاع والقائلون بالهجوم ، وأصبحوا قوة واحدة متعاونة .

وسارت القيادات الإسلامية بعد رسول الله على منهج الشورى ، الذى قرره القرآن الكريم وأمر به فى أكثر من موضع ، والذى سار عليه رسول الله وهو الأسوة والقدوة . ومنهج الشورى هو أسلوب سليم صادق للتعاون .

أما التعاون العملي فقد تجلى في أعظم صوره في كافة ميادين القتال .

كانت خطة العمل في الميدان يراعى فيها التعاون والتنسيق بين القوات . . . ففي حروب الردة حددت اختصاصات اللوائات ، وكلفت بعض الألوية بمعاونة ألوية أخرى ، كمعاونة لواء شرحبيل بن حسنة للواء عكرمة ابن أبي جهل .

ومن أمثلة التعاون الصادق موقف المثنى مع خالد حين تولى الأخير القيادة مكانه ، وموقفه مع أبي عبيد بن مسعود حين ولّاه عمر قيادة الجيش في فارس . . . لقد عمل المثنى تحت قيادة الاثنين كجندى بسيط ، ونسى أنه كان قائداً للجيش ، وأنه صاحب فكرة المواجهة مع فارس ، وأنه حقق قبلهما انتصارات مهدت لهما المناخ الملائم لعملياتهما ، وأنه لا يقل عنها مكانة وكفاءة وقدرة . . . فعندما وصل خالد إلى أرض فارس أتجه المثنى في ثمانية آلاف لآليه ، جواداً كريماً مطواعاً ، وتعاون معه إلى أقصى حدود التعاون ، وشارك معه في عملياته ، وكان دائماً على رأس طليعة جيش خالد . . . وعندما تولى أبو عبيد القيادة ، عمل المثنى معه متعاوناً ، دون حرج ، وكان مستشاره الذى يقدم له النصيح ويده التى تحارب .

وكما كان هذا الموقف مشرفاً لتاريخ المثنى ، كان كذلك موقف خالد حين عزله عمر بن الخطاب وهو فى أوج انتصاراته وذروة أمجاده . . . لم يغضب للعزل ، وإنما سلم القيادة لأبى عبيدة بن الجراح ، وظل بجانبه يقدم الرأى ، ويخدم المعركة ، حتى فزع الله عايهم بالشام ، وفى ذلك قال أبو عبيدة . . . « إنما نحن أخوان وما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه » .

وفى اليرموك كان التعاون بين جيوش المسلمين عاملاً هاماً وراء النصر العظيم على قوات الروم ، وفى الأندلس كان تعاون طارق بن زياد وموسى ابن نصير من أسباب فتح باب الأندلس أمام الإسلام والمسلمين .

إن القادة المسلمين كانوا يدركون أهمية التعاون وآثاره ، ولعل هذا الإدراك نبع من تفهمهم جيداً لقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » ، فسكان جهادهم وسعيهم فى سبيل الله برأ بالله وبرأ بالإسلام ، وكان كفاحهم المتصل نوعاً راقياً من التقوى .

[٨] المطاردة

تعنى مقابلة المنهزم ومحاولة القضاء عليه . حتى لا يملك القدرة على العودة إلى ميدان القتال من جديد ، ليحارب ويخوض معركة أخرى .

والمطاردة لها آثار نفسية على الجيش الفار ، فإنه يفقد الكثير من معنوياته ومن قدراته على المواجهة ، وتفتر عنده الرغبة فى القتال ، ويكاد يفقد كل مشاعره وأحاسيسه ، وإذا أدرك أنه مطارد ، وأنه لا يملك أن يحمى نفسه إلا بالامعان فى الفرار ، وقد يؤدي به ذلك إلى أن يفقد ثقته فى نفسه كقاتل ، فيتردد فى العودة إلى القتال مرة أخرى ، وإلى أن يفقد ثقته فى سلاحه فيلقيه من يده ، ويقف ذلك حاجزاً بينه وبين السلاح ، ويسقط التعامل بينهما إلى الأبد ، فلا هو قادر على استخدامه ، ولا السلاح قادر على أن يحميه ، وإلى أن يفقد ثقته فى رئاسته والمسؤولين عن إدارة القتال ، ومتى انهارت هذه الثقة تقطعت الجسور وانهار البناء العسكري .

لقد تولى الرسول بنفسه أول عملية مطاردة فى تاريخ الحرب الإسلامية ،

وكان عليه السلام يأمل في القضاء على قوة لقريش قدرت بمائتي فارس عليها أبوسفیان ، وكان القرشيون من فرط خوفهم وانزعاجهم خلال المطاردة يتخففون من أرزاقهم التي كانوا يحملونها ، حتى أطلق على الغزوة اسم السويق ، (السويق اسم يطلق على القمح والشعير والأزواد) .

وفي حين أمر رسول الله المسلمين بمطاردة هوازن ، وقال لرجاله مشجعاً « من قتل مشركاً فله سلبه » ، وتبع المسلمون الفارين حتى أوكاسا ، وسلبوا من احتملوا من النساء والأموال ، وأمر الرسول بمداومة مطاردة مالك بن عوف ، فظل مطارداً ورجاله ، حتى لجأ إلى الطائف ، فامتدت المطاردة إلى هناك ، حتى وصل الجيش بقيادة الرسول فحاصر المدينة .

في حروب الردّة طارد خالد الفارين من قوات مسيلمة ، حتى إذا مادخلوا حديقة مسيلمة ، اقتحم عليهم الحديقة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، حتى سميت حديقة الموت .

وفي حروب العراق كان خالد حريصاً على متسابعة قوات عدوه وملاحقتها . وكذلك كان المشني ، ومن بعده كان سعد بن أبي وقاص .

وفي مصر كان عمرو بن العاص حريصاً على مطاردة عدوه ، وكذلك كان موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما يقودان جيوش المسلمين في شمال أفريقيا والأندلس ، وكذلك كان قادة الدولة العباسية وهم يكتسحون بقواتهم أراضي آسيا ينشرون الإسلام في ربوعها .

وكذلك كان كل القادة المسلمين في كافة معاركهم في مختلف الميادين ، إيماناً منهم أن المطاردة هي الضربة القاصمة التي تكسر العدو فيؤمن جانبه .

حاتمة

أما بعد

فإني أحمد الله حمداً كثيراً على أنه تبارك وتعالى وفقني إلى إعادة
معالجة موضوع الكتاب بالتعديل والتغيير والإضافة ، ليخرج على هذه
الصورة الجديدة ، ولقد أحسست خلال إعداده بأن هناك قوة ترعى عملي
وتباركه ، فقد كان الله تبارك وتعالى - جلت قدرته وعلت عظمته -
عوني ورأبى فسكاما استعنته أعانني ، وكأما استهديته هداىي .

ومن خلال هذا الإحساس بذات غاية ما وسعته طاقتي ، وما
قدور علميه جهدي ، رغبة في أن يكون ما أبذل تقرباً إلى الله وشفاعة
لدى رسوله الكريم وخدمة للإسلام وتبصرة للمسلمين .
وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

محمد بن ج

سجل المراجع

رتبت المراجع حسب الحروف الأبجدية

القرآن الكريم

المقالات والبحوث والمحاضرات التي تناولت التاريخ الإسلامي

و

| | |
|--|---------------------|
| أسد الغابة في معرفة الصحابة | ابن الأثير |
| أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة | رفيق العظم |
| الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام | البياسي |
| البداية والنهاية | ابن كثير |
| التفسير القرآني للقرآن | عبد الكريم الخطيب |
| السيرة الحلبية | برهان الدين الحلبي |
| الهدستور القرآني في شئون الحياة | محمد عزت دروزة |
| الرسول القائد | محمد شيت خطاب |
| السرايا الحربية في العهد النبوي | محمد السيد الطنطاوي |
| السلام والحرب في الإسلام | محمد فرج |
| السلام في الإسلام | حسن البنا |

| | |
|-----------------------------------|----------------------|
| السيرة النبوية | ابن هشام |
| العديق أبو بكر | محمد حسين هيكل |
| الطبقات الكبرى | ابن سعد |
| الطريق إلى المدائن | أحمد عادل كمال |
| العقريّة العسكرية في غزوات الرسول | محمد فرج |
| العقد الفريد | ابن عبد ربه |
| الفاروق القائد | محمد شيت خطاب |
| الفاروق عمر | محمد حسين هيكل |
| الفتح العربي للعراق وفارس | محمد فرج |
| الفتوحات الإسلامية | أحمد بن دحلان |
| الفن الحرى في صدر الإسلام | عبد الرؤف عون |
| الفتوة عند العرب | عمر الدسوقي |
| السكامل في التاريخ | ابن الأثير |
| النظم الإسلامية | حسن وعلى إبراهيم |
| الوحى المحمدى | محمد رشيد رضا |
| أيام العرب في الجاهلية | محمد أحمد جاد المولى |
| بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب | الألوسى |
| تاريخ الأسطول العربى | ياسين الحموى |
| تاريخ التمدن الاسلامى | جورجى زيدان |
| تاريخ الرسل والملوك | الطبرى |
| تاريخ العرب العسكرى | محمود الدرة |

| | |
|--------------------|------------------------------|
| أحمد بن يعقوب | تاريخ اليعقوبى |
| محمد فرج | جهازة حرب |
| النعالي | جوامع السيرة |
| محمد حسين هيكل | حياة محمد |
| يوسف الشال | خاتم المرسلين |
| إبراهيم صادق عرجون | خالد بن الوليد |
| بكر موسى | خالد بن الوليد |
| عمر كحالة | خالد بن الوليد |
| طه الهاشمى | خالد بن الوليد |
| عهد العزيز كامل | دروس من غزوة أحد |
| ابن قيم الجوزى | زاد المعاد فى هدى خير العباد |
| مصطفى زيد | سورة الأحزاب |
| مصطفى زيد | سورة الأنفال |
| ابن هشام | سيرة ابن هشام |
| محمد حمزة دروزه | سيرة الرسول |
| محمد فرج | سيف الله خالد |
| على سامى النشار | شهداء الاسلام |
| البخارى | صحيح البخارى |
| ابن دويدار | صور من حياة الرسول |
| عباس العقاد | عقريّة الصديق |
| عباس العقاد | عقريّة محمد |
| عباس العقاد | عقريّة عمر |

عصر النبي وبيئته قبل البعث

عمرو بن الخطاب

عمرو بن العاص

عمرو بن العاص

غزوة أحد

غزوة بدر

فتح العرب لمصر

فتوح البلدان

فتوح الشام

قادة الفتح العربي للعراق وفارس

محمد المثل السكامل

محمد القائد

محمد من نبعته إلى بعثته

ممارك الإسلام السكبرى

مغازي رسول الله

محمد عزة دروز

سليمان الطماوى

عباس العقاد

محمد فوج

أحمد عز الدين عبد الله

محمد جمال الدين حماد

الفرد بتلر - تعريب فريد أبو حديد

البلاذرى

الواقدي

محمد شيت خطاب

محمد أحمد جاد المولى

محمد عهد الفتاح إبراهيم

إبراهيم صادق عرجون

محمد جمال الدين حماد

الواقدي

للمؤلف

- ١ -

من مطبوعات دار الفكر العربي

| | |
|---|--------------------------|
| المدرسة العسكرية الإسلامية | الطبعتان الأولى والثانية |
| العهدة العسكرية في غزوات الرسول | الطبعتان الأولى والثالثة |
| الفتح العربي للعراق وفارس | الطبعتان الأولى والثانية |
| شخصيات عسكرية إسلامية | الطبعة الثانية |
| محمد المحارب | الطبعتان الأولى والثالثة |
| سيف الله خالد | |
| عمرو بن العاص | |
| السلام والحرب في الإسلام | |
| الأمة العربية على الطريق إلى وحدة الهدف | |
| قصة الجلاء | |
| قلوب محطمة (قصة) | |
| بطولة فدائية (قصة للأطفال) | |
| الناس سواسية (قصة للأطفال) | |

— ٢ —

من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

السلام في الإسلام
نماذج من العسكرية الإسلامية
رمضان شهر الذكريات
فلسطين عربية
حروب الردّة
دراسات في الميثاق (مع عدد من السكتاب)

— ٣ —

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية
الإستراتيجية العسكرية الإسلامية

— ٤ —

من مطبوعات الدار القومية

العسكرية العسكرية في غزوات الرسول
 المثني بن حارثة الشيباني
 من معارك الإسلام الخالدة
 أحاديث في الحرب
 العدوان الثلاثي
 القوات المسلحة في ضوء الميثاق
 النضال الشعبي في سوريا وقصة الانقلابات
 النضال الشعبي ضد حملة فريزر
 النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية
 التطور السياسي في الهند والصين
 يمنيات

— ٥ —

من مطبوعات الشؤون العامة للقوات المسلحة

الإشاعات
 الثورة المصرية وآثارها في التطور السياسي
 قصة الجلاء (الطبعة الأولى)

- ٦ -

- بدر والفتح قمة معارك القاريخ الفاشر سلسلة كتابك
 شخصيات عسكرية إسلامية (الطبعة الأولى) » كتاب الجمهورية الديني
 نهاية الطاغية » دار النداء
 هذه هي الحياة (قصة) » دار النشر الحديثة

و

- مجموعة من المقالات والبحوث في مختلف المجالات الإسلامية في مصر والبلاد العربية (الصفحة الدينية بجريدة الأخبار ومجلة منبر الإسلام ومجلة الأزهر ومجلة منار الإسلام) .
- أحاديث دينية بإذاعة صوت العرب والبرامج الدينية بالتليفزيون .

فهرس الكتاب

| | |
|----|---|
| ص | |
| ٥ | الإهداء |
| ٧ | كلمة حق بقلم الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين |
| ١١ | مقدمة الكتاب بقلم فضيلة الشيخ الأستاذ عبد الرحيم فوده |
| ١٥ | مقدمة الطبعة الثافية |
| ٢١ | مقدمة الطبعة الأولى |

* * *

المبحث الأول

فظرية الحرب بين التطوير والتهديب

| | |
|-----|----------------------------|
| ٤٣ | السك والكيف |
| ٦٧ | تهذيب فسكره الحرب |
| ٩٦ | المسشرقون والحرب الاسلاميه |
| ١٠١ | الرد على الألب لامانس |
| ١١٥ | الرد على مارجوليوت |
| ١٢٣ | الرد على ايرفنج |

ص

أطراف النزاع

| | |
|-----|------------------------|
| ١٣٤ | قريش |
| ١٤٥ | القبائل العربية الأخرى |
| ١٥٤ | اليهود |
| ١٧٣ | الفرس والروم |
| ١٨٦ | المرتدون |

* * *

المبحث الثاني

الإعداد للمعركة عقائدياً ومعنوياً ومادياً

| | |
|-----|-------------------|
| ٢٢٩ | مقدمة |
| ٢٤٦ | الجيش الإسلامي |
| ٢٨٢ | الجهاد والمجاهدون |
| ٣١٤ | الإعداد المعنوي |
| ٣٤١ | الإعداد البدني |
| ٣٦٧ | المرأة في المعركة |

* * *

المبحث الثالث

المعركة

| | | | | | | | |
|-----------------------|---|---|---|---|---|---|----------------------|
| ٤٣٧ | . | . | . | . | . | . | المنظيم |
| ٤٨٧ | . | . | . | . | . | . | تقدير الموقف العسكري |
| ٤٩٧ | . | . | . | . | . | . | الخطوة |
| مشكلات ما بعد المعركة | | | | | | | |
| ٥٦٧ | . | . | . | . | . | . | الأمرى |
| ٥٨٠ | . | . | . | . | . | . | الجزية |
| ٥٨٦ | . | . | . | . | . | . | الفنائم |
| ٦٠١ | . | . | . | . | . | . | مبادئ الحرب |

* * *

| | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---|---------|
| ٦٢٥ | . | . | . | . | . | . | خاتمة |
| ٦٢٧ | . | . | . | . | . | . | المراجع |
| ٦٣١ | . | . | . | . | . | . | المؤلف |

رقم الإيداع ٤٦٣٨/١٩٧٩
ISBN ٩٧٧-٣٠٦-١٩٩-٣

مطبعة المشرق
٦٨ شارع النجاشية - القاهرة ١٠١٠٧٨٥١

مؤلف هذا الكتاب

- لقد حضر الله تعالى لهذا الموضع الأستاذ محمد فرج ، وهو من الذين
 توسوا بالحرية وصردها ، وكرهوا ، بل انظر كيف صرنا صرنا
 والله منهم ولهم من حينها العظماء فيهم ، ليس من صرنا وصرنا ، بل
 الامام الشيخ محمد باقر
 انه الأستاذ محمد فرج ، يبدو في دراسته انه كان له اجداد من
 توسوا في التاريخ الاسلامي ، وصرنا على التاليف فيه
 وذلك من المؤلفين الذين الى صرنا ، او كما تفرقت
 للمؤلف العربية ، وتلخيصها في صرنا ، العبرة النفسية والتجربة
 العربية ، والتأني هذا الأستاذ محمد فرج ، في العرصة ، والذو
 الكثرة بنسبة الشاطري
 ان الأستاذ محمد فرج ، عرف كيف تفرق في صرنا ، المذبح العظماء ، وتفرق
 منج ، لما تفرق في التاليف ، على صرنا ، العرصة ، وذلك يكون في
 وصرنا ، القيمة التي تفرق في صرنا ، من المؤلفين ، وان العرصة ، لا تفرق
 الكثرة بنسبة الشاطري
 لقد حاول المؤلف العرصة ، في صرنا ، من صرنا ، العرصة ، صرنا ،
 المؤلف ، ان تفرق ، وصرنا ، العرصة ، من صرنا ، العرصة ،
 العرصة ، العرصة ، العرصة ، العرصة ، العرصة ، العرصة ،
 الصرنا ، العرصة ، العرصة ، العرصة ، العرصة ، العرصة ،